١٦ الأعمال الكاملة

فراس السواح

موسوعة تاريخ الأديان

اليونان وأوروبا قبل المسيحية

الكتاب الثالث







موسوعة تاريخ الأديان

الكتاب الثالث

اليونـــان - الرومـــان

أوروبا ما قبل المسـيحية

موسوعة تاريخ الأديان

الكتاب الثالث

اليونـــان ـ الرومـــان
أوروبا ما قبل المســيحية

تحرير

فراس السواح

المترجمون

أسـامة منزلجـي
جهان الجندي
نيفين أديب اسحق
وفاء طقوز



الطبعة الرابعة 2017

هاتـــف: 112236468 00963
فاكـــس: 112257677 00963
ص. ب: 11418، دمشق ـ سوريا
taakwen@yahoo.com

مقدمة

لطبعة الأعمال غير الكاملة

عندما وُضعت أمامي على الطاولة في دار التكوين كومة مؤلفاتي الاثنين والعشرين ومخطوط كتابٍ لم يُطبع بعد، لنبحث في إجراءات إصدارها في طبعةٍ جديدة عن الدار تحت عنوان الأعمال الكاملة، كنت وأنا أتأملها كمن ينظر إلى حصاد العمر. أربعون عاماً تفصل بين كتابي الأول مغامرة العقل الأولى والكتاب الجديد «الله والكون والإنسان»، ومشروع تكامل تدريجياً دون خطةٍ مسبقة في ثلاث وعشرين مغامرة هي مشروعي المعرفي الخاص الذي أحببت أن أُشرك به قرائي. وفي كل مغامرة كنت كمن يرتاد أرضاً بكراً غير مطروقة ويكتشف مجاهيلها، وتقودني نهاية كل مغامرة إلى بدايةٍ أخرى على طريقة سندباد الليالي العربية. ها هو طرف كتاب مغامرة العقل الأولى ـ دراسة في الأسطورة يبدو لي في أسفل الكومة. أسحبه وأتأمله، إنه في غلاف طبعته الحادية عشرة الصادرة عام 1988 والتي عاد ناشرها إلى غلاف الطبعة الأولى الصادرة عام 1976 الذي صممه الصديق الفنان إحسان عنتابي، ولكن ألوانه بهتت حتى بدت وكأنها بلونٍ واحد لعدم عناية الناشر بتجديد بلاكاتها المتآكلة من تعدد الطبعات التي صدرت منذ ذلك الوقت. وفي حالة التأمل هذه، يخطر لي أن هذا الكتاب قد رسم مسار حياتي ووضعني على سكةٍ ذات اتجاهٍ واحد. فقد وُلد نتيجة ولعٍ شخصي بتاريخ الشرق القديم وثقافته وانكبابٍ على دراسة ما أنتجته هذه الثقافة من معتقدات وأساطير وآداب، في زمن لم تكن فيه هذه الأمور موضع اهتمامٍ عام، ولكني لم أكن أخطط لأن أغدو متخصصاً في هذا المجال، ولم أنظر إلى نفسي إلا كهاوٍ عاكفٍ بجد على هوايته. إلا أن النجاح المدوّي للكتاب الذي نفذت طبعته الأولى الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق في ستة أشهر، ثم تتابعت طبعاته في بيروت، أشعرني بالمسؤولية، لأن القراء كانوا يتوقعون مني عملاً آخر ويتلهفون إليه.

إن النجاح الكبير الذي يلقاه الكتاب الأول للمؤلف يضعه في ورطة ويفرض عليه التزاماتٍ لا فكاك منها، فهو إما أن ينتقل بعده إلى نجاحٍ أكبر أو يسقط ويؤول إلى النسيان عندما لا يتجاوز نفسه في الكتاب الثاني. وقد كنت واعياً لهذه الورطة ومُدركاً لأبعادها، فلم أتعجل في العودة إلى الكتابة وإنما تابعت مسيرتي المعرفية التي صارت وقفاً على التاريخ العام والميثولوجيا وتاريخ الأديان. وعاماً بعد عام، كان كتاب لغز عشتار يتكامل في ذهني وأَعدُّ له كل عدّةٍ ممكنة خلال ثمانية أعوام، ثم كتبته في عامين ودفعته إلى المطبعة فصدر عام 1986، أي بعد مرور عشر سنواتٍ على صدور الكتاب الأول. وكان نجاحاً مدوياً آخر فاق النجاح الأول، فقد نفذت طبعته الأولى، 2000 نسخة، بعد أقل من ستة أشهر وصدرت الطبعة الثانية قبل نهاية العام ثم تتالت الطبعات.

كان العمل الدؤوب خلال السنوات العشر الفاصلة بين الكتابين، والذي كان لغز عشتار من نواتجه، قد نقلني من طور الهواية إلى طور التخصص، فتفرغت للكتابة بشكلٍ كامل ولم أفعل شيئاً آخر خلال السنوات الثلاثين الأخيرة التي أنتجتُ خلالها بقية أفراد أسرة الأعمال الكاملة، إلى أن دعتني جامعة بكين للدراسات الأجنبية في صيف عام 2012 للعمل كمحاضر فيها، وعهدت إلي بتدريس مادة تاريخ العرب لطلاب الليسانس ومادة تاريخ أديان الشرق الأوسط لطلاب الدراسات العليا، وهناك أنجزتُ كتابي الأخير «الله والكون والإنسان». على أنني أُفضّل أن أدعو هذه الطبعة بالأعمال غير الكاملة، وذلك على طريقة الزميلة غادة السمان التي فعلت ذلك من قبلي، لأن هذه المجموعة مرشحةٌ دوماً لاستقبال أعضاءٍ جُدد مازالوا الآن في طي الغيب.

وعلى الرغم من أنني كنت أخاطب العقل العربي، إلا أنني فعلت ذلك بأدوات ومناهج البحث الغربي، ولم أكن حريصاً على إضافة الجديد إلى مساحة البحث في الثقافة العربية، قدر حرصي على الإضافة إلى مساحة البحث على المستوى العالمي، وهذا ما ساعدني على اختراق حلقة البحث الأكاديمي الغربي المغلقة، فدعاني الباحث الأميركي الكبير توماس تومبسون المتخصص في تاريخ فلسطين

القديم والدراسات التوراتية إلى المشاركة في كتابٍ من تحريره صدر عام 2003 من دار T & T Clark في بريطانيا تحت عنوان:

Jerusalem in History and Tradition

ونشرت فيه فصلاً بعنوان:

Jerusalem During the Age of Judah Kingdom

كنت قد تعرفت على تومبسون في ندوةٍ دولية عن تاريخ القدس في العاصمة الأردنية عمان عام 2001، شاركتُ فيها إلى جانب عددٍ من الباحثين الغربيين في التاريخ وعلم الآثار، وربطت بيننا صداقةٌ متينة استمرت بعد ذلك من خلال المراسلات، إلى أن جمعتنا مرةً ثانية ندوة دولية أخرى انعقدت في دمشق بمناسبة اختيار القدس عاصمةً للثقافة العربية، وكانت لنا حواراتٌ طويلة حول تاريخ أورشليم القدس وما يُدعى بتاريخ بني إسرائيل، واختلفنا في مسائل عديدة أثارها تومبسون في ورقة عمله التي قدمها إلى الندوة. وكان الباحث البريطاني الكبير كيث وايتلام قد دعا كلينا إلى المشاركة في كتابٍ من تحريره بعنوان:

The Politics of Israel's Past

فاتفقنا على أن نثير هذه الاختلافات في دراستينا اللتين ستُنشران في ذلك الكتاب، وهكذا كان. فقد صدر الكتاب الذي احتوى على دراساتٍ لباحثين من أوروبا وأميركا عام 2013 عن جامعة شيفلد ببريطانيا، وفيه دراسةٌ لي عن نشوء الديانة اليهودية بعنوان:

The Faithful Remnent and the Invention of Religious Identity.

خصصتُ آخرها لمناقشة أفكار تومبسون، ولتومبسون دراستان الأولى بعنوان:

What We Do And Do Not Know About Pre-Hellenistic Al-Quds.

والثانية خصصها للرد عليّ بعنوان:

The Literary Trope of Return - A Reply to Firas Sawàh.

أي: العودة من السبي كمجاز أدبي ـ رد على فراس السواح.

الكتاب يُشبه الكائن الحي في دورة حياته، فهو يُولد ويعيش مدةً ثم يختفي ولا تجده بعد ذلك إلا في المكتبات العامة، ولكن بعضها يقاوم الزمن وقد يتحول إلى كلاسيكيات لا تخرج من دورة التداول. وقد أطال القراء في عمر مؤلفاتي حتى الآن، ولم يختف أحدها من رفوف باعة الكتب، أمّا تحوّل بعضها إلى كلاسيكيات فأمرٌ في حكم الغيب.

فإلى قرائي في كل مكان أُهدي هذه الأعمال غير الكاملة مع محبتي وعرفاني.

فراس السواح

بكين، كانون الثاني ـ يناير 2016

مقدمة المحرر

طالما داعبتْ خيالي فكرة كتابة موسوعة ميسرة في تاريخ الدين، تَعرِض أديان الثقافات الإنسانية المتعاقبة، أو بالأحرى الثقافة الإنسانية في أطوارها المتعاقبة. إذ لا وجود في اعتقادي لثقافات مختلفة، بل لثقافة واحدة. وما الاختلاف الذي تبديه الثقافات الإنسانية، أو أديانها (التي تشكلُ لُبابَها وجوهرَ تميزها)، إلا انعكاساً لحركة الثقافة الواحدة في تفتحها التدريجي، وإبداعها الذاتي الدائم، وَحركتها عبر الزمان واختلاف البيئة والمكان.

ولكن كلما تقادم عهدُ تلك الفكرة عندي، وتقادمْتُ، وزاد اطلاعي على دين البشر والتأمل فيه، تبين لي اكثر فأكثر صعوبة تلك المهمة البروميثية يقوم بها فرد واحد في عصر انفجار المعلومات الذي نعيشه. كانت النظريات في الماضي تتقدَّم المعلومات وتوجه القائمين على تحصيلها. أما الآن فإن النظرية تلهث وراء المعلومات، ويجد الباحث نفسه عاجزاً عن رمي شبكته منفرداً في القاع المعلوماتي العميق مدعياً مقدرته على الإحاطة، كما في الماضي، بكل جوانب الحق المعرفي الذي ينتمي إليه.

إنني أنتمي إلى جنس شارف على الانقراض من الباحثين الشموليين الذين لا ينظرون إلى الجزء إلا في علاقته بالكل الموحَّد، ولا يقنعون في معالجة مادتهم المعلوماتية إلا بدراسة أفقية وعمودية، محيطية، تضيء كل جوانب الموضوع، وتتخذ فيها كل معلومة معناها من السياق العام للمعنى الإجمالي. ونحن في مقابل الحذر العلمي المتحذلق الذي يباهي به المتخصصون في حقول ضيقة، نغامر بطرح نظريات وفرضيات تفسر وتربط، ولكنها في الوقت نفسه مفتوحة على النقد وحتى على الدحض، لا يهم المهم هو أن لا نتوقف عن التفكير. ولكنني في الوقت نفسه على درجة من الواقعية تجعلني أؤمن بأن موسوعة في تاريخ الأديان اليوم لن تؤدي مهمتها إلا بتعاون وتضافر الجهود، ومساهمة الاختصاصيين في تلك الحقول الضيقة، على الرغم من ما يحمله ذلك كله من اختلاف في المواقف

والآراء تُفقد العمل الكثير من التناغم والتجانس الذي يميز عمل المؤلف الواحد. وهذا ما شرعت به الآن. لقد ضحيت بالمنظور الشمولي الواحد لصالح التعددية، وبالنظرية الموحِّدة لصالح تجالُد الأفكار في حلبة مفتوحة.

تقع موسوعتنا هذه في نقطة الوسط بين ما يشبه القواميس من المؤلفات التي صدرت في مجلد واحد، تُرجم بعضها إلى العربية، وبين الموسوعة المحيطة التي تقدم كل شيء تقريباً، ولدينا عنها حتى الآن نموذج واحد فقط، هو «موسوعة الأديان» التي صدرت عن دار ماكميلان عام 1987 في ستة عشر مجلداً ضخماً أشرف على تحريرها ميرسيا إلياد، وساهم في كتابة موادها لا عشرات الباحثين بل المئات منهم من كل أنحاء العالم. من هنا يمكن وصف موسوعتنا بالمختصرة لأنها لن تتوقف إلا عند المحطات المهمة في تاريخ الأديان. فالاختصار هنا لا يعني الاقتضاب وإنما الاقتصار. ولسوف تنال كل محطة نتوقف عندها حظها الوافي، بما يتناسب مع أهميتها وسعة انتشارها ودوام أثرها.

ولقد عمدت إلى جمع مواد الموسوعة من عدد متنوع من المراجع الموسوعية والمتخصصة، متبعاً في اختيار كل مادة معيار المستوى العلمي وبساطة التناول وحسن التوصيل، مع التضحية أحياناً بهذا الجانب على حساب الآخر، لأن الموسوعة موجهة إلى أوسع شريحة ممكنة من القرَّاء، قد تتفاوت عناصرها من طلاب وأساتذة الدراسات العليا إلى القارئ العادي غير المتخصص والراغب في الاطلاع. ولا شك في أن إرضاء كل الفئات أمر يصعب بلوغه ولكن يمكن مقاربته. قد يجد القارئ غير المتخصص في بعض الموضوعات صعوبة، وقد يجد المتخصص في بعضها الآخر تبسيطاً. ولكن لا بد مما ليس منه بد، والكمال صفة لا تنتمي إلى عالم الإنسان.

ومع تعدد المساهمين في مواد الموسوعة، حرصت أيضاً. على تعدد المترجمين الذين عهدت إليهم بالمادة كل حسب ميله وخلفيته ومزاجه، وقدمت إليهم ما استطعت من مشورة وتعاون خليق بأن يجعل من موسوعتنا ثمرة تعاضد جمهرة من الباحثين الكبار، والمترجمين الأكفاء الذين عملوا معي بداعي المسؤولية العلمية والرغبة في رؤية هذا العمل مطبوعاً ومنتشراً على أوسع نطاق.

فراس السواح

الباب الأول

الديانة اليونانية

الديانة اليونانية

نظرة عامة

John Richard
ThronhillPollare
ترجمة: وفاء طقوز

جذور الديانة اليونانية

إن دراسة تاريخ أي دين لتتضمن دراسة تاريخ معتنقي هذا الدين، وتجاربهم الروحية والأخلاقية والسياسية والفكرية. والدين اليوناني كما نفهمه اليوم قد تولد عن امتزاج المعتقدات والممارسات الدينية بين الجماعات التي تتكلم اليونانية القادمة من الشمال خلال الألف الثاني قبل الميلاد، وأولئك السكان المحليين الذين دعوهم بالبيلاسجيين Pelasgi.

ولقد كان بانثيون آلهة هؤلاء القادمين الجدد برئاسة إله سماء هندو ـ أوروبي يدعى بأسماء متنوعة: فهو زيوس الإغريقي، ودياوس (DYAUS) الهندي، وجوبيتر الروماني (Dies - Pater). ولكن كان هنالك أيضاً إله سماء كريتي يحتفل السكان المحليون بولادته وبموته، له أساطير وطقوس مختلفة تماماً عما لدى القادمين الجدد، دعوه بالاسم زيوس أيضاً. يضاف إلى ذلك وجود ميل لدى هؤلاء لاعتبار جبل الأوليمب بمثابة مسكن للآلهة، وهو الميل الذي دعمته روايات هزيود وهوميروس ولم تكن بالضرورة أصلاً له. وعندما استقرت الأمور للآلهة الأوليمبية جرت مطابقتهم مع الآلهة المحلية واتخذوا لأنفسهم منهم أزواجاً وزوجات. وهذا ما قاد إلى نتيجة غير مقصودة (لأن الإغريق كانوا يمارسون الزواج الأحادي في العادة). وهي قيام زيوس بالزواج من أكثر من امرأة. فلقد كان متزوجاً بالفعل عندما جاء إلى اليونان، ثم

اتخذ من هيرا إلهة مدينة آرجوس زوجة ثانية. لقد استخدم هزيود (أو أنه اخترع في بعض الأحيان) الروابط العائلية بين الآلهة وتابعها نحو الخلف لعدة أجيال، من أجل شرح أصول العالم وأوضاعه الراهنة. من الممكن إلى هذا الحد أو ذاك إجراء التمييز بين العناصر البيلاسجية والعناصر الإغريقية في الديانة اليونانية، ولكن وجهة نظر بعض الباحثين التي تقول بأن أي معتقد يمت إلى الخصب هو بالضرورة بيلاسجي (اعتماداً على أن البيلاسجيين كانوا مزارعيين والإغريق رعاة محاربين) هي وجهة نظر تبسيطية، لأن الرعاة والمحاربين يحتاجون إلى الخصوبة لقطعانهم ونسائهم مثلما يحتاجها المزارعون. وهنا يجب ألا ننسى أن الإلهة المحاربة وراعية الفنون والحرف أثينا، كانت في الوقت نفسه من يرعى احتفالات الخصوبة، وكان الناس يصلون إليها من أجل الخيرات وخصوبة الأرض والقطعان.

الفترة القديمة:

في زمن ما، قبل أن تأخذ الأشعار الهوميرية شكلها الذي نعرفه، كانت عبادات الطبيعة ذات الطابع العربيدي، والتي تدور حول إله للطبيعة يدعى ديونيسيوس، قد جاءت إلى اليونان من تراقيا ومن فريجيا (الأولى على البحر الأسود من ناحية آسيا الصغرى، والثانية على البحر الأسود من جهة البر الأوروبي). ونظراً لاسمه الإغريقي، فقد نشأ رأي يقول بأن عبادته في اليونان ليست جديدة بقدر ما هي مستمدة ومطورة من الدين الميسيني. كان عابدو هذا الإله من النساء عادة، ويدعون Maedas أي النساء المهووسات، وكن يطفن في جماعات معربدة في سفوح الجبال، وفي نوبات الوجد الديني كن يمزقن طريدة حية ويتناولن لحمها نيئاً. وإذا كانت هذه الممارسات قد بقيت على طابعها الوحشي في المناطق البعيدة عن العمران، إلا أنها قد تدجنت مع بقية شعائر الديانة الديونيسية في أثينا مع حلول القرن الخامس ق.م وعلى الأغلب فإن التراجيديا الإغريقية قد نشأت عن الأغاني الكورالية الديونيسية.

فيما بين القرن السابع والقرن السادس ق.م، استولى على السلطة في العديد من دويلات المدن الإقريقية طغاة لم يستلموا مناصبهم الملكيـة بالوراثـة. بعـض هؤلاء مثل بيسستراتوس في أثينا، كان من طبقة النبلاء الخارجين على طبقتـهم. وقد عمل بيسستراتوس Peisistvatus هـذا علـى بنـاء المعابـد، وأنـشأ أو أحيـا الاحتفالات. وفي هذا الوقت أيضاً ظهـرت أولى الإشـارات إلى عبـادة الأسـرار الإليوسـية Eleusinian Mysteries. ولقـد قـدمت عبـادات تطـرح الإليوسـة (نسبة إلى مدينة إليوسيس) طريقة معينة في الحياة بل كانـت عبـادة طقـوس مـن شأنها أن تمنح العابد إحساساً بالتوحد مع القوة الإلهية وتعطيه وعـداً بـالخلاص إلى عالم على الدرجة التي يود المريد تحصيلها. وفي إليوسـيس يمـر المريـدون عبر طقوس إدخالية من شأنها أن تضمن لهم العبـور بـسلام إلى الحيـاة الثانيـة، وهي حياة أكثر بهجة ولا شك من حياة أشباح الموتى في العالم الأسـفل، الـتي يرسمها المعتقد الرسمي الأوليمبي.

الفترة الكلاسيكية:

خلال القرن السادس ق.م قدم فكر الفلاسـفة العقلانـيين الأيـونيين تحـدياً خطيراً للدين الإغريقي التقليدي. وفي مطلع القرن الخامس أنتج هيراقليطس (من مدينة إفسوس)، وزينوفون (مـن مدينـة كولوفـون) أعمـالاً تـسخر بمـرارة مـن عبادات اليونان ومن آلهتها على حد سواء، ثم أكمـل المهمـة بعـدها الفلاسـفة السفسطائيون بنقدهم القاسي لكل القيم السائدة، على الرغم من أننا لا نـستطيع تقدير مدى تاثير آرائهم على المجتمع ككل.

إن معبد البارثينون وغيره من المعابد الأثينيـة الـتي بنيـت في أواخـر القـرن الخامس لتعبر عن قوة الأثينيين وذوقهم أكثر مما تعبر عن مخافة الآلهة ورهبتهم. ولكن ينبغي الإشارة هنا إلى أنه بعد انتهاء النحات الشهير فيدياس من صنع تمثال أثينا كريسلفانتاين المعروف على الأكربوبوليس فإن تمثال أثينا القـديم المـصنوع من الخشب والذي لا يقارن من الناحية الجمالية بتمثال فيدياس، قد بقي مهـوى للأفئدة يتلقى العبادة والتبجيل من قبـل معظـم الأثينـيين. إن القـدم يـثير الـروع

والرهبة، وقد كانت معظم الموضوعات المقدسة في اليونان عبارة عن قطع قديمة غير منحوتة على هيئة إنسانية وتحمل أسماء الآلهة الأوليمبية.

كانت الاحتفالات الدينية تعبر عن الجانب المجتمعي في الدين، وتستجلب أعداداً غفيرة من الناس، وبما أنها زراعية في أصلها فقد كانت تؤرخ بالفصول، وتقام غالباً في وقت البدر الكامل، أو في السابع من الشهر كما هو الحال في احتفال الإله أبوللو، وترافقها القرابين في العادة. العديد من هذه الاحتفالات أقدم في أصلها من الإله الذي خصصت له، وعلى سبيل المثال فإن احتفال الهاياسينثيا Hyacinthia واحتفال الكارنيا Carnia في لاكونيا كانت في الأصل مخصصة لأبطال محليين، ولكنها فيما بعد دخلت في جملة احتفالات الإله أبوللو. وقد كانت الألعاب الرياضية احتفالات من نوع خاص، وتقام أحياناً كفقرة في بعض الاحتفالات الدينية ويبدو أن العديد من هذه الاحتفالات الدينية كانت من حيث أصلها عبادات خاصة بأسر نبيلة متفرقة، التقت عندما تم تشكيل مدينة أثينا من عدد من القرى والبلدات الصغيرة المتقاربة. ولقد استمر النبلاء في تزويد هذه العبادات بالكهنة، ولكن دون أن يقود ذلك إلى خلق طبقة من الكهنة. فلم يكن هنالك كهنة للآلهة أو حتى كهنة لهذا الإله أو ذاك، وإنما كان واحدهم يصبح كاهناً لإله معين في معبد معين. خارج هذه الاحتفالات كان بمقدور أي فرد أن يقدم قربانه في أي وقت.

وقد كان على كاهن المعبد الإبقاء عليه نظيفاً، ويحصل مقابل خدماته على نصيب له من لحم القرابين، فكان منصب الكهنوت يؤمن لشاغله عيشاً آمناً.

إلى جانب العبادات الرسمية المدنية، فقد ازدهرت العبادات الشعبية، لا سيما بين الفلاحين الذين عبدوا آلهة الريف القريبة إليهم مثل الإله بان الأركادي الذي كان يظهر في صور تيس ويوزع البركة على القطعان، ومثل الحوريات اللواتي يسكن الكهوف (ونموذجهن إليثيا التي تعين الحوامل وقت الوضع)، والنيريدات Nereids اللواتي يسكن البحر، والنيادات Naiads اللواتي يسكن الينابيع، والدرايدات Dryads اللواتي يسكن الأشجار. كما اعتقد الفلاحون بأرواح الطبيعة مثل الساتر Saters، والسيليني Silene، والقنطور Sentaurs.

ومن بين أهم احتفالاتهم كان احتفال الديونيسيا الريفية التي كان من شعائرها رفع عمود على شكل قضيب ذكري، واحتفال الأنثيستريا Anthestia الذي يقام وقت عصر العنب وتحويله إلى خمر والذي يترافق مع تقديم القرابين إلى الموتى، واحتفال الثاليسيا Thalysia الذي يقام وقت الحصاد، واحتفال الثارجيليا Thargelia عندما يحمل كبش الفداء خطايا القوم، واحتفال الثارجيليا البيانيبيا Pyanepia وهو عيد الفاصولياء الذي يطوف خلاله الصبية ويجمعون الأعطيات من البيوت ويعلقونها على عمود ملفوف بالصوف يطوفون به. كما احتفل النسوة بالثيسموفوريا Thesmophoria على شرف الإلهة ديمتر، وإحياءً لذكرى موت الإله أدونيس بالعويل والنواح وزرع الحدائق الصغيرة المحمولة المدعوة حدائق أدونيس.

وفي احتفال الآيورا Aiora كانت الصور تعلق على الأشجار للتخلص من اللعنات القديمة. كما انتشر السحر بين القرويين، وحفرت التعاويذ السحرية على صفائح من الرصاص، ونصبت تماثيل لهيقاتي إلهة السحرة خارج المساكن. وعندما كانت المجاعة تهدد القرية كانوا يأتون بصورة للإله بان ويجلدونها.

الفترة الهيلينستية:

إن افتقار الدين اليوناني إلى إيديولوجيا وقانون إيمان، لم يجعل منه ديناً تبشيرياً. من هنا فإن انتشار هذا الدين خارج الأراضي اليونانية قد تم بشكل رئيسي عن طريق مدن يونانية جديدة حملت معها جذوة من نار المدينة الأم، مثلما حملت معها أيضاً عبادة إله هذه المدينة. وإذا كان الآلهة قد ارتحلوا مع المستوطنين الجدد إلا أن الأبطال التقليديين قد تُركوا في مكانهم وفي المواطن التي دفنوا فيها، نظراً لارتباطهم العضوي بهذه المواطن. وهناك سمة ميزت الشعب اليوناني هي ميله لمطابقة آلهة الشعوب الأخرى مع آلهته، وإن يكن على المستوى السطحي فقط. بهذه الطريقة تمت المطابقة مثلاً بين الإلهة العذراء أرتميس وبين إلهة الخصب والإلهة الرئيسية لمدينة إفسوس بآسيا الصغرى. وبعد أن خلق الاسكندر المقدوني عالماً سياسياً اندمجت فيه دويلات المدن بالممالك الكبيرة. فإن الآلهة التي فاقت غيرها هي تلك الآلهة التي لم تكن مرتبطة بمكان معين. كما ازدهرت عبادات الأسرار التي تقدم للفرد قيماً شخصية وتربطه بأحد

الآلهة التي تعطيه خلاصاً للروح في عالم واسع مضطرب وموضوعي. فلقد رعى البطالمة والرومان آلهة الكابيري التي جاءت من ساموثريس Samothrace، بينما انتشرت على نطاق واسع عبادة إيزيس وسيرابيس (أوزيريس) في حلتها الهيلينية. وكان من عادة الحكام رسمياً دعوة آلهة أجنبية للإقامة في مدنهم، وذلك استجلاباً لعونها في أوقات الشدة والدفاع عنها والقتال إلى جانبها ضد أعدائها المحيطين بها. وقد استمرت هذه العادة قائمة إلى أيام الإمبراطور الروماني قسطنطين. ولكن السلطة الرسمية الرومانية كانت تنظر بحذر إلى هذه العبادات المستحدثة باعتبارها تشكل تهديداً للنظام العام. ولهذا السبب عمد مجلس الشيوخ الروماني في عام 186ق.م إلى قمع العبادة الباخية (عبادة باخوس). وهذا السبب هو الذي تذرع به الإمبراطور تراجان عندما شن حملة ضد المسيحية في روما. لقد كانت كل عبادة يلتقي في طقوسها الرجال والنساء بشكل حر ومتلاحم (وهو أمر غير معهود تماماً في العالم القديم) تحمل في طياتها مضامين سياسية خطرة.

الآلهة:

لقد قام الإغريق بإضفاء الشخصية على كل ظاهرة طبيعية وثقافية في عالمهم. فالبحر والجبال والأنهار والعادات والقوانين ونصيب الفرد من مجتمعه وخيراته، كلها نظروا إليها من منظور شخصاني وطبيعاني في الوقت نفسه. ففي الإلياذة عندما قاتل آخيل النهر، فإن النهر تكلم معه مثلما يتحدث الشخص ولكنه استخدم ضده سلاحاً يتلاءم وكونه مجرد مجرى مائي. وعند هزيود فإن الآلهة التي نستطيع تمييزها بشكلها الإنساني، وباعتبارها تشخيصاً لظواهر طبيعانية وثقافية كلها إما والدة أو مولودة من بعضها. فالإلهة هيرا تنتمي للنمط الأول، فهي إلهة الزواج ولكنها غير متطابقة مع الزواج نفسه كمؤسسة اجتماعية. أما الأرض فمن الواضح أنها تنتمي إلى النمط الثانين وكذلك الأمر فيما يتعلق بإيروس وأفروديت إلها الرغبة الجنسية، فعلى الرغم من تشخيصهما وشكلهما الإنساني فإن عبادهما يشعرون بأنهم يمتلئون بهما عندما يستعر الجسد بالرغبة الجنسية.

يشكل الآلهة عند هيرميروس طبقة أرستقراطية عليا، ولم يكن الإغريق يعتقدون بالثواب والعقاب بعد الموت، ونصيبهم إنما يأخذونه في هذه الحياة الدنيا، فكل نجاح يدل على أن الآلهة راضية على الأقل في الوقت الحاضر، وكل فشل يعزى إلى غضب إله ما نتيجة لسلوك مقصود أو غير مقصود تجاهه نتيجة لسلوك صالح أو طالح تجاه أحد من الناس. ولقد عرف الإغريق ما الذي يغضب ارستقراطيوهم الخالدون وسعوا لتجنبه. وفيما يتعلق بالصلوات والقرابين فإنها مهما بذلت لا تستطيع ضمان عطف الآلهة وتأييدهم، لأن الآلهة تفضل في غالب الأحيان الإبقاء على الوئام فيما بينها، على تقديم العون لهذا الجانب أو للآخر ممن يطلب عونها. لقد صلى الإغريق والطرواديون للآلهة وقدموا إليهم القرابين لدعمهم في الحرب، وفي الإلياذة نجد أن زيوس قد وقف إلى جانب الطرواديين بينما فضلت زوجته هيرا الوقوف إلى جانب الإغريق، ومع ذلك فقد سقطت طروادة. وهوميروس هنا إنما يقدم شرحاً يوضح لمستمعيه أن مثل هذا الأمر يمكن أن يحدث لأي منهم.

لا يوجد حتمية كونية عند هوميروس ولا عند غيره من المؤلفين القدماء. وتعبير المويرا Moira (الذي يطلق على ربات القدر) إنما يدل على نصيب الفرد في هذه الحياة الأرضية وكل ما يحدد وضعه في المجتمع الهرمي الذي يصفه هوميروس، وهو مجتمع متراكب الطبقات من كبير الآلهة زيوس وحتى أفقر إنسان. فإن يسلك الفرد وفق ما يتفق ونصيبه المقرر يعني أن يسلك وفق مكانته الاجتماعية، فإذا قرر أحد تحدي هذا الوضع وتجاوز نصيبه المقرر، فإنه سيلقى على الغالب جزاءه على ذلك. إن لزيوس أقوى الآلهة، ولا شك، القدرة على تجاوز نصيبه، ولكن بقية الآلهة لن يوافقوا على ذلك وسيعملون على كبح جماحه، إلا إذا شعر بأن تفوقه قد صار موضع تساؤل فيعمد إلى إظهار وتوكيد هذا التفوق، مثلما فعل آخيل وآغامنون اللذان تنسجم قيمهما مع قيم زيوس فيما يتعلق بهذه المسائل.

إن كلمة هيروي Heroi، تدل عند هوميروس على أعظم المحاربين الأحياء. وبعد وفاة هؤلاء الرجال العظام تنشأ حول قبورهم عبادة خاصة بهم،

فلقد جرت عبادة الأبطال باعتبارهم أقوى الأموات، وهم يملكون القدرة على تقديم العون إلى أهل المدينة التي احتضنت أرضها عظامهم. ولهذا نرى أن الإسبارطيين قد عادوا معهم بعظام أوريستيس من تيغا. ولربما جرى رفع بعض الشخصيات التاريخية إلى مرتبة الأبطال بعد وفاتهم، مثلما جرى في حرب البيليبونيز عندما رفع سكان أمفيبوليس القائد الإسبارطي براسيداس الذي قاتل ومات دفاعاً عنهم. إن القوة وليس الصلاح هي ما يميز البطل. وكما نرى في حالة أوديب الأعمى، فإن إحساس الرهبة والروع أمام هذه الشخصية هو الذي قاد إلى نزاع الطيبيين والأثينيين على المكان الذي دفن فيه. وبما أنهم أعظم وأقوى الأموات، فإن الأبطال يتلقون القرابين التي تقدم عادة لآلهة العالم الأسفل.

التكوين:

من بين العديد من أساطير التكوين المتنافسة في اليونان القديمة، فإن أسطورة تكوين هيزيود هي التي عاشت في أكثر من نسخة وشذرة. وهي تسجل لنا أنساب وتسلسل أجيال الآلهة بدءاً من الكايوس، وهو العماء البدئي (حرفياً: الهوة المنفغرة)، وصولاً إلى زيوس ومعاصريه، الذين ولدوا من أبوين إلهيين (أبوللو وأرتميس ولدا من زيوس وليتو)، ثم أنصاف الآلهة الذين ولدوا من لقاء شخصية إلهية بشخصية بشرية (هرقل ولد من الإله زيوس والإنسانة الكمين). وهيزيود هنا يستعمل علاقات الآلهة من حيث الميلاد والزواج وغيرها لكي يشرح الأسباب التي قادت إلى نجاح زيوس، ثالث الآلهة العليا التي توالت على السلطة، في البقاء في سدة السلطان بينما فشل سابقوه. فلقد كان زيوس سياسياً من الطراز الأول، وحافظ في شخصيته على التوازن بين القوة والحكمة العملية والرأي السديد. (وسواء كان هزيود نفسه، أو مفكر قديم آخر، هو الذي أنتج لنا هذه الشبكة من العلاقات المترابطة، والتي استعان بها هزيود ليفسر كل ما حدث والذي سيحدث، فإن عظمة هذا الإنجاز الفكري يجب ألا نغض الطرف عنها).

الإنسان:

خلال الفترة الفاصلة بين عصر هوميروس ونحو عام ٤٥٠ ق.م، بقيت لغة العلاقات على حالها بين الآلهة والبشر، وبين الآلهة أنفسهم والبشر أنفسهم، فلقد بقي الآلهة بمثابة أرستقراطية عليا حاكمة، وكان هنالك سلماً من القوى والتمايزات يتعين بموجبه موضع كل إله وكل كائن بشري.

ولقد قاوم الآلهة والبشر على حد سواء أي محاولة من جانب شخص ذي مرتبة أدنى لتسلق السلم نحو مرتبة أعلى. ولقد كان من العجرفة أن يدعي أي بطل إغريقي أنه قادر على الارتحال بسلام بصرف النظر عن موافقة الآلهة، مثلما كان من العجرفة بالنسبة لاليكترا القيام بنقد سلوك أمها كليمانسترا.

وهناك سبب آخر لاستنكار الآلهة، لم يذكره هوميروس إلا عرضاً، وهو التدنيس الناجم عن أفعال معينة، مثل الولادة والموت والحلم الرديء، فالمجتمع الإلهي الإغريقي مقسوم بخط أفقي، في الأعلى هناك الأوليمبيون آلهة الحياة والضوء والسماء الساطعة، وفي الأدنى هناك آلهة الموت والعالم الأسفل وآلهة خصب الأرض الغامض. ولقد أبقى آلهة الأوليمب على أنفسهم في معزل عن آلهة العالم الأسفل وعمن يسكنون عالمهم. ففي تراجيديا أنتيغون لسوفوكليس عاقب الأوليمبيون الملك كريون لأنه دفن آنتيغون حية، أي في الوقت الذي ما زالت فيه ملكاً لهم، وكذلك من أجل عدم دفن أخيها بولينياس القتيل الذي لوثت قطع من لحمه التي حملتها الطيور مذابحهم. وهيبوليتوس قد تخلت عنه أرتميس على الرغم من أنه أفضل عبادها، عندما دنت ساعة موته لأن كل الجثث تسبب التدنيس. فالدنس ليس مفهوماً مقتصراً على الإنسان، وهو طالما ساعد على تعقيد العلاقات بين الإغريق وآلهتهم.

الآخرويات والعالم الأسفل:

كان الآلهة عند هوميروس خالدون بالطبع، ولكنهم احتفظوا بمكان يدعى إليزيوم، أي الحقول الفردوسية، لمن يفضلونه من أحفادهم البشريين الذين جرى استثناؤهم من الموت.

هرقل وحده استطاع أن يُحصِّل لنفسه وبقواه الذاتية مكاناً في المجتمع الأوليمبي. لقد كره الأبطال الموت لأنه يحولهم إلى أشباح لا قدرة لها يقودها هرمس إلى عالم الإله هاديس السفلي عبر طريق يعترضه نهر ستيكس المستنقعي، حيث يجدون في انتظارهم الملاح تشارون Charon الذي يقف مستعداً لنقل أولئك الذين حصلوا على دفن لائق ووفق الأصول، وكان عليهم لقاء ذلك أن يدفعوا له قطع العملة المدنية التي حشيت بها أفواه جثثهم عند الدفن. وفي هذا العالم الأسفل لا يوجد ثواب وعقاب، وقلة من البشر فقط وهم الخطاة الكبار في حق الآلهة يتلقون العقاب، مثل إكسيون Ixion وسيزيف Sisyphos وتيتيوس Tityus. ولكن العقيدة الأورفية قد أثرت على بعض المفكرين الإغريق مثل بندار Pindar وإمبيدوقليس Empedocles، وبشكل خاص على أفلاطون فإن محاكمة للموتى تجري على مرج أخضر يقودها كل من أيكوس Aeacus ومينوس Minos ورادامانثوس nthusRhadama، وبعدها يتقرر مصيرهم إما إلى تارتاروس في قعر العالم الأسفل أو إلى جزر المباركين. وهنالك فترة طويلة يقضيها الأشرار لتطهير أنفسهم عن طريق دور التناسخ وهم يختارون الكائن الذي سيتقمصونه بواسطة القرعة، ثم يشربون من نبع ليتي Lethe، نبع النسيان، لكي ينسوا كل تجاربهم السابقة.

الكتابات المقدسة:

لا تقوم الديانة اليونانية على إيديولوجيا دينية مدونة ولا على دوغما مقررة، ومع ذلك لا يخلو الأمر من وجود كتابات مقدسة على شكل صلوات ونبوءات ومنقوشات وتعليمات للموتى، لعل أكثرها نضوجاً واتقاناً هي التراتيل الهوميرية التي يغلب أن يكون بعضها قد جرى وضعه من أجل الاحتفالات الدينية، على الرغم من أن موضوعاتها ميثولوجية بحتة.

ولدينا نقوش دلفي التي تتضمن فيما تتضمن تراتيل إلى أبوللو، ولكنها مثل الترتيلة الابيدارية Epidaurian Humn، لإله الشفاء أسكلبيوس والمنسوبة إلى إسيسللوس sIsyllu، غير معنية بالشعائر. وفيما يتعلق بنبوءات دلفي التي اقتبستها المصادر الأدبية، فإنها تبدو نوعاً من التلفيق الذي يستعيد الماضي وينسج على

منواله، على طريقة النبوءات السيبلية الهيلنستية. وفي جنوب إيطاليا تم العثور على أسئلة محفورة على صفائح رصاصية مطوية في دودانا، وكذلك على تعاليم مفصلة للموتى محفورة على صفائح ذهبية ربما كانت مستلهمة من الأورفية. كما عثر في بعض القبور من ماكدونيا وتيساليا على شذرات من برديات تحتوي على تعليمات للموتى.

المقامات والمعابد:

في الأزمنة الغابرة عبدت الآلهة في أماكن تثير الرهبة الدينية، مثل الأجمات والكهوف وقمم الجبال. وفي ميسينيا شاركت الآلهة الملك في قصره. كان مكان العبادة يتكون من الفناء المخصص للإله ومن مذبح في وسطه، وربما أقيم فيه مصلى أو ملمحاً طبيعياً مثل شجرة زيتون وما إليها. وفي العصر الهوميري عُرفت المعابد ولكنها كانت تتبع تصميماً بسيطاً وتبنى من الخشب. في نهاية القرن السابع ق.م اتسعت المعابد التي صارت صفوف الأعمدة تحفها من كل جانب، وتم استخدام الرخام والحجر في بنائها، وفي الغرفة الوسطى من المعبد نصبت التماثيل المقدسة التي صنعت من الخشب في بادئ الأمر ووفق صنعة بدائية. ولم تكن هذه التماثيل موضوعاً لطقوس معينة عدا حملها والطواف بها في بعض الأحيان. اما المقامات Shrines، فكانت أقل أبهة وفيها حفر لتقديم القرابين.

وفيما يتعلق بمقامات النبوءة فقد كانت تحتوي على غرفة تحتية يلجأ إليها كاهن النبوءة عندما يريد استخارة الآلهة، ولكن مقام نبوءة دلفي لم يحتو على مثل هذه الغرفة، على الرغم من أنه قيل دوماً عن البيثيا، كاهنة دلفي، بأنها كانت تهبط للحصول على النبوءة. في مقام نبوءة تروفونيوس Trophonius، الذي تم اكتشافه عام ١٩٦٧ في ليفادهيا Levadhia كانت الخلوة تمارس داخل حفرة. ولعل أشهر مركز لممارسة الخلوة Incubation كان مركز أسكليبيوس في إبيداروس. فقد تم تزويد هذا المعبد بحفرة يوضع فيها المريض منفرداً لكي يظهر له إله الشفاء أسكليبيوس ويبشره بالشفاء. كما مورست العرافة على نطاق واسع في اليونان، وكان العرافون والراؤون يتنبؤون عن طريق مراقبة أشكال طيران الطيور في السماء، وتعرجات دخان المذابح، وفحص أحشاء الحيوانات المذبوحة. وكانت الأحلام وبعض الظواهر الأخرى كالعطاس مثلاً تعتبر نُذُر فأل حسن أو فأل سيئ.

الكهنوت:

لم يكن في اليونـان كهنـوت رسمـي مـنظم، لان العـالم القدسـي والعـالم الدنيوي لم يكونا منقـسمين بـشكل واضـح. ومـع ذلـك فـإن بعـض الوظـائف الكهنوتية كان يتم الحصول عليها بالورثة وانحصرت في أسر معينـة، مثلمـا هـو الحال في عائلة براكسييرجد التي كانت تشرف على غسيل وشاح الإلهة أثينـا في بلينتيريا Plynterea، وعائلة كليتياد التي كانت تخدم مذبح زيـوس في أوليمبيـا. وعلى الرغم من عدم وجود هذا الكهنوت المنظم فإن المعونة الكهنوتية لإجـراء طقوس الذبائح كانت دائماً متوفرة. ولم يكن من الضروري المطابقة بـين جـنس الإله وجنس كاهنه. فالإلهة هيرا والإلهة أثينا كانتا تفضلان الكهنة الإناث، بينمـا فضلت الإله سيبيلي والإلهة إيزيس الكهنة الذكور. وكان للإله أبوللـو كاهنـة في دلفي وكاهن في بتون Ptoon.

الاحتفالات:

لا يوجد لدينا تفاصيل دقيقة عن العديد من الاحتفـالات الدينيـة اليونانيـة. كان احتفال الباناثينايا Panathenaea يجري في ذروة الصيف من كل عام، وفي أبهة وعظمة أكبر كل أربع سنوات وكان الهدف منه، إلى جانب تقديم القرابين، تزويد تمثال الإلهـة أثينـا الخـشبي في معبـدها القـديم بكـسوة جديـدة خاطتـها الزوجات الأثينيات. ويتضمن الاحتفال الكبير مواكب، وسباق مشاعل، وألعاب رياضـية، ومبـارزات تمثيليـة، وتـلاوات مـن الـشعر الملحمـي. كمـا كانـت الاحتفالات الديونيسية الكبرى تجري في مدينة أثينـا خـلال الربيـع، وفي نهايـة الاحتفال كان تمثال الإله ديونيسيوس يحمل في موكب إلى مـسرح ديونيـسيوس لكي يشرف على المباريات المسرحية التي تقدمها الفرق المتنافسة، وكـان هـذا التمثال مثل صنوه التمثال الريفي القديم، يحمل ملمحاً قضيبياً.

وكانت الألعاب الأوليمبية تشكل جزءاً من احتفال زيوس الذي كان يجـري كل أربع سنوات في الصيف في فناء الإله المقدس على مقربة من نهر الفيوس في البليبونيز الغربي فإذا كان هنالك نزاعات قائمة أعلنـت الهدنـة للـسماح للفرقـاء

المتحاربين بالمشاركة في الألعاب التي تستمر لمدة خمسة أيام، تقدم خلالها الذبائح والقرابين على مذبح زيوس حيث يتم استطلاع الفأل وإعلان النبوءات، وكذلك قرب مدفن بيلوبس Pelops، وعلى مذبح هيستيا إلهة النار المنزلية. قبل بدء الألعاب يقسم المحكمون والمتبارون على احترام القواعد والتزامها. بعد ذلك تنطلق المواكب، ويتلى الشعر الملحمي.

عند انتهاء المباريات يجري تكريم الفائزين على مأدبة رسمية، ويخلدهم نجوم الشعر الغنائي مثل سيمونيدس وباخيليدس وبندار. لم يكن يسمح للنساء بالمشاركة في الألعاب الأوليمبية، ولكن الفتيات كن يتبارين في احتفال الإلهة هيرا. وهناك ألعاب أخرى كانت تجري على شرف زيوس أيضاً في نيميا، وعلى شرف أبوللو في دلفي، وبوسيدون في اسثموس، وذلك على نمط الألعاب الأوليمبية وتقليداً لها.

الطقوس والشعائر:

كانت القرابين تقدم للآلهة الأوليمبية عند الفجر على المذبح في الفناء المقدس الذي يتوضع عادة إلى الشرق من المعبد. وبما أن هذه القرابين هي بمثابة هدايا للآلهة، فإنها تشكل البرهان الأوضح على الورع والتقوى. وكان الألهة يسرون بالجزء المحروق من الأضحية، بينما يأكل الكهنة والعباد ما تبقى من اللحم. وهنالك حيوانات معينة كانت مقدسة عند هذا الإله او ذالك فالعجلة هي حيوان أثينا المقدسة، والبقرة لهيرا، والخنزير لديمتر، والثور لزيوس وديونيسيوس، والكلب لهيقاتي، والطرائد لأرتميس، والحصان لبوسيدون...الخ. ويسبق تقديم القربان نوع من الوضوء الطقسي وتضحية رمزية بالشعر، ثم تنثر حبوب القمح والعشير في المكان، على ما يصفه لنا هوميروس ويتوجب ان تكون الحيوانات المضحى بها خالية من العيوب وإلا كان في ذلك إظهار عدم الاحترام للآلهة، الامر الذي سوف يثير غضبها. أما آلهة العالم الأسفل فكانت القرابين تقدم إليها في المساء، حيث يجري اختيار الضحايا من ذوي اللون الأسود، وكان لحمها يؤكل على الفورن وهنالك قرابين تسبق المعارك، وعقد

المعاهدات وما شابه ذلك من المناسبات. وفيما يتعلق بالأضاحي البشرية فقد كانت استثناءً، هذا إذا وجدت أصلاً، وهنالك نوع من القربان الحيواني لبعض الآلهة والأبطال يتم دون إراقة دماء.

تبتدي الصلوات عادة بالثناء على الإله، يلي ذلك الإشارة إلى تقوى المصلي ومراعاته لحدود الآلهة، ثم يتقدم المصلي بعد ذلك بطلبه الخاص الذي من أجله رفعت الصلاة. خلال الصلاة إلى الآلهة الأوليمبية ينتصب المتضرع واقفاً رافعاً ذراعيه نحو الأعلى. تشكل المواكب عنصراً مهماً في معظم التجمعات والاحتفالات الدينية. من هذه المواكب موكب الباناثينايك Penaicanath الذي ينطلق عند الفجر من البومبيون Pompeion (المستودع المقدس) تتقدمه الفتيات حاملات السلاسل اللواتي ينقلن الكسوة المقدسة، يتبعهن الكبار الذين يحملون الأغصان، ثم الفتيان الذين يسوقون حيوانات القربان، بينما يحمي الفرسان المؤخرة. ولعل أشهر المواكب الدينية هو الموكب الذي يتوجه إلى إيليوسيس في احتفالات الإلهة ديمتر. ففي الاحتفال الكبير الذي كان يجري كل خمس سنوات كان موكب المشاركين في هذه الطقوس ينطلق مشياً على الأقدام على طريق طويل يقود إلى إيليوسيس وراء تمثال خشبي لإياكوس Iacchus (وهو تجسيد للصرخة الطقسية) يرافقه كاهنه وخدمه، وهم يضعون على رؤوسهم أكاليل من الآس، ويحملون في أيديهم حزماً من القمح. وعند المرور قرب البحر كان المشاركون ينزلون إلى الماء لتطهير أنفسهم رمزياً من حياتهم السابقة والاستعداد لحياة جديدة تنتظرهم. وفي إليوسيس تقام الطقوس التي لا نعرف عنها شيئاً، لأن أحداً لم يكن يبوح بحقيقة ما كان يجري هناك، ولكنهم كانوا يعودون وقد تغيرت حياتهم الروحية بالكامل.

الفن الديني:

يصور لنا الفن التشكيلي أحداثاً ذات صلة بالدين اليوناني، ولكننا نفتقر فيه إلى المعلومات الأساسية. فعلى تابوت حجري تم اكتشافه في كريت، مثلاً، نجد مشهداً يمثل كاهنة ترتدي تنورة جلدية تقدم قرباناً، وعن يمينها ويسارها فأسان مكللان يجثم على كل منهما طائر. لقد أثار معنى هذا المشهد الكثير من الجدل

بين الباحثين وقد اعتبر بعضهم أن الطائرين هنا يمثلان ظهوراً إلهياً من نوع ما، وهذا ما يعطي معنىً قدسياً للتحولات عند هوميروس. ومن ناحية أخرى فإن شيوع تمثيل الإلهات في الفن المينوي والميسيني وندرة تمثيل الآلهة الذكور، قد دفع البعض إلى الاعتقاد بتفوق الإلهات على الآلهة في العديد من أجزاء اليونان القديمة.

في الفترات المبكرة كانت تماثيل الآلهة الصغيرة تصنع من الفخار بأسلوب بدائي، أما تماثيل المعابد التي كانت تدور حولها الطقوس فكانت تصنع من الخشب ومعظمها يعزى صنعه إلى ديدالوس. وعندما استخدم الفنانون الرخام والبرونز قاموا بتصوير الآلهة في شكل إنساني مثالي. وقد بلغت مهارة الفنان حداً غير مسبوق في صناعة تماثيل معابد الأكروبوليس في أثينا. ولكن بينما تعبر المهارة العالية في تنفيذ هذه التماثيل عن حس جمالي متفوق، فإنها لا تعبر بالضرورة عن تجربة دينية عميقة. ولقد استمر استخدام الشكل الإنساني المثالي في تصوير اشكال الآلهة المنحوتة، ولكن الفنان كانت تنقصه خطوة واحدة لكي ينتج فناً يُعلي فيه من شان الجسد الإنساني بمعزل عن الآلهة. إن صعود وانحطاط دين من الأديان قد يقارن بصعود وانحطاط فنونه، وآيات الفن الرائع قد تلهم أو تستلهم العاطفة الدينية الجياشة، ولكن استمرار عبادة تمثال أثينا الخشبي البدائي الذي ألمحنا إليه سابقاً، يدل على أن قدم التصاوير الدينية هو الذي يفسر جو الروع والرهبة الذي يحيط بها، بصرف النظر عن كمال صنعتها.

إلى جانب التماثيل المنصوبة في المعابد لغايات طقسية، فقد جرى أيضاً تمثيل الآلهة على واجهات المعابد وأفاريزها، وضمن مشاهد ميثولوجية في غالب الأحيان. وفيما يتعلق بتفاصيل الطقوس، فإن الرسوم على الفازات تقدم لنا مصدراً مهماً للمعلومات، وهي تفيض بالموضوعات الديونيسية والمشاهد الطقسية، ومشاهد من عبادات الخصب.

إذا فهمنا من الدين اليوناني دلالته على الاعتقاد بالآلهة وعلاقاتها مع الإنسان، بالطريقة التي دونتها لنا الأشعار الهوميرية وما تلاها، فإن الدين الإغريقي كان على الدوام في حالة تطور. ولكن الطقوس بالمقابل كانت سكونية ومحافظة، كما هو شأنها في معظم الحضارات. وهذا ما جعل الناس يتابعون

تأدية العديد من الطقوس بعد أن فقدت معناها الأصلي وغدت غير مفهومة بالنسبة لمؤديها. وهنالك إدعاءات قوية تقدم بها أصحابها من الباحثين وما زالوا يتقدمون بها، تجعل من الدين الإغريقي ديناً حقيقياً، بما يستتبعه ذلك من وجود آلهة أخلاقية واتجاه قوي نحو التوحيد. ولكن معارضي هذه الآراء يقولون إننا لا نستطيع القول بمثل هذه النظرية اعتماداً على مقاطع متفرقة لدى هذا المؤلف الإغريقي أو ذاك، ونفسر من خلالها دين الإغريق برمته. وفي الحقيقة هنالك فلاسفة وكتاب إغريق قرؤوا الدين الإغريقي مثلما قرأه هؤلاء المعارضون ولنا فيما أورده زينوفون وبندار وبخاصة أفلاطون خير دليل على ذلك. وبشكل خاص فإن افلاطون في كتابه (الجمهورية) قد وجه نقداً لاذعاً لديانة اليونانيين مثلما عرفها في أيامه.

John Richard
ThornhillPollard(1)

(1) John Richard, Thornhill Pollard,GreekReligion,Encycolopedia Britannica,2005.

الآلهة والأساطير اليونانية

F.Guirand
ترجمة: أسامة منزلجي

أصبح معروفاً الآن أنّه قبل أن تبرز الشعوب التي نعرفها باسم اليونانية من حقبة البربرية البدائيّة بزمنٍ بعيد، وُجِدتْ في حوض بحر إيجة حضارة متوسطيّة مركزها جزيرة كريت. حضارة إيجيّة كانت قد قامت لتوّها ببدايات متردّدة في الألفيّة الثالثة، وبلغَت أوجها قرابة القرن السادس عشر قبل الميلاد حين امتدَّت إلى اليونان القارّية، بدايةً من آرغوليس (ميسينا). وقد أبيدَتْ في القرن الثاني عشر تحت وطأة الغزوات الدُوريّة (Doric).

في الحضارة الإيجيّة كان للتديُّن مكانته طبعاً لكنَّ الوثائق الخرساء التي أمدّنا بها علم الآثار القديمة حتى الآن غير كافية لكي نُقدِّر بالضبط شخصيتها وعناصرها. وكما يحدث مع الشعوب كلها، كان الشكل الأول الذي اتَّخذه التديُّن الإيجي فتشيّاً ـ كعبادة الحجارة المقدَّسة، وعبادة الأعمدة، وعبادة الأسلحة (بخاصة الفأس المزدوج)، وعبادة الأشجار والحيوانات.

لاحقاً، حين برز المفهوم المُجسَّم للألوهيّة، خرج شكل البانثيون الكريتي وابتُكِرَتْ الأساطير. ونجدُ إحياءً لمثل هذه الأساطير في العدد الهائل من الخرافات اليونانية، على سبيل المثال، مولد زيوس في كريت، وقصة يوروبا والثور، والكريتيون الذين جلبهم أبّولو إلى دلفي ليصبحوا كهنة عبادته، والمينوطور، الخ. ولكن حين انتقلوا إلى اليونان القارّية، اتَّخذت الألوهيّات الإيجيّة وجهاً هلّينياً أخفى وجهه الأصيل. وعلى هذا فإنَّ ما نعرفه عن البانثيون الإيجي اختُزِلَ إلى أدنى درجة.

البانثيون الإيجي:

الإلهة الكبرى: إنَّ الإله الرئيس للإيجيين كان ـ كما في العديد من العبادات الآسيوية ـ أنثى. كانت الإلهة العظيمة، الأم الكونيّة، التي تتَّخذُ فيها روافد الألوهيَة ووظائفها كلها. وكانت قبل أي شيء ترمز إلى الخصب، ويشمل تأثيرها النباتات والحيوان والبشر أيضاً. ميدانها الكون كله. وبوصفها إلهة سماويّة كانت تنظِّمُ مسار الأجرام السماوية وتتحكَّم في الفصول المتعاقبة. وعلى الأرض كانت السبب في إزهار منتجات التربة، وتهبُ الرجالَ الخيرات، وتحميهم في المعركة، وتهديهم في البحر في رحلاتهم الخطرة. وكانت تقتلُ أو تروِّضُ الحيوانات الضارية، وأخيراً تهيمن أيضاً على العالم السفلي، كانت سيدة الحياة وأيضاً ملكة الموت.

ووفقاً للحقبة الزمنيّة، تُمثِّل الإلهة الكبرى أمّاً وهي جاثمة أو واقفة. أيحاناً تكون عارية، وأحياناً أخرى ترتدي زيِّ امرأة كريتيّة. في الحالة الثانية ترتدي تنورة مُهدَّبة ويكون صدرها إما عارياً بأكمله وإما مُغطى بصدّارة يتركُ صدرها مكشوفاً. غطاء الرأس يتنوّع، قد يكون الشعر منفلتاً، أو معقوداً بمشبك بسيط، وقد يكون مُغطّى إما بما يُشبه العمامة مزيَّنة بأزهار وإما بحلية من ريش أو جواهر، أو بعمامة مخروطيّة الشكل على الطريقة الشرقيّة، أو بعمامة طويلة جداً على هيئة مخروط بلا قمة.

على الرغم من أنَّ النمط هو دائماً نفسه ولا تختلف تمثيلات الإلهة إلا في الرموز المصاحبة لها وفي تفاصيل اللباس، فمن غير المعروف إنْ كان المعنيّ بذلك ألوهيّة واحدة أو ألوهيات متعددة لكل منها شخصيَّتها الخاصة بها. الإلهة المُنسلة ذات الوركين العريضَين التي تضغط ذراعيها على ثدييها المُثقلَين ـ أيمكن أنْ تكون هي نفسها المُحاربة العذراء التي تتقدّم، يصحبها أسد، وتضرب الأرض برمحها؟ أيُمكنُ أنْ تكون إلهة النماء التي نراها جالسة تحت الشهرة المقدَّسة، تتلقّى من كاهناتها تباشير الفاكهة والأزهار، هي نفسها إلهة البحر التي تمخر عباب الأمواج على متن قارب، أو إلهة الأرض التي تتشابك الأفاعي من حولها؟

ماذا كان اسم الألهة ـ الأم عند الإيجيين؟ هنا من جديد في غياب التوثيق تُركنا للحدس. ويبدو أنها في كريت كانت تُعبَد بالاسم ريا Rhea. على الأقل كان هذا هو الاسم الذي ارتبطَ لاحقاً بالألوهيّة الكريتيّة القديمة في عبادة زيوس، وجُعِلَ زيوس ابنها. وهذا التقليد قد أحياه هزيود، كما سنرى في كتابه « ثيوغونيا » (أصل الآلهة).

هناك اسمان آخران تمَّ الاحتفاظ بهما: ديكتينا وبريتومارتيس. وفي أساطيرهم يُطابق اليونانيون الاسمين مع الألوهيّة نفسها.

ربما كانت ديكتينا، التي يُسمّيها اليونانيون «إلهة الشِباك»، هي إلهة جبل ديكته، وهو جبل في كريت قيلَ لاحقاً إنه مسقط رأس زيوس. وعليه فإنها تكون الإلهة ـ الأم.

بريتومارتيس تعني «العذراء الحلوة»، وهي تسميه لا تتطابق بشكلٍ جيد جداً مع أمّ الكون العظمى.

وفقاً للأسطورة اليونانية، كانت بريتومارتيس صيّادة عذراء شابة تطارد الحيوانات الضاربة في غابات كريت، وقد قيل إنها ابنة زيوس. وشاهدها مينوس فأسره جمالها، وعرَض عليها حبّه، لكنها رفضته. فلجأ على العنف معها لكنَّ بريتومارتيس فرَّت منه، وبعد ملاحقته استمرّت لا أقلّ من تسعة أشهر رَمتْ بنفسها من فوق صخرة عالية إلى البحر، لكي تهرب أخيراً من مينوس. فسقطت في شِباك أحد الصيّادين ولهذا السبب أصبح اسمها ديكتينا. ومكافأةً لها على عفّتها رفعتها آرتيميس إلى مرتبة الخالدين ومنذ ذلك الحين أصبحت تظهر للملاحين أثناء الليل. ثم إنَّ اليونانيين جعلوا المطابقة أشدّ وسمّوا ديكتينا ـ بريتومارتيس. بـ آرتميس الكريتيّة.

الإله: ربط الإيجيون الإلهة العظمى بإلهٍ. ويبدو أنَّ هذا الإله كان في الأصل تابعاً للإلهة، كما هو الحال في عبادات آسيا الغربية. ولكن على الرغم من أننا عرفنا بأمر وجود علاقة بين تموز وعشتار، وبين آتيس وسيبيل، وبين أدونيس وأسترات، لم تظهر حتى الآن أي إشارة حول العلاقة بين الإله والإلهة الإيجيين.

بما أنَّ الإله الأكبر الإيجي إلهٌ سماويٌ، مثل الإلهة التي يرتبط بها، فهو يحمل لقب استريوس (النجميّ). ووجِدَ من جديد تحت اسم أستريون، ملك كريت، الذي تزوَّج من يوروبا بعد مغامرتها مع زيوس. وبعد ذلك اندمجَ مع زيوس نفسه، الذي أضحت أسطورته أكثر ثراءً بالمُساهمات الكريتية القديمة.

كانت ميزة الإله الكريتي هي في اندماج سمات الحيوان والإنسان التي تؤلّفُ طبيعته. وقد اتُّخِذَ الثور منذ العصور الأولى، كما في العديد من الديانات الآسيوية، كرمزٍ إيجيّ للقوة والطاقة الخلاّقة. ولاحقاً أضحى شعار الإله الأكبر، وبهذا الشكل لعب دوراً مهماً في الأساطير الكريتيّة. بل إنه اتَّحد بالطبيعة الألوهيّة: فهو المينطور، الإله ـ الثور الذي يشبه إله العيلاميين، وإنكي إلى السومريين، والذي كان أيضاً «ثور السماء والأرض الوحشي».

لم يكن الإله ـ الثور هو الوجه الوحيد للإله الكريتي. فإلى جانب المينوطور هناك أيضاً مينوس. لذلك كان الإله يُصوَّر أيضاً بشكلٍ إنسانيّ، وعلى هذه الهيئة يظهر أحياناً لَمْن يعبدونه بكامل فخامته المُرعبة.

ولكن سواء أكان مَنْ يهمّنا هو مينوس أم مينوطور فإننا لا نعرفها إلاّ من خلال التحوّلات التي مرّا بها حين أصبحا هلينيين. ولذلك سوف نكتفي هنا بذكرهما بشكلٍ عابر ونحتفظ بمناسبةٍ لاحقة لمناقشتهما مطوَّلاً، حين سنقابلهما من جديد في الملاحم اليونانية الكلاسيكية البطولية.

ميثولوجيا اليونان الكلاسيكية

مقدمة:

أصول الآلهة اليونانية: تأسَّسَ البانثيون اليونانين في الحقبة الهومرية المبكّرة. والآلهة العديدة التي تَشكّل منها تظهر عموماً في «الإلياذة» وفي «الأوديسّة»، بأشكالها المميزة، ورموزها التقليدية، وأساطيرها الخاصة المتمتعة بقداسة القِدَم. لكنّ الشاعر لا يُخبرنا أيَّ شيء عن أصلها أو ماضيها. وفي أحسن الأحوال يذكُر أنّ زيوس هو ابن كرونوس ويقول عَرَضاً إنَّ أوقيانوس وزوجته تيثيس كانا خالقَيّ الآلهة والكائنات الحيّة.

لم يشعر اليونانيون إلاّ لاحقاً بالحاجة إلى أنْ يعطوا آلهتهم أنساباً وتاريخاً. وقصيدة هزيود «ثيوغونيا» التي كُتِبَتْ في حوالي القرن الثامن قبل الميلاد هي أقدم محاولة يونانية في التصنيف الميثولوجي. وبينما هو يسرد أصل الآلهة، ويتذكّر مغامراتهم الرئيسية ويؤسس علاقاتهم، ادَّعى أيضاً أنه يشرح تشكيل الكون. والقصيدة على هذا الأساس هي عن نشأة الكون بقدر ما هي ثيوغونيا (بحث في أصل الآلهة وتحدّرها). وقد كان لثيوغونيا هزيود، في اليونان، نوعٌ من التقدير الرسمي، بوصفها انعكاساً للمعتقدات الشائعة.

ولكن بدءاً بالقرن السادس قبل الميلاد، وحتى بداية الحقبة المسيحيّة ظهرت ثيوغونيات موسّعة أخرى تحت تأثير المعتقدات الأورفية، وتلك الثيوغونيات انفصلت إلى أبعد مدى عن تقاليد هزيود. لكنَّ الثيوغونيات الأورفية، المعروفة فقط لأهل هذه العبادة، لم تصبح أبداً شائعة. بالإضافة إلى ذلك امتزجت أكثر مما ينبغي بالمساهمات الأجنبية، لا سيما الآسيوية، بحيث يمكن اعتبارها ذات خصوصيّة يونانية بحتة. لذلك سوف نكتفي بإعطاء موجز لملامحها الرئيسية، بعد أن نقدم قصة هزيود عن أصل العالم.

تشكُّل العالم ومولد الآلهة:

كيوس وغَيا: يقول هزيود، في البدء الكيوس (العماء)، شاملاً ومظلماً. ثم ظهرت غَيا، الأرض ذات الأثداء الراسخة، وأخيراً إيروس، «الحب الذي يُرقّق القلب»، الذي سيُهيمن تأثيره المُخصِب منذ ذلك الحين على تشكُّل الكائنات والأشياء.

ومن كيوس وُلِدَ أيريبوس والليل اللذان اتّحدا وأنجبا بدورهما الأثير والنهار المدعو هيميرا.

ومن ناحيتها أنجبت غَيا بكرها أورانوس، السماء المزينة بالنجوم وجعلته مساوياً لها في العَظَمَة، بحيث أصبح يُغطيها بالكامل. ثم خَلَقَتْ الجبال الشاهقة وبونتيوس، «البحر العقيم»، بأمواجه المتناغمة.

أورانوس وغَيا ـ جماعة أورانوس: بعد أن تشكَّلَ الكـون. بقـيَ أن يؤهَّـل بالنـاس. اتَّحـدتْ غيـا مـع ابنـها أورانـوس وأنجبَـتْ الـسلالة الأولى ـ التيتـان (الجبابرة) كانوا اثني عشر، ستة مـن الـذكور وسـت مـن الإنـاث: أوقيـانوس، وكويـوس، وهـايبريون، وكريـوس، وأيـابيتوس، وكرونـوس، ثيـا، وريـا، ومنيموسين، وفوبوس، وتيثيا وثيميس.

ثم أنجبَ أورانـوس وغيـا الـسيكلوب: بـرونتس، وسـتيروبس وآرغـيس، «الذين يُشبهون باقي الآلهة ولكن لكلٍ منـهم عـين واحـدة في وسـط الجـبين». وأخيراً أنجبا ثلاثة وحوش:

كوتوس، وبرياسوس وإيجس. «من أكتافهم خرج مئة ذراع لا تُقهَـر وفـوق تلك الأطراف القوية برز خمسون رأس تستند إلى ظهورهم». لهذا السبب كـانوا يُسمّون الهيكاتونشير أو السينتيمين.

لم يسع أورانونس إلاّ أنْ ينظر إلى نـسله برعـب، وحالمـا وُلِـدوا أغلـقَ عليهم في أعماق الأرض. في أول الأمر حزنتْ غيا، ولكن بعد ذلك غضبَتْ وفكَّرت في انتقامٍ رهيب من زوجها. ومن صـدرها سـحبَتْ فـولاذاً لامعـاً، وصاغت منه منجلاً وشرحت لأولادها الخطة التي وضعتَها. تردَّدوا جميعـاً، وأصابهم الرعب. وحده كرونوس الداهية، آخر أبنائهـا، تطـوَّعَ بـدعم أمّـه. وحين هبط المساء انضمَّ أورانوس، مصحوباً بالليـل، إلى زوجتـه كالمعتـاد. وأثناء نومه وغفلته تسلَّح كرونوس بالمنجل، وكمِنَ بالتعاون مع أمـه، وقـام ببتر أعضاء أبيه التناسلية بكل وحشية ورمى بها إلى البحر. وقطرَ مـن الجـرح الرهيب دمّ أسود، ونفذَت القطرات إلى قلب التربة وأخرجَتْ فيـوريز (آلهـة الانتقام) المروِّعة، وعمالقة رهيبين وجنيات أشجار الدرداء، المليا. أما عـن الأعضاء التي طفتْ على سطح الأمواج، فتحوَّلتْ إلى زبّد أبيض وُلِدت منـه إلهة شابة، أفروديت، «التي حُمِلَـتْ أولاً إلى سـيثيرا المقدَّسـة ومـن ثم إلى سايبروس المُحاط بالأمواج».

خصائص الآلهة الأولى: هذه هي الشخصيات المقدّسة الأولى والدراما الأولى التي خاضوها. على الرغم من أنَّ بعض الممثلين غامضون وغير مُحدَّدين جيداً.

إنَّ كيوس الذي ذكره هزيود، والذي ينحدر اسمه من أصلٍ يوناني ومعناه «ينفغِر»، يدلّ على الفضاء الواسع. ولم يُعتَبَر أنَّ معنى كيوس هو الفوضى وتشوُّش العناصر، وتناثرها في الفضاء، إلاّ لاحقاً. وكيوس أيضاً هو مبدأ كوني صِرف مجرَّد من أي شخصية إلهيّة.

الشيء نفسه يمكن أنْ يُقال عن إيروس هزيود، الذي لا يشترك في أي شيء مع إيروس الذي سنقابله في أساطير لاحقة. هنا إيروس ليس له إلاّ مغزى ميتافيزيقيّ: إنه يُمثِّل قوة الجاذبية التي تدفع الكائنات إلى التلاقي.

إنَّ أورانوس، ابن غيا وزوجها، هو السماء المُضاءة بالنجوم. ومن الجدير بالذكر أنه لم يعرف أي عبادة له في اليونان. هذا المفهوم للسماء والأرض، باعتبارهما إلهين بدئيّين، مُشتَرك بين الشعوب الهندو ـ أوروبيّة كلها. وفي أسفار الريغ ـ فيدا السنسكريتية كانت السماء والأرض أصلاً يُسميان «الزوج الخالد» و«جدّا العالم».

غيا: الإلهة الوحيدة ذات الملامح الجليّة المعالم هي غيا، الأرض. ووفقاً لهزيود يبدو أنَّ غيا، التي تنبثق منها الأشياء كلها، كانت في الغالب أعظم آلهة اليونان القُدامى. وكالإيجيين وشعوب آسيا، لا بد أنَّ اليونانيين قد عبدوا في الأصل الأرض التي رؤوا فيها الإلهة ـ الأم. وهذا ما تؤكده الترتيلة الهومرية التي يقول الشاعر فيها: «سأغني عن غيا، الأم الكونيّة، الراسخة القدمين، وأقدم الآلهة».

غيا، «الراسخة الأثداء»، التي تغذّي تربتها الكائنات كلها، وتُنعِمُ على ...الها بالأولاد الوسيمين وبكلِ فاكهة الأرض التي تسرُّ العينن كانت على هذا ... وقتٍ من الأوقات الإلهة المُطلقة التي لا يعترف البشر فحسب بجلالها بل ... الالهة أنفسهم. لاحقاً، حين ترسَّخَ حُكم آلهة الأوليمب الظافرين، لم تتأثَّر ...انة غيا قط. وظلَّتْ هي التي تستحضرها الآلهة حين تُقسم: «أقسِمُ باسم غيا ... السماء الشاسعة التي تظلِلّها»، هكذا تُعلن هيرا، في «الإلياذة»، حين تردُّ على اتهامات زيوس.

وغيا الكُليّة القدرة ليست فقط تخلقُ الكون وتُنجب السلالة الأولى من الآلهة، بل وتنجبُ أيضاً سلالة البشر. وعلى هذا نجدها في أسطورة إريكثيوس (ملك أثينا الذي ضحّى بابنته لكي ينتصر في الحرب) تُخرجه من صدرها وتقدّمه إلى أثينا: كان أول ساكني منطقة أتيكا من البشر.

تتبدَّى قوة غيا أيضاً في موهبتها في معرفة المستقبل. ونبوءة معبد دلفي التي تنطلق بها العرافة كانت في الأصل تنتمي إلى غيا، قبل أن تنتقل إلى أبولو.

لاحقاً، ومع ارتفاع أسهم احترام الآلهة الأخرى عند البشر، قلَّتْ أهمية دور غيا تدريجياً. ولكن عبادتها استمرَّت دائماً في بلاد اليونان. كانت تهيمن على الزيجات، وتتمتع بمكانة عالية بين العرافات والمتنبئات. في باتراس كان المرضى يأتون لاستشارتها. كانت تحظى باحترامٍ خاص في إيجه، وفي دلفي وفي الأولمبياد. كان لها مقامات مقدسة في دودونا، وتيغيا، وإسبارطة، وفي أثينا بالقرب من الأريوباغوس. في أول الأمر كان يُقدَّمُ إليها الفاكهة والقمح، ولكن حين أصبحت تُستحضَر كحامية لقداسة القَسَم أصبحَ يُضحَّى بنعجةٍ قرباناً على شرفها. وكان شائعاً تصويرها على هيئة امرأة عملاقة.

التيتان: التيتان، الذين شكّلوا السلالة المقدَّسة الأولى، لم تكن لهم في الغالب شخصيات مُحدَّدة بوضوح. وأصل تسميتهم التي أطلقها هزيود (من كلمةٍ معناها «يمدُّ»، لأنَّهم رفعوا أيديهم في وجه والدهم) وهمية. ولعلَّ تسميتهم مُستنبطة من كلمة كريتيّة تعني «ملك».

في اليونان كان التيتان يُبجَّلون بوصفهم أسلاف البشر. إليهم نُسِبَ ابتكار الفنون والسحر.

السيكلوب والهيكانوشير: في كتاب هزيود كان السيكلوب هم جان العاصفة، كما توحي أسماؤهم: برونتس: الرعد، وستروب: البرق، وآرغس: العاصفة الرعدية.

أما بالنسبة إلى الهيكانوشير أو السنتيمين ـ «ذوو المئة يد» ـ فأسماؤهم كافية لتميِّزهم. هم، أيضاً، كانوا ثلاثة: كوتوس: الحانق، وبياريوي: الحيويّ، وجيجس، المتعدد الأطراف.

إنّ التيتان، والسيكلوب والهيكانوشير كانوا يرمزون إلى قوى الطبيعة العنيفة.

نظريات نشأة الكون الأورفية: في مُقابل هذه الثيوغونيا الشعبية السائدة، فإن اتباع العبادة الأورفية قد طرحوا تـأويلات أخـرى لأصـل الأشـياء، تقـوم علـى نصوص منسوبة إلى أورفيوس ولكنـها علـى مـا يبـدو كُتِبَـتْ بيـد كـاهن اسمـه أونوماكريتوس. إن الانهماكات الفلسفية والعلميّـة الـتي تعكسـها هـذه الأنظمـة كلها، والمجرَّدات العديدة التي تستخدمها، تُخرجها مـن عـالم البـدائيين. إنهـا أنظمة ميتافيزيقية وليست ميثولوجية.

وبشكل عام، هذا تقريباً ما توصّلوا إليه: المبدأ الأول كان كرونوس، أو الزمن، ومنه خرجَ كيوس، الذي يرمز إلى اللا محدود، وإيثر، الذي يرمز إلى المحدود.

كان كيوس مُحاطاً بالليل، الذي انتظمت من تحته المادة الكونية ببطء مـن خلال الفعالية الخلاقة لإيثر. وقد اتخـذت هـذه المـادة في النهايـة شـكل بيـضة قشرتها هي الليل.

في قلب هذه البيضة العملاقة، التي يُشكّلُ الجزءُ العلويُّ منـها قُبَّـة الـسماء وجزؤها السفلي الأرض، وُلِدَ الكائن الأول، فانيس ـ النور. وهو الذي خلـقَ، باتّحاده مع الليل، السماءَ والأرض. وهو الذي أنجب زيوس.

لن نتوقَّفَ طويلاً عند هذا المُختصر للعقيدة الأورفية، ذلـك أننـا سـنُقابلها فيما بعد عندما سنصل إلى الإله ديونيسوس، الذي أصبحَ الإله المُطلَـق في العقيـدة الأورفية. في هذه الأثناء يواصل هزيود حكايته لأقدار سلالة الآلهة الحاكمة الثانية.

كرونوس: مولد زيوس: مجيء آلهة الأوليمب

فترة حكم كرونوس: بعد أن تم خصاء أورانوس وجُعِلَ عقيماً، حرَّرَ كرونوس إخوته، التيتان ـ باستثناء السيكلوب والهيكاتشير ـ وأصبح رأس أسرة حاكمة جديدة.

في ظل حكمهِ تواصلَ عمـل الخلـق: فأنجـب الليـل القـضاء (مـوروس)، والمويرا ربات القدر والموت، والنوم وأحلامه ثم البهجـة المازحـة (مومـوس) والبؤس الناحِب (أويزوس)، والهـسبيريدس الـذي يحـرس التفاحـات الذهبيـة

خلف المحيط. ثم ربات المصائر: كلوثو، ولاكسيس وتروبوس، اللواتي يخصصن للمولود الجديد نصيبه من الخير والشر. والليل أيضاً أنجبَ نمسيس، التي يخشاها البشر. والخديعة، والفجور، والشيخوخة، وإيريس (النزاع) التي أنجبَتْ بدورها الحزن، والنسيان والجوع، والمرض، والتقاتُل، والقتل، والمعارك، والمذابح، والخصام، والأكاذيب المراوغة، والظلم والتجديف.

أتّحدَ بونتوس، البحر، مع غيا، الأرض، ليُنجبا نريوس الصادق، وثاوماس الهائل، وفوركيس الجسور وسيتو الجميلة الوجنتين، ويوريبيا ذات القلب الفولاذي.

وأنجب نريوس ودوريس، ابنة المحيط، خمسين ابنة، النيرديات. وأنجبَ ثاوماس وإليكترا أيريس، قوس القزح، والهاربيات بخصلات شعورهن الشقراء. وجملت سيتو من فورسيس الغربيات (العجائز) ولدن وشعرورهن بيضاء، والغورغونات اللواتي عشن فيما وراء المحيط في أرض الهسبيريدات.

أنجب التيتان أيضاً أطفالاً إما من أخواتهم أو من الحوريات.

أوقيانوس وتيثيس كان لهما ثلاثة آلاف ابن، الأنهار، ثلاثة آلاف ابنة، حوريات الماء، بالإضافة إلى ميتيس (الحكمة)، وتايكه (الثروة) وستيكس (نهر الجحيم). ولهايبريون وثيا وُلِدَ هليوس (الشمس)، وسيلين (القمر) وإيوس (الفجر). وأنجب كويوس وفويب أنجبا ليتو وأستريا. وأنجبَ كريوس من يوريبيا: أستريوس، وبالاس وبرسيس. ومن الأوقيانيدة كليمين. وأنجبَ يابيتوس أطلس، ومينيوتيوس، وإبيميثيوس وبروميثيوس. وأخيراً تزوَّجَ كرونوس أخته ريا، التي أنجبت له ثلاث بنات: هستيا، وديميتر، وهيرا، وثلاثة أبناء: بوزيدون وزيوس وهاديس.

فور ولادة أطفال كرونوس قام بابتلاعهم واحداً إثر آخر. ولا ندري إنْ كان فعل ذلك خشية أن يخلعه أحد أولاده عن عرشه، كما تكهَّنت إحدى النبوءات، أو أنَّه اتَّفق مع إخوته الأكبر سناً منه، التيتان، على ألاّ يُخلّفوا أي ذرّية.

مولد زيوس وطفولته: استولى على ريا زوجة كرونوس حزن لا حدود لـه. وتساءلتْ في نوبة يأس إنْ كانت قد عوقبَتْ برؤية ذريّتـها تختفـي بهـذا الـشكل. وعندما حان وقت وضع طفلها زيوس ناشـدت والـديها، أورانـوس وغيـا، أنْ يساعداها لكي تُنقذ طفلها. فذهبت، تلبية لنصيحتهما، إلى كريـت وهنـاك، في كهفٍ عميق تحت أشجار الغابات الكثيفة لجبل أغيون، وضعَتْ طفلها. أخـذت غيا الطفل الوليد وتولّت تنشئته. في تلك الأثناء لفَّتْ ريا حجـراً ضـخماً بقمـاش القماط وقدّمته إلى كرونوس فلم يرتَبْ في الأمر، وقام بابتلاعه على الفور.

في تلك الأثناء كانت غيا قد حملت حفيدها إلى جبل إيدا (البعض يقولـون إلى جبل ديكته) ولكي تضمن سـلامته وضـعته بـين أيـدي الحـوريتين أدراسـتيا وأيدا، ابنتا ميليسيوس، ملك كريت. أحاطت الحوريتان الإلـه الـصغير بالعنايـة والانتباه، فوضعتاه في مهدٍ من الذهب ولكي تسلّية قدَّمت أدراستيا له كرة مؤلَّفة من دوائر من الذهب. ولكي لا يسمع كرونـوس بكـاء الطفـل كـان الكوريتيـون يرقصون حوله رقصات الحرب، بالقرع على تروسهم البرونزية بسيوفهم.

فمن هم بالضبط الكوريتيون؟ في الأزمان الأولى كانت هنـاك قبيلـة تحمـل هذا الاسم وتستقر في ايتوليا. مـن ناحيـةٍ أخـرى خلـعَ اليونـانيون علـيهم لقـب جيجينـيس (أطفـال الأرض) أو إمـبروجينيس (أطفـال المطـر)، لـذا يمكـن أنْ يكونوا أرواح الأرض. لكنّ هيرودوتوس يُسمّيهم الفينيقيـون، أتبـاع قـدموس، الـذين اسـتقرّوا في كريـت. ويقـول الـبعض إنهـم جـاؤوا مـن فريجيـا. ولعـلَّ الكوريتيين كانوا كهنة كريتيين مُكرَّسين لعبادة الطقوس المُعربدة للإلهة العظيمـة ريا. كانوا مميَّزين بشخصيتهم المُحاربة من ناحية والكهنوتيّة مـن ناحيـةٍ أخـرى. ولكي تتعزز هيبتهم تم تأليه الأوائل منهم وبهذا أضحوا الكـوريتيين المقدَّسـين، حُماة زيوس. كانت لهم معابد، في ميسينا خاصةً، مما يُبرهن علـى انحـدارهم مـن روح الأرض ويظهـر الكوريتيـون مـراتٍ عديـدة في تـاريخ الميثولوجيـا اليونانية، فبناء على أوامر هيرا خطفوا الصغير إيبافوس، ابن زيوس ويو، خِفيـةً عند ولادته، فأعدمهم زيوس.

هكذا نأى زيوس الصغير بنفسه عن قسوة والده وترعرعَ في غابات أيدا. وخُصِّصت له المعزاة أمالثيا لتُرضعه. كانت حيواناً عجيباً، مظهرُها يُرعب حتى الخالدين. وتعبيراً عن امتنانه لها خصَّص زيوس لها لاحقاً مكاناً بين الأبراج السماوية. ومن جِلدها، الذي لا يمكن لأي سهم أنْ يخترقه، صنعَ الدرع المهيب. وللحوريات أعطى أحد قرنيها، وأضفى عليه خاصية رائعة هي أنَّه يمتلئ من تلقاء ذاته دون كلل بكلِ ما تشتهي النفس من طعام أو شراب، وأصبح قرن الوفرة (كورنوكوبيا). وطِبقاً لبعض المؤلفين كانت أمالثيا هي زوجة ميليسيوس، وأرضعَتْ الإله الصغير من حليبها. والبعض الآخر جعلَ منها حورية كانت فقط تراقب الطفل زيوس، مُدَّعين أنَّ الإله كان يُغذَّى بطعام الآلهة وبرحيق إلهي كانت تُجلبه إليه يمامات وصقر. وإذا كانت أدراستيا وأيدا تُسميّان ابنتا ميليسيوس (من الكلمة اليونانية ميليسا، أو النحلة) أليس ذلك لأنَّ نحل أيدا كان يجلب عسله العطِر إلى الطفل المقدَّس؟

الوحي الذي تنبّأ لكرونوس بأنَّ أحد أبنائه سوف يخلعه عن عرضه لم يكذب. فحالما بلغَ زيوس مبلغ الرجال وضعَ خطَّةً لإنزال العقاب بوالده. ويُخبرنا أبولودوروس أنه استدعى ميتيس، ابنة أوقيانوس، لتساعده. فأعطت ميتيس كرونوس جرعةً جعلته يتقيَّأ الحجر ومعه الآلهة، أولاده، الذين كان قد ابتلعهم. وبعد أنْ دحرته قوة زيوس، طُردَ كرونوس من السماء وأُلقيَ به في أعماق الكون وهناك قُيِّدَ بالسلاسل في المنطقة الممتدة تحت الأرض والبحر العقيم. على الأقلّ هذا ما يقوله هومروس، ووفق آخرين أُرسِلَ كرونوس إلى نهاية الأرض ليُقيمَ في نعيم، أو استغرقَ في نومٍ غامض في ثول النائية.

لكي يؤمِّن شاهداً على اِنتصاره وضعَ زيوس الحجر الذي كان كرونوس قد تقيأه في بايثو المقدَّس، عند أسفل جبل البارناسوس، «لكي تنظر إليه ذات يوم عيون البشر كتذكار على تلك العجائب».

هذا الحجر الشهير حُفظَ لزمنٍ طويل في دلفي بين جدران جَدَث نيوبطوليموس. وهنا تبدأ حقبة الآلهة الأولمبيين.

تمرُّد التيتان: كان التيتان، باستثناء أوقيانوس، يشعرون بالغيرة من الآلهة الجديدة ورغبوا في الاستيلاء من جديد على المملكة التي انتُزِعَتْ منهم. وبدأ القتال الرهيب. ومن معقلهم على جبل أوثريس شنَّ التيتان هجمات غاضبة على الأوليمبوس. وطوال عشر سنوات بقيَتْ نتيجة الحرب مشكوكاً فيها. هبطَ زيوس إلى تارتاروس، حيث يُسجَن الهيكاتونشير والسيكلوب، يحرسهم الوحش كامب. أطلقَ سراحهم وجعلهم حلفاء له. منحه السيكلوب قصف الرعد ووضع الهيكاتونشير جيوشهم التي لا تُقهَر تحت تصرفه. وسحقوا التيتان بما يحملونه من جلاميد ضخمة من الحجارة. «وهدرَ البحر وضجَّتْ الأرض بتأثير الأصوات المخيفة وأنَّتْ السماء المرتعشة بصوت عال». زيوس أيضاً كان عاجزاً عن كبح حنقه الذي شحنته به الحرب وانضمَّ إلى القتال. ومن مرتفعات الأوليمبوس، يُخبرنا هزيود، من مرتفعات السموات أطلقَ الرعد الهادر والبرق. وبيدٍ لا تعرف الكلل راح يقذفُ العاصفة بعد الأخرى، وشقَّ الجو الهدير والصخب. وارتعشتْ الأرض الخصبة واحترقتْ، واشتعلتْ مساحات شاسعة من الغابات بالحريق وذابت الأشياء كلها وغَلَتْ: نهر أوشن، البحر الشاسع والأرض بأكملها. واكتنفَ التيتان الجحيميين من كل جانب ضباب كثيف وهواء ملتهب، كانت نظراتهم الجسور ممتزجة تبهرها ومضات البرق. بل إنَّ النار وصلتْ إلى كيوس، وإذا اعتمدنا على ما رأته العين وما ميَّزته الأذن نقول إنَّ السماء والأرض كانتا في حالة ارتباك، فالأرض اهتزَّتْ من أساسها، والسماء كانت تنهار من عليائها. إلى هذه الدرجة كانت ضخامة هدير تلك المعركة التي دارت بين الآلهة.

على الرغم من كبرياء التيتان وشجاعتهم إلاّ أنهم دُحروا في نهاية المطاف، وأوثقوا بالسلاسل، وألقوا في غياهب أعماق الأرض ـ إلى أبعد نقطة عن سطحها كبُعد الأرض نفسها عن السماء. «هناك بين الظلال والأبخرة ذات الرائحة الكريهة، في آخر نقطة من العالم، دُفِنَ التايتان، بأمرٍ من ملك السموات».

حرب العمالقة: لم يكد زيوس يُخمِد هذا التمرُّد الخطر حتى اضطرَّ إلى الانخراط في صراعٍ جديد، وهذه المرة ضد العمالقة. كان العمالقة قد برزوا من دماء أورانوس المخصي ولم يكونوا فقط يتميَّزون بأحجامهم. فأولئك الأبناء

الضِخام للأرض كانت لهم سيقان أشبه بالأفاعي وأقدامهم على شكل رؤوس زواحف. وحالما برزوا من أحشاء الأرض في فليغرا، في شبه جزيرة بالين، ظهروا مرتدين ذروعاً برّاقة ويقبضون على رِماحٍ ضخمة. كان قائداهم هما بروفيريون وألسيونيوس. وقد هاجموا أوليمبوس في الحال، الذي كانت كتلته تحتلّ سهل فليغرا من جهة الغرب. وكانت الجزر، والأنهار، والجبال، كلها تُفسحُ الطريق لهم. يقول كلوديان «بينما أحدهم يهزُّ بذراعٍ نشطة جبل أويتا الثيسالي في الهواء، كان آخر يوازنُ قِمم جبل باغيا بيده القوية. أحدهم كان يتسلّح بثلوج جبل آثوس، وآخر يقبض على جبل أوسّا ويرفعه، بينما ثالث لا يزال يمزِّق جبال رودوب.. كان الضجيج الرهيب يتردَّد صداه من الجهات كلها». ومن أجل بلوغ مرتفعات أوليمبوس كوَّمَ العمالقة الجبال المُحيطة واحداً فوقَ آخر، أوسّا فوق بليون. لكنَّ الآلهة المتكتّلة حول زيوس ـ باستثناء ديمتر التي لم تشترك في النزاع ـ لزموا أماكنهم أمام المعتدين. صرعَ أبولو إفيالتيس. وكليتيوس سقط تحت ضربات هيقاتي أو هيفيستوس. وآريس المتهوِّر طعنَ بيلوروس وميماس بسيفه. ولاحقَ بوزيدون بوايبوتس عبر البحر، وأطاحَ بجزيرة نيسيروس فوقه ودفنه.

ولكن لم يكن في إمكان الآلهة وحدها أنْ تحقِّق الانتصار، لأنَّ الوحي كان قد أعلنَ أنَّ أبناء غيا لن يستسلموا إلاّ تحت ضربات إنسان. هذا الإنسان هو هرقل (أو هيراكليس، باليونانية)، الذي كان يرافقه أحياناً ديونيسيوس. فبينما كان ديونيسيوس يضرب ريتوس (أو يوريتوس)، هاجمَ هرقل أليسونيوس. في أول الأمر قاوم العملاق ضرباته. دُهش هرقل، ولكن أثينا كشفَتْ له أنَّ أليوسيونيوس يبقى منيعاً ما دام يقفُ على التراب الذي أنجبه. فأمسك هرقل العملاقَ من ذراعيه وأبعده عن منطقة بالين ومن ثم قام في الحال بذبحه. أرادَ بروفيريون أنْ ينتقم لأخيه، لكنَّ زيوس ألهمه بحبِ هيرا المفاجئ. وبينما العملاق يُلاحقُ هيرا، أصابه هرقل بسهمٍ قاتل. ومنذ تلك اللحظة باتت هزيمة العمالقة مؤكدّة. وحاول بالاس وإنسيلادوس عبثاً أن يقاوما أثينا؛ فدحروا جميعاً واحداً في إثر آخر. صنعت أثينا من جلد بالاس الدرع. أما إنسيلادوس فدفنَته تحت جزيرة صقلية. وحتى هذا اليوم حين يتقلَّب العملاق، تهتز الجزيرة كلها.

طايفويوس: لكنَّ غيا لم تتمكن من التكيُّف مع هزيمة أولادها. فأهاجت ضد زيوس وحشاً أخيراً، طايفويوس، الذي ولدته من تارتاروس. كان مخلوقاً رهيباً لا تكفُّ يداه عن العمل ولا تتوقف قدماه عن الحركة. من كتفيه يبرز مئة رأس تنين مُخيف، وكل منها مزوَّد بلسان أسود سريع الحركة وعينين تلفظان لهباً. من فخذيه يخرج عدد لا يُحصى من الأفاعي، وكان جسمه مُغطّى بالريش، ومن رأسه ووجنتيه ينبت شعر كثيف. وكان أطول قامة من أعلى جبل. وحين شاهد الآلهة طايفويوس تملّكهم الخوف وهربوا حتى وصلوا مصْر. وحده زيوس وقفَ بثبات أمام الوحش، لكنَّ الأفاعي الكثيرة التفَّتْ حوله وسقط بين يديّ طايفويوس الذي قطع أوتار يديه وقدميه وسجنه في وكره في كيليكية. فأنقذه هرمز، وعاد إلى القتال. وبعواصفه الرعدية تغلَّبَ على طايفويوس، الذي فرَّ هارباً إلى صقلّية، وهناك سجنه الإله تحت جبل إتنا.

وهكذا في المراحل الأولى من العالم، حين لم تكن قد تمَّتْ السيطرة على العناصر وكانت المادة لا تزال متمرِّدة، ظهرت كوارث مرعبة هددَّت باكتساح كل شيء. تلوَّثْ الأرض واهتزَّتْ. والجبال تهاوت أو انشقَّت لتلفُظ صخوراً ضخمة وحجاراً ذائبة، وحادت أنهارٌ عن مساراتها، وارتفعّتْ البحار واكتنفت الأرض. ولكنَّ الحِكمة المقدَّسة، مُنظّمة الكون، فرضَتْ أخيراً إرادتها على هذه العناصر المشوَّشة كلها. وترسّختْ الأرض، وخمدَتْ البراكين، وعادت الأنهار التي حسَّنتْ من سلوكها لتسقي السهول ولم يعُد البحر المصطخب يُطيحُ بأمواجه إلى ما بعد رمال شواطئه. وولد التناغُم من جديد وقدَّمَ الإنسان، المُطمئن، شكره إلى الإله الذي تغلَّبَ بقوّته على قِوى الشر.

أكَّدَ اندحار طايفويوس على تفوُّق زيوس الدائم والنهائي. ومنذ ذلك الحين لم يعد أي عدو يجرؤ على أنْ يقيس قوَّته بقوة هذا الإله الذي قهر قِوى الشر كلها، لقد ترسَّخَ مُلكُه بانتصارٍ ثُلاثيّ، ولم يعد هناك خطرٌ جدّي يُعكّر صفوه، ومن بين آلهة أوليمبوس احتفظَ زيوس بمكانته كسيدٍ لا مُنافس له للآلهة وللبشر.

أصول الإنسانيّة:

بروميثيوس: كان التيتان يابيتوس أباً لأربعة من الأبناء. أمّهم، وِفقاً لهزيود، كانت الأوقيانيدة كليمين: ووفقاً لأسخيلوس، كانت ثيميس. اثنان من أولئك الأبناء، مونوتيوس وأطلس، عاقبهما زيوس، والسبب دون شك كان اشتراكهما في التمرُّد على زيوس. مينوتيوس أُنزِلَ إلى أشد أعماق إيريبوس ظُلمة، عقاباً له على «خبثه وجرأته غير المحدودة». اما أطلس، فحُكمَ عليه بالبقاء واقفاً إلى الأبد، أمام الهسبيريدس على حافة العالم، وبأنْ يحمل على كتفيه قُبّة السموات. الاثنان الآخران ـ برومثيوس (المُتنبّئ) وإيبيميثيوس ـ فكان مصيرهما مختلفاً ولعبا دوراً مهماً في التاريخ الأسطوري لأصول الإنسانيّة.

أمام جبروت آلهة الأوليمبوس الذي لا يمكن تحدّيه، لم يبقَ لدى برومثيوس من أسلحة غير المكر. وأثناء تمرُّد التيتان التزم جانب الحياد الحكيم بل إنه قام بالتقرُّب إلى زيوس حين بات من الموكَّد أنه سيربح الحرب. وعليه سُمِحَ لبرومثيوس بالدخول إلى جبل الأوليمبوس والانضمام إلى حلقة الخالدين. لكنّه كان يضمرُ حقداً أخرس على الذين قضوا على سلالته وانتقمَ لنفسه بتفضيله البشر على أذى الآلهة.

لعلَّ كان لديه أسباب أخرى لاهتمامه بالجنس البشري، فإحدى الروايات قالتْ ـ في وقتٍ متأخِّر، إنَّ برومثيوس كان خالق الجنس البشري. فهو الذي عمل مع الأرض والماء ـ وقال البعض مع دموعه ـ على تشكيل جسد الإنسان الأول الذي نفخَتْ فيه أثينا الروح والحياة. في فوكيس شاهد المؤلِّف بوسانياس نُتفاً من الطمي القاسي له رائحة الجلد الإنساني وكانت ببساطة بقايا الطين الذي استخدمه برومثيوس.

ولكن يبدو أنَّ هذا الخلق حدث بعد زوال سلالة البشر المُبكّرة في الطوفان. وفي الواقع هناك رأي سائد يَنسُبُ إلى الجنس البشري أصلاً أعرق وأكثر نبالة. يقول بندار «إنَّ البشر والآلهة من فصيلةٍ واحدة: ونحن نُدين بنفحة الحياة للأم نفسها».

عصور الإنسان الأربعة: إنَّ البشر الأوائل، المعاصرين لكرونوس، استمتعوا بسعادة كاملة. كان عصراً ذهبياً. ويقول هزيود: «لقد عاشوا كالآلهة، متحرّرين من القلق والتعب، ولم يعرفوا الشيخوخة. وكانوا يرتعون في احتفال مستمر». ولم يتضمَّن مصيرهم الخلود، ولكن على الأقلّ «كانوا يموتون وكأنَّهم تحت تأثير نوم لذيذ. كان نعيم العالم كله من نصيبهم: كانت الأرض الخصبة تُعطي نفائسها دون طلب من أحد. وعندما يموتون، كان بشر العصر الذهبي يصبحون من الجان الخيّرين «حُماة الأحياء وحُرّاسهم الأوصياء».

بعد العصر الذهبي جاء العصر الفضّي، الذي عاشت فيه سلالة من الرجال الواهنين والحمقى الذين يرضخون لأمهاتهم طوال حياتهم (بمعنى، كان عصر تحكُّم النساء). كانوا أيضاً من المزارعين، كما يقول هزيود.

كان رجال العصر البرونزي غِلاظاً كأشجار الدرداء ولا يبتهجون إلا بالتجديف وبالقيام بالأعمال الحربية البطولية. «قلوبهم التي لا تعرف الرحمة كانت قاسية كالفولاذ، وقوتهم غير مروَّضة، وأذرعهم لا تُقهَر». وانتهى بهم الأمر إلى ذبح بعضهم بعضاً. وفي هذا الجيل بدأ اكتشاف المعادن الأولى وانطلاق المحاولات الأولى في بناء الحضارة.

بعد العصر البرونزي يضع هزيود العصر البطولي، الذي ساده محاربون شجعان حاربوا أمام أبواب طيبة وتحت أسوار طروادة. لكنَّ الرأي الأوسع انتشاراً كان أنَّه بعد العصر البرونزي جاء العصر الحديدي ـ العصر المُعاصر، الذي كان فترة من البؤس والجريمة «حين لم يعد الناس يحترمون عهودهم، ولا العدالة، ولا الفضيلة».

هكذا فسَّرا الانحلال المطَّرد للبشرية.

سرقة النار ـ باندورا: طوال فترة حكم كرونوس، عاش الآلهة والبشر في تفاهم مشترك. ويقول هزيود: «في تلك الأيام كانت الوجبات يتمُّ تناولها جماعياً، فيجلس البشر والآلهة الخالدون معاً». ومع مجيء آلهة الأوليمبوس تغيّر كل شيء. فقد فرضَ زيوس تفوّقه المقدَّس على البشر. وعُقِدَ اجتماع للآلهة

والبشر في سيسيون من أجل تحديد الأضاحي التي ستُقدَّم للآلهة. فمدَّدَ بروميثيوس، الذي كان مسؤولاً عن التوزيع، ثوراً ضخماً كان قد قطَّعه على طريقته الخاصة. ورتَّب اللحم، والأحشاء والقطع الأشد غضاضة في الجلد ووضعها جانباً، وعلى الجانب الآخر وضع بغدر العظام المُجرَّدة من اللحم غطّاها بطبقة من الشحم. فانتقى زيوس، الذي دُعيَ ليقوم بالاختيار الأول، العِظام، ولكن حين أزالَ الشحم الأبيض البرّاق لم يجد غير عِظام الحيوان فاستشاط غضباً. وفي غمرة ثورة غضبه منع النار عن السلالة التعسة التي عاشت على الأرض. ولكن بروميثيوس الماكر ذهبَ إلى جزيرة لمنوس، حيث يحتفظ هيفيستوس بأكيار الحِدادة. ومن هناك سرقَ جمرة من النار المقدَّسة التي كان يُخفيها داخل ساق مُجوَّفة وعادَ بها إلى البشر. وهناك رواية أخرى من القصة تدَّعي أنه أشعل مشعله من دولاب الشمس.

ثار غضب زيوس بسبب تلك السرقة فأرسلَ كارثة أخرى إلى البشر. أمرَ هيفيستوس بتشكيل جسد من الطين والماء، وإعطائه القوة الحيوية وصوتاً إنسانياً، وبأنْ يجعل منه عذراء يُعادلُ جمالها المُذهل جمال إلهة خالدة. وكدَّست الآلهة كلها هِباتها الخاصة في هذا المخلوق الجديد، الذي تلقَّى اسم باندورا. لكنَّ هرمز وضعَ الخِداع في قلب باندورا والأكاذيب في فمها. بعد ذلك أرسلَها زيوس كهدية إلى إبيميثوس. وعلى الرغم من أنَّ أخيه بروميثيوس قد حذره من قبول أي هدية من حاكم جبل الأولمب، إلا أنَّ إبيمثيوس الأحمق فُتِنَ بجمال باندورا، ورحَّبَ بها، وأفسحَ لها مكاناً بين البشر. ياللحماقة التعسة ذلك أنَّ باندورا كانت تحمل بين ذراعيها مزهرية ضخمة ـ تُسمَّى خطأً «بصندوق باندورا». رفعتْ غطاءها، فإذا بمصائب رهيبة كانت المزهرية تمتلئ بها تخرجُ منها وتنتشر في أرجاء الأرض كلها. الأمل وحده لم يخرج. وهكذا، مع وصول المرأة الأولى، ظهر البؤس على وجه الأرض.

الطوفان ـ ديوكاليون وبيرحة: لكنَّ غضب زيوس لم يخمد. وأثناء غضبه صمَّمَ على إبادة الجنس البشري بدفنِهِ تحت أمواج طوفان. ولكن مرةً أخرى كان بروميثيوس يقظاً. فحذَّر ابنه ديوكاليونَ بنصيحة والده وبنى سفينة واستقلها مع

زوجته وسافرا بعيداً. بقيا يبحران على مدى تسعة أيام وتسع ليال. وفي اليوم العاشر توقف السيل الهاطل وترجَّلَ الناجيان على سطح جبل أوثريز أو جبل بارناسوس، قدَّم ديوكاليون أضحية لزيوس فيكسيوس (حامي الهائمين على وجوههم) فتأثَّرَ الإله بورعه ووعده بتلبية أمنيته الأولى. فطلبَ ديوكاليون من زيوس أنْ يُعيد الجنس البشري.

ثمة أسطورة أخرى تقول إنَّ ديوكاليون وبيرحة، ذهبا إلى دلفي، ووجّها صلواتهما إلى ثيميس. فأجابت الإلهة، «غطّيا رأسيكما، وأزيلا الأحزمة عن ملابسكما وارميا خلفكما عِظام سلفكما الأول». للوهلة الأولى أصابهما الذهول، وأخيراً حلَّ ديوكاليون وبيرحة لغز هذا الأمر المُبهم. فغطيا رأسيهما ومشيا عبر السهل، وهما يرميان خلفهما حجارة أخذت من الأرض ـ إذ أليسا ينحدران من غيا، الأرض، وأليس الحجارة هي عِظامها نفسها؟ الحجارة التي رماها ديوكاليون تحوَّلتْ إلى رجال، وتلك التي رمتها بيرحة تحوّلتْ إلى نساء.

استُعيدَ الجنس البشري وتخلَّص زيوس من ثورة غضبه، واعتُبرَ ديوكاليون أبو الهلّينيين، وأول ملك، ومؤسِّس البلدان والمعابد. وهو، كما يُقال، الذي بنى معبد زيوس الأولمبي في أثينا، وبالقُربِ من المعبد كان ضريحه بارزاً. وفي ساينوس يتفاخرون بأنَّ عندهم ضريح ديوكاليون وزوجته بيرحة.

تعذيب برومثيوس: على الرغم من استقرار السلام بين زيوس والجنس البشري، إلاَّ أنه كان لا بد لبرومثيوس من أنْ يدفع ثمناً وحشياً لما مارسه من خداع وسرقة. وبأمرٍ من زيوس، قام هيفيستوس، يُساعده كراتوس وبيا، بإلقاء القبض على برومثيوس وأوثِقَ بسلاسل لا يمكنُ كسرها على سفوحِ جبل القوكاسوس. وهناك «كان نسر مفروش الجناحين، أرسله زيوس، يتغذّى على كبده الخالد، وبقدر ما كان الوحش المُجنَّح يلتهم أثناء النهار كان ينمو بالقدر نفسه خلال الليل». وعلى الرغم من العذاب أصرَّ التيتان على موقفه من التمرُّد. كان يمقت الشكوى وتقديم الصلوات المُذلّة ولم يكفّ أبداً عن تحدّي رب جبل الأوليمبوس وعن الجهر بكراهيته بنوبات عنيفة. إذ ألم يكن ينطوي على سرٍ يختصُّ بشكلٍ خطِر مستقبل زيوس نفسه؟

وأخيراً بعد ثلاثين عاماً من الآلام ـ يقول آخرون ثلاثة آلاف عام ـ قام هرقل المقدَّس، بإذنٍ من زيوس، بإنقاذه، فذبح النسر وكسرَ سلاسل الأسير. بعد ذلك أفشى بروميثيوس لزيوس بسرّه الشهير وحذَّره من أنه إذا استمرَّ في التودد إلى ثيتيس، ابنة زيوس، فسوف يُخاطرُ برؤية ابن له يولَد لكي يخلعه عن عرشه. وتخلّى زيوس عن مشرعه العاطفي، لعدم رغبته في مُلاقاة الكارثة نفسها التي نزلَتْ بوالده وبجدِه، وسمحَ لثيتيس بالزواج من بشر، بليوس.

لكنَّ بروميثيوس لم يتمكْن من اكتساب خلوداً مقدَّساً إلا إذا وافق أحد الخالدين على تبادل المصير معه. وكان القنطور كيرون، الذي كان هرقل قد أصابه بسهمٍ مسموم، في حالةِ يأسٍ مخافةً ألا يندمل جرحه. ولكي يضع كيرون حدّاً لآلامه التمسَ السماح له بالهبوط إلى هاديس (العالم الأسفل) ليحلّ محل بروميثيوس. وافقَ زيوس، ومنذ ذلك الحين وابن يابيتوس يحتل مكانه الدائم على جبل الأوليمبوس. والآثينيون، الذين رؤوا في بروميثيوس المُحسِن للجنس البشري وأبا الفنون والعلوم كلها، أقاموا مذبحاً لأجله في حدائق الأكاديمية.

أوليمبوس:

جبل أوليمبوس: على تخوم ثيسالي ومقدونيا، على طول شواطئ بحر إيجة التي لا يفصلها عنه إلا شريطٌ ساحليّ ضيّق، تنهضُ سلسلة جبل أوليمبوس المهيبة التي يبلغ ارتفاع ذراها نحو تسعة آلاف قدم.

كان جديراً بالبحّار الذي أبحر في خليج ترم (اليوم يُسمّى خليج سالونيكا) أنْ يشعر بأنه مُترع بالرهبة الدينية حين يلاحظ أمام خط السماء ذات الزُرقة القاتمة المسقط الجانبي الشامخ لجبل الأوليمبوس. وقد تزامنَ كل شيء ليكشف له الجلال المخيف للآلهة. فأولاً لم يكن لديه أي شك في أنَّ أوليمبوس هو أعلى الجبال في العالم. ثم سيتذكَّر أنَّ وادي تمب الضيق، الذي يفصل أوليمبوس عن أوسّا ويُهدهدُ تحت شجر الصفصاف وشجر الدلب مجرى نهر بنيوس الهادئ، قد أفرغه زيوس أثناء صراعه مع التيتان. وأخيراً لن يجرؤ على رفع عينيه نحو الذُرى، لأنه كان يعلم أنَّ هناك في الأعالي، خلف غلالة الغيوم

التي تُخفيهم عن أنظار البشر، يُقيم الآلهة العظام. ويميل على مِجدافيه ويُكرِّر كلمات هومروس العجوز الذي قال، في معرض كلامه عن أوليمبوس: «لا يمكن للرياح أنْ تزيحه ولا للثلوج أن تلمسه، ولا يكتنفه إلا الهواء النقيّ، ويُغلّفه صفاءٌ أبيض. والآلهة هناك تتذوق طعم السعادة التي تدوم دوام حياتهم الأبدية».

في الواقع حين سحب أبناء كرونوس القرعة لتوزيع حصص أمبراطورية العالم، كان نصيب زيوس هو مناطق إثير السامية، وبوزيدون البحر الهائج، وهيدس أعماق الأرض المُعتمة. ولكن تمَّ الاتّفاق على أنْ يكون حكم أوليمبوس عاماً للآلهة كلهم وأنَّ عليهم أن يجعلوا منه مكان إقامتهم.

الآلهة فوق قمة الأوليمبوس: تجمَّع الآلهة فوق قمة أوليمبوس، وشكَّلوا مجتمعاً له قوانينه وتسلسله الهَرمَي الخاص به. في المقدمة يأتي الآلهة الاثنا عشر الكبار: زيوس، بوزيدون، هيفستوس، هرمس، آريس، أبولو، هيرا، أثينا، أرتميس، هيستيا، أفروديت وديمتر. وإلى جانبهم اصطفَّت آلهة آخرى، بعضهم اعتبر نفسه على قدم المساواة مع الآلهة الاثني عشر العِظام. وهؤلاء هم هيليوس، وسيلين، وليتو، وديون، وديونيسوس، وثيميس وإيوس. ومن ثم أصحاب المراتب الأدنى، الذي يُشكّلون حاشية الأولمبيين وأقسموا على خدمتهم، وهم: الهوريات، والموريات، ونمسيس، وإلهات الحُس الثلاث، والميوزات، وآيريس، وهيبه، وغانيميد. ويجب الإشارة إلى أنَّ هيدس، مع أنه أخو زيوس، لم يكن يتردَّد على الأوليمبوس وبقيَ، مع الإلهة برسيفون وهيقاتي، في إمبراطوريته التحت أرضيّة.

هيمن زيوس على هذا المجتمع كحاكم مُطلق اليد. وإذا كان الآلهة تُغريهم أحياناً دوافع للتمرّد فإنهم سرعان ما كانوا يعودون إلى حظيرة الطاعة. في كتاب هومروس نرى كيف يُخاطبهم زيوس: «فليحذر كل إله، فلتحذر كل إلهة من محاولة إعاقة إرادتي... أو فسأقبض عليه وأرمي به إلى تارتاروس الشديدة الظُلمة. عندئذٍ سوف يعرف إلى أي مدى أنا أقوى من الآلهة كلهم، هيا، إذن، حاولوا، أيها الآلهة، وسوف تكتشفون مع مَنْ تتعاملون. علّقوا من السماء سلسلة من ذهب وتمسكوا بها جميعاً، آلهة وإلهات، ومهما بذلتم من جهد فلن تتمكنوا من زحزحة

زيوس، بكل حِكمته السامية، عن السماء وتنزلونه إلى الأرض. ولكن حين سأبدأ لاحقاً بالشدّ سوف أجرّكم جميعاً، أنتم والأرض والبحر معاً، سوف أشدّكم إلى أعلى وألفُّ حول ذروة جبل أوليمبوس وسوف تبقون كلكم مُعلّقين هناك في الجو» ومن دون أنْ يضطرّ زيوس إلى تنفيذ وعيده كان يُنزل عقوبات قاسية على الآلهة الذين أزعجوه. فمثلاً، كان يجعلهم لفترات قصيرة عبيداً للبشر، كما كان مصير بوزيدون وأبولو. لذلك، لم يكن الآلهة يُعارضونه، وحتى هيرا السريعة الغضب كانت تستشير التعقُّل.« وبما أنه من الحماقة أنْ نفقد أعصابنا مع زيوس... فهو يجلس بعيداً عنا دون أنْ يشعر أي منا بالقلق أو بالانزعاج، ذلك أنه يفخر بأنه متفوِّق بصورة تجعله خارج المنافسة مع الآلهة الخالدة في القوة والسلطان. لذا تكيّفوا».

ولكن فوق الآلهة، وفوق زيوس نفسه كانت تهيمنُ قوةٌ مطلقة يرضخُ لها الجميع، موروس، أو القَدَر. ابن الليل، موروس، الخفي والمُظلم كأمه، الذي يُعِدُّ قراراته في الظِلال ويوسِّع نِطاق نفوذه الذي لا يمكن الهروب منه ليشمل الجميع. زيوس نفسه لم يكن يستطيع أنْ يتجاهل قراراته ويضطرّ إلى الرضوخ إليها كأشد البشر تواضعاً. ثم أنه لم تكن لديه أي رغبة في تجاهُل قرارات القَدَر، إذ، بما أنه هو نفسه يمثُّلُ الحكمة العليا، كان يعي أنه بإزعاجه مسار الأحداث المُقدَّر إنما يُسبِّب فوضى في الكون الذي مهمّتَه أن يحكمه لهذا، حين يتعلَّقُ الأمرُ بإنقاذ حياة ابنه ساربيدون، الذي حدَّدَت آلهة القدر موعد موته، فضَّلَ زيوس أن يرضخ ويستسلم لتنفيذ ما قُدِّرَ.

كانت أيام الآلهة تمضي بمرح وضحك. أحياناً، عندما كانوا يتدخّلون في شؤون البشر الذين كانوا يتبنّون شجاراتهم بحماس، يدبُ الخِلاف بينهم. لكنَّ تلك العواصف العابرة لم تكن تؤثِّر على الصفاء الطبيعي الذي يسود جبل أوليمبوس.

كان الآلهة يجلسون حول موائد من ذهب ويأكلون ويشربون رحيقاً وطعاماً سماويين، ويستمتعون بعبق رائحة المواشي المُسمَّنة التي يشويها البشر على شرفهم على مذابحهم في الأسف. وحتى حين طلب زيوس اجتماعهم لاستشارتهم على أعلى ذروة من قمة جبل أوليمبوس حيث يُقيم، كانت الحسناء هيبا تمرُّ بينهم تصبُّ لهم رحيق الآلهة، وتنتقلُ كؤوس الذهب من يدٍ إلى يد.

وبينما هم يشروبون، يُدخِلُ أبولو البهجة إلى قلوبهم بأنغامه التي يعزفها على قيثارته وتغني الميوزات بدورهنّ بأصواتهنَّ العذبة.

وأخيراً، «بعد أنْ يختفي مشعل الشمس البرّاق يستأذن الآلهة بالمغادرة ويعودون إلى المسكن الذي بناه هيفستوس ببراعةٍ مُعجزة لكلٍ منهم، وهناك يأخذون قسطاً من الراحة وينامون».

إذا كانت الحياة اليومية للآلهة تشبه حياة البشر فذلك لأنَّ طبائع الفريقين، على الأقلّ في المظهر، لم تكن متباينة، كانت أجسامهم تشبه الأجساد البشرية، لكنّها تتفوَّق عليها في القامة والقوة والجمال. فجسم آريس، إذا تمدَّدَ على الأرض يُغطي طول سبعة بليثرات - أي أكثر من مئتيّ ياردة بكثير - وعندما كانت هيرا تُقسِم بستيكس من فوق أعالي الأوليمبوس، كان في إمكانها أنْ تلمس الأرض بإحدى يديها وتمدّ يدها الأخرى لتصل حتى البحار.

ولكن في حالة الآلهة استُبدِلَ الدم بمادة أكثر ميوعة، بمُهل، يجعل الجسد مُقاوِماً للفناء وللفساد. وهذا لم يمنع الآلهة من كونهم مُعرَّضين للأذى بالأسلحة التي يستعملها البشر. لكنَّ جراحهم، مهما كانت مؤلمة، دائماً تلتئم وتستعيد أجسادهم شبابها الدائم.

هناك ميزة أخرى يتمتَّع بها الآلهة هي القدرة على التحوُّل، على تغيير أنفسهم إذا شاؤوا إلى حيوانات أو حتى أن يتّخذوا أشكالَ أشياءٍ جامدة.

والآلهة، كالبشر، عِرضةً للانفعالات الإنسانية. فقد كانوا يحبّون، ويكرهون، ويغضبون، وحتى يحسدون. وقد أنزلوا عقوبات وحشية بكل مَنْ أثاروا عِدائيتهم، لكنهم أمطروا الأفضال على الذين بجلّوهم وشرّفوهم بالهدايا.

زيوس:

إنَّ اسم زيوس بحدّ ذاته، الذي جذره السنسكريتي هو dyaus واللاتيني dies (النهار)، يُثيرُ فكرة السماء المُنيرة، إذن زيوس في الأصل هو إله السماء والظواهر الجوية. كان سيد الرياح، والغيوم، والمطر بوجهَيه المُدمِّر والمفيد معاً، والرعد. كان يُقيمُ في الأثير، الجزء الأعلى من الفضاء، وعلى قِمم الجبال. كان بدقة هو الأعلى. وعليه كان يُعبَد في الأماكن العالية كجبل ليسيوس في آركيديا، وجبل أبيساس في آرغوليس، وجبل برناسوس وهيميتوس في أتيكا، وهليكون في بويوتيا، وبليون في ثيسالي، وأوليمبوس في مقدونيا، وبانغيا في تراقيا، وأيدا في كريت/ وهلمجرا.

خصائصه وصِفاته: لاحقاً اتَّخذَ زيوس شخصيةً أخلاقية وأصبحَ الإله المُطلق الذي دمجَ فيه صِفات الألوهيّة كلها. كان كُلّي القُدرة، يرى كلَّ شيء ويعلمُ كل شيء، وبذلك كان منبع الألوهيّة كلها، سواء ألقى نبوءةً بنفسه كما يفعل من على جبل أوليمبوس أو جبل دودونا، أو لجأ إلى واسطة أبولو، رسوله، كما يحدث في دلفي. وبما أنه ملك حكيم، كان يقدِّر كلَّ شيءٍ وفقاً لقانون القدَر الذي تندمجُ فيه إرادته، ويوزع الخير والشر بين البشر، وكان، أيضاً، رقيقاً وعطوفاً. وعلى الرغم من أنه كان يؤدِّب الشرير إلاّ أنه كان قادراً على الشفقة. وكان يمنع الأخطار عن الناس، ويحمي الضعيف، والفقير، والهائم على وجهه، والمتضرعين كلهم. وعنايته المفرطة امتدَّت إلى العائلة بوصفِهِ إله الموقد، والزواج، والصداقة، وتجمّعات الناس. وأخيراً كان الإله الحارس لليونان كلها ـ زيوس اليونانيين كلهم.

عبادته: أشهر مواقع زيوس المقدَّسة كان دودونا، في إبيروس. كان أيضاً أقدمها، يعود تاريخه إلى عهد البيلاسجيين. فقد ذهب الناس إلى هناك من كل أرجاء اليونان ليستشيروا نبوءة شجرة بلوط مقدَّسة كان يُعتقد أنَّ حفيف أوراقها أوراقها وغمغماتها هي كلمات زيوس نفسه. وحول أصل هذه النبوءة يقول هيرودوتوس، الذي يدَّعي أنه سمعَها من بين شفتيّ كاهنة دودونا: «طارت

يمامتان سوداوان من طيبة في مصر، واحدة إلى ليبيا والثانية إلى دودونا. الثانية، التي حطَّتْ على شجرة بلّوط، بدأتْ تتكلَّم بصوتٍ إنسانيّ وتقول إنَّه يجب إقامة مهبط وحي لزيوس في هذا المكان. ويعتقد أهل دودونا أنهم تلقّوا أمراً من الآلهة، ونزولاً عند نصيحة اليمامة أقاموا مهبط الوحي». أؤتُمِنَ تأويل نبوءات دودونا إلى جماعة من الكهنة يدعون «سيللي»، وهو على الأرجح الاسم الذي كان يحمله السكان السابقون للبلد. وكان أولئك الكهان يمارسون التقشُّف، ويناموا على الأرض ولا يغسلون أقدامهم أبداً. إلى جماعة سيللي أُضيفَت لاحقاً ثلاث كاهنات، تسميّن البليادات. وكن مرتبطات بشكلٍ خاص بخدمة الإلهة ديون، التي كانت تُبجِّل في دودونا إلى جانب زيوس، والتي اتخذت هنا دور هيرا. كانت ديون إلهة بيلاسيجيّة، ووفقاً لهزيود هي ابنة أوقيانوس وتيثيس. ويُقال إنها كانت أمَّ أفروديت.

من بين مقامات زيوس المقدَّسة يجب أنْ نذكر جبل ليكيوس في أركاديا الذي يوجد على قمته تلة ترابية، أمامها عمودان محفور عليهما رسمٌ لنسرين. هنا، كما يُقال، كانت تُقدَّم الأضاحي البشرية ذات يوم. وأساس كلمة ليكيوس (وتعني «النور») يكشف عن أنَّ زيوس كان هنا في الأصل إلهاً شمسياً.

أخيراً، كان هناك معبد أوليمبوس الذائع الصيت بتمثاله الشهير للإله نحته فيدياس. كان يرتفع على قاعدة غنية بزخارفها طولها عشرة ياردات وعرضها سبعة ياردات. التمثال نفسه كان يعلو أكثر من ثلاث عشرة ياردة. ويمثل زيوس جالساً على عرش من البرونز، والذهب، والعاج والأبنوس، وهو يحمل بيده اليمنى تاج النصر بينما يده اليسرى تستقرّ على صولجانٍ يعتليه نسر، ويرتدي عباءة ذهبية رسمت عليها أزهار، وعلى جبينه إكليل من أغصان الزيتون، وعلى ملامحه، التي تحيط بها لحية طويلة، يرتسم تعبير فخامة هادئة.

صورة التمثيلية: إنَّ تمثال زيوس الأوليمبي الذي نفذّه فيدياس كان يمثّل النموذج الذي ألهمَ فنانين لاحقين. وكان الإله عادةً يُصوَّر على هيئة رجل في كامل نضجه، ذي جسم قويّ، وقسمات وجهه جادّة وجبينٍ عريض يبرز من فوق عينين عميقتين. وجهه مُحاطٌ بشعرٍ متموِّج غزير ولحية متموجة. وفيما عدا

الصور القديمة كان نادراً ما يظهر عارياً تماماً. إنه عادةً يرتدي عباءة طويلة تترك صدره وذراعه اليمنى حُرّين، رموزه هي الصولجان الذي في يده اليمنى، والصاعقة التي في يده اليسرى، والنسر الذي عند قدميه، وغالباً ما يحاط جبينه بتاج من أوراق شجر البلوط.

زيجات زيوس: قبل أنْ يتزوج من هيرا ويربطها رسمياً بسلطته العليا، كان زيوس، الذي كانت وظيفة التناسل من أبرز وظائفه، قد عقد زيجات عديدة.

زوجته الأولى كانت ميتيس (الحِكمة) التي، كما يقول هزيود، «كانت تعلم من الأشياء أكثر مما يعرفه الآلهة والبشر مجتمعين». لكنَّ غيا وأورانوس حذَّرا زيوس بأنه إذا أنجب أطفالاً من ميتيس فسوفَ يكونون أقوى منه، وسوف يخلعونه عن العرش. وهكذا كان، فحين اقترب موعد وضع ميتيس لأثينا، قام زيوس، استباقاً لوقوع الخطر، بابتلاع الأم مع وليدها قبل أنْ يولد، وبذلك حصل على فائدة مضاعفة، حيث تفادى مخاطر ولادة جيل مشاغب، وحصل على الحكمة العليا التي تجسدها ميتيس.

بعد ذلك تزوج من ثيميس، ابنة أورانوس وغيا. ثيميس كانت القانون الذي يضبط النظام المادي والأخلاقي. فليس مُفاجئاً، إذن أنَّ يكون أولادها هم: الهوريات أو الفصول، ويونوميا (التشريع الحكيم)، ودايك (العدالة)، أيرين (السلام)، وأخيراً الأقدار أو الموريات، الذين قيل فيهن أيضاً إنهن بنات الليل. وحتى حين حلَّتْ هيرا محلَّها، بقيّتْ ثيميس دائماً تُبجَّل فوق جبل أوليمبوس.

تايتانية أخرى، هي منيموسين، كانت زوجةً لزيوس. مكث الإله معها تسع ليالٍ، وحين اكتملت الأمور وضعَت منيموسين تسع بنات، أصبح الميوزات.

تولّه زيوس أيضاً بديمتر، لكنَّ الإلهة صدَّت تودّداته، فغيَّر شكله إلى ثور واغتصبها، ومن ذلك الاتحاد ولدت كور، وتُعرَف أيضاً باسم برسيفوني.

ويورينوم الأوقيانية كانت أيضاً من بين زوجات زيوس وكانت أمّ إلهات الحُسن (أو الإحسان) الثلاث.

زيوس وهيرا: ثم تزوج زيوس من هيرا، وكانت علاقتها قد ترسّخت منذ زمن طويل. فحين كان أورانوس لا يزال يحكم، كبرت الإلهة الصغيرة في جزيرة يوبويا تحت إشراف مربيّتها ماكريس. وذات يوم جاء زيوس إليها وحملها إلى جبل سيثيرون على تخوم أتيكا وبويوتيا، وهناك ضاجعها. وثمة أسطورة أخرى تجعل اللقاء الأول بين زيوس وهيرا يحصل في منطقة هسبيريدس، بينما في كنوسوس في كريت، بالقُرب من نهر ثيريس، أشاروا بدقّة إلى البقعة التي تمَّ فيها زواج الثنائي المقدَّس. أما بوسينياس فيروي المغامرة بطريقة مختلفة. فلكي لا يثير الشك عند أخته يأتي إليها على هيئة طائر الوقواق. كان الوقت شتاءً وبدا الطائر يكاد يتجمّد من شدة البرد. فتأثّرت الإلهة الصغيرة وحملته إلى صدرها لكي تُدفئه. حينئذٍ عاد زيوس إلى صورته الطبيعية وحاولَ أنْ يستغل الموقف. قاومته هيرا للوهلة الأولى ولم تستسلم إلاّ بعد أنْ وعدها زيوس بالزواج منها. لكنَّ الزواج، الذي عُقِدَ باحتفال رصين على جبل أوليمبوس، لم يضع حداً مغامراته العاطفية. واستمرَّ زيوس بكل حماس في ملاحقة الإلهات والنسوة من البشر، متحدّياً بذلك غيرة هيرا ومُتجاهلاً المآسي التي يمكن أن تُنزلها تلك الغيرة بضحاياها.

زيوس والتيتانيات: لم يكن زيوس دائماً ناجحاً في مساعيه. وهكذا، بناءً على نصيحة برومثيوس، تخلّى بكل حرية عن ثيتيس مخافة أنْ يُنجبَ منها ابناً يمكن أنْ يخلعه عن عرشه. ولم يتمكّن من التغلّب على مقاومة الحورية استيرياء ابنة كويوس وفويبه، التي لكي تهرب منه غيَّرت شكلها فأصبحت طائر سمّان ورمت بنفسها إلى البحر وهناك أصبحت جزيرة عائمة كان اسمها في أول الأمر أورتيجيا، ومن ثم تحوَّلَ إلى ديلوس.

كانت لتو أقلّ حياءً من أختها أستيريا واستسلمت لإغواءات زيوس. بهذه الطريقة كسبت عداء هيرا، وكما سنعلم لاحقاً، استطاعت أخيراً، بعد حلول مآسٍ عديدة، أنْ تُنجِب ولديها: أبولو وآرتيميس.

مايا، ابنة أطلس وبليون، كانت أكثر دهاءً ونجحَتْ في تجنُّب عين هيرا الغيور. عاشت في أركاديا فوق جبل سيلين، «هرباً من زحام الخالدين السعداء»، كما ورد في الترتيلة الهومرية: «عاشت مايا ذات الضفائر الذهبية في أعماق كهفٍ مظلم. وهنا ضاجعَ ابن كرنوس الحورية طوال الليل بينما النومٍ العذب يهيمن على هيرا، النوم الذي يخدع الخالدين والبشر الضعفاء سواءً بسواء». ووضعتْ مايا هرمس.

وقد قيل أنَّ ابنةً أخرى لأطلس، واسمها إليكترا، أنجَبن لزيوس هرميون ـ لكنَّ هزيود يُسميّها ابنة آريس وأفروديات ـ وداردانوس. وأخيراً هناك ابنة ثالثة لأطلس، تايغيت، لاحقها زيوس. ووفقاً لبعض الروايات فقد حملتها أرتميس وحولتها إلى أيلة ولم تعدها إلى شكلها الأصلي إلا لاحقاً. وتعبيراً عن امتنانها كرَّست تايغيت للإلهة أيلةً طلَتْ قرنيها بماء الذهب. وسوف نقابلها مرة أخرى أثناء الحديث عن أعمال هرقل. ووفقاً لرواياتٍ أخرى استسلمت تايغيت لزيوس وأنجبت لاسيديمون.

زيوس والحوريات: من بين الحوريات اللواتي أحبهّنَّ زيوس لا بد أيضاً من ذكر إيجينا وأنتيوب، ابنتيّ إله النهر أسوبوس. الأولى اختطفها زيوس، مُتخِّذاً شكل نسر أو لَهَب، وحملها إلى جزيرة أونون أو أونوبيا، وهناك أنجَبتْ أيكوس. وطفقَ أسوبوس يفتشُ عنهما، ومن سيزيفوس عرف اسم مُغتصِب ابنته والمكان الذي اختبأتْ فيه. وحين أوشكَ أنْ يعثر عليها أصابه زيوس بصاعقة وأجبره على العودة إلى مكانه في حوض النهر. وهناك رواية أخرى تحكي كيف فاجأ أسوبوس العاشقين، ولكي يحمي زيوس إيجينا من غضب والدها حوَّلها إلى جزيرة وتحوَّل هو نفسه إلى صخرة.

أما أنتيوب ـ التي لم تكن ابنة أسوبوس، وفقاً إلى بوسانياس، بل ابنة نكتيوس ـ فقد تقدَّمض زيوس منها وهو على هيئة ساطير وفاجأها أثناء نومها. ولكي تُخفي عارها فرَّتْ أنتيوب إلى سيسيون، وهناك تزوَّجت الملك إيبوبيوس. وانتحر والدها في نوبة يأس، ولكن قبل أنْ يموت أوصى أخاه ليكوس بالانتقام

لشرفه. فقام ليكوس باحتلال سيسون، وقتل إيبوبيوس وأعادَ أنتيوب، سجينة. وفي إليوثر أنجبتْ أنتيوب توأماً، أمفيون وزيثوس، تركتهما على جبل سيثيرون واعتُبرا لاحقاً من بين كبار أبطال الأسطورة الطيبيّة.

كانت الحورية كاليستو هي ابنة لايكون، وكانت رفيقة أرتيميس، وقد أقسمت عهد العفاف. لكنَّ زيوس فُتِنَ بجمالها الخارق. وذات يوم بينما كانت الحورية تستريح في الغابة تقدَّم زيوس منها على هيئة أرتيميس، فرَّحبت به العذراء الشابة دون أن تشكَّ في شيء، وحين أدركتْ خطأها كان الأوان قد فات. فحاولت أن تُخفي عارها، لكنَّ أرتيميس اكتشفت ما وقع عندما شاهدت كاليستو تستحمّ مع رفيقاتها. ولكي يحمي زيوس الحورية من غضب الإلهة، حوَّلَ كاليستو إلى دُب. ولكن أرتيميس اخترقتها بسهامها فمالت وهي تضع ابنها، أركاس، الذي أصبح سَلَف الأركاديين. أما كاليستو فتحوَّلت إلى كوكبة من النجوم وهي كوكبة الدب الأكبر.

مرَّت ميرا، ابنة بريتوس، بمغامرة مماثلة وكانت ميرا أيضاً تابعة لأرتيميس وقُتِلَتْ أيضاً على يد الإلهة لأنها استسلمت لزيوس. وقبل أنْ تموت أنجبت لوكري، سلَف اللوكريين.

زيوس والنساء من البشر: أوائل النساء من البشر اللواتي أحبَهن زيوس كانت نيوب، ابنة فورونيوس والحورية لاوديس. وقد أنجبت آغوس، مؤسّس مدينة بهذا الاسم. وفورونيوس هذا نفسه، ابن إناخوس، كان له أخت اسمها أيو تؤدي، في هيريوم السابقة، بين ميسينه وتايرينس، أعمال كاهنة هيرا. وقد وقعَ زيوس في حبّها. ولكي يُضاجعها تلبَّسَ شكل سحابة. وعلى الرغم من هذه الاستراتيجية ثارت شكوك هيرا. ودافع زيوس عن براءته، ولكي يُبعِد شكوك زوجته، غيَّرَ شكل خليلته إلى عِجلة بيضاء. وتظاهرت هيرا بأنها قد خُدِعَتْ وطلبَتْ منه أن يُقدِّم لها العِجلة كهدية. وحالما أصبحت في قبضتها وضعت الحيوان تحت عناية آرغوس بانوبتس ـ «الذي يرى كل شيء». وآرغوس هذا، ابن آريستور، كان عملاقاً يتمتَّع بقوة مروّعة: وكان ذات مرة قد قتلَ ثوراً كان

يعيث فساداً في أركاديا، وذبحَ إكيدنا، ابنة تارتاروس وغيا. بالإضافة إلى ذلك كانت له مئة عين، خمسون منها تبقى مفتوحة بينما الخمسون الأخرى مُغمضة للنوم. لكنَّ زيوس أمر هرمس الماكر بتدبير أمر إطلاق سراح أيو. ونجحّ هرمس في تنويم العملاق بسحر أنغام الناي، ثم قطع له رأسه. وتكريماً لآرغوس، الذي كان في خدمتها، وزَّعت هيرا عيونه على ريش طائرها المفضَّل، الطاووس، الذي أصبح ريشة منذ ذلك الحين غاية في الجمال. أما العِجلة العاثرة الحظ، فقد أرسلتْ هيرا إليها ذبابة خيل لكي تعذّبها. فأوشكت أن تُجن جرّاء قرص الحشرة، وفرَّت هاربة عبر العالم. وعبَرَت البوسفور التراقي سباحةً وعبَرَتْ البحر الأيوني الذي حمل اسمها، وبعد أنْ طافت آسيا الصغرى، وصلتْ أخيراً إلى مصر وهناك، بلمسةٍ بسيطة من يده، أعادها زيوس إلى شكلها الإنساني. وبعد ذلك أنجبتْ ولداً ـ اسمه إيبافوس ـ أو طفل «اللمسة» لكنَّ هيرا لم تستسلم، وأمرت الكوريتيين باختطاف الطفل، فأطاعوها ولهذا السبب ذبحهم زيوس. وأخيراً عثرت أيو على طفلها في سوريا وعادت إلى مصر حيث تزوجت الملك تيليغونوس. وفي أيامٍ لاحقة اختلطت أيو مع الإلهة المصرية إيزيس وابنها إيبافوس مع أبيس.

في أرغوس كان يملك أكريسيوس الذي لم يكن لديه إلا ابنة واحدة، دانه. وكان أحد المتنبئين قد أخبر أكريسيوس أنَّ ابنته سوف تُنجبُ ذات يوم ابناً سوف تكون نهايته على يديه. وعلى الأثر بنى أكريسوس غرفةً من البرونز تحت الأرض ـ البعض يقولون برجاً ـ وحبس فيها ابنته مع مربيّتها. لكنَّ زيوس، الذي فُتِنَ بجمال الفتاة، وجدَ طريقةً لولوج الغرفة وهو على هيئة رذاذٍ من الذهب وأخذ يتردَّدُ على دانه. وكانت النتيجة إنجابها ولداً، برسيوس. أصيبَ أكريسيوس بالذعر حين علِمَ بأمر وضعها المُعجز، وحبسَ الأمَّ ووليدها داخل صندوق ورمى به إلى البحر. أخذت الأمواج تتقاذف الصندوق إلى أنْ وَصَلَتْ به إلى جزيرة سيريفوس وهناك وقعَ في شِباك صيّاد، اسمه ديكتيس، وكان أخا الملك بوليدكتيس. وهكذا نجت دانه ووليدها من الموت. وسوفَ نرى، حين نصل إلى حكاية برسيوس، كيف تواصلتْ هذه المغامرة الرومانسية.

الشيء الأكثر فظاعة كان غيرة هيرا وانتقامها من عشيقة أخرى لزيوس، هي سيميلي، ابنة قدموس. فحين علِمت بأمر العلاقة بين زوجها وهذه الفتاة البشرية ذهبتْ هيرا إلى غريمتها متخفيّة واقترحتْ عليها أن تطلب من حبيبها أن يظهر أمامها في شكله الحقيقي. حاول زيوس عبثاً أن يُثني سيميلي عن طلبها غير المعقول. ثم رضح أمام إصرارها وقام بزيارتها على متن عربته رمز المجد، يُحيط به البرقُ والرعد. كان مشهد الإله العظيم بكل روعته المذهلة يفوقُ قُدرة العيون البشرية على تحمّله فتلاشت سيميلي، واحترقت باللهب السماوي. حملَ زيوس الجنين الذي كانت تحمله في رحمها ووضعه داخل فخذه إلى أنْ حان وقت مولده: وكان ديونيسيوس.

كان لاغتصاب يوروبا عواقب أقلّ مأساوية، فبينما كانت الصبية يوروبا، ابنة فينيكس (أو أجينور)، ملك فينيقيا، وتيليفاسا، تلعبُ ذات يوم عند حافة المياه، تجمعُ أزهاراً مع رفيقتها، لفت نظرها ثورٌ ذو جلدٍ لامع كان يرعى بسلام قطيع والدها. وقد أسرها شعره الناعم والفخم معاً. ولم تشكّ في أن هذا الثور ليس إلا سيد الآلهة، زيوس نفسه، الذي تلبَّس شكل ثور لكي يخدع الفتاة التي كان قد أُغرِمَ بها. اقتربت منه يوروبا وقد خُدِعت وأخذت تداعب الحيوان، الذي ركع أمامها بكل وداعة. فاعتلتْ عابثة ظهره القوي، وأخذت تصنع إكليلاً من الزهور وتحيط به قرنية القويين. وفجأةً إذا بالثور يقف على قوائمه، وبقفزةٍ واحدة اعتلى الأمواج، وحمل العذراء الباكية عبر البحر الشاسع. وأخيراً وصلا الشاطئ الجنوبي لجزيرة كريت، في غورتينا. وفي أيام ثيوفراستوس كانت الشجرة البسيطة التي جعل زيوس تحتها الفتاة الفينيقية خليلة له لا تزال قائمة. ولأنها شهدت الاتحاد المقدَّس وحَمَته أصبحت هذه الشجرة تتميَّز باحتفاظها بأوراقها الخضراء طوال فصول العام. أنجَبْت يوروبا مينوس، ورادامانثيس وساريدون، والثلاثة تبنّاهم ملك كريت، أستيريوس، الذي أصبحَ لاحقاً زوج يوروبا.

على الرغم من انه كان من ضمن اختصاصه أن يحمي قداسة الزواج، لم تتردَّد زيوس في بعض المناسبات في التودُّد إلى نساء متزوجات. وهكذا وقع في حب ليدا، زوجة تينداريوس. وذات مساء حين كانت المرأة الشابة تستحمُّ في بركة شاهدتْ بجعة ذات بياض مُبهِر تطفو بفخامة متّجهةً نحوها. ولم تكن البجعة

سوى زيوس نفسه. وفي الليلة ذاتها ضاجعت ليدا زوجها، وبعد ذلك حملت بولوكس وهيلين، ولدَيّ زيوس، وبكاستور وكليتمنسترا، ولديّ تينداريوس.

لكي يغوي ألكمين، استعانَ زيوس بالخداع، تمنّى، كما يقول هزيود، «أنْ يُنجب ابناً يصبح ذات يوم حامياً قوياً للآلهة وللبشر على قدم المواساة»، ووقعَ اختيار قلبه على زوجة الرئيس الطيبي، أمفيتريون. ولما كان يعلم أنها فاضلة ومُحصّنة ضد الفساد انتهزَ فرصة غياب أمفيتريون لكي يتلبَّس هيئة أمفيتريون نفسه. رحَّبَتْ ألكمين بزيوس وهو في تخفّيه تماماً كما لو أنه زوجها الحقيقي. وعندما عاد أمفيتريون الحقيقي بعد ذلك ببضع ساعات فوجئ بفتور زوجته، وهي أيضاً بدورها دُهِشتْ لأنه نسي بسرعة معاملتها الرقيقة التي أسبغتها عليه قبل قليل، وأخيراً حلَّ العرّاف تيريسياس اللغز. ومن الاتّحاد الثنائي وُلِدَ توأم: هرقل، ابن زيوس، وإيفيكليس، ابن أمفيتريون.

هذه أكثر علاقات زيوس العاطفية تذكُّراً. ولكن كثيراً غيرها نُسِبَتْ إليه وكانت ذرّيته هائلة العدد.

منه أنجبت الأوقيانيدة بلوتو تانتالوس، والدانايدية أناكسيثيا وهزيون أنجبتا، على التوالي، أولينوس، مؤسس الأولينوس في أخيا، وأوركومينوس، ملك المدينة التي تحمل الاسم نفسه في بويوتيا. أخت أوركومينوس، إلار، أيضاً أحبّها زيوس، ولكي يحميها من غيرة هيرا، خبّأها تحت الأرض، وهناك أنجبت له العملاق تيتيوس وأحبَّ زيوس نيرا، التي أنجبت له إيغلا. وخطفَ بروتوجينيا، ابنة ديوكاليون، من زوجها لوكر وأنجبتْ له ابناً، أوبنس. وابنة أخرى لديوكاليون، ثيا، أحبّها أيضاً زيوس، وقد حوَّلَ نفسه إلى حمامة لكي يغوي حورية شابة من أخيا اسما فثيا.

من بين عشيقات زيوس الأخريات كانت هناك ثالثا، ابنة هيفيستوس، التي أضحت أم الباليكي، وثيمبريس التي أنجبَتْ ابناً، بان، وديا، زوجة إكسيون، التي أغواها زيوس وهو على هيئة حصان وأصبحت أم البريريثوس: وأخيراً، في كريت، هناك كارمة، التي أنجبتْ بريتومارتيس، وكاسيوبيا، التي شُرِّف ابنها أتيمنيوس في غورتينا مع يوروبا.

ويمكن إطالة اللائحة، التي أغناها الشعور المحلّي بالفخر، وتاقت مقاطعات متنوعة في اليونان أو حتى بلدات صغيرة إلى أنْ تمنح نفسها سَلَفاً مقدَّساً. وبهذه الطريقة، أصبح عدد من ذُرِيَّة زيوس أسلافاً لقبيلة أو مؤسسين لمدن. لكنَّ بعضاً من تلك الاتحادات التي أقامها الإله يمكن تفسيرها بأساليب أخرى. فبعضها هي أساطير شمسيّة: على سبيل المثال، اتحاد زيوس، إله الأثير المُضيء، مع ليتو وليدا، اللتين يبدو أنهما كانتا إلهتيّ الليل. وأخرى كانت مجرَّد حكايات رمزية للحقائق التاريخية: قصة يوروبا الفينيقية التي جلبها ثور إلى كريت يمكن أن تمثّل مساهمة الحضارة الآسيوية في الحضارة الكريتية. وأخيراً بعضها هو تعبير رومانسي عن ظواهر طبيعية عظيمة: في رذاذ الذهب الذي ينفذ إلى دانا تحت الأرض يمكن أن نميِّز بسهولة أشعة الشمس التي تُنبت البذور المطمورة في الأرض.

لم يكن اليونانيون، بنَسْبِهم كل تلك المغامرات إلى زيوس، متّهمين بعدم توقيرهم لإلهم. كانوا فقط يترجمون العواطف التي تعتلج فيهم في مواجهة ألغاز الطبيعة الكبرى إلى شكلٍ شعريّ وجميل. أو بعبارة أكثر سذاجة، كانوا يبتكرون لأنفسهم سلسلة نَسَب نبيلة.

هيرا

ذات يوم كان يُعتقد أنَّ اسمَ هيرا مُرتبط بالأصل اللاتيني herus (سيّد) وبكلمة يونانية قديمة تعني «الأرض». أما اليوم فمن المُتَّفق عليه أنَّ هيرا لها صلة بالكلمة السنسكريتيّة svar (السماء). إذن كانت هيرا في الأصل ملكة السماء، العذراء السماويّة (ومن هنا جاء لقبها بارثينيا). وكانت في أول الأمر مستقلّة تماماً عن زيوس. وقد أُعِدَّ زواجهما لاحقاً، من أجل تفسير اتّحاد عبادتَين كانتا في أول الأمر متميّزتين. بل إنَّ بعض الخبراء يرون في العداء الذي تكنّه هيرا لزوجها أثراً للمقاومة التي أبداها عابدو هيرا في وجه عبادة زيوس المنافسة. وآخرون يؤولون الشجارات الصاخبة التي دارت بين الزوجين المقدَّسين بأنها ترجمة ميثولوجيّة للعواصف أو «صراع النيازك والاضطرابات الجويّة في تمرّدها ضد السماء».

وظائفها: لكنَّ هيرا سرعان ما فقدت شخصيتها الكونيـة ولم تحـتفظ إلا بـأهمّ أوصافها. كان يُنظر إليها كامرأة مؤلَّهة. وقد سيطرت على مراحـل الوجـود الأنثـويّ كلها. لذا كرَّس تيمينوس، ابن بيلاسغوس، ثلاثة معابـد في ستيمفالوس لأجلـها: الأول للإلهة ـ الطفلة، والثاني للإلهة ـ الزوجة، والثالث للإلهة ـ الأرملة. لكنها في المقام الأول كانت إلهة الزواج والأمومة. كانت تمثّل النموذج المثالي للزوجة.

صورها التمثيلية: لقد صوِّرتْ هيرا على هيئة امرأة شابة، كاملـة النـضج، ذات جمال عفيف وحادّ. جبينها يُتوَّج عادة بإكليل مرصَّع بالجواهر أو بتاج عـالٍ أسطوانيّ الشكل، الـpolos. ترتدي رداءً طويلاً ويُحيط بهـا شـال يُـضاعِفُ مـن مظهر نبالتها، ويجعلها متحفّظة ومليئة بالتواضع. رموزها المميزة هي صـولجان يعلوه طائر وقواق (في تلميح إلى ظـروف زفافهـا) وثمـرة رمـان، رمـزٍ للحـب الزوجي والخصب. والطائر المقدَّس لديها هـو الطـاووس، الـذي يُـذكِّرُ ريـشه اللامح والمتلألئ بالنجوم في قبة الـسماء ـ ويـشهد علـى الخدمـة الـتي قـدمها أرغوس (Argus) ذو المئة عين.

عبادتها: كانت هيرا، مثل زيوس، تُعبَد فوقَ ذُرى الجبال. وفي اليونان، كـان المركز الرئيسي لعبادتها، في أرغوس (Argus). هنا كان لها خمسة أو ستة معابـد، أقدمها بناه فورونيوس. والهيرايوم في أرغوس هو الذي آوى التمثـال الـشهير لهـيرا الذي صنعه بوليكليتوس من الذهب والعاج. كانت الإلهة ممثَّلة جالسةً على عرش، وجبينها يعلوه تاجٌ رُسِمت عليه الهوريات وحوريات الحُسن الثلاث. تحمـل بيـدها اليسرى ثمرة رمّان وبيدها اليمنى صولجاناً يعلوه طائر وقـواق. وإلى جوارهـا تقـفُ ابنتها هيبه. وهيرا أيضاً تمتلك مقامات مقدَّسة في ميسين، وأوليمبوس، وإسبارطة، وفي أتيكا، وبويوتيا ويوبويـا. وكانـت تبجَّـل أيـضاً بـشكلٍ خـاص في كريـت وفي ساموس حيث يقوم أكبر معابدها، وقيل إنَّ الذين بنوه هم الأرغونوت.

أسطورة هيرا: كانت هيرا هي أكبر بنـات كرونـوس وريـا، ولِـدَتْ، وفقـاً للساميانيين، في جزيرة ساموس، على ضفاف نهر إمبراسوس بالقرب من شجرة صفصاف الماء كان لا يزال في الإمكان مشاهدتها في أيام بوسانياس. كانـت قـد رُبيت، وِفقاً للبعض، علـى يـد مـاكريس أو بنـات نهـر أسـتريون، ووفقـاً إلى

آخرين، على يد الهوريات أو الفصول. طفولتها أمضتها في جزيرة يوبويا، وقد رأينا كيف عثر عليها أخوها زيوس هناك وجعلها زوجةً له. ومنذ ذلك الحين أضحت هيرا ترتبط مع زيوس في السلطة العليا وأصبحت الإلهة الأنثى الرئيسية في جبل أوليمبوس. كانت تجلس على عرشٍ من ذهب إلى جانب زوجها، وحين كانت تلجُ قاعة اجتماع الآلهة كانوا كلهم ينهضون إجلالاً لها. وعلى جبل أوليمبوس كان زواجها من زيوس مناسبةً تفيض بالبهجة والمرح. وقد شارك البشر جميعاً في الاحتفال وآلهات القَدَر أنشدنَ بأنفسهنَّ أنشودة الزواج.

لكنَّ سعادة هيرا لم تكن كاملة. لقد أنجبت لزيوس أربعة أطفال: هيبه الحسناء، وإليثيا، أم آلام الوضع، وآريس المتهوِّر، وهيفيستوس الماهر. إخلاصها لزوجها كان قدوة لَمنْ يقتدي. أما هو، من ناحيةٍ أخرى، فكان غير مخلص على الدوام.

هذا لا يعني أنها كانت تفتقر إلى الفتنة، لقد كانت تولي جمالها عناية فائقة، كانت تذهب في كل عام لتستحم في نبع كاناثوس في نوبليا، وفي تلك المياه الرائعة كانت تستعيد عذريتها في كل مرة. كانت الإلهة «البيضاء الذراعَين»، لا تُقاوَم حين تدهن جسمها بزيتٍ حلو الرائحة يملأ الأرض كلها والسماء بعطرها. وتجدل ضفائرها المقدّسة، وتثّبت بمشابك ذهبية عند الصدر الرداء الذي نسجته أثينا لأجلها بحرفيّة فائقة، وتضع قرطيها، المصنوعين بدقة متناهية، وينسدل من رأسها خِمار رائع أبيض بلون أشعة الشمس. زيوس نفسه، حين شاهدها بذلك الرداء، هتف: «لم يسبق لحب إلهة أو امرأة من البشر أنْ غمرَ أحاسيسي وملأ قلبي بهذه الطريقة».

ولو أرادت هيرا لما كفَّ المتودّدون عن طلب يدها. وحينَ دُعيَ إكسيون، ملك لابيثه لتناول الطعام مع الآلهة، كان يكفي أنْ يلتفتْ نحوها بطرف عينيه حتى يكويه لهب الرغبة التي لا تُقاوَم. ووسط جنون هذا الشغف قام حتى بمعانقة سحابة كان زيوس قد شكلها على صورة هيرا. وعوقِبَ إكسيون على وقاحته، رُبط إلى دولابٍ مُشتعل كان يدور به دون توقّف عبر السماء.

لم تتحمَّل هيرا، الفخور بفضيلتها، خيانة زوجها المستمرة دون احتجاج. وبعد زواجها بوقتٍ قصير غادرتْ جبل أوليمبوس وهي في حالة غيظ وعادتْ إلى جزيرة يوبويا. ولكي يُعيدها لجأ زيوس إلى خدعة مسلّية، وضعَ تمثالاً مُغطّى على عربة وأخذ يدور بها وجعل الجميع يعلمون أنَّ هذه هي خطيبة سيد الآلهة الجديدة. وتعبيراً عن غيرتها وكبريائها الجريحة قبضت هيرا على العربة، ومزَّقت رداء غريمتها المزعومة، وحين اكتشفت الخدعة التي لعبها زوجها عليها، عادتْ إلى جبل أوليمبوس وهي مُكتئبة.

حين عادت خيانات زيوس إلى الظهور من جديد قررَّت أن تقوم بالانتقام منه جسدياً. وذات يوم، نجحت، بالتعاون من بوزيدون، وأبولو وأثينا، في ربطِه بسيرٍ من الجلد. وكان يمكن أن تكون تلك هي نهاية سلطة زيوس لو لم تستدعِ ثيتيس إلى نجدته العملاق ذا المئة ذراع الذي يسميّه الآلهة برياريوس ويسميّه البشر إيجيون، فجلسَ إلى جوار ابن كرونوس، فخوراً بمجده، وأصيبَ الآلهة بالرعب ولم يربطوا زيوس بالسلاسل.

اعتبرتْ هيرا أنَّ من الشائن أيضاً أنَّ زيوس وحده ودون مساعدة أنجب أثينا (راجع مولد أثينا في الفقرة التالية). وفي غمرة حنقها استحضرتْ الأرض والسموات الشاسعة والتيتان المسجونين في تارتاروس، وتوسلتْ إليهم كي يساعدوها في أنْ تحمل دون مساعدة أيضاً طفلاً «لا يقلّ عن زيوس في قوته». وكان لها ما أرادتْ. وفي الوقت المحدَّد أنجبتْ « ليس طفلاً يشبه الآلهة أو البشر، بل طايفون المُخيف والرهيب، أداة عقاب بني البشر». هذا الوحش يُخلَط بينه وبين طايفيوس، ابن غيا وتارتاروس، الذي خاض زيوس ضده صراعاً عنيفاً.

عوقبَتْ بخشونة لمحاولاتها العقيمة للتمرُّد. وذات يوم ضربها زيوس وآذاها، وحين حاولَ هيفيستوس أنْ يُدافع عن أمه قبضَ زيوس على ابنه المفرط الغيرة من إحدى ساقيه وأطاحَ به من أعالي الأوليمبوس. وفي مناسبةٍ أخرى ثَّبتَ زيوس سندان حديد إلى كلٍ من كاحليّ هيرا، وربطَ يديها بقيدٍ من الذهب العصيّ على الكسر وعلَّقها من السماء، وأحاطها بالغيوم.

على الرغم من أنَّ هيرا أُجبِرتْ على الخضوع كان في استطاعتها على الأقلّ أن تنفس عن حقدها على غريماتها. فقد كانت السبب في موت سيميلي، وقامت باضطهاد أيو لفترة طويلة، وحاولتْ أن تمنع سجن ليتو وألكمين. ولم تكن لتندم على ما تنزله بأطفال غريماتها وعائلاتهم. وكان هرقل أحد ضحايا، وأنزلَتْ بإينو، أخت سيميلي، عقاباً وحشياً لأنها أبدت اهتماماً بالطفل ديونيسوس.

إنَّ المزاج الانتقاميّ للإلهة لم يكن يتكشف فقط حين تصبح كرامتها الزوجية على المِحكّ. فعندما تفاخرت أنتيغون، ابنة لاوميدون، بأنَّ شعرها أجمل من شعر هيرا، حوَّلتْ هيرا خصلات شعرها إلى أفاعٍ. ولأنَّ ابنتَيّ بروتوس، ليسيب وإفياناسا، عاملتا تمثالاً خشبياً للإلهة باحتقار، أُصيبتا بالجذام والجنون، وانطلقتا في حالة هياج عارم شبه عاريتين خلال شوارع البيلوبونيز، ولم تشفيا إلا بالتدخُّل المُكلف للعرّاف ميلامبوس، الذي طلبَ ثمناً لخدماته ثلث مملكة بروتوس.

أخيراً لم تسامح هيرا أبداً باريس الطروادي لأنه فضَّلَ أفروديات في مناسبة إقامة مسابقة الجمال الشهيرة فوق جبل إيدا، ولم تشف غليلها إلاّ عندما تم افناء الجنس الطروادي بأكمله.

أثينا

من بين الاشتقاقات الكثيرة المُقترحة لاسم أثينا Athene (Athena) ليس هناك ما يُرضي. وقد تمَّ اقتراح الكلمة السنسكريتيّة vadh (يضرب) وكلمة adh (تل)، بالإضافة إلى الكلمة اليونانية «وردة» و«ممرضة» كما أن اللقب الشاعري pallas الذي كان غالباً ما يُضمّ إلى اسم أثينا أصله الكلمة اليونانية (يضرب) أو الأرجح مُستمَدّ من الكلمة اليونانية (فتاة).

شخصيتها ووظائفها: على الرغم من أنَّ بعض الباحثين رأوا في أثينا تجسيداً للرطوبة، وذلك مقارنة بالكلمة الهندية Sarasvati، يبدو من الأرجح أنها في الأصل كانت إلهة العواصف والبرق. ومن هنا جاء لقبها ذات العيون المشعة، فهي تشبه فاتش vach الإلهة الفيدية. لكنَّ أثينا سرعان ما فقدت صلتها بهذه الظواهر الطبيعانية.

كانت وظائفها متعدِّدة: كانت تُبجَّل بين الآلهة المقدّسة كإلهة محاربة، وكإلهة للفنون والسلام وكإلهة للذكاء المتعقِّل.

إلى أثينا المُحاربة ـ أقدم صورها ـ يُنسب لقب، Promachos «التي تُقاتلُ ضمن أصحاب المقامات الكبرى» ولقب Alalcomeneis «التي تصدُّ العدو». كانت حامية البلدان وحارسة الأكروبوليسات.

كانت أثينا المسالمة تحمي صناعات شتى. كانت على الدوام الـErgane، أو المرأة العاملة، وكانت شفيعة المعماريين والنحاتين، بالإضافة إلى الغزّالين والنسّاجين، كانت أيضاً تصون الأحصنة (Hippia) والثيران (Boarmia) وكانت شجرة الزيتون تدينُ لها بثمارها. وحِكمتها، التي أكسبتها صِفة الـPronoia (المتنبّئة)، جعلت منها الإلهة المُستشارة (Boulaia) وإلهة المجالس العامة (Agoraia) وكان شعار أثينا هو البومة.

عبادتها: على الرغم من أنها كانت تُبجَّل في أرجاء اليونان، إلاّ أنَّ أثينا كانت موضوع عبادة خاصة في مدينة أثينا. على مبنى الأكروبوليس كان لها، إلى جانب البارثينون، معبدان آخران: معبد أثينا نايكه والإريكثيوم.

الاحتفالات الرئيسية لعبادة أثينا كانت: الـArrephoria، وفي سياقه تهبط فتاتان تنحدران من عائلة نبيلة، يتراوح عمراهما بين السابعة والحادية عشرة، من الأكروبوليس لتودعا في غرفة سفلية بالقرب من حَرَم أفروديت أشياء غامضة تحملانها في سلّة، وكذلك الاحتفال المسمى Scriophoria، حين يسير كُهّان وكاهنات في موكب رصين من تحت مظلّة فسيحة (sciron)، وأخيراً احتفال الـPanathenaea الذي يعود تاريخ بدايته إلى أيام ثيسيوس ويتألّف من موكب رصين يتوجه إلى الأكروبوليس ليقدم للإلهة ثوباً صنعه أمهر الحرفيين في أثينا ويشارك في هذا الموكب إلى جانب الكهنة وأصحاب المراكز العليا فتيات تحمل سلالاً، وشيوخ يحملون أغصان الزيتون وشبان يعتلون صهوات الجياد. وخلال هذا الاحتفال كانت تُقام مسابقات، وألعاب رياضيّة، وسباقات زوارق ومسابقات في الموسيقى، والغناء والرقص.

الصور التمثيلية: إنَّ أقدم الصور التي تمثّل أثينا كانت الـpalladia. في الأصل كانت البالاديا مجموعة من الحجارة قيلَ إنها هبطت من السماء ونُسِبَتْ إليها قُدرة على الحماية. ولاحقاً حلَّت محلّ تلك الحجارة تماثيل من الخشب (xoana) كانت من نفس الأصل السماوي. تبدو فيها الإلهة بجسدٍ مكسو بثياب ضيّقة، وتحملُ بيدها ترساً ورمحاً. وأكثر تماثيل أثينا المُحاربة شهرةً كان تمثال البارثينون، من أعمال فيدياس. حيث الإلهة واقفة، وترتدي ثوباً طويلاً، رأسها يعتمر خوذة، وصدرها مكسو بدرع، ويدها اليُمنى تستقرّ على رمح وبيدها اليسرى تحمل شعار الانتصار المُجنَّح.

مولد أثينا: حين ابتلعَ زيوس زوجته ميتيس كانت على وشك أن تضع طفلاً. وبعد ذلك بقليل تعرَّضَ زيوس لعذاب آلام رأس لا تُحتَمَل. ولكي يُشفيه شقَّ هيفيستوس ـ البعض يقولون بوميثيوس ـ جمجمته بفأس برونزي ومن الجرح الواسع خرجت أثينا وهي تصيحُ صيحة الانتصار ـ «بكامل أسلحتها وتلوِّحُ برمحٍ حادّ». أمام هذا المشهد أصيبَ البشر كلهم بالذهول وامتلؤوا بالرعب. «واهتزَّتْ أركان جبل أوليمبوس بقوة بتأثير ذلك الظهور المفاجئ والعنيف للإلهة ذات العينين البراقتين. وتردَّدَتْ أصداء الهدير الرهيب في أركان الأرض، وارتعشَ البحر وتعالتْ أمواجه الداكنة..».

في كريت يقولون إنَّ الإلهة كانت مُخبأة في سحابة وإنَّ زيوس ضرب تلك السحابة برأسه فجعل أثينا تظهر. وافتُرِضَ أنَّ الحدث وقعَ بالقرب من كنوسوس بجوار جدول ماء، يُدعى تريتون: الذي إليه غالباً ما يُنسَب وصف أثينا بـ Tritogeneia (المولود في تريتون). ويُفسَّر أيضاً بجعلها ابنة بوزيدون وبحيرة تريتونيس. وأخيراً قال البعض إنَّ والد أثينا كان العملاق بالاس الذي قَتَله لأنه رغب في اغتصابها. لكنَّ هذه العلاقات المتنوعة والصلات مشكوك في أمرها وكان هناك اتّفاقٌ على أنَّ أثينا كانت ابنة زيوس، أنجبها الإله نفسه.

هذا المولد، الذي لم تلعب فيه هيرا أيَّ دور، أثارَ غيظها، فقامت بحركة انتقام، وأنجَبتْ من دون مساعدة أحد الوحش طايفون.

كانت أثينا طفلة زيوس الأثيرة. وتفضيله لها كان ملحوظاً وتساهله معها كان بلا حدود حتى أنه أثارَ غيرة باقي الآلهة.

يقول آريس لزيوس «لقد أنجبتَ ابنة حمقاء ومتـهوّرة لا تجـد متعـة إلاّ في الأفعال الآثمة. إنَّ باقي الآلهة كلهم الذين يُقيمون فوق جبل أوليمبوس يطيعونكَ وكل واحدٍ منا يرضخ لإرادتك. أما هي فلم تلجمها أبداً لا بالكلمة ولا بالفعل، إنها تفعل ما تشاء».

أثينا، الإلهة المحاربة: الشكل الذي ظهرت به أثينا في المرة الأولى يُبيّن ميولها الحربية، وقد كانت فعلاً تبتهج بالقتال قبل أي شيء. لقد شاهدناها تلعـبُ دوراً في الحرب ضد إنسيلادوس الذي سحقَته أخيراً تحت جزيرة صقلّية. ونعثر عليهـا مـرةً أخرى، مولعة بالقتال ومتحمّسة، في المعارك التي اندلعت تحـت أسـوار طـروادة. وعندما لم يكفها إثارة حماس اليونانيين ـ الـذين تفـضّلهم علـى غيرهـم ـ شـاركت بنفسها في المُصادمات. اعتمرتْ خوذتها الذهبيّة ذات الريـشة الناتئـة «الواسـعة إلى درجة أنها تكفي لتظلّل جنود مُشاة لمئة بلدة». وعلـى كتفيهـا تنكَّبَـتْ الـدرع الـذي صنعته من جلد العملاق بالاس. وكان زيوس قد استخدمه للمرة الأولى خلال حربه مع التيتان وبعد ذلك قدَّمـه هديـة إلى ابنتـه. كـان أشـبه بـدرع واقٍ أو درع لحمايـة الصدر، مُهـدَّبٍ ومُحـدَّد بأفـاعٍ ويحمـلُ في مركـزه الـرأس المرعـب للغورغـون. بأسلحتها تلك اعتلت أثينا عربة ديوميديس، وقبضت على السوط وأمسكت بنفـسها بالزمام وانطلقت بالأحصنة في وجه آريس، الذي طَرَحته أرضاً بضربةٍ من رمحها.

لقد خُلِّدت ذكرى بسالة أثينا الحربيـة في ليبيـا في احتفـالات سـنوية تمثُّـل خلالها فتيـات، مُقـسّمات إلى معـسكرَين، مـسرحية تـصوّر المعركـة الحاميـة باستخدام العصي والحجارة.

أثينا، حامية الأبطال: بما أنهـا هـي نفـسها مُحاربـة، كانـت أثينـا تحمـي الشجعان والبواسل. وعندما شرع هرقل، وهو ضـحية عِـداء هـيرا، في أعمالـه البطولية السبعة، وقفَتْ أثينـا إلى جانبـه لتـساعده وتواسـيه. وهـي الـتي أعطتـه الصنوج النحاسية التي يُخيفُ صوتها طيور بحيرة ستيمفالوس. وهي التي رافقتـه

حين جلبَ سيربيروس من العالم السفلي. أخيراً هي التي رحَّبَتْ به، بعد موته، على أعتاب جبل الأوليمبوس، ولهذا، حين فاز هرقل بالتفاحات الذهبية للهسبيريدس، قدَّمها تقديراً لهذه الإلهة الحارسة.

بالطريقة نفسها أرشدت أثينا البطل برسيوس في حملته ضد الغورغونات. ولما لم يتمكّن البطل من النظر إلى الوجه المروِّع للغرغون ميدوزا أرشدت ذراعه بحيث استطاع أن يُسدِّد ضربة إلى الوحش. وتعبيراً عن امتنانه أعطى بريسيوس بعد ذلك أثينا رأسَ الغورغون الذي وَضَعَه على ترسها. وقد كان دور أثينا في مغامرات برسيوس فعّالاً إلى درجةِ أنَّ بعض الروايات تقول إنها هي نفسها قتلت الميدوزا بضربها أثناء نومها. هذه النظرية أثارت عِدِّة خرافات، فمثلاً، تلك التي تقول إنَّ المعركة بين أثينا والغورغون سببها مسابقة جمال بينهما، وأن أثينا قد جمعت دماء ضحيتها وجعلتها هديةً قدَّمتها إما إلى أسكليبيوس أو إلى إريكثونيوس ـ الدماء التي انبثقت من الشريان الأيسر تجلب الموت، والتي انبثَقت من الشريان الأيمن تعيد إلى الحياة.

أثينا كانت أيضاً تنظرُ بعين العطف إلى بيليروفون: فقد ظهرتْ له في الحلم وأعطته لِجاماً من الذهب، وتعبيراً عن شكره لها قام بترويض الحصان بيغاسوس.

وأخيراً قامت بحماية أوديسيوس بنجاح في مواجهة كل الأخطار التي أحاقتْ به لدى عودته من طروادة، وتخفَّت بهيئة الحكيم مينطور وأرشدت تيليماخوس الشاب في محاولاته للعثور على والده من جديد.

عِفّة أثينا: في تلك المناسبات كلها كانت أثينا تهبُّ لنجدة الأبطال لأنهم يستحقون احترامها، وليس بسبب أي تجاذب عاطفي. لقد كانت أثينا استثناء صارخاً في مجتمع جبل أوليمبوس بسبب عِفّتها المطلقة. وعلى الرغم من الافتراء والتلميحات التي دارت حول علاقتها مع هليوس وهيفيستوس وحتى هرقل، بقيَ قلبها لا يستجيب لوخز الحب ودافعتْ عن عذريّتها بشراسة. والويل لمَنْ تسوّل له نفسه أنْ يجرح احتشامها.

ذات يوم حين كانت تستحمّ مع الحورية تشاريكلو، رآها تيريسياس بالمصادفة. لقد كان ذنب تيريسياس لا إرادياً، ولكن أثينا عاقبته بحرمانه من البصر. وعلى الرغم من توسُّل رفيقتها لترحمه إلاّ أنها رفضت أنْ تلغي قرارها، ولكي تُخفّف من قسوة عِقابها أسبغَت على تيريسياس التعيس نعمةَ معرفة المستقبل.

وقعَ هيفيستوس في غرام أثينا. وذات يوم حين جاءت الإلهة لتقابله بشأن صناعة درع كامل لأجلها. حاولَ أنْ يغتصبها فهربت أثينا، وفي أثرها الإله الأعرج. وأمسك بها، لكنّها دافعت عن نفسها بفاعلية شديدة حتى أنَّ هيفيستوس عجزَ عن إنجاز مُخطَّطه الإجرامي، وبدل ذلك، نثرَ بذوره على الأرض، التي سرعان ما أنجبت بعد ذلك ابناً، هو إريكثونيوس. عثرتْ أثينا عليه، وجلبته وهو مجهول الهوية إلى باقي الآلهة. أغلقت على الطفل الوليد داخل سلّة وأودعتها عند بنات سيكروب، وحرَّمت عليهنَّ فتحها. إحدى الأخوات، واسمها باندروزوس، أطاعت، أما الاثنتان الأخريان، هيرس وأغلاوروس، فلم تتمكنّا من التحكُّم في فضولهما. ولكن حالما فتحتا السلّة نفرتا في رعب، ذلك أنَّ أفعى كانت تُحيط بالطفل الوليد. فأصابتهما أثينا بالجنون، فقفزتا من فوق بناء الأكروبوليس. وكبُرَ إريكثونيوس حتى سن النضج وأصبحَ ملك أثينا، وأسَّسَ فيها عبادة أثينا الرصينة.

مواهب أثينا: كانت أثينا خيّرة في أوقات السلم بقدر ما كانت مهيبة في أيام الحرب، وقدّمت خدمات قيّمة للبشرية. فقد علّمت أهالي سيرين فنَّ ترويض الخيول. وبيَّنت لإريكثونيوس كيف يشدُّ عربات للمرة الأولى. وكانت حاضرة بينما كان أصحاب البطل جيسون يبنون السفينة آرغو. وتكشَّفَتْ مهارتها بأبسط المِهَنْ: فقد اخترعت دولاب صناعة الفخّار، وصنعت أول المزهريات. ولكن قبل أي شيء تفوّقت في أعمال النساء. لم يكن يخفى عليها أيُ سرٍ من أسرار نسج الملابس وزخرفتها بأدوات الزخرفة الرائعة. وكان البشر يعتمدون على مهارتها وهي التي زخرفت خِمار هيرا. كانت غيوراً على إنجازاتها ولم تسمح لأي كان بالتفوُّق عليها.

في ليديا عاشت فتاة اسمها أراكنه، كانت مشهورة ببراعتها في أعمال الإبرة والنسج والمِغزل. وذات يومٍ تجرأت على تحدّي الإلهة لمنافستها. وصلتْ أثينا متخفيّة في صور امرأة عجوز طلبت من أراكنه أن تتراجع عن تحدّيها العاقّ، فرفضت أراكنه. عادت أثينا إلى صورتها الإلهية وقبلَتْ التحدّي. وعندما انتهت سلَّمتْ عملها إلى أثينا لتتفحّصه. حاولت الإلهة عبثاً أنْ تكتشف أي نقص فيه. وحين تولاها الغضب لفشلها ولعدم رغبتها بالاعتراف بهزيمتها، حوَّلَت أثينا أراكنه إلى عنكبوت وحكمت عليها بأن تبقى تغزل إلى الأبد، وأنْ تسحب من جسدها الخيط الذي تنسج منه شبكتها.

على الرغم من أنَّ نشاطات أثينا تهتمُ في الأساس بالأعمال المفيدة إلا أنها لم تكن تكره الإبداع الفني. وبعض التقاليد التي نشأتْ في بويوتيا تنسُبُ إليها اختراع الناي. ويُقال إنَّ الإلهة فكّرتْ في النفخ في قرن أيل، فيه ثقوب، تقليداً لصوت الصفير الحزين الذي أصدرته الغورغون عندما حزَّ بيريسيوس عنقها. ولكن قيل في مدينة أثينا أنَّ الإلهة تتابع جهودها الموسيقية لأنَّ آلهة أوليمبوس ضحكوا منها عندما نفخَتْ وجنتيها وزمَّت شفتيها. فرمت بالناي جانباً بامتعاض وأنزلَت لعنتها على كل مَنْ يلتقطه. وقد عوقب الساطمارسياس، الذي تجرَّأ على امتلاك الآلة، بقسوة من جراء الأحمق.

كانت أثينا تلعبُ أحياناً دور إلهة الصحة أيضاً: الجميع كانوا يعملون كيف سقط المعماري منيسيكليس، أثناء بناء البروبيليا، وتعرَّضَ لخطر الموت، لولا أنْ شَفته أثينا بإعجازٍ ولهذا سُمِّيَتْ بالهايجيا، أي الشافية.

مدَّت أثينا نطاق حمايتها ليس فقط إلى الأفراد بل أيضاً إلى مدن بأكملها. كان يُرمَز إليها بالبالاديا Palladia وهي تماثيل لها كان يُقال إنها هبطت من السماء. وكان امتلاك تمثال أثينا أو البلاديوم Palladium بمثابة ضمانة الأمان. وأشهر تماثيل أثينا كان تمثال طروادة الذي قدَّمه زيوس إلى الملك داردانوس. ووفقاً لآخرين فإنَّ أثينا هي التي صنعته تعبيراً عن حسرتها على قتلها دون عمد الصغيرة بالاس، رفيقة ملاعبها وابنة تريتونيس، أبيها بالتنشئة. فحفرت أثينا من جذع شجرة تمثالاً يحمل ملامح بالاس وتركته مع زيوس. وبعد ذلك اختبأت

إليكترا، التي أغواها زيوس، خلف هذا التمثال، فأطاح به زيوس ووقعَ على أرض إليوم، وهناك بنى إلوس له معبداً. وحين ضرب اليونانيون حصاراً على طروادة علِموا أنهم لن يُحرزوا النصر أبداً ما دامت المدينة تحتفظ بهذا البلاديوم. لذلك قرَّرَ ديوميديس وأوديسيوس أن يسرقا المعبود النفيس، وأشاع خبر سرقته الإحباط بين الطرواديين. وقد قيل إنَّ داردانوس قام من باب الحيطة بعرض نسخة من البالاديوم على المؤمنين، وأخفى بعناية الأصل في الأديتوم ـ أو الحَرَم الأكثر عمقاً ـ من المعبد. وهكذا فإنَّ ما سرقه اليونانيون كان نسخة طبق الأصل. أما عن البالاديوم الأصلي، فنُقِلَ بعد سقوط طروادة إلى إيطاليا على يد إينياس. لكنه لم يبقَ هناك. وبعد تقلّبات عديدة أعيدَ إلى أمفيسا في لوكريس، وهناك بات بإمكان الجميع أن يبجلوه.

أبولو:

إنَّ أصل كلمة أبولو غير مؤكَّد. وقد اقتُرِحَ وجود صِلة بين الاسم وصيغة الفعل اليونانية القديمة التي تعني «يصدّ»، وأيضاً صيغة قديمة لفعل يعني «يُدمّر» (في الحالة الثانية اسم أبولو يعني «المُدمِّر»، كما يظهر في الإلياذة). والصِلة بين اسم أبولو والكلمة الإنكليزية تفاح التي تجعل منه إله شجرة التفاح القديم أيضاً مُقنِعة.

أصله، وشخصيته ووظائفه: الشك نفسه يكتنفُ أصل أبولو. بعض المصادر تعتقد أنه انحدرَ من آسيا وأنه كان إما إلهاً حثّياً، أو نسخة يونانية عن الإله العربي هبل، أو إله ليكيا.

ومصادر أخرى تعتقد، بسبب صِلاته الحميمة بالهايبربوريين، أنه إله شماليّ، جلبَه اليونانيون من بلاد الشمال خلال عمليات الهجرة. ومن الصعب الانتقاء بين هاتين المدرستين المتناقضتين في الفِكر، مع أنَّ كليهما تقدمان حُججاً جديرة بالإعجاب، لأنَّ أياً منهما غير مُقنعة حقاً.

إنَّ الصعوبة تكمن في أنَّ أسطورة أبولو ووظائفه تكشف عن وجود اختلافات تبلغ أحياناً حدّ التناقض التام. فكيفَ يُعقَلُ، مثلاً، أنَّ الإله اليوناني

البارز كان، في الإلياذة، حليفَ الطرواديين ـ أي، الآسيويين؟ وإذا كان بالفعل من أصلٍ أسيويّ، فكيف نستطيع أنْ نفسِّر انسحابه في وادي تمب وبين الهايبربوريين؟ في هذه الحالة ثمة ما يُغري بالنظر إلى عودة الإله إلى أرض المنبت.

أما عن وظائفه، فهي شديدة التعدُّد والتعقيد بحيث أنَّ من الصعب غالباً ربط الواحدة منها بالأخرى.

كان أبولو قبل أي شيء إله النور، إلهاً شمسياً ـ ولكن دون أنْ يكون الشمس نفسها، التي كانت تُمثَّل بإله خاص، هو هليوس. ومن هنا تنشأ ألقابه: فويبوس، «اللامع»، زانثوس، «الأشقر»، كريسوكوس، «ذو خصلات الشعر الذهبية». ولهذا كان يبتهج في «الأماكن العالية، والذرى الكالحة للجبال الشامخة، والأمواج المتراكبة، والنتوءات البارزة». إله النور هذا كان ابن لاتونا أو ليتو ـ التي ربما كانت نسخة على الإلهة ـ التي كانت دون شك إلهة لليل.

وبما أنه إله شمسي كان أبولو السبب في جعل ثِمار الأشجار تنضج، لذلك، في ديلوس ودلفي كانت المحاصيل الأولى تُكرَّس له. وبالإضافة إلى ذلك كان يحمي المحاصيل بقضائه على الفئران التي تبتلى الحقول بها (Apollo Smintheus) ويطرد الجراد الذي يُدمِّر المحصول (Apollo Parnopius).

ولأنَّ الشمس تقتلُ بأشعتها التي تضر كالسهام، وفي الوقت نفسه هي مفيدة بسبب قِواها الشافية، كان يُعتَقَد أنَّ أبولو هو إله نبال يُطلِقُ سِهامه من بعيد (Hecatebolos) كإله الموت المفاجئ، ولكن أيضاً كإله ـ شافٍ يُبعِدُ المرض (Alexikakos). وفي وظيفته الأخيرة هذه من الواضح أنه يحل محل الإله البدائي بيون Peon (الشافي) الذي يتّصل اسمه بقوة بالإله الذي يسمّيه هومروس طبيب الآلهة، بيون Paeeon.

أبولو كان أيضاً إله العِرافة والتنبؤ. ودون أن نذكر مهابط الوحي المبكرة العديدة التي كانت تُخصَّص له في آسيا الصغرى، في ثيمبرا، وكلاروس، ووغرينيا، وديديموس، وفي أرجاء اليونان كلها، كانت له حُرم يأتي إليها الناس

لاستشارته وحيث يُعطي أحكامه بوساطة الكاهنات، السيبيليات. وكانت كاهنات تيغيرا، التي تقع بالقرب من أوركومينوس، شهيرات، وكذلك اللائي في طيبة وبويوتيا، وكانت ابنة تيريساس، مانتو، هي رئيستهن. وفي طيبة في أيام البوسانيين يمكن مشاهدة الحجر الذي كانت الكاهنات تُعطي منه نبوءاتهن. كان يُدعى بمقعد مانتو. وبعد ذلك انتقلت مانتو إلى دلفي، وهناك كرَّستْ نفسها لعبادة أبولو. ويُقال إنَّ الإله أرسلها إلى آسيا الصغرى لتُقيم مهبط وحي كلاروس.

لكنَّ من بين حُرم أبولو كلها كان حرم دلفي هو أشهرها، ويقع داخل مغارة عميقة تنبعثُ منها أبخرة تنبّوئية. كانت الكاهنة الملقبة بيثيا، تجلس على حامل ثلاثي القوائم منصوب على عتبة المغارة. وسرعان ما تغيب، تحت تأثير الإله، في حالة من النشوة وتبدأ، وقد تملّكها هذيان التنبؤ، بصبِ سيلٍ من العبارات المتقطّعة والكلمات المبهمة، يقوم الكاهن وأعضاء مجمع دلفي المقدّسون بتفسير معناها.

هذه الوظيفة التنبوئية لإله الشمس يصعب تفسيرها على ضوء الحقيقة القائلة إنَّ الكهانة في اليونان مُقتصرة على آلهة العالم الأسفل، ولكن الحقيقة هي أن أبولو قد حل محل هؤلاء جميعاً شيئاً فشيئاً. علينا إذن أن نفترض أنه كان يتولى مسبقاً هذه الوظيفة حين قدِمَ إلى اليونان، ولا يمكننا إلاّ أن نلاحظ في هذا المجال الشبه بينه وبين إله الشمس الرافديني شمش، الذي كانت لديه أيضاً موهبة التنبؤ ـ وهذه الحجّة في صالح من يقول إنَّ أبولو هو من أصلٍ آسيوي.

ولكن هناك أوجه أخرى لإله الشمس ليس من السهل ربطها بما سبق.

ذلك أنَّ أبولو كان الإله ـ الراعي (Nomius) مهمته حماية قطعان الماشية. وسوف نرى لاحقاً أنَّ القطعان ترتبط في الغالب بأبولو. ولقبه، الليكياني ـ مالم يكن ببساطة يعني أنه ينحدر من ليكيا ـ يمكن بوضوح استنباطه من أصل Lux، أو النور، وعندئذٍ سيكونُ لقباً مناسباً لإله الشمس. ولكن «كلمة الليكياني» لها صِلة بالكلمة اليونانية التي تعني ذئب. عندئذٍ يمكن لكلمة أبولو أنْ تعني في الاصل الإله ـ الذئب (كما حدَسَ رايناخ)، أو الإله الذي يقتل الذئاب (Lukoktonos) ـ

وكلتاهما يمكن تطبيقهما على الإله الريفي. وربما يمكن ربط أبولو نوميوس بأبولو كارنيوس (الإله ـ الكبش للدوريين) الذي كان أيضاً إلهاً رعوياً.

وأبولو هو أيضاً إله ـ موسيقي، إله الغناء والقيثارة. هكذا يُظهره هوميروس حين يصفُ الآلهة وهي تصغي إلى «صوت أنغام القيثارة الفاتنة التي يحملها أبولو».

وهو أيضاً إله بنّاء ويُنشئ المستعمرات، وكما يقول كاليماخوس «يبتهج ببناء البلدان التي يضع أسسها بنفسه».

إنَّ كثرة الوظائف المتنوعة تؤدي بالمرء إلى الارتياب في أنَّ أبولو كان ينطوي على شخصيات عديدة، ومن الممكن حل مشكلة منشئة من خلال اعتباره إله ـ الشمس الآسيوي الذي اندمجَ مع إله ـ المراعي، الإله الرئيسي للدوريين الذي جاؤوا من شمال اليونان.

صورة التمثيلية: على الرغم من شخصية المتعددة الجوانب يظهر أبولو دائماً بشكل موحد في الصور التمثيلية التي صُنِعَتْ له. فقد صُوِّرَ كشابٍ ذي جمال مثاليّ، وجسمٍ يضجُ بالحيوية، وصدرٍ عريض ووركين نحيلين. ووجهه المجرَّدً من اللحية بتقاسيمه الدقيقة يعلوه جبين عالٍ وشعر كثيف وطويل يسقُط أحياناً بحرّية خلفه، وأحياناً أخرى يُعقّد على القمة أو يغطي مؤخر عنقه بحيث لا تسقط على كتفيه إلاّ بضع خُصَل. إنه في العموم عارٍ أو لا يرتدي إلاّ عباءة قصيرة يطرحها على كتفه. وأحياناً يرتدي رداءً طويلاً، خاصة عندما يُمثَّل كموسيقي.

رموزه هي القوس، والكِنانة، وعصا الراعي، والقيثارة. والحيوانات المقدَّسة بالنسبة إليه هي البجع، والنسر، والغُراب، والديك، والصقر، وزير الحصاد، والذئب والأفعى. ونباتاته المفضّله هي الغار، والنخيل، والزيتون وشجرة الطّرفاء.

مولد أبولو: وِفقاً لأقدم التقاليد كانت والدة أبولو، ليتو، ابنة كويوس وفويبه، زوجة زيوس قبل أنْ يتزوج من هيرا. وهكذا تظهرُ في الإلياذة حيثُ، دابنها ـ ودون شك بسبب منشئها الآسيويّ ـ قامت بحماية الطرواديين. هزيود

أيضاً يُظهرها في الدور نفسه ويصوِّرها ملفوفة بغلالةٍ ذات لون داكن، وهي اللباس المناسب بالنسبة إلى إلهة الليل. ولم تصبح ليتو خليلة زيوس وضحية غيرة هيرا إلا لاحقاً، وما يُغني أسطورتها هو في المقام الأول تاريخ عثرات حظها.

حين حملت ليتو بالتوأم الذي منحها إياه زيوس أخذت تجوب أرجاء الأرض بحثاً عن مكان هادئ لتضع توأمها فيه. لكنَّ غيرة هيرا الحانقة تعقَّبت خطورتها فراحت تطوف أتيكا، ويوبويا، وتراقيا وجزُر البحر الإيجي، وهي تتوسَّلُ عبثاً إلى كلٍ من تلك البلدان كي تستقبلها. كان جميعاً يخشون غضب هيرا وكلهم تتوسَّلُ عبثاً إلى كلٍ من تلك البلدان كي تستقبلها. كانوا جميعاً يخشون غضب هيرا وكلهم «مسَّهم الخوف والرعب» ولم يجرؤ أيٌ منهم على إيوائها. لكنَّ ليتو عثرت أخيراً على الملجأ. وسوف نتذكَّر أنَّ أخت ليتو، أستيريا، كانت قد تحوَّلَتْ إلى طائر السمّاني لأنها قاومت أشواق زيوس، ثم إلى جزيرة أورتيغيا العائمة. ووافقت جزيرة أورتيغيا على استقبال ليتو، بعد أن وُعِدَتْ معبد رائع لأبولو على تربتها القاحلة والكثيرة الحجارة. لكنَّ هيرا كانت قد أقسمت على ألاّ تضع غريمتها طفلها إلا في مكانٍ لا تسطع عليه أشعة الشمس. ولكي لا يُخرَق هذا القسم رفع بوزيدون الأمواج كالقُبَّة فوق جزيرة أورتيغيا التي، في الوقت نفسه، ثبَّتها إلى أعماق البحر بأربعة أعمدة. وبعد مولد أبولو، غيَّرت أورتيغيا اسمها إلى ديلوس ـ أو «المتألقة».

لما لم يُعد في إمكان هيرا أنْ تمنع مولد الطفل، حاولت على الأقلّ أنْ تؤخّر حدوثه. فبينما كل الخالدين الآخرين يهرعون إلى ديلوس ليلازموا ليتو، عمدت هيرا إلى تأخير ليثيرا، إلهة ولادة الأطفال، وعلى مدى تسع ليالٍ كانت ليتو ضحيّة لآلام فظيعة. وأخيراً أُرسِلَتْ ايريس إلى أوليمبوس ونجحت في إحضار ليثيرا. ثم، كما يرد في ترتيلة هومرية إلى أبولو، حملَتْ ليتو سعفة نخيل بين ذراعيها، وضغطت الأرض الرخوة بركبتيها، فابتسمت التربة من تحتها وخرج الوليد إلى النور. هتفت الإلهات جميعاً من فرط الفرح: «يا فويبوس، الإلهات يغسلنك بمياهٍ عذبة، رقراقة ونقيَة، ويعطينك نسيجاً أبيض رقيقاً كقماط، ربطنه بحزامٍ ذهبيٌ».

في الوقت نفسه وضعَتْ ليتو ابنتها، آرتيميس.

نظراً إلى تشابه الاسمَين فإنَّ مولد أبولو يُحدَّد أحياناً في غابة أورتيغيا المقدسة، في أنحاء إفسوس بآسيا الصغرى.

لم تنتهِ مِحنْ ليتو بمولد أبولو. فبدافع من خوفها من هيرا غادرت ديلوس وأسرعت بالتوجّه إلى آسيا الصغرى، إلى الأرض التي أضحت لاحقاً ليكيا. وهناك وقفت ذات يوم على حافة بركة ماء. أرادت أن تُطفئ ظمأها لكنَّ رُعاةً أفظاظاً منعوها بتعكير الماء وجعله ممزوجاً بالطمي. فعاقبتهم ليتو بتحويلهم إلى ضفادع.

طفولة أبولو ـ الأفعى بايثون: خِلافاً لباقي الأطفال لم يتغذَّ أبولو على حليب أمه. فقد وضعتْ ثيميس الأمبروزيا والنيكتار، رحيق الآلهة اللذيذ على شفتيه وفي الحال نفضَ الطفل الوليد حديثاً القماط عنه واكتسبَ قوة الرجال، التي برهن عليها على الفور بمصارعة الأفعى الهائلة بايثون (= الأصلة).

هذا الوحس كان أنثى تنين ولدتها الأرض، وكانت حاضنة لطايفون. وقد أرسلتها هيرا، التي صمَّمت على القضاء على غريمتها، لتهجم على ليتو لحظة وضعها أبولو. ولكن بفضل بوزيدون، الذي كان أخفى معتزل ليتو بين الأمواج، نجت ليتو وعادت بايثون إلى جحرها على المنحدرات الكثيفة الشجر لجبل البارناسوس. وبعد مولده بأربعة أيام، انطلقَ أبولو بحثاً عن مكانٍ لإقامة حَرَمه فيه. وهبط من مرتفعات أوليمبوس، مُسلّحاً بسهامٍ صنعها له هيفيستوس، وعبرَ بييريا، ويوبويا، وبويوتيا، حتى وصلَ إلى وادي كريسيا. وبناءً على نصيحة خبيثة من الحورية تلفوسا، التي كانت تهيمن على هذه المنطقة وترغب في الحتفاظ بمركزها، جالَ أبولو داخل ممر بارنا سوس الوحشي حيث كان جُحر الأفعى بايثون رأت الأفعى الإله فوثبت عليه. لكنَّ أبولو رماها بسهم «فسقط الوحش وهو يرتعش بألمٍ مُبرح، وتدحرجَ على الرمال. وغاص داخل الغابة وتلوَّى على الأرض، تارةَ هنا، وأخرى هناك، إلى أنْ جاءت لحظة زفرَ فيها أنفاسه السامة على صورة سيل من الدماء». دفعَ أبولو ضحيته بامتعاض جانباً بإحدى قدميه

وقال: «والآن تعفَّنْ حيث أنت». وفي ذكرى المناسبة هذه أُطلِقَ على البقعة التي حصل فيها اللقاء الدرامي اسم بايثو ـ من الكلمة اليونانية «يتعفَّن». وقد غُيِّر لاحقاً إلى دلفي. أما تلفوسا، فقد عاقبها الإله لخيانتها بخنقها تحت صخرة.

ولكي يُطهر نفسه من دماء الأفعى، نفى أبولو نفسه إلى ثيسالي، في وادي تمت، وعندما انتهت فترة تطهيره، عاد ورأسه متوَّج بغصنٍ من الغار المقدَّس، يرافقه موكبٌ من الكهنة، يرتّلون أناشيد النصر.

إنَّ ذكرى تلك الأحداث خُلِّدَتْ في دلفي بالاحتفال المدعو بالـSepteria (أو التبجيل)، الذي يُقام مرةً كل تسع سنوات ويُمثَّل أبولو بشابٍ مراهق، يُنتقى من بين طبقة النبلاء ويتوجه ترافقه مجموعة من الشبّان لِيُضرِم النار في كوخ خشبي يرمز إلى عرين التنين. وفي ختام الـSepteria تقوم مجموعة الشبان برحلة حج إلى وادي تمب، ويمارسون شعائر تكفيريّة ويعودون إلى دلفي حاملين الغار المقدَّس.

تأسيس دلفي: لقد كانت دلفي في الواقع أرض أبولو المختارة. فبُعيدَ إحرازه الانتصار على الأفعى بايثون بنى مذبحاً في بايو الوعرة، وسط دغلة مقدسة. كان المكان مُقفِراً وكان أبولو يتساءلُ اين يمكن أنْ يجدَ كهنة من أجل عبادته الجديدة حين تظهر على البُعد في البحر القاتم سفينةً على متنها بعض الكريتيين. وعلى الفور تلبَّسَ شكل دلفين، وهرع خلف السفينة ثم قفز على متنها، فأصيبَ البحارة بالرعب، وتفاقَم رعبهم حين لم تعُد سفينتهم تستجيب لضربات مجاذيفهم، وتنحرف عن مسارها، وتدور حول البيلوبونيز، وتلجُ خليج كورينث وتضرب اليابسة على شاطئ كريسا. عندئذٍ استعادَ مظهره المقدَّس وأملى على الكريتيين إرادته، «من الآن فصاعداً لن يعود أيٌّ منكم إلى مدينته الجميلة، لن تروا منازلكم المرفّهة ولن تدللوا زوجاتكم، ولكن ستحرسون معبدي. ستتعرّفون على خطط الآلهة الخالدة، وستُكرَّمون إلى الأبد وفق إرادتهم. سوف تحصلون على نصيبٍ وافر من كل ما تجلبه أبرز قبائل البشر إليّ. وبما أنكم أوَّل مَنْ شاهدني في البحرِ القاتم على صورة دلفين. سوف تتودَّدون إليّ بمخاطبتي بالدلفينيّ». وهكذا كان منشأ دلفي. والحادثة نفسها تفسِّر دور أبولو كإلهٍ للحملات الاستكشافيّة والبحرية، وخاصةً للاستعمار.

لكنَّ أبولو لم يكن دائماً يمكث في دلفي. ففي كل عام في نهاية فصل الخريف كان ينطلق إلى ما بعد جبال ريبايبه حيث يحكم بورياس المتهوِّر، باتجاه أرض الهايبربوريين الغامضة. وهناك، تحت سماء برّاقة إلى الأبد، عاشت سلالة سعيدة وفاضلة من البشر مُكرَّسة لعبادة أبولو. ويُقال، إنَّ ليتو نفسها كانت تقيمُ في تلك الأرض المباركةن التي غادرتْها وهي على هيئة ذئبة لكي تأتي إلى ديلوس. ومع عودة الطقس الحسَن يعود أبولو إلى دلفي من جديد على متن عربة تجرّها طيور بجع بيضاء أو حيوانات الغريفن الأسطورية الضخمة. والبعض يُحدِّد مكان ذلك المنفى السنوي للإله في ليكيا.

مآثر أبولو: كان أبولو، رامي السِهام السماوي الذي كانت سِهامه بعيدة المدى ولا تُخطئ أهدافها، يتميَّز بمآثره العديدة. فقد حارب الألوديين، إفيالتيس وأوتوس. هذان العملاقان، ابنا أليوس أو بوزيدون، تاقا إلى الزواج من هيرا وأرتيميس، وقاما بمحاولات متهورة متكررة كعادة التايتان لارتقاء أوليمبوس. وكان يمكن انْ ينجحا لو لم يقضِ أبولو عليهما بسهامه. وهناك مرويات أخرى تنسب موت الألوديين إلى أرتيميس. وبالطريقة نفسها ذبح أبولو العملاق تيتيوس الذي تجرّأ على الاعتداء على شرف ليتو، أمه.

والإله لم يكن أقل قسوة مع البشر ففي فوكيس كان هناك رجلُ ذو قوّة خارقة اسمه فورباس، سيد الفليجيين. كان يكمن على جانب الطريق المؤدي إلى معبد دلفي ويُجبر الحجيج المارين على مصارعته، وبعد أن يتغلَّب عليهم يقتلهم بشكلٍ مؤلم. وذات يوم. ظهر أبولو متخفيّاً بصورة رجلٍ رياضيّ، وصرعَ فورباس بلكمةٍ واحدة قوية. بل إنَّ أبولو جرَّبَ قوّته على هرقل. وكان هرقل قد قدِمَ إلى دلفي، ولكن عندما لم يحصل من بايثيا على النبوءة التي كان يتمناها، قبضَّ على المنصب المقدَّس الثلاثي الأركان وأخذه معه. ولحق أبولو به على جناح السرعة، وأدركه واستعد لاستعادته بالقتال. وقد تطلَّب إنهاء القتال تدخُّل زيوس ذاته. وألزمَ زيوس هرقل بإعادة المنصب الثلاثي الأركان وصالح بين الخصمَين. وفي الحقيقة لم يكن أبولو يتسامح مع أي إهانة توجَّه إلى شخصه أو إلى عبادته. وقد قُضيَ على رامي السهام، يوريتوس، الذي تجرّأ على تحديه، لوقاحته،

ولأنَّ أغاممنون وجّه إهانة خطيرة لكاهنه كريسيس في طروادة، بقيَ أبولو يرمي الجيش اليوناني طوال تسعة أيام بسهامه القاتلة، ويُرسل مقاتلين لا حصر لهم إلى مملكة هيدس في العالم الأسفل.

بين الأولمبيين كان أبولو يتمتَّع بحظوة خاصة. فحين يلج المكان، ينهضُ الآلهة المجتمعون كعلامة على الاحترام. وتهرع ليتو، أمه، إلى تخفيف عبء القوس والكنْانة عن كاهله، وتعلّقهم من مسمارٍ ذهبي. ويرحّبُ زيوس بابنه ويقدِّم إليه رحيق الآلهة في كأسٍ من الذهب. وعندئذٍ يعود الخالدون إلى مقاعدهم. وكانت ليتو فخوراً لانها أنجبَتْ ذلك الابن المتميِّز الذي يستخدم القوس المهيب ببراعة.

وحده الماكر هرمس تجرّأ على ممارسة خِداعه على أخيه غير الشقيق، وسوف نرى لاحقاً كيف سرقَ عِجول أبولو.

عبوديّة أبولو: على الرغم من الحظوة الخاصة التي كان يغدقها عليه سيد الآلهة، إلاّ أنَّ أبولو أثار في مناسبتين غضب زيوس. المرة الأولى حي اشترك أبولو في مؤامرة حبكتها هيرا ضد زوجها وفشلَتْ بفضل ثيتيس. وفي ثورة غضب حكمَ زيوس على أبولو، وبوزيدون، بالذهاب إلى طروادة، والدخول في خِدمة ملكها لاوميدون مدة عام. هناك عمل بوزيدون على إنشاء الاستحكامات الطروادية، وكان أبولو يرعى الثيران الملكية على المنحدرات وفي ممرات جبل إيدا الكثيفة الأشجار. ومع انتهاء العام رفضَ لاوميدون أنْ يدفع للإلهين أجرهما المُتَّفق عليه بل إنه هدَّدَ بقطع آذانهما. وانتقاماً لذلك نشر أبولو وباءً في أرجاء البلاد واستدعى بوزيدون وحشاً من البحر فقتلَ الرجال في الحقول.

المرة الثانية التي أثارَ فيها أبولو حنق والده كانت عندما قتل أبولو، انتقاماً لمقتل ابنه، أسكليبيوس، الذي ضربه زيوس بصاعقة، حيث قام أبولو بقتل السيكلوب الذي صنع الصاعقة والسيكلوب الذي أنزلها. فعاقبه زيوس بإرساله لخدمة أدميتوس، ملك فيريه ليرعى خيوله وتعالجه. وقد أبدى أبولو لسيده البشري ولاءً، وساعده في الزواج بل وأنقذَ حياته. هاتان الحادثتان تبيّنان السِمة الرعوية لأبولو نميوس.

كان أبولو أهمّ آلهة الموسيقى، وحين كانت تجذبه الموسيقى العُلويّة، كان رفاقه من الغزلان والأيائل يأتون ليقصفوا، وحتى حيوانات الغابة المتوحشة، كانت تنضم إليهم. هل أبولو هو الذي اخترع القيثارة؟ وِفقاً للبعض فقد فعلَ، مع أنه يبدو من الأرجح أنه تلقّى الآلة الموسيقية من هرمس.

لقد شاء أبولو ألا توجد أي آلة تضاهي القيثارة في جمال صوتها. وذات يوم بينما كان يتمشّى على جبل تمولوس تحدّاه الساطير مارسياس في مسابقة موسيقية. وشُكِّلتْ لجنة تحكيم كان من بينها إلهات الحُسْن وميداس، ملك فريجيا. وعندما انتهت المباراة أُعلِنَ أبولو مُنتصراً. وحده ميداس صوَّتَ لصالح مارسياس. فعاقبَ الإله ميداس بمنحهِ أذنيَ حِمار. أما منافسه غير المحظوظ، فربطه إلى جذع شجرة، وسلخ له جلده وهو حي وعلَّقَ جسده عند مدخل مغارة. وكان يمكن مشاهدته في ضواحي كيلينه في فريجيا. ووِفقاً لمرويات أخرى جرت المسابقة بين أبولو وبان.

علاقات أبولو العاطفية: سيبدو أنَّ إلهاً مُنِحَ كل مفاتن الشباب والقوة والجمال، لن يجد مَنْ يُقاوم سحره. ولهذا كانت مغامرات أبولو الغراميّة عديدة، لكنَّ كثيراً منها انتهى نهاية بائسة عندما كانت خليلاته غير راغبات وكانت العواقب مأساويّة.

لا شك في أنَّ الاوقيانيدة مليا قد أحبتّه، وجعلها أمَّ إسمينيوس، وكذلك كوريسيا التي منحته ابناً اسمه ليكوريوس، وكذلك أكاكاليس، أم فيلاسيديس وفيلاندروس، لكنه حاولَ عبثاً أنْ يغوي دافني. هذه الحورية، ابنة نهر بنيوس، كانت عفيفةً بقدر ما كانت جميلة. وحين رفضتْ الاستسلام لأبولو حاولَ أن يغتصبها، لكنها هربت. فأدركها وحالما شعرت بذراعَيّ الإله النهمتين تحيطان بها هتفتْ لغيا الموقَّرة كي تغيثها. وعلى الفور فغَرَت الأرض فاها، واختفت دافني، ونبتت مكانها على الأرض شجرة غار. وجعلها أبولو النبتة المقدَّسة له.

الحورية سيرين، التي قيل إنها إبنة الملك هيبسيوس، كانت صيّادة. وذات يوم شاهدها أبولو على المنحدرات المكتظة بالأشجار لجبل بليون تصارع أسداً.

ففُتِنَ بجمالها وشجاعتها، وحملها معه على عربةٍ من الذهب إلى ليبيا، وهناك أنجبتْ أريستيوس.

والنساء من البشر أيضاً لم يستسلمن كلهن لرغبات أبولو. فقد كان هناك كاستاليا، وهي فتاة من دلفي، التي، لكي تتخلَّص من ملاحقة الإله لها، رمت بنفسها إلى النبع الذي سُمّيّ لاحقاً باسمها.

أحبَّ هرمس وأبولو في وقتٍ واحد كلاً من أكاكاليس ـ التي ينبغي ألاّ يُخلَط بينها وبين الحورية التي تحمل الاسم نفسه ـ وكيونه. أنجبت كيونه، ابنة ديداليون، أوتوليكوس من هرمس وأنجبَتْ فيلامون من أبولو. ولما كانت شديدة الفخر بجمال ولدَيها كانت من الصفاقة بحيث هزئت من عقم أرتيميس، فعاقبتها برميها بالسهام. أما أكاكاليس، وتُدعى أيضاً ديون، ابنة مينوس، فكان والدها قد أرسلها إلى ليبيا، وهناك تعرَّفَتْ إلى أبولو. وأنجبت له ابنين، أمفيثيميس (أو غاراماس) وميليتوس. وعندما وُلِدَ ميليتوس أرسلته أمه، خوفاً من مينوس، إلى غابة. وهناك، بفضل حماية أبولو، اعتنت الذئاب بالوليد الذي ترعرع بينها. واكتشف الرعاة وجوده وأبعدوه عن الوسط الهمجي. ولاحقاً أثارَ ميليتوس الشك في قلب مينوس فهربَ إلى آسيا الصغرى، وهناك أسَّسَ مدينة ميليتوس. أما لينوس، ابن أبولو من بساماث، ابنة كروتوبوس، ملك آرغوس، فكان أقلّ حظاً. فقط كشفت أمه عن وجوده، وكانت تريد أنْ تُخفي مولده، فالتهمته الكلاب. حين سمعت بساماث النبأ أصابها الحزن وفضحَتْ أمرها. فقتلها والدها. وعلى الفور ابتلى أبولو المدينة بوباءٍ لم ينته إلا بعد نفي كروتوبوس. ولينوس هذا، الذي مات في طفولته، ليس هو البطل الموسيقي الذي أنجبه أبولو من يورانيا.

كان لمغامرة أبولو مع كورونيس نتيجة مأساوية. فقد كانت كورونيس، ابنة فليجياس، ملك اللابيثيين، قد استسلمت لأبولو وحملت صبياً. وحين أوشكت أنْ تصبح أمّاً تزوَّجت إسكيس الأركادي. وفي الحال هرعَ غُراب، كان أبولو قد تركه مع كورونيس ليسهر على راحتها، ليُخبر أبولو عن خيانة الفتاة. وفي ثورة غضبه لعنَ ابولو الغراب، الذي تحوَّلَ ريشه على الفور إلى اللون الأسود، وقتلَ كلاً من كورونيس وإسكيس. ووِفقاً لآخرين تركَ أرتيميس تنتقم له. ووضِعَت

الجثّتان على المِحرقة الجنائزية. وحين التهمت النيران ما يُقارب نصف جثة كورونيس وصلَ ابولو وانتزع من بين اللهب الطفل الذي كان يوشك أنْ يولد. وأصبحَ الطفل إله الدواء، أسكليبيوس. وحين علِمَ فليجياس مَنْ هو المسؤول عن المأساة سارَ إلى دلفي وأحرقَ معبد أبولو. ولكنه مات تحت تأثير ضربات الإله وأُلقيَ به إلى تارتاروس، وهناك تمَّ تعذيبه بوحشية بسبب تدنيسه للمقدسات.

وذات يوم بينما كانت كاريوسا، ابنة إريكثيوس وبراكيثيا، تجمع أزهاراً من منحدرات الأكروبوليس، ظهرَ لها فجأةً أبولو. وفي كهفٍ قريب ضاجعته. وهنا وضعتْ لاحقاً ابناً، أيون، وأرسلَ أبولو هرمس لإحضار الطفل وجلبهِ إلى دلفي، وهناك انخرطَ في خِدمة المعبد. في تلك الأثناء كانت كريوسا قد تزوّجت من زوثوس، لكنَّ زواجهما لم يُثمر أطفالاً. فجاء الاثنان إلى دلفي، وهناك أعلنت الكاهنة أنَّ أول شخص سيُشاهدانه سيكون ابناً لهما. وحالما خرجا من المعبد كان أول مَنْ قابلاه هو الشاب أيون. فتبنّاه زوثوس. شعرت كريوسا بالغيرة فحاولتْ أنْ تُسمَّم ايون، وأيون نفسه حاولَ أنْ يقتلَ كريوسا. وقامت البيثيا بإيضاح سوء الفهم وكشفَتْ لكريوسا وأيون أنهما أمٌ وابنها. كما أخبرت أثينا أيضاً زوثوس الحقيقة؛ ومن أبولو تلقّى زوثوس وعداً بأنه سيصبحُ أباً لابنَين، دوروس وأكيوس اللذين، مع أيون، كانا أسلاف السلالة اليونانية.

أنجبَ أبولو من ثيريا ابناً سمّاه سيكنوس، شاباً ذا جمالٍ فريد كان يرتبط بعاطفة رقيقة مع رفيقه في الصيد، فيليوس. وحين تخلّى عنه فيليوس، رمى سيكنوس نفسه في لحظة يأس في بحيرة كانوبوس. ورمت ثيريا، أمه، بنفسها خلفه، فحوّلهما أبولو كليهما إلى بجعتين. وأنجبَ أبولو من امرأة اسمها سيرين، ابناً آخر، اسمه إدمون، وَهَبَه القدرة على استشراف المستقبل. وحين دُعيَ إلى المشاركة في حملة الأرغونوت، تنبّأ إدمون بأنه سيموت أثناء الرحلة البحرية. ومع ذلك ذهبَ، وقُتِلَ فعلاً بعضّة من أفعى.

أنجبت إفادن لأبولوس لاموس، وكان عرّافاً مشهوراً وسيد عائلة اللامديين في أوليمبيا.

لعبت الكهانة دوراً مهماً في أساطير أبولو. فحين وقعَ أبولو في حب كاساندرا، ابنة الملك بريام، منحها هبة معرفة المستقبل لدى وعدها له بأنْ تستسلم له. لكنَّ كاساندرا رفضتْ أنْ تنفّذ الاتفاق، فتوسّلَ إليها أبولو أنْ تمنحه قُبلة. بهذه الطريقة نفخَ في فمها، وجرَّدها من قدرتها على الإقناع بحيث أنه منذ ذلك الوقت لم يعُد أحدٌ يُصدّق ما تتنبأ به كاساندرا.

وأحبَّ أبولو أيضاً عدداً من الشبان. مثل سيباريسوس، الذي حوَّله الإله إلى شجرة سرو لأنَّ الشاب كان شديد الحزن لأنه قتل مهره المفضَّل بإهمال منه. وهكذا حدث لهياسينثوس، ابن أميكلاس، ملك لاكونيا. ذلك أنَّ هياسينثوس لم يكن معشوق أبولو فقط ولكن كان يعشق أيضاً بورياس وزفيروس. وذات يوم بينما كان هياسينثوس وأبولو يرميان الأقراص، قام بورياس وزفيروس بدافع من حسدهما بتوجيه مسار القرص الذي كان أبولو قد رماه لتوّه لكي يضرب هياسينثوس على رأسه فقتله على الفور. ومن الدماء التي انبثقت نبتت زهرة حملت اسمه، الهياسينث (المَكْحلة). وفي ذكرى تلك الحادثة الحزينة كانوا يحتفلون سنوياً في لاكونيا بالهياسينثيا، الذي يبدأ بتقديم قرابين الجنازة ومناحات وينتهي بأغاني الفرح على شرف البطل الشاب الذي أصبحَ خالداً.

حاشية أبولو:

الميوزات: في جانبه كإله للموسيقى، كانت رفيقات أبولو المعتاديات هن إلهات الموسيقى والشعر والغناء المدعوّات بالميوزيّات (Muses). ولهذا كان يُدعى Apollo Musagetes.

يبدو أن الميوزات كُنَّ في البداية، مثل الحوريات، إلهات الينابيع. وبعد ذلك أصبحنَ إلهات الذاكرة، ومن ثم الإلهام الشعري.

كان عددهن متغيراً. عُبدتْ أولى الإلهات على جبل هيليكون حيث كان عددهن ثلاث: ميليته، ومنيمه وأويده. كان هناك أيضاً ثلاث على جبل سيكيون، وأيضاً في دلفي، وكانت أسماؤهن ـ نيته، وميزه وهيباته ـ يجسّدنَ أوتار القيثارة الثلاثة. وكان هناك سبع إلهات في لسبوس وفي صقلية، وثمانٍ للفيثاغورسيين

وللأثينيين البدائيين. وأخيراً تمَّ الاتّفاق على أنَّ هناك تسع إلهات للنغم: كليو، ويوترب، وثاليا، وملبومنيه، وتربسيكور، وإراتو، وبوليهنمنيا، وأورانيا وكاليوبه.

وظائفها: بقيَتْ الإلهات التسع طويلاً مندمجات في كورس لا ينفصم يشرف على الموسيقى والشعر عموماً. ولاحقاً خُصص مجال معين لكلٍ منهنّ.

لذا أصبحت كليو إلهة التاريخ. ورموزها هي البوق البطولي والساعة المائية.

وأشرفت يوترب على عزف الناي الذي كان رمزها.

ثاليا، التي كانت في أول الأمر حورية رعوية، أصبحتْ إلهة الكوميديا. تحمل في يديها عصا الراعي وقناع المسرح الكوميدي.

ميلبومينه كانت إلهة التراجيديا ورمزها هو قناع المسرح التراجيدي وأيضاً هراوة هرقل.

تربسيكورن صاحبة القيثارة، كانت إلهة الشعر الغنائي والرقص.

إراتو كانت إلهة شعر الحب.

بوليهمنيا، بعد أنْ كانت إلهة الترانيم البطولية، أصبحت إلهة المسرح الإيماني. وكانت تُمثَّل بوِقفة التأمُّل وهي تضع إصبعها على فمها.

كانت يورانيا إلهة التنجيم ورموزها قبة السماء والبوصلة.

كاليوبه التي كانت الأولى في المرتبة بين أخواتها، اعتُبرَتْ بدورها إلهة الشعر الملحمي والفصاحة. ورموزها المِرقم والألواح.

أماكن العبادة والصور التمثيلية: إنَّ عبادة الإلهات التسع نشأتْ في تراقيا، أو بدقّة أشد في بييريا، كما يشهد أقدم أماكن عبادتهم. وقد تأسَّست في ليبثروم على المنحدرات الشرقية لجبل أوليمبوس ومنها انتشرت حتى بويوتيا، وهناك، حول هليكون، كانت مراكز العبادة هيٍ مدن أسكرا وثيسبيا. وفي ثيسبيا كانت تُقام احتفالات على شرف الإلهات مرةً كل خمسة أعوام وتتضمَّن مسابقات شعرية. وفي باقي أراضي اليونان لم تكن عبادة الإلهات أقل توهّجاً. في أثينا هناك

تل يقعُ بالقرب من الأكروبوليس مكرَّس لهن وقد عُبدنَ على ضفاف الليكيوس. وفي دلفي كنَّ يُعبدنَ مع أبولو. وكان للإلهات دور للعبادة في إسبارطة، تروزن، وسيكيون، وأوليمبوس، وفي الجزر وفي مدن عِدَّة في اليونان الكبرى.

تُفسِّر شخصيتهن السابقة كحوريات الينبوع سبب وجود أعداد غفيرة من النوافير المقدَّسة بالنسبة إلى الإلهات التسع.

القرابين المقدَّمة إلى الإلهات التسع كانت تتألف من حبوب القمح المعجونة بالعسل أما ماء القربان فكان مزيجاً من الماء، والحليب والعسل.

كانت الإلهات تُمثَّل كصبايا بوجوهٍ مبتسمة، أو جادة أو متأمّلة. وتبعاً لوظيفتهن كنَّ يرتدين أردية طويلة هفهافة، وفوقها عباءات. وكانت يورينيا وكليو في المعتاد تصوَّرانَ وهما جالستان. وخِلاف ذلك كنَّ يتميزين برموزهن الفردية.

أسطورة الإلهات التسع: بالنسبة إلى أصل الإلهات تختلف المرويات. ووفقاً إلى ميمنرموس وألكمن لقد وُلِدنَ من أورانوس وغيا، ويُقال أيضاً إنهنَّ بنات بيروس وأنتيوب أو الحورية بيمبليا، أو زيوس والحورية الآركاديّة نيدا، أو أبولو وما إلى ذلك. ولكنَّ رأي هزيود كان مقبولاً عموماً، وهو أطلقَ عليهنّ بنات زيوس والتيتانيّة منيموسين (أو الذاكرة).

وقد حُكيَ كيفَ أنه بعد اندحار التيتان طلبتْ الآلهة من زيوس ليخلق إلهات قادرات على الاحتفال بانتصار ساكني الأوليمبوس. فذهب سيد الآلهة إلى بييريا، وهناك شارك منيموسين الفراش على مدى تسع ليال متواصلة. وعندما حان وقت وضعها أنجبت تسع بنات شكّلنَ كورساً من إلهاتٍ الغناء.

على الرغم من أنَّ حوريات الغناء غالباً ما يتردَّدنَ على الأوليمبوس، حيث يُضفين المرح على ولائم الخالدين بغنائهنّ، إلا أنهنَّ كنّ يُفضّلن الإقامة على قمة هليكون، وهو جبل شاهق في بويوتيا الذي تُغطي منحدراته الكثيفة الشجر نباتات عطِرة لها خاصيّة تجريد الأفاعي من سُمّها. وهنا توفّر الينابيع العديدة الجو المُنعش الممتع: أشهرها كان أغانيب وهيبوكرين، اللذين كانت مياهما تندفعُ تحت حافر بيغاسوس. وكلاهما كانت له فضيلة منح الإلهام الشعري للذين يشربون من

مياههما. وعلى المرج الرقيق الذي يقع على حدود تلك الينابيع «تمشي الإلهات التسع بُخطى تشبه خطوات الرقص، يفضنَ بالسحر، ويستعرضنَ تناغمَ أصواتهنَّ الرائعة»، وحين يتعبنَ يقمنَ باستعادة نضارة بشرتهنّ في مياه هيبوكرين اللازوردية. وعندما يحلّ الليل يتركنّ ذُرى هيليكون، ثم يتلفّعنَ بالغيوم السميكة، ويقتربنَ من مساكن البشر، الذين كانوا يستطيعون سماع أصواتهن الشجيّة.

كما أحبت الإلهات أيضاً أنْ يزرنَ البارناسوس في فوكيس وهناك ينضممنَ إلى صحبة أبولو. ومن منحدر هذا الجبل كان ينبجسُ نبع كاستاليا المقدَّس إليهنَّ ومياهه أيضاً تمنح الإلهام الشِعري. هذا النبع الذي، كما يُقال، يتَّصل مع الكيفيسوس ـ الذي بدوره له منبع على بارناسوس ـ وكان يُعتبَر منبع نهر ستيكس. وكانت مياه كاستاليا تُستخدَم في طقوس التطهُّر في معبد دلفي، وتعطى للبيثيا لتشربه. لقد كانت الإلهات التسع بحق مرتبطات بشدّة بعبادة أبولو بالإضافة إلى كونهنَّ راعيات الشِعر وحارسات مهبط وحي دلفي. وهُنّ أنفسهن، زيادةً على ذلك، يتمتعنَ بموهبة الكهانة: «يعرفنَ ما يجري، وما سيجري، وما جرى». وهنَّ علَّمنَ أريستيوس فنَّ الكهانة.

لكنَّ أسطورتهن تظهر، بصورة رئيسية كإلهات للغناء. وهزيود يُظهر لنا الإلهات على جبل أوليمبوس وهنَّ يفتنّ روح زيوس العظيمة: «أصواتهنّ التي لا تعرف الكلل تنساب من أفواههن بنبرات عذبة، وبينما ينتشر هذا التناغُم الفاتن في البعيد يجلب الابتسام إلى قصر أبيهن، أبيهن الذي يصنع الصواعق».

وككل الإلهات كان شعورهن بالإهانة سريعاً ويُعاقبنَ بقسوة كل مَنْ يتجرأ وينافسهنّ.

حين تفاخر الشاعر التراقي ثاميريس بأنه تفوَّقَ على الميوزات، أنزلنَ عليه لعنة العمى والبكم.

كان لملك إماثيا في مقدونيا، بيروس، تسع بنات، البيريدات، اللواتي تجرّأن على تحدّي الميوزات لنيل جائزة الشِعر، فحوَّلهنَّ أبولو إلى غربان واستولت الميوزات على أسمائهنّ.

وفي الختام، دفعت السيرينيات غالياً جزاء وقاحتهنّ، ولأنهنَّ أعلنَّ تحدّيهنَّ للميوزات هُزِمنَ على الرغم من العذوبة التي لا تُقاوَم لأصواتهنَّ، ونتيجةً لذلك حُرِمنَ من أجنحتهنَّ.

في الأصل كانت الميوزات عذراوات ومن ذوات العفّة صارمة. وذات يوم التجأنَ إلى بايرينيوس، ملك دوليس في فوكيس، فحاول الملك أن يعتدي عليهنّ، فهربن. حاول بايرينيوس أنْ يلحقَ بهنّ، لكنه سقط من أعلى القصر وقُتِل.

بعد ذلك ألصِقَتْ بهنَّ علاقات حب عديدة.

كاليوب عشقها أبولو، وأنجبت منه ابنَين، هايمينيوس ولاليموس، وتزوَّجت أيضاً من أويغروسن الذي أنجبت له أورفيوس، مغني تراقيا الشهير.

ملبومين ضاجعَتْ إله النحر أكليوس وأصبحَت أمَّ السيرينيات.

يوترب ـ يقول آخرون إنها كانت كاليوب أو تربسيكور ـ أنجبت من ستريمون، إله نهر راقيا، ابنها ريسوس الذي ذُبحَ أثناء الحرب الطروادية على يد أوديسيوس وديوميدس، فقد قالت النبوءة إنه إذا شربت خيول ريسوس من مياه زانثوس فسوف تصبح طروادة منيعة.

عاقبتْ أفروديات كليو لأنَّ هذه الأخيرة أنبتها لشغفها بأدونيس، فأنزلَتْ في قلبها حباً لا يُقاوم لبيروس، ملك مقدونيا. فأنجبت كليو منه هياسينثوس.

ثاليا أنجَبتْ الكوريبانتس بعد أنْ ضاجعت أبولو.

من أمفيمارس، الموسيقي، أنجبت يورانيا لينوس، الذي يُقال عنه أيضاً إنه ابن أبولو وكاليوب أو تربسيكور. ويُنسب إلى لينوس اختراع النغم والإيقاع. وقد حُكيَ كيف تحدّى أبولو في مسابقة للغناء وكيف قتله أبولو. وللينوس تمثال مُقام على جبل هليكون حيثُ يُكرَّم كموازٍ للميوزات. وادَّعت طيبة أنَّ فيها قبره.

أخيراً، افتُرِضَ أنَّ ثاميريس هو ابن إراتو، وأنَّ تريبتوليموس هو ابن بوليهيمنيا.

أرتيميس:

إنَّ أصل اسم أرتيميس غامض ولا يمنحنا أي دلالة دقيقة على شخصيتها. وقوانين الاشتقاق اللفظي ليست في صالح ربط الاسم بكلمتيّ «دب» و«طائر السمّاني» اللتين اقترِحتا في ذِكرى مولدها في جزيرة أورتيغيا. وقد اقتُرِحَ أيضاً المعنى الوصفي «سليم ومُعافى»، الذي يجعل من أرتيميس تلك «التي تُشفي من المرض». ولكن لم يأخذ أيُّ تحليل لأصل الكلمة في الحُسبان شخصية الإلهة المعقَّدة التي يبدو أنَّها تتضمَّن آلهة عِدَّة، كما في حال أبولو.

شخصيتها ووظائفها: كانت أرتيميس البدائية، التي ربما هي نسخة طبق الأصل عن Apollo Nomius، إلهة الزراعة، وتُعبّد خاصةً في أركاديا. كانت إلهة الصيد والغابات (Agrotera). وكان رمزها هو أنثى الدب، مما يوحي بأنها كانت في الاصل مختلطة مع كاليستو، التي جُعِلَتْ لاحقاً رفيقةً لها. وثمة ما يُغري بربط أرتيميس الأركاديّة بآرتو، إلهة بيرني السلتيّة، التي كان رمزها أيضاً هو أنثى الدب.

منذ البداية كانت أرتيميس تُقرَن بأبولو وشاركته في طبيعته. وعليه كانت أيضاً إلهة النور (Phoebe)، لكنه نور القمر. وبالطريقة نفسها، شخصيتها القمريّة أصبحتْ بالتدريج أقلّ وضوحاً، كما يشهد على ذلك ظهور إلهة قمر خاصة، اسمها سيلين. من ناحية كونها إلهة نور كان لها وظيفة أبولو نفسها. ومثله كانت مُسلّحة بالقوس والكِنانة، وتحمل لقب Apollousa، أو المُدمِّرة، أو Locheaira، التي تُحب أنْ تطلق السهام، وتصيب البشر بنصالها المخيفة، وتُصيب قطعانهم بمرضٍ مميت. ومثل أبولو كانت إلهة الموت المُفاجئ، ولكن الذي تضربهم عادةً هنَّ من النساء. ولكنها في الوقت نفسه خيِّرة وتجلب الرخاء لَمن يبجّلها.

بسبب قدرتها كإلهة القمر كانت أيضاً تشرف على ولادة الأطفال، إلى جانب ليثيا.

أخيراً، اتصلت أرتيميس بإلهات أخريات، لا صِلة لهنَّ بها، كإلهة القمر في تاوريس، نتيجة فوضى سبّبها لقب Tauropolos الذي حملته أرتيميس في بلدات

مثل ساموس وأمفيبوليس وأيكاروس. وكانت أيضاً تطابق مع الآلهة الكريتيّة بريتومارتيس، ومع هيقاتي، وهي إلهة تراقيا التي كانت في الوقت نفسه إلهة القمر وإلهة العالم السفلي. بل كانت الصِلة أوهى بين أرتيميس اليونانية وأرتيميس أو ديانا مدينة إفسوس، التي تجسَّد الخصب والنماء، وهي أحد أشكال الإلهة الأم العظمى في الشرق.

كانت أرتيميس، التي تُبجَّل خاصةً في أركاريا، تُعبَد في أرجاء اليونان كلها، وبخاصة في البلوبونيز، وفي اسبارطة، وكاريا في لاكونيا، وفي أثينا، وأيجينا، وأوليمبيا وديلوس، حيث شجرة الغار مُكرَّسة لها وتجلب إليها الفتيات الهايبربوريات قرابينهنَّ. كانت مُحترمة، أيضاً، في كريت، وأسيا الصغرى وماغنا غريسيا.

صورها التمثيلية: على الرغم من أنَّ الجانب القمري من شخصية أرتيميس يُعيده إلى الذاكرة النقش الموجود على القطع النقدية ويُبيّنها وهي تحملُ مشعلاً بيدها، أو القمر والنجوم المُحيطة برأسها، إلا أن النحاتين شدَّدوا على الجانب الرعوي منها. وتبدو لنا كصبيّة عذراء، نحيلة ومياسّة القوام، ذات وركين ضيّقَين وأسارير وجه متناسقة. جمال وجهها فيه شيءٌ من القسوة، وشعرها مُسدّل نحو الخلف أو متجمِّع جزئياً على شكل عقدة فوق رأسها. وترتدي رداءً قصيراً لا يصل إلى ما تحت ركبتيها: وهو، في الحقيقة، الثوب الدوري (Doric) نفسه وقد رُفِعَ وتم الاحتفاظ بتضاعيفه بوساطة حِزام. تنتعل في قدميها جزمة الكوثورنوس او جزمة البسكن القصيرة. وعادةً تكون مصحوبة بأيلٍ أو كلاب.

إنَّ مظهر أرتيميس إفسوس المُتوَّجة يختلفُ كثيراً، فجسدها متدثر برداء ضيق مرسوم عليه رؤوس حيوان يجعل صدرها ذا الأثداء المتعددة مكشوفاً: صورة صارخة لإله الخصب التي لا صلة لها بأرتيميس اليونانية.

أسطورة أرتيميس: كانت أرتيميس تُقدَّم أحياناً بوصفها ابنة زيوس وديميتر أو برسيفون، أو ابنة ديونيزيوس وإيزيس. ولكن وِفقاً للتقليد السائد بين اليونانيين كانت ابنة ليتو، وأخت أبولو التوأم.

يُقال إنها ولدَتْ في اليوم السادس من شهر ثارغليون ـ قبل مولد أخيها بيوم ـ في جزيرة أورتيغيا التي لم يصبح اسمها ديلوس إلا بعد مولد أبولو. وقد تقاسمت مع أخيها التقلّبات التي تعرَّضَ لها في طفولته، ورافقته في حملته ضد أفعى البايثون وخلال فترة نفيه في ثيسالي. ثم اختارت أركاديا مكانها المفضَّل للإقامة فيه. في تلك المنطقة البريّة والجبليّة، حيث الفيوض تنهمر على المنحدرات المُشجّرة وتغوصُ خلال الممرات الضيقة والعميقة، كانت أرتيميس، مصحوبةً بستين أوقيانيدة وبعشرين حورية عُيِّنت للعناية بمجموعة كلابها السريعة، تستمتع بالصيد. وحالما وُلِدَتْ انطلقَتْ، لتفتش عن أبيها زيوس وتعانق رُكبتيه، وتستجديه، ليس حلياً وجواهر، بل رداءَ قصيراً، وجزمة للصيد، وقوساً وكِنانة مملوءة بالسِهام.

كانت لا تقلُّ مهارة عن أخيها «كانت على سفوح الجبال الظليلة، وعلى قمم الجبال التي تصفعها الرياح، تشدُّ قوسها الذهبي الوامض وتقذف به سهامها القاتلة».

حين تملّ اقتفاء آثار الحيوانات البريّة وملاحقة الغزلان الرشيقة كانت تقفُ بجانب مياه النبع الصافية وتستحمُ مع مرافقاتها إلى أنْ تُخفِّف برودة المياه المنعشة من تعبها.

وسط تلك الحياة الخشنة في الهواء الطلق لم يكن هناك مكان للحب، وبالنسبة إلى الصيّادة العذراء حتى متع الزواج المشروعة كانت بغيضة، وجعلت من العِفّة قانوناً صارماً فرضَته على مرافقاتها. والويل للحوريات اللواتي انضممنَ إلى فريق أرتيميس ومن ثم نسينً واجبهنّ من أجل تذوُّق المُتع المُحرّمة. وحتى حين تقع ضحية خداع الآلهة كانت مع ذلك تُعاقب نفسها بقسوة. وكاليستو العاثر الحظ التي تقدَّم منها زيوس متخفياً في صورة الإلهة نفسها وأغواها، سقطت تحت وابل سهام أرتيميس حين كُشِفَ أمرها.

والويل، أيضاً، للرجل الصفيق الذي يُفسح المجال لفضوله! وكان أكتيون نفسه، ابن أريستيوس وأوتونويه، صياداً متحمساً. وذات يوم كان يطاردُ مع كلابه أيلاً حين وصلَ إلى وادي غارغافيا، بالقُرب من نبع بارثينيوس، حين تصادفَ أنْ كانت أرتيميس مع رفيقاتها في تلك اللحظة يستحممن. ففُتِنَ بجمال الإلهة

وتوقَّفَ ليتأملها. ورأته. فغضبتْ لأنَّ واحداً من البشر شاهدها عارية، فحولَّتْ أرتيميس أكتيون إلى أيلٍ وأطلقت كلابه وراءه، فوثبت عليه ومزَّقته إرباً والتهمته.

ولكن في إحدى المناسبات، كما بدا، حرَّكَ الصياد أوريون قلب أرتيميس. وربما كان يمكن أنْ تتزوجه لولا تدخُّل أبولو، فذات يوم حين كان أوريون، السبّاح القويّ، يسبح في البحر، وكان قد ابتعد عن الشاطئ وكان يغيب عن الأنظار في الأفق حين تحدَّى أبولو أخته أنْ تُصيب النقطة التي بالكاد تُرى وتتحرَّك بعيداً داخل البحر على سطح الأمواج. ودون أنْ تدرك أرتيميس أنَّ الشيء البعيد هو أوريون، قبلَتْ التحدّي، وشدَّت قوسها أطلَقَتْ سهماً، فنفذَ من صِدغِ حبيبها. فهل رغبَ أبولو في حماية شرف أخته، أم كان دافعه هو غيرة خفيّة؟ إنَّ بعض التقاليد تدَّعي، حقاً، أنه اغتصب أرتيميس على مذبحه هو في ديلوس. ولكننا نفضِّل أنْ نؤمن بسلامة نقاء الإلهة.

في مكانٍ آخر قيلَ إنَّ أوريون اختفى لأنه تجرَّأ على لمس الإلهة ذات يوم حين كانا يمارسان الصيد معاً في جزيرة كيوس. استدعَتْ أرتيميس عقرباً مميتاً من الأرض فلدغ كاحل قدم أوريون.

هذه الرواية تتوافق بشكلٍ أفضل مع ما نعرفه عن شخصية أرتيميس الغامضة والانتقامية. وحين عاقبَ أبولو تيتيوس لاعتدائه الوحشي على ليتو، أمه، ناصرته أرتيميس. وإليها أيضاً يُنسَب موت عملاقي الألوادية: فقد حاولَ العملاقان اغتصابها، فحوَّلَتْ أرتيميس نفسها إلى أنثى ظبي بيضاء ودخلت بينهما وحولت رمحيهما نحو بعضهما، فإذا بهما يطعن أحدهما الآخر.

لقد رأينا كيف قتلت أرتيميس كيونه التي أحبّها أخوها، لأنّ كيونه كانت تزهو بجمال أطفالها. وعوقبتْ عقاباً أشدّ. كان لدى نيوبه، ابنة تانتالوس، ستة أبناء وست بنات من زوجها أمفيون. في غمرة زهوها كأم تجرّأت على الحطّ من قدر ليتو، التي لم تكن قد أنجبت سوى طفلين. وعقاباً لها على إهانتها أمطرَ أبولو وأرتيميس أولادها الإثني عشر بسهامها، وأخيراً أقنعت نيوبة، والحزن يعتصرها، زيوس أن يحولها إلى صخرة.

كان أقلّ إهمال يُرتَكَب في حق أرتيميس يُواجَه بعقوبة. وهذا ما فعله أدميتوس، حين أهمل تقديم أضحية لدى زواجه، وعندما دخل غرفة نوم الزوجية كانت في انتظاره مفاجأة غير سارة حين وجدَها مملوءة بالأفاعي. وأوينيوس، الذي حكمَ كاليدون في إيتوليا، نسيَ أنْ يقدم بواكير ثمار محصوله لأرتيميس: اجتاحَ منطقته دبٌّ هائل وسلبها، وفي سياق المغامرات التي صحبت أسر الوحش فَنَتْ عائلته كلها.

وبسبب إهانة الإلهة أيضاً، إما بقتل أيل في غابة كانت مقدَّسة بالنسبة إليها أو بالتفاخُر بأنه أكثر مهارة منها كصياد، عاكسّتْ الريح أغاممنون والأسطول اليوناني في مرفأ أوليس، ولم تعد الريح المواتية إلى الجنوب إلاّ بعد أنْ ضحى بابنته، إفجينيا، لأرتيميس. لكنَّ الإلهة أشفقَتْ على الضحية البريئة وانتزعّتْ إفجينيا وأبعدتها في لحظة التضحية بها، وحملتها إلى تاوريس وأصبحت هناك كاهنة عبادة أرتيميس.

في الواقع، وجدت في شبه الجزيرة التاوريّة إلهة محليّة طوبقَتْ لاحقاً مع أرتيميس الهيلّينية وكانت تُشرَّف بأضاحي دموية. وقُدّم كل الغرباء الذين جنحت بهم السفن على شواطئ تاوريس أضاحي لها. وكانت إفجينيا ترأس عمليات التضحية. وذات يوم تقدَّم أخوها أوريستس من تلك الشواطئ غير المضيافة. فاستحق الموت، لكنه أظهرَ نفسه لأخته وهربا معاً، حاملَين معهما تمثال الإلهة، فوُضِعَ في بلدة برورون في أتيكا ثم نُقِلَ لاحقاً إلى حرم فوق الأكروبوليس في أثينا. وكان يُبجَّل بحرية في أنحاء قُرى أتيكا، وذات يوم مزَّقَ فتاةً بمخالبه فقتله إخوتها. وفي غمرة من الغضب أرسلتْ أرتيميس بوباءٍ قاتل إلى أثينا. وحين سُئلت الكاهنة أجابت بأنَّ العقاب لن يزول إلا إذا كرَّسَ السكان بناتهنَّ لأرتيميس. وهكذا، كل خمس سنوات، يشق موكبٌ من الفتيات الصغار اللواتي تتراوح أعمارهنَّ ما بين خمس إلى عشر سنوات، ويرتدين أردية بلون الزعفران، طريقه بكل وقار نحو معبد أرتيميس.

وكانت بلدة ليمنيون في لاكونيا أيضاً ممجَّدة بامتلاكها أرتيميس التاورية الحقيقية. وقد وُجِدَ التمثال قائماً معتدلاً وسط دغل ـ لهذا السبب سُمّيَ

بأرتيميس Orthia (المعتدل) ـ وقد صحبَ الاكتشاف بين سكان ليمنيون والقُرى المجاورة تفشّي الجنون، وجرائم القتل والأوبئة. ونجحوا في تهدئة الإلهة المتعطشة لسفك الدماء بتقديم الأضاحي البشرية لها، وقد استُبدِلَ ذلك لاحقاً بجلد الشبان أمام تمثال أرتيميس، الذي تحمله الكاهنات ويصبح أثقل وزناً كلما تراخى أداء عمليات الجَلد تلك.

ولكن أرتيميس لم تكن تحت هذا المظهر الخشن والبربري. فعلى الرغم من حبها لجوب الجبال والوديان، فقد سمحت لنفسها بتسليات أرقّ من هذه. فهي أخت أبولو، إله القيثارة، وهي أيضاً إلهة الموسيقى: كان الغناء والرقص يسرّان Artemis Hymnia. حين يُبهج الصيد قلبها تترك قوسها وتدخل منزل أخيها الفسيح وسط أرض دلفي الخصبة وتنضمُ إلى كورس إلهات الغناء والحُسن. هناك تُعلِّق قوسها وسِهامها، ، ثم تترأس، وهي ترتدي أفخم الملابس، الكورس وتقوده.

أرتيميس إفسوس والأمازونات: قُلنا سابقاً إنَّ نوعاً غريباً من الاختلاط قد أدى إلى إعطاء اسمَ أرتيميس لإلهة الخصب والنماء المُبجّلة لا سيما في إفسوس. ويُقال إنَّ أصل هذه العبادة يعود إلى النساء الأمازونيات، وهنّ شعب أسطوري من النساء المحاربات جئنَ من منطقة القوقاز ليستقر بهنّ الحال في كابادوكيا على ضِفاف الثرمودون. هناك أسستْ الأمازونات دولةً كانت عاصمتها ثيميسيرا وكانت تحكمها ملكة. ولم يكن يُسمح للرجال بالتواجد. وتذهب الأمازونات مرة واحدة في العام إلى جيرانهن الغرغيزيين من أجل فترةً من التواصُل المؤقَّت مع ذكور. ومن بين الاطفال الذين ينجبنهم كنَّ يحتفظنَ فقط بالإناث اللواتي كنّ يخضعن للتدريب على الصيد منذ طفولتهنّ. وقد استمدَّ اليونانيون القُدامى اسمهن من Mazos (الصدر) و«a» التي تعني «لا». وتفسر هذه التسمية بأنهنَّ كن يستأصلن أثداءهن اليمنى لكي يشددنَ الأقواس بسهولة أكبر. ولكن، بعيداً عن حقيقة أنَّ لا أثرَ شوهدَ لذلك التشويه في أي صورة تمثل للأمازونات. فإنَّ الجانب الخاص من أرتيميس إفسوسن إلهتهن الكبرى، يوحي أنَّ البادئة «a» لها، على العكس، قيمة مُعزِّزة.

نُسِبَ للأمازونات تأسيس مدنٍ عديدة: سميرنا، وإفسوس، وسميه، ومايرينا وبافوس. ومن كابادوكيا انتقلنَ إلى الجزر، وحططنَ في ليسبوس وساوثريس، بل لبد اخترقنَ بويوتيا وأتيكا. وكان السبب في غزوهنَ لأتيكا هو لينتقمنَ جراء خطف أو هجر ـ لا سبيل إلى معرفة أيهما ـ ثيسوس لأنتيوب. وكانت أنتيوب هي أخت ملكة الأمازون، هيبوليتا. في أثينا كانوا يعرضون قبور الأمازونات اللواتي قتلنَ في سياق الحرب، وفي كل عام يقدِّمُ الآثينيون الأضاحي لأرواح أعدائهم. وقد حاربت الأمازونات أيضاً في ليكيا ضد بيلروفون، وضد هرقل، الذي ذبحَ هيبوليتا، ملكتهن. وأثناء حرب طروادة جئنَ لمساعدة طروادة وشاهدنَ ملكتهن الشابة، بنثيسيليا، تسقط تحت ضربات آخيل. وقد حُكيَ أيضاً كيف أنهنَّ أرسلنَ حملة لغزو جزيرة لوسه في البحر الأسود، حيث دفعهم شبح آخيل إلى الفرار، عندما كادوا يسلبون مقامه. والأمازونات بسلوكهن القتالي وفزعهنّ من الرجال يشبهنَ أرتيميس اليونانية، وهذا يشكّل دون شك السبب الذي مُنحَتْ من أجله إلهتهنَّ الكبرى الاسم نفسه.

هرمس:

كما في حالة آلهة اليونان الآخرين، اقتُرِحَت أصول متعددة لاسم هرمس. بعضها يقترح صِلة له بالكلمة الفيدرالية السنسكريتية سارميا، المأخوذة من سارما، إله العواصف أو الفجر، والبعض الآخر يربط اسم هرمس بالكلمة اليونانية التي تعبّر عن فكرة الحركة؛ وهناك آخرون ـ يضعون في أذهانهم الصور المبكِّرة التي مثلت الإله ـ يقترحون كلمة «حجر» أو «صخر»، وأيضاً صيغة الفعل الذي يعني «يحمي».

شخصيته ووظائفه: إنَّ بعض التفاصيل في أسطورة هرمس توحي بأنه إما إله الغسق أو الرياح. مثل مولده، وسرقته نعاج أبولو ـ المُناظِرة لأبقار إندارا الفيديّة، والتي تُجسِّد الغيوم ـ وأسطورة ذبحه لأرغوس، وهو شرح متأخر للقب Argeohontes، ولعله تحريف لـArgeiphantes، «الذي يجعل السماء صافية». والأرجح أنَّ هرمس كان إلهاً بيلاسجيانيّاً قديماً، من أصل تراقي، كان

يُحترَم خاصةً من قِبَل رُعاة أركاديا وكانت مهمّة حراسة القطعان وحماية أكواخها. ومن هنا نشأت دون أدنى شك العادة اليونانية بوضع صورة بدائية لهذا الإله عند أبواب المنازل. وقد قلَّلَ الغزو الدُوريّ (Doric) من قيمة هرمس. وحلَّ أبولو نوميوس مكانه. واتَّخذَ هرمس من الرعاة وخصوبة الحيوانات شخصية أخرى.

لقد كان يُنظر إلى هرمس قبل أيّ شيء كإله المسافرين، الذي يتولى إرشادهم على طرقهم المحفوفة بالأخطار. وكانت صوره توضع عند تفرُّع الطرق الريفية وتقاطع الطرق في المدن. لا شك في أنَّ كون هرمس أيضاً مسؤولاً عن إرشاد أرواح الموتى إلى العالم السفلي هو امتدادٌ طبيعي لدوره. إلا إذا كان هذا هرمز مرشِد الأرواح، الذي يختلف أحياناً يختلف عن هرمس السماوي، بديلاً عن إلهٍ تحت أرضيّ قديم، شبيه بزيوس بلوتوس.

بما أنَّ الرحلات في الأزمان السحيقة لم تكن تحدث إلا لأغراضٍ تجارية، كان هرمس نتيجة لذلك إله التجارة، إله الربح ـ الشرعي واللا شرعي ـ وإله ألعاب الحظ. وأيضاً بما أنَّ الشراء والبيع يتطلبان الكثير من النقاش، وفن التاجر هدفه التغلُّب على تردُّد المُشتري بكلمات بارعة ومُقنعة، أصبحَ هرمس إله الفصاحة، الإله Logios.

إلى هذه الوظائف المتنوعة أضافَ هرمس كونه مراسل زيوس. هكذا يظهر عند هومروس، حيث يوصف بالـDiactoros (المُرسل). وهو يأتي إلى الأرض دون انقطاع حاملاً أوامر من ملك الآلهة ويؤدي أغلب المهمات الدقيقة. ووفي كتاب هزيود، هرمس هو الإله الذي يُنزل على قلوب الناس الانطباعات والعواطف التي أوحى بها زيوس.

لم يفشل هذا الراكض الذي لا يكلُّ قط في الفوز باحترام الرياضيين. وهكذا حمل لقب الـAgonios، «الذي يرأس المسابقات»، خاصة في بويوتيا. وتمثاله يقف عند مدخل ملعب الأولمبيا، وإليه يُنسَبْ اختراع الملاكمة وسباق الركض.

صوره التمثيلية: إنَّ الوجه الكلاسيكي لهرمس هو وجه الإله الرياضي وفي الأزمان البدائية كان يُمثَّل كرجل ناضج ذي لحيةٍ طويلة وغزيرة، وشعره مربوط بمشبكٍ ويسترسل بعقصات على كتفيه. بعد ذلك أصبحَ النموذج المثالي لـephebe أو الرياضي الشاب، ذي الجسم اللدن المتناسق. شعره قصير ومجعد، وتقاسيم وجهه رائعة: يميل برأسه قليلاً وكأنه يُصغي باهتمامٍ ودود. يكشف عن جسمه الريّان والمتوتّر يكشف عنه معطف كتفيه القصير المرميّ خلف كتفه أو الملتفّ حول ذراعه الأيسر. وهو في الغالب يعتمر قبعة مستديرة ومُجنّحة ـ تُدعى petasus ـ وينتعل في قدميه خِفاً مُجنّحاً. وفي يده يحملُ عصا مجنَّحة تلتفُّ حولها أفاعٍ متضافرة، هذا الرمز المدعو بالـcaduceus.

سرقة عجول أبولو: وُلِدَ هرمز، ابن زيوس ومايا، في أعماق كهف على جبل سيلين في أركاديا. وفي يوم مولده كشفَ هرمس عن فكاهته الخبيثة بسرقته الماشية التي وضِعَتْ تحت رعاية أبولو. فقد تسلَّلَ الطفل الإله خِلسةً من مهده وارتقى جبال بيريا، وهناك عثرَ على القطيع المقدس. وفصلَ عنه خمسينَ عجلاً ساقهم أمامه تحت جنح الظلام إلى ضفاف ألفيوس. ودفعهم إلى السير إلى الخلف لكي يخدعوا بآثار خطاهم الجهة التي جاؤوا منها. وهو نفسه كان قد انتعلَ خفاً ضخماً من خشب شجر الطرفاء وأغصان الآس في قدميه الرقيقتين. وقبل أنْ يُغلِق على العجول في الكهف انتقى اثنان من أضخمها، ثم صنع ناراً بحفٍّ أغصان الغار معاً بطريقة بدائية، وشواهما، ووزَّع لحمهما إلى اثنتي عشرة حِصّة متساوية على شرف الاثني عشر إلهاً عظيماً. وبعد ذلك عادَ إلى مرتفعات جبل سيلين، وزحفَ من جديد إلى مهده. وفي اليوم التالي لاحظَ أبولو اختفاء عجوله، وفهمَ ـ باللجوء إلى الكهانة ـ ما حدث وتوجه من فوره إلى سيلين، وهناك أنكرَ هرمس بعناد أي معرفةٍ له بعملية السرقة. قبضَ على الطفل من ذراعيه وحمله إلى منبر زيوس على أوليمبوس. لم يسع سيد الآلهة إلا أنْ يضحك لمكر الطفل المولود حديثاً ولكن، لما كان يُدلِّل أبولو، وجّه أمره إلى هرمس بإعادة العجول. «ثم هرعَ ابنا زيوس الوسيمان إلى بايلوس الرملية، بالقرب من مخاضة نهر ألفيوس، ووصلا إلى الحقول والحظيرة المرتفعة السقف حيثُ أودعَ موضوع السرقة تحت جنح الظلام».

اختراع القيثارة: تمَّت المصالحة بين الإلهين بالهدية التي قدَّمها هرمس إلى أبولو والمؤلّفة من أداة موسيقية كان قد ابتدعها من مصادفة سلحفاة اصطادها وصنع لها سبعة أوتار من أمعاء الخراف فأصدرت أصواتاً متناغمة. وكانت تلك أول قيثارة.

وعندما استمرَّ أبولو، وهو ما يزال منزعجاً من سرقة عجوله، يلومه بمرارة، ضربَ هرمس على الأوتار التي ابتكرها. فُتِنَ أبولو بالصوت وخمد غضبه ـ «بينما النغم الممتع المقدَّس يخترقُ أحاسيسه، تملّكته رغبةٌ عذبة». وخمَّن هرمس أنَّ أبولو اشتهى القيثارة فأعطاه إياها بكل عفوية. وفي المقابل أعطى أبولو هرمس سوطاً برّاقاً أو صولجاناً من ذهب ـ هو النموذج الأصلي لصولجان هرمس ذي الأفاعي ـ وعهد إليه أمر العناية بالقطيع السماوي. ومنذ ذلك الحين أصبح أبولو إله الموسيقى وأصبحَ هرمس حامي القطعان والأسراب. ولم تنفصم صداقة الإلهين أبداً. وفي مناسبات عِدّة كان هرمس يخدم أبولو، وخاصةً، كان يعتني بأمر مولد الكثير من أطفال أبولو.

مساعي هرمس الحميدة: على الرغم من مُزاح هرمس الخبيث إلاّ أنه حظيَ بتعاطف الآلهة جميعاً. حتى هيرا ذات المزاج الانتقامي كانت تنسى غيرتها حين يتعلَّق الأمر بهرمس الذي وجدَ وحده بين أطفال زيوس غير الشرعيين كلهم، الحظوة عندها بل إنَّ الإلهة قبلَتْ أن تُرضعه.

لقد كان هرمس راغباً على الدوام في تقديم المساعدة، وجعلتْ منه براعته حليفاً قيِّماً. وخلال الحرب ضد العمالقة اعتمر خوذة هيدس ـ التي جعلته خفيّاً ـ وقتلَ العملاق هيبوليتوس. وقد راينا منذ قليل كيف حرَّرَ زيوس، حين كان زيوس سجين طايفويوس، وأعادَ إلى زيوس قوته بتبديل الأعصاب التي قطعها العملاق. وأثناء قيام زيوس بمغامراته العاطفية، كانت مساعي هرمس لا تُقدَّر بثمن: فقد دفعَ العملاق أرغوس إلى النوم بتأثير أنغام نايه ومن ثم، لكي يُحرِّر «أيو» قتله. وحين وُلِدَ ديونيزوس كان هرمس هو الذي حملِ الطفل الوليد إلى أوركومينوس وأودعه بين يدي أينو، أخت سيميلي. وزيادةً على ذلك جعله زيوس مُراسله الخاص. ولكي يقطع المسافات السماويّة بسرعة كبيرة كان هرمس

ينتعل خفاً مُجنَّحاً «يحمله فوق مساحات البحور المائية أو فوق الأرض الشاسعة كنفخة هواء». ولكي يُعزِّز طيرانه كان أحياناً يُضيفُ جناحَين إلى قبعته.

حين وقعَ آريس بين يديّ ألواده أُخِذَ أسيراً مدة ثلاثة عشر شهراً دون أن يعلم أحد عن مكان أسره. وأخيراً اكتشفَ هرمس مكان سجنه وحرَّره. ومرةً أخرى عثر، بمساعدة آريس، في مقرّ تانتالوس على الكلب الذهبي الذي كان بانداريوس قد سرقه من زيوس.

وامتدت مساعدة هرمس إلى الأبطال: فحين تردَّدَ برسيوس أعاد له شجاعته، ورافقَ هرقل اثناء هبوطه إلى العالم السُفلي.

كان هرمس هو المُحسِن للجنس البشري، وحامي قطعانهم، ويُرشدهم في ترحالهم، ويُشرف على شؤون أعمالهم ويُلهمهم الكلام الشجيّ والفصاحة. وغالباً ما كان يقومُ بدورٍ مباشر في شؤونهم. وقد أدخلَ اليونانيين في سُباتٍ عميق بمساعدة صولجانه السحري «الذي كان يجعل عيون البشر به ناعسة أو إذا ما شاء ذلك، يوقظهم من النوم». وبفعلِهِ ذلك جعلَ بريام يُعيد جثمان هكتور إلى داخل أسوار طروادة. وأعطى أوديسيوس نبتةً سحرية جعلته منيعاً ضد سحر سيرسي. بل إننا شاهدناه ذات يوم، حين كان اليوبويون يستعدون للهجوم على مدينة تاناغرا، وهو يضعَ نفسه على رأس شبّان تلك المدينة لكي يطرد الغُزاة.

كان هرمس، كما رأينا، مُهتماً بالعالم السُفلي، ذلك أنه هو الذي يرشد أرواح الموتى إلى مثواها الأخير. ولهذا السبب سُميَّ بالـPsychopmous.

يرينا هوميروس أنَّ أرواح المتودّدين إلى بينيلوبه الذي قتلهم أوديسيوس وهم يطيرون خلفَ هرمس، يحفّون بأجنحتهم كالوطاويط، إلى أنْ يصلوا إلى «حقول البروْقَ حيث تُقيمُ أشباح الأموات». وكان في استطاعة هرمس أيضاً أنْ يُعيدَ أرواح الموتى إلى عالم النور. وعندما قطَّعَ تانتالوس ابنه إرباً وقدمه كوليمةٍ للآلهة، أعاد هرمس، بتعليماتٍ من زيوس، تركيب القطع وأعاد الشاب إلى الحياة. ورافق هرمس أيضاً أورفيوس في رحلة بحثه عن يوريديس.

أبناء هرمس: كان لهرمس، ككل الآلهة الأخرى. مغامرات عاطفية عديدة. وبين الإلهات يبدو أنه كان عشيق برسيفون، وهيقاتي وأفروديت. وبين الحوريات، اللواتي كان يلاحقهنَّ في الأعماق المُظلِمة للغابات، كانت غزواته أوسع مجالاً. وقد أنجب منهنَّ عدداً لا يُحصى من الأطفال يكفي أن نذكرَ منهم: ساون، ابن الحورية فينه، التي استعمرت ساموثريس، وبوايدوروس، ابن الحورية الثيساليّة بوليمل، ودافنيس، راعي صقلية الجميل والتعيس، الذي وُلدَ في نواحي إتنا، وفوقهم جميعاً بان، إله أركاديا الساذج. فبينما كان يرعى قطيع دارايوبس على منحدرات جبل سيلين، شاهد هرمس ابنة درايوبس وأحبّها. وأنجبتْ له ابناً مكسواً بالشعر وله قرون وقوائم كما الماعز. فأصيبت بالرعب وتخلَّت عنه، لكنَّ هرمس أخذه، ولفّه بجلد أرنب وحمله إلى جبل أوليمبوس وهناك أدخل بان السرور على قلوب الآلهة بالمشاهد المسلّية. ووفق رواية أخرى، كان بان ابن أمٍ من البشر، هي بينيلوبه، أتاها هرمس متخفيّاً بهيئة تيس.

من بين البشر من الإناث اللواتي أحبّهن هرمس كان هناك أكاكاليس، ابنة مينوس، التي جعلها أمَّ كيدرون، وكونه، كما أنجبتْ له ابناً، هو أوتوليكوس. وقد تلقَّى أوتوليكوس من والده هِبة هي قدرته على جعل كل ما يلمس لا مرئياً. بهذه الطريقة كان قادراً على ارتكاب الكثير من السرقات إلى أنْ ألقى سيزفون القبض عليه عندما سرق ثيرانه ذات يوم. وهناك ابن آخر لهرمس هو مرتيلوس، كان بيلوبس قد قتله: وانتقمَ الإله لنفسه من سلالة القاتل.

آريس:

هل ينبغي أن نربط، مع ماكس مولر، اسم آريس ـ مثل مارس ـ بجذر الكلمة السنسكريتيّة mar، التي اشتُقّت منها الكلمة الفيديّة السنسكريتية maruts، آلهة العواصف؟ أم بالجذر اليوناني الذي يعني «يجرف، يُدمِّر»؟ إنَّ الفرضيَّتين بارعتان بسويّةٍ واحدة وغير مؤكّدتين بسويةٍ واحدة.

شخصيته وصوره التمثيلية: نشأ آريس في تراقيا. كان اليونانيون ينظرون إليه دائماً بعين الرعب أكثر منها بالتعاطف وكان دوره محدوداً جداً. كان ببساطة إله

الحرب، والشجاعة والوحشية العمياء، والغضب والمجازر الدموية. ويبدو أنَّ الفرضيتين اللتين تجعلاه من حيث الأصل إله الخصب أو إله الشمس لا سند لهما.

في الواقع إنَّ معرفتنا بهذا الإله لا تزيدُ في شيء عن معرفتنا بما يقوله لنا الشعراء. لكنه كان يُبجَّل في أرجاء اليونان كافة وعبادته تطوَّرت بشكلٍ خاص في تراقيا وسيثيا. كان لديه معبد في أثينا. وقد بجلّته أوليمبيا تحت اسم Ares Hippios، وإسبارطة بجلّته تحت اسم Ares Enyalius (المُحب للحرب). وقد كُرِّس له نبع بالقرب من طيبه، يقع تحت معبد أبولو.

في فن النحت اليوناني لم يكن آريس يمثَّل بنموذج ثابت معيَّن. ونكاد لا نعرفه إلا من الرسوم التي على المزهريات. في أول الأمر كان يُصوَّر كمُحارب يعتمرُ خوذة عليها ريشة طويلة ومُدجَّج بدرعٍ ثقيل. ولاحقاً نراه يظهر كشاب، شبه عارٍ، ويكاد لا يحتفظ بأي قدرٍ من معدّات الحرب فيما عدا الرمح والخوذة.

فورات غضب آريس: يقول زيوس في الإلياذة لآريس «من بين الآلهة كلها التي تُقيمُ فوق الأوليمبوس، أنتَ الأبغض إليّ، لأنكَ لا تستمتع إلا بالقتال، والحرب والمعارك. أنت تتصِف بعناد أمك هيرا وبمزاجها الصعب المراس، التي لا أستطيع أنْ أتحكَّم به بكلماتي معها».

ببوحِهِ بهذه الانفعالات غير الودّية لابنه، يُعرِّف سيد الآلهة بالضبط شخصية آريس، «إله حانق، وخبيث ومتقلّب بالفِطرة»، الذي، كما يبدو، لم يجد في مجتمع الخالدين في أوليمبوس أي تعاطُف.

بوصفِهِ إله حرب كان من الطبيعي أنه يستمتع بالقتال، ويعتلي عربة تجرّها خيولٌ سريعة بأربطة جبين ذهبية، ويرتدي درعاً من البرونز ويقبض بيديه على رمح ضخم، ويتَّخذ وقفة القتال، ويوجّه ضربات مميتة في الاتجاهات كلها. مُرافقاه هما ديموس (الخوف) وفوبوس (الخشية) ـ أحياناً كان يُقال إنهما ولداه ـ، علاوة على إريس (الكفاح)، «ذي الغضب الذي لا يخبو»، وإينو «مُدمِّر المُدُن»، والكيريس، الآلهة الرصينة، التواقة إلى شرب دماء الموتى السوداء.

على الرغم من أنَّ أحداً لم ينازع حميّته الحربية، فإنَّ آريس كان مكروهاً ليس فقط لتعطّشه الدائم لسفك الدماء والمذابح التي جعلت منه «سوط البشر»، ولكنَّ لوحشيته وعنفه الأعمى، وفي هذا المجال، خاصةً، كان يختلف عن أثينا التي كانت تمثّل، بوصفها إلهة مُحاربة، الشجاعة الذكية والهادئة. وعلى هذا كان آريس وأثينا على الدوام على طرَفَيّ نقيض. وقد تقابلا مراتٍ عديدة في ساحات إليوم حيث تقاتلا في معسكرَيْن متقابلَيْن. كان مجرَّد مرأى أثينا يجعله يثور غضباً. «لماذا، إذن، أيتها الذبابة الشائنة، أشعلتْ وقاحتك التي لا ترتوي الحرب بين الآلهة؟ أي حميّة تدفعك؟ أعتقد أنكِ اليوم ستدفعين ثمن كل ما فعلتِهِ بي!». وبينما كان يتلفظ بهذه الكلمات ضرب درعَه الرهيب الذي حتى صاعقة زيوس لا تستطيع أن تكسره. تراجعت أثينا، والتقطت حجراً كان مُلقى على السهل: حجراً أسود، مُدبَّب الحواف وضخماً، كانت أقوام الأزمان الغابرة قد وضعته هناك كحجر علاّم في الحقل. رمت به نحو عنق آريس الوقح. فتداعت ركبتاه وحين سقط جسده غطّى مساحة سبعة أكرات. وعفّر التراب شعره وضجّ درعه من حوله. ابتسمت بيلاس أثينا، وخاطبته تفاخرُ بإنجازها، بكلمات مُحلِّقة: «أيها الأحمق التافه! ألم تتعلّم بعد كم أنا أبزّكَ في قوتي؟».

وهذا حقيقي، فآريس الوقح، على عكس ما يُتوقّعُ منه، نادراً ما كان يخرجُ منتصراً من قتال. ولم يكن الآلهة الخالدون هم الوحيدون الذين يهزمونه، فأوتوس وإفيالتس الألواديان، نجحا في ربطه وأسره مدة ثلاثة عشر شهراً. وحين تحدَّى هرقل، الذي كان قتلَ لتوِّه ابنه سيكنوس، جُرِحَ آريس على يد البطل وأُجبرَ على العودة وهو يزأر في وجه أوليمبوس. ووفقاً لآخرين، وضعَ زيوس، الذي لم يرغب في رؤية ابنيه يتشاجران حداً للقتال بإسقاط صاعقة بين المتقاتلَيْن.

غراميات آريس: ولم يكن أكثر حظاً في علاقاته العاطفية، فقد وقعت أفروديت في حب آريس، متأثّرةً ببهاء المقاتل الوسيم الذي لا شك في أنها قارنته بهيفيستوس، زوجها الذميم. وسرعان ما أصبحت العواطف متبادلة. وانتهز آريس فرصة غياب هيفيستوس ولوَّثَ سريره الزوجي، لكنَّ هليوس، الذي تابعَ العاشقين، قدَّم تقريراً بالأمر إلى إله الحِدادة. وعلى الرغم من أنَّ الزوج

المخدوع هو في المعتاد هدف للسخرية، استطاعَ هيفيستوس أن يتفادى الضحك بحيلةٍ بارعة. فقد قام سراً بصناعة شبكة رفيعة جداً بحيث لا يمكن رؤيتها، لكنها من القوة بحيث لا يمكن كسرها. ونصب تلك الشبكة فوق الأريكة التي يعبث عليها العاشقان عادةً، وتظاهر بأنه غادرَ إلى ليمنوس.

حالما رأى آريس هيفيستوس المجتهد يُغادرُ يمِّمَ وجهه شطر مسكن الإله الشهير، يدفعه حبه لأفروديت ذات الشعر الأشقر. كانت جالسة. أمسكَ بيدها وقال «تعالي، يا حبيبتي، دعينا نستلقي على أريكة هيفيستوس، لأنّ زوجكِ الطيب رحل إلى ليمنوس، أرض السينتيانيين بلغتهم البربرية». هكذا تكلَّم، وكانت كلماته مصدر سرور للإلهة. وسرعان ما استقرقا في النوم وانتشرت الشبكة الخفيّة التي صنعها هيفيستوس البارع فوقهما. ثم هتف الإله الأعرج، الذي كان قد عاد أدراجه، بصوتٍ رهيب للآلهة كلهم:

«يا زيوس وأنتم أيها الخالدونَ! أسرعوا تعالوا وانظروا إلى هذا الشيء الذي لا يُحتَمل، الجدير بأنْ تضحكوا عليه. لأنَّ أفروديت تمتعضُ مني أنا الأعرج، فهي تحبُ آريس المهلك لأنه رشيق ووسيم. انظروا إليهما معاً، نائمان على أريكتي. بعد قليل لن يأبها للنوم أبداً، لأنَّ هذين الحبلين سيُبقيانهما مربوطين معاً إلى أنْ يُعيدَ زيوس إليّ الهدايا التي قدمَّتها إليه لكي أحظى بحسنائه الصفيقة التي لا تستطيع أنْ تكبح شبقها!».

ثم اجتمع الآلهة معاً في القصر البرونزي وانطلق من حناجرهم قهقهات صاخبة، الأمر الذي أربك آريس وأفروديت. وأخيراً وافقَ هيفيستوس على إخلاء سبيل المُذنبَين بعد أنْ وَعَدَ آريس بأنْ يدفع له ثمن زناه. وهربت الزوجة الزانية إلى بافوس في جزيرة قبرص بينما لجأ الزاني إلى جبال تراقيا. ومن اتّحاد أفروديت وآريس وُلِدَتْ ابنة، هي هارمونيا، التي أصبحت لاحقاً زوجة قدموس، ملك طيبة.

وسواءٌ أكان لآريس عثرات حظ أخرى من هذا النوع أم لا فهو أمر غير معروف، لكنَّ حظّه كان عاثراً في إنجاب الأطفال.

أنجب آريس من الحورية أغلاوروس ابنة، هي ألسيبه. وذات يوم اغتصبها هاليروثيوس، ابن بوزيدون فقتله آريس. وبشأن جريمة القتل هذه استدعاه بوزيدون ليمثُلَ أمام منبر الآلهة الاثني عشر العِظام، الذين اجتمعوا على تل متموضع أمام الأكروبوليس في أثينا. وبُرّئ آريس من التهمة. وفي ذكرى هذه الحادثة سمي هذا التل باسم الأريوباغوس، ومن ثم استمرَّت الجرائم تُحاكم هناك.

بين أولاد آريس الآخرين الذين انتهوا نهاية تعيسة يكفي أنْ نذكُر: فليجياس، ابن شريس، التي قُتِلَتْ بيد أبولو، وديموميديس، ملك البيستونيين التراقيين، الذي قتله هرقل، وسيكنوس، ابن بينيلوبيا، الذي قتله هرقل أيضاً، فقد كان سيكنوس قاسياً ومُحارباً مثل والده، إذ تعوَّدَ على شنّ الهجمات على المسافرين في منطقة تمب وكان يستخدم عِظامهم لبناء معبد لأبيه. وتحدَّى هرقل، الذي ضربه وصرعه، وفي الوقت نفسه جرحَ آريس نفسه، وهو يحاول أنْ يُدافع عن ابنه. وبعض سلالات الأنساب تقول إنَّ ميليغر التعيس، ابن أونيوس وألثيا، كان أيضاً ابن آريس.

بعد أنْ أغوى آريس هاربينا، ابنة إله النهر أسيبوس أنجبت له ابنه أونوماوس، الذي حكم قرب أولمبيا، وهو أيضاً أصبحت له ابنة سمّاها هيبوداميا. وبما أنَّ هناك نبوءةً كانت تفيد بأنه سيُقتل على يد صهره، أعلنَ أونوماوس، لكي يتخلَّص المتودّدين إليها، أنه لن يُزوِّج ابنته إلاّ للرجل الذي يتغلّب عليه في سباق العربات. كان واثقاً من أنه دائماً يفوز، لأنَّ آريس والده قدَّمَ له هدية هي جياد مُجنَّحة. لكنَّ بيلوبس سرقَ الجائزة، بفضل خيانة هيبوداميا نفسها، وكانت هزيمة أونوماوس بمثابة موته.

أخيراً، من بين نساء البشر اللواتي أحبَّهنّ آريس، كانت إيروبي، ابنة سيفيوس، الذي ماتت أثناء وضعها ابنها، أروبوس. ولكن، وبفضل تدخُّل آريس، استطاع الطفل المولود حديثاً بصورة معجزة أنْ يرضع من صدر أمه المتوفّاة.

هيفيستوس:

أصله، وظيفته وصوره التمثيليّة: سواءً أكنا نرى في الأسم هيفيستوس الصيغة اليونانية للأصل السنسكريتي hthaYavis (اليافع)، وهو من ألقاب الـAgni ، إله النار الفيدي، أو اشتققناه من كلمات يونانية تعني (موقد) أو (يُضرم النار)، فمما لا شك فيه أنَّ هيفيستوس، منذ أقدم الأزمان، كان تجسيداً للنار الأرضيّة، التي تُعتَبَر البراكين المظهر المُرعب لها.

لذا برزت عبادة هيفيستوس، الذي كان ربما إلهاً آسيوياً، موطنه ليسيا، للمرة الأولى في جزيرة ليمنوس البركانيّة. ومن هنا جُلِبَ إلى أتيكا، ومنها إلى صقلية، مع المستوطنين.

من الممكن أنَّ هيفيستوس كان في الأزمان الغابرة يُجسِّد ناراً سماوية وأنه كان على هذا الأساس إله البرق، ومشيته العرجاء ترمز إلى المسار المتعرِّج للبرق، فإذا كانت النار من منشأ سماوي فلا موجب لئلا يكون لهيفيستوس مثل هذه الشخصية.

لكنَّ النار التي يمثّلها ليست العنصر المُدمِّر، ولكنْ العنصر المفيد الذي يُتيح للبشر أن يتعاملوا مع المعدن ويعزّزوا الحضارة. وهكذا يظهر هيفيستوس كحدَّاد مقدّس، الإله ـ الصانع الماهر، الذي أبدعَ أعمالاً مُثيرة للإعجاب وعلَّمَ البشر الفنون الميكانيكية.

لهذا أصبح هيفيستوس بعد ذلك ـ والذي كان في أول الأمر يُصوَّر كشاب بلا لحية ـ يُمثَّل تقليدياً كحدَّاد غليظ، ذي وجهٍ ملتحٍ، وعنقٍ قويّ وصدر كثيف الشعر. عباءة كتفيه القصيرة بأكمام قصيرة تترك كتفه الأيمن عارياً يضع على رأسه قلنسوة مخروطيّة ويقبض بيديه على مطرقة ومِلقط.

مولد هيفيستوس: على الرغم من أنَّ سلالة النسب التي وضعها هزيود تدَّعي أنَّ هيفيستوس كان، مثل طايفون، ولِدَ من هيرا وحدها، إلاّ أنَّ من المتعارَف عليه عموماً أنه ابن هيرا وزيوس. وبعض الرويات تقول إن هيرا حملتْ به قبل زواج الإلهين رسمياً وإنها هي التي اخترعَت قصة المولد المُعجِز لكي تُخفي عارها.

خِلافاً لبقية الخالدين، الذين كانوا يتميزون بالجمال والتناسُق في أجسادهم، كان هيفيستوس مشوَّه الخِلقة وأعرجَ بساقيه الاثنتين. وكانت قدماه ملويّتين، ومشيته المتعثّرة ووركه المنزلق عن مكانه يُثيران «ضحك الخالدين الذي لا يرتوي» عندما يسير بينهم.

بلاياه: خِلافاً لما قيلَ غالباً، فإنَّ تشوُّه هيفيستوس لم يكن نتيجة حادثة، فقد كان أعرج منذ الولادة. في الواقع إنَّ هومروس يروي أنَّ هيرا حاولت، بدافعٍ من قبح ابنها، أن تُخفيه عن عيون الخالدين «لأنه كان أعرج»، فرمَتْ به من أعالي أوليمبوس إلى البحر، وهناك أخذته ثيتيس، ابنة زيوس، ويورينوم، ابنة العجوز أوقيانوس. وبقيَ على مدى تسع سنوات مُختبئاً في كهفها العميق، «وهو يصنع ألف غرض بارع للحوريتين»، وفي الوقت نفسه يُعدُّ لانتقامٍ ماكر. وذات يوم تلقَّتْ هيرا هدية من ابنها، هي عرشٌ من الذهب صُنِعَ ببراعة. جلستْ عليه بابتهاج، ولكن حين حاولتْ أنْ تنهض من جديد إذا بأربطة خفيّة تتشبَّثُ بها فجأةً. وحاول الخالدون عبثاً تخليصها من كرسي العرش. وحده هيفيستوس كان قادراً على تحريرها، لكنه رفضَ أنْ يُغادر أعماق المحيط. وحاولَ آريس أن يجرّه بالقوة، لكنَّ هيفيستوس أجبره على الهرب برميه بجمرٍ مُلتهب. أما ديونيسوس فكان أكثر نجاحاً. لقد دفع هيفيستوس إلى شرب الخمر، وأثناء فترة سُكره، وضعه على ظهر بغل وأعاده إلى أوليمبوس. ولكن كان لا يزال أمامهم أنْ يعرفوا مطالبه. ورفض هيفيستوس أنْ يُحرِّر هيرا إلا بعد إعطائه أجمل الإلهات، أفروديت عروساً له. ووفقاً لرواية أخرى كان سبب ربط هيفيستوس لهيرا هو لدفعها إلى البوح له بسرّ مولده.

ومنذ ذلك الحين ساد السلام بين هيرا وابنها. وفي الحقيقة، أنَّ هيفيستوس نسيَ ضغينته السابقة، وحاول أنْ يُدافع عن أمه مُعرِّضاً حياته للخطر حين ضربها زيوس. فثار غضب زيوس على ابنه فأمسكَ به من إحدى قدميه وأطاحَ به من بلاط السماء. وأخذ طوال اليوم يتخبَّط في أرجاء الفضاء حتى سقط على جزيرة ليمنوس بين الحياة والموت حيث أسعفه السينيتيون.

حدّاد أوليمبوس: ولكن كمِنتْ تحت هذا المظهر الخارجي البشع روح خلاّقة ومُرهفة. فقد تفوَّقَ هيفيستوس في فن الأعمال المعدنية. وبنى على جبل أوليمبوس قصوراً للآلهة. ولنفسه بنى «مسكناً رائعاً من البرونز البراق الذي لا يفنى». جعل ويشته داخل مسكنه. هناك كان يمكن مشاهدته جالساً إلى جوار الموقد المشتعل، يتصبَّب عَرَقاً، ينشط بمنفاخه، يلكز النار تحت عشرين بوتقة، أو يطرق معدناً ذائباً على سندانٍ ضخم. وحين كان يزوره أحد الآلهة، كان الحدّاد العملاق يتوقَّف عن العمل لكي يمسح باسفنجة وجهه، ويديه، وعنقه القوي وصدره المشعر. ثم يرتدي رداء طويلاً، ويتكئ على عصا ثقيلة، ويذهب إلى عرشه البرّاق. ولكي يُثبِّت خُطاه المتقلقلة ـ ذلك أنَّ ساقيه الضعيفتين كانتا تدعمان جسمه الضخم بصعوبة ـ صنع تمثالين ذهبيين أشبه بفتاتين حيَّتَين وبث فيهما الحركة لكي تهرعا إلى مساعدته على المشي.

منازل هيفيستوس الأرضية: وضعَ هومروس ورشة عمل هيفيستوس على جبل أوليمبوس. ولكن إله النار أيضاً سكن الأرض، حيث احتفظَ بمنازل مختلفة للسكنى تحت الأرض. كان قد أمضى سنوات تدريبه على الحدادة في جزيرة ناكسوس: وقد قيلَ إنه تنازعَ حول مُلكيَة الجزيرة مع ديونيسوس دون إحراز نجاح. وعقب ذلك، فإنَّ التفاهم بين الإلهين سرعان ما ترسَّخَ من جديد، وبقيا دائماً على علاقة ممتازة. وغالباً ما كان السيلنيون والساطير يساعدون هيفيستوس في عمله. ويُقال إنَّ هيرا عهدت أمر بهيفيستوس، لكي تعرّفه على فن الحِدادة، إلى القزَم سيداليون، صاحب الشخصية الغامضة. البعض يُخاطبونه بالابن، وآخرون يدعونه والد هيفيستوس. إنَّ كل ما نعرفه هو أنه بقيَ ذا صِلة بإله النار وتبعه إلى ليمنوس عندما قصدها للإقامة.

إنَّ هيفيستوس لم ينسَ في الواقع الترحيب الذي استقبله به السنتينيون بمناسبة سقوطه من الأوليمبوس، وتعبيراً عن امتنانه، استقرَّ في هذه الجزيرة البركانيّة. وقد شهِدَت على تواجده هناك الأبخرة الملتهبة التي انبثقَتْ من جبل موسكيلوس يصحبها هديرُ دمدمةٍ رتيبة. ذلك الصوت كان صوت طرق الحدّاد المقدَّس الصادر من الورشة التي كان قد أنشأها في أعماق الجبل. وإلى جانبه

كان يعمل سيداليون المخلص الذي لم يكن ينفصل عنه أبداً، إلا عندما أرسله في إحدى المرات ليرشد العملاق الأعمى أوريون الذي رغب في التوجه نحو الغرب لكي يستعيد بصره. وكان هيفيستوس يتلقّى المساعدة أيضاً من الكابيري، الذين ربما هم أبناؤه. وتقول إحدى الروايات إنَّ بروميثيوس جاء إلى ليمنوس لكي يسرق النار المقدَّسة التي أعطاها بعد ذلك إلى البشرية.

لاحقاً هاجرَ هيفيستوس إلى صقلية. فنجده أولاً في الأرخبيل البركاني لجزر ليباري. لقد كان دون شك حدّاداً غامضاً وخدوماً، في الليل يشكّل المعادن التي تُترَك في المساء على حافة شقٍ سحيق ويُعثر عليها من جديد هناك في صباح اليوم التالي وقد شُكّلت بصورةٍ رائعة. وأخيراً استقرَّ هيفيستوس داخل تشعّبات تحت أرضيّة تصِلُ جزر ليباري بجبل إتنا في صقلية. وطردَ شيطاناً محلّياً يقيم فيها يُدعى أدرانوس. وفي جبل إتنا عمل هيفيستوس أيضاً سجّاناً لطايفويوس الذي، كما نذكُر، كان زيوس قد سحقه تحت الجبل. وكانت البراكين واندفاعات الحِمم تحدث نتيجة التشنجات التي تنتاب ذلك الوحش عندما يُحاولُ التحرُّر من سجنه. لكنه لم يتمكّن من الهرب، لأنَّ هيفيستوس كان قد وضعَ على رأسه سنادين ثقيلة كان يطرق عليها بنشاط البرونز والحديد. وعندما كان البحارة يطوفون حول شواطئ صقلية ويشاهدون أعمدة الدخان الطويلة تنبعث من سطح جبل إتنا اعتقدوا دون أي شك أنَّ هيفيستوس يُشعِلُ كيره. وكان يساعد الإله في تلك المهمة الباليتشي، وهما توأم حصل عليهما من الأوقيانيدة إتنا (على الرغم من أنَّ آخرين يقولون إنَّ الباليتشي كانوا ابنَيّ زيوس والحورية إيثاليا، ابنة هيفيستوس). وكان السيكلوب العمالقة يساعدونه أيضاً.

أعماله: كان نشاط هيفيستوس إعجازياً ولا يوازيه إلا مهارته. وكان دائماً منهمكاً دون توقُّف بعملٍ ما على جانب كبير من الرهافة. فإلى جانب إنشائه القصور على جبل أوليمبوس بما تحتويه من زخرفات برونزية، صنعَ لزيوس كرسي عرش من الذهب، وصولجاناً، وصواعق، والدرع المخيف، وصنع عربة هليوس المُجنَّحة، وسِهام أبولو وأرتيميس، ومِنجل ديميتر، ودرع هرقل، وأسلحة بيليوس، ودرع آخيل، والقِلادة التي ارتدتها هارمونيا زوجة قدموس في

حفل زفافها، وتاج أريادن، وصولجان أغاممنون، والقبو أو الغرفة التحت أرضية لأونوبيون. ولا ينبغي أنْ ننسى القدح الذهبي الذي قدمَّه زيوس لأفروديت، ومزهرية أعطاها ديونيسوس لأريادن، وقيثارة برسيوس وأداة صيد أدونيس. وإلى هيفيستوس نُسبَت أيضاً أعمالٌ مُعجزة كالمنصب الثلاثي القوائم ذي الدواليب الذهبية التي تدور من تلقاء نفسها إلى مقر مجلس الآلهة، والثيران البرونزية التي تنفث مناخرها لهباً، والكلاب الذهبية والفضيّة لقصر ألسينوس، وحتى العملاق تالوس، ذلك الرجل البرونزي الذي كان واجبه أن يحرس الشجرة الكريتيّة ويمنع الاقتراب منها.

لم يكن هناك أي شيء مستحيلٌ عليه تنفيذه. وعندما قرَّرَ زيوس، لكي يُعاقب البشر، أن يخلق المرأة الأولى، باندورا، لجأ إلى هيفيستوس. فقد أمرَ هيفيستوس ان يصنعَ قالباً لجسد امرأة من الماء والطمي، وأن يمنحه الحياة وصوتاً إنسانياً، وأن يشكِّل منه عذراء ذات جمال أخّاذ. ولكي يوصل هيفيستوس عمله إلى حدّ الكمال أحاط جبين باندورا بتاجٍ من الذهب صاغه بنفسه.

في مناسبات كثيرة أخرى قدَّمَ هيفيستوس يدَ المساعدة لزيوس. فقد شقَّ جمجمته بفأس لكي تتمكن أثينا من الخروج منها. وتلبيةُ لأوامره شدَّ وثاق بروميثيوس إلى جبل القوقاز. ولا شك في انه تذكَّر الدرس القاسي الذي لقّنَه إياه والده زيوس حين تجرّأ على معارضته. ولهذا السبب كان هيفيستوس يُهدِّئ من توتّر آلهة أوليمبوس، وبخاصةً هيرا، حين يغضبون من زيوس. كان يوصي الجميع بالاستسلام: «اصبري، يا أمي، ووطّني نفسك، على الرغم من حزنك، لكي لا أراكِ بأمّ عينيّ وأنتِ تُضربين. فمهما كان ذلك مؤلماً فلنْ أتمكَّن من مدّ يد العون إليك، لأنّ من الصعب معارضة سيد الأوليمبوس».

علاقاته العاطفية: كان هيفيستوس مُدمناً على الملذات كلها، فعلى الرغم من قُبحِهِ أصبحَ زوجَ أفروديت. ولم يكن وضعه خالياً من التعويضات، ولا من المخاطر، فزوجته كانت تخونه باستمرار، بخاصةً مع آريس. وقد رأينا للتو بأي روحٍ انتقمَ هيفيستوس لنفسه من التوق إلى حب أثينا الحكيمة. لكنَّ الإلهة نجحت في صدّه فحاولَ عبثاً أن يغتصبها في سهل الماراثون. وتقول بعض

القصص إنَّ شغفَ هيفيستوس بأثينا يعود تاريخه إلى لحظة مولدها. وقبل أنْ يضرب زيوس بالفأس التي حررَّت أثينا من رأسه، كان هيفيستوس قد طلبَ يد العذراء التي كانت توشك أن تظهر. ويُقال إنَّ زيوس وافقَ على طلبه، لكنَّ أثينا نفسها رفضت أن تفي بوعد والدها. هل ينبغي أن نرى في تلك الملاحقات والمراوغات رمزاً للمنافسة بين الإلهَين العاملين، أم خصومة بين النار السماويّة (أثينا) والنار الأرضية (هيفيستوس)؟ الأرجح أنَّ حكاياتهما ممتزجة لأنَّهما كانا راعيي أعمال البشر وبالتالي فهما مترابطان غالباً.

ويُقال أيضاً إنَّ هيفيستوس تزوَّجَ من الجميلة كاريس ومن أغلايا، وهي إحدى إلهات الحسن الثلاثة. ومن كابييرو، أنجب أكابييري. وإتنا الأوقيانيدة حملتْ له توأماً، الباليتشي، والديونسكوري الصقلّي، على الرغم من أنَّ حكايةً أخرى تقول إنَّ الولدين هما من زيوس ومن الحورية إيثاليا، ابنة هيفيستوس. ولكي تهرب من عقاب هيرا توسّلتْ إثاليا إلى الأرض كي تُخفيها إلى أن يحين يوم وضعها. ولُبيَّتْ صلواتها. وعندما حان موعد الوضع قفز الطفلان إلى الأرض، ولذلك كان اسماهما: «اللذان عادا إلى النور». وثمة بحيرتان صغيرتان عند عتبة جبل إتنا، وهما مملوءتان على الدوام بالماء الكبريتي الذي يغلي، تُحدِّدان المكان الذي وضعت فيه الولدَين. وكان لهما معبد هناك، وهناك كانا يُعطيان النبوءات.

من بين أبناء هيفيستوس الآخرين يمكن أن نذكر أردالوس، وباليمون، وبايليوس ـ الذي كان يهتم بفيلوكتيتيس ـ وبريفيتس الذي كوالده، كان أعرج ـ وهذا لم يمنعه من الهجوم على المسافرين في ضواحي إيبيداوروس وذبحهم بهراوة من نحاس. وقد قُتِلَ بيد ثيسيوس.

رفاق هيفيستوس: لقد رأينا أنَّ هيفيستوس تلقى مساعدةً في عمله من عددٍ من آلهة تحت أرضية أو من جان النار. من أشهرهم السيكلوب، الذين ساعدوه في العمل تحت جبل إتنا. أول السيكلوب الذين يظهرون في الميثولوجيا اليونانية كانوا ثلاثة من أبناء أورانوس وغيا: آرجس، ستيروبس وبرونتس. وقد نتذكَّر

كيف أنَّهم بعد أن طردهم والدهم إلى تارتاروس حرَّرهم زيوس، ثم ساعدوه في صراعه ضد التايتان. وبعيداً عن الرعد والصاعقة والبرق التي منحوها لزيوس، قدَّموا لهيدس خوذة من البرونز ولبوزيدون رمحاً ثلاثيَّ الشُعَب. وقد أعدمهم أبولو، الذي انتقَم منهم لموت ابنه أسكليبيوس.

هؤلاء السيكلوب القدماء لم يكن بينهم وبين السيكلوب الذين قدَّمهم هومروس لنا في "الأوديسا" أي قاسم مُشترك. النوع الثاني كانوا رجالاً ذوي بُنية عملاقة وقبح مُنفِر بعينهم الواحدة في منتصف جبينهم، ويسكنون الساحل الجنوبي ـ الغربي من صقلية. ولما كانوا متعوّدين على الحياة الرعوية، كانوا أفظاظاً وسيئي السلوك، يقيمون في كهوفٍ معزولة، يذبحون ويلتهمون أي شخص غريب يقترب من شواطئهم. وكان الأشهر بينهم هو بوليفيموس، الذي أسر وسجن أوديسيوس ورفاقه. ولكي يهرب، دفعَ البطلُ اليوناني بوليفيموس إلى السُكر وأطفأ نور عينه الوحيدة بعصا مشتعلة وحادة الطرف، ثم فرَّ أوديسيوس ورفاقه من كهف بوليفيموس بربط أنفسهم تحت بطون الأكباش. وقبل أن يقع هذا البوليفيموس البائس صريع حب نيريد غالاتيا، كان يتودَّد إليها بإرسال هديّة في كل يوم إليها هي دب أو فيل. وكانت غالاتيا تفضّل على هذا المتودِّد القبيح الراعي آسيس، ابن الحورية سيموثيس. وبدافعٍ من غيرته من ذلك المنافس سحقه بوليفيموس تحت صخرة، فحوّلت الآلهة آسيس إلى نهر.

عندما جعلت التقاليد جبل إتنا مقر إقامة هيفيستوس أصبح السيكلوب رفاقه. وقد استعاروا ملامحهم من سيكلوب هزيود وهومروس. ويقول كاليماخوس «كانوا عمالقة ضِخاماً كالجبال، وعينهم الوحيدة، تحت حاجب كثيف الشعر، تلمع مُهدِّدة. كان البعض منهم يُصدِرُ زئيراً مع عواء يتردَّد صداه، وآخرون يرفعون مطارقهم الثقيلة في آن واحد ويسددون ضربات قوية إلى البرونز والحديد الذائبين اللذين يُخرجونهما من داخل الفرن». لم تكن أعدادهم معروفة. ومن بين الأسماء التي كانت تُطلَق عليهم نجد برونتس، وستيروبس، وأكاماس وبايراكمون.

في ليمنوس استُبدِلَ السيكلوب الكابييري، وهم آلهة بقيَ منشؤهم وطبيعتهم غامضة بخاصةً منذ أن ظهروا في مناطق مختلفة مع شخصيات بارزة جداً. وقد قيلَ إنَّ كابييري جزيرة ليمنوس هم أبناء هيفيستوس. هم جانٌ طيبّون، وحدّادون يعيشون تحت الأرض، يرتبطون بشكلٍ واضح بالطبيعة البركانيّة لبُنية الجزيرة. وفي ساموثريس كان الكابييري أشبه بالآلهة الثانوية، يحتشدون لخدمة آلهة الجزيرة العظيمة، وقد جعلت التقاليد منهم أبناءً لزيوس وكاليوبه. وفي طيبه في بويوتيا ظهر الكابييري مُرتبطين بعبادة ديميتر وكوره، بما أنَّ معبدهما كان قائماً بالقرب من بستان مقدَّس بالنسبة إلى هاتين الإلهتين. وفي ثيسالي تحدثوا عن واحد من الكابيري أعدمه أخواه ودُفِنَ عند أعتاب أوليمبوس. وأخيراً نجد الكابييري في برغاموس في فينيقيا، واعتقدَ هيرودوتوس أنه تعرَّف عليهم في مصر. ومن هذا كله يبدو أنَّ الكابييري، الذي يُقارَن اسمهم بالكلمة الفينيقية qabirim (الأقوياء)، كانوا في الأزمان الغابرة من الأرواح التحت أرضية، نشؤوا في فريجيا، وطبعاً اتخذوا في الجزر البركانية شخصية جان النار. وكان معروفاً عنهم أنهم أول مَن تعاملوا بالمعدن.

لكنَّ اليونانيين لاحظوا وجود جانٍ آخرين خبراء بالمعادن يجب أن نأتي على ذِكرهم، ولا علاقة لهم بعبادة هيفيستوس.

في غابات إيدا الفريجيّة عاشَ هناك سَحَرةٌ ماكرون يُسمّون الداكتيليين. في الأصل كان هناك ثلاثة منهم: سلميس، ودامنامنيوس وأكمون القوي، «الذي كانوا في كهوف الجبال أول مَنْ مارسَ فن هيفيستوس، وعرفوا كيف يتعاملون مع الحديد الأزرق، ويصبّونه في أفرانٍ عالية الحرارة». ولاحقاً ازدادت أعدادهم. ومن فريجيا انتقلوا إلى كريت وهناك علّموا السكان استخدامَ الحديد وكيفيّة التعامل مع المعادن. وإليهم أيضاً نُسِبَ اكتشاف عِلم الحِساب وأحرف الكتابة.

كان الجان الذين لعبوا أيضاً دوراً مَحضَّراً ولكنهم اتّخذوا بعد ذلك شخصية خبيثة هم التلخينيون، وقيلَ إنهم أبناء بوزيدون وثالاسا، مع أنَّ تقليداً آخر يجعل منهم حُرّاساً لبوزيدون. وكان مركز عبادتهم يقع في جزيرة رودس، ومنها

انتشروا في كريت وبويوتيا. كانوا عمّالاً مهرة في المعادن، كما توحي أسماء ثلاثتهم: كريسون، وأرغيرون وتشالكون. وقد صنعوا أول تماثيل للآلهة. ومن بين أعمالهم هناك منجل كرونوس ورمح بوزيدون الثلاثيّ الشُعَب. ولكنْ كان يُخشى جانبهم بسبب أعمالهم السحرية. فقد كان في وسعهم أن يُصيبوا بالعين، وأنْ يُنزِلوا البلاء بالمحصول الزراعي، وذلك بأن يرشوا الأرض بماء النهر السفلي ستيكس الممزوج بالكبريت، وأن يقتلوا القطعان.

أفروديت:

المنشأ والشخصية: على الرغم من أنّه كان لليونانيين القدامى إلهة للحب إلا أنهم لم تكن أفروديت على ما يبدو. وينبغي ألاّ نسمح أن تُضللنا الأسطورة التي نشأت لاحقاً لتبرير أصل الاسم وربطت أفروديت بالكلمة اليونانية التي تعني «زَبَد». على أرض الواقع يبدو أنَّ اسم أفروديت ذو منشأ شرقي، ربما فينيقي، كالإلهة نفسها ـ أخت عشتار الأشورية البابلية وأستارت السورية الفينيقية. ومن فينيقيا انتقلت عبادة أفروديت إلى سيثيرا، وهي مركز فينيقيّ للتجارة في كريت، وإلى قبرص (التي منها اللقَبَان السيثيرية والقبرصيّة اللذان عُرفت بهما عند هومروس). ثم انتشرت في أرجاء اليونان كلها بل ووصلتْ إلى صقلية.

في الأصل كانت أفروديت ـ مثل الإلهة الآسيوية الكبرى ـ إلهة خصب بوضوح، مجالها يُعانق الطبيعة كلها، النبات والحيوان بالإضافة إلى الإنسان. بعد ذلك أصبحت إلهة الحب بأسمى جوانبه وبأحطّها.

كانت أفروديت أورانيا، أو أفروديت السماوية، إلهة الحب النقي والمثالي، كما كانت أفروديت جينيتريكس أو نيمفيا ترعى الزواج وتحميه: كانت الفتيات غير المتزوجات والأرامل يُصلّين لها لكي يحصلن على أزواج. وكانت أفروديت بانديموس (العاميَّة) أو أفروديت بورني (المحظيّة) إلهة الشبق والحب الجسدي، حامية العاهرات. وتحت تأثير أسطورة مولدها البحري أصبحت أفروديت لاحقاً إلهة البحر (بياجيا ، بونتيا).

العبادة والصور التمثيلية: المراكز الرئيسية لعبادة أفروديايت كانت بافوس في قبرص وسيثيرا في كريت. ومن بين أشهر أماكنها المقدّسة معبد كنيدوس في كاريا والمعبد في جزيرة كوس. كانت أفروديايت بانديموس تُعبدَ في طيبة، حيث يمكن مشاهدة تمثال للإلهة هناك، صُنِعَ، كما قيل، من المدكات الحربية للسفن التي حملتْ قدموس إلى اليونان. وفي أثينا كان هناك معبد لأفروديايت هيتيرا، تُمثِّل الإلهة فيه وهي تمتطي تيساً. كانت تُعبَد في أبيدوس، وفي إفسوس وفوق ذلك كله في كورينث، حيث كانت عاهرات المدينة هنَّ كاهناتها الحقيقيات. وكانت أفروديايت جينيتريكس تُعبَد في إسبارطة وفي ناوباكتوس. وكان لأفروديايت أورانا معابد في سيكيون، وأرغوس وأثينا. وأخيراً كانت أفروديايت البحر (بيلاجيا) تحظى بتشريفٍ خاص في هرميون. وفي ثيسالي كانوا يعبدون أفروديايت أنوسيا (العاقّة) في ذكرى اغتيال المحظيّة لايس بأيدي زوجات المنطقة. وفي صقلية كان لأفروديايت معبد على جبل إريكس.

إنَّ صور أفروديايت التي تمثّلها تختلف باختلاف الشخصية التي تظهر بها.

في سيكيون كانوا يعبدون تمثالاً مزخرفاً بالعاج تظهرُ فيه الإلهة وعلى رأسها تاج الـpolos. ويتميّز ذلك التمثال بالنبل والتواضع، وهو يمثّل بكل جلاء أفروديايت أورانيا أو جينيتريكس.

إنَّ سِمة الحسّية بارزة في التماثيل المتأخرة لأفروديايت. والحقيقة، الموديلات اللواتي انتقاهنَّ النحّاتون كنَّ في الغالب محظيات مثل كراتينا، أو فرين أو كامبيس، خليلة الاسكندر. أولاء كنَّ موديلات تماثيل أفروديايت العارية التي صنعها النحات براكسيتيليس والتي، كما يُقال، صدمَتْ وَرَع سكان كوس. وأفروديايت التي تُعبَد في كنيدوس كانت تتسم بفسقٍ خاص.

أوحت أسطورة هزيود عن مولد أفروديايت بالعديد من أنماط أفروديايت anadyomene ـ أي الخارجة من المياه ـ مثل تمثال دي ميديتشي الشهير، وأفروديايت المستحمة الشائعة في فن النحت.

هناك نموذج يختلفُ عما سبق هو أفروديايت المُحاربة، ويُمثّلها مسلّحة وتعتمرُ خوذة كانت تُعبدُ خاصةً في إسبارطة. وهي صدى لعشتار المُحاربة البابلية.

مولد أفروديايت: يصفُ هومروس أفروديايت بأنهـا ابنـة زيـوس وديـودون. وديودون هذه هي إلهة يلفّها الغموض قيلَ إنها ابنة أوقيـانوس وتيثـيس. ونحـن لا نعرف عنها إلاّ أنها ترتبط برباطٍ وثيق بعبادة زيوس في دودونا. حتى اسمهـا، الذي هو النـسخة الأنثويـة مـن اسـم زيـوس، يـوحي بافتقارهـا إلى الشخـصية المُحدَّدة. وفي الحقيقة فإن المخيلة الشعبية لم تكن لترتوي بمثل هذه الأسـطورة الضحلة، فحل محل القصة الهومرية قصة أكثر غنى وشعبية.

بعد أنْ عمدَ كرونوس المتهوِّر، بتحريضٍ من أمـه غيـا، إلى خِـصاء أبيـه، أورانوس، رمى بالأعضاء التناسلية إلى البحر، فطَفَت على سطح المـاء، مُـسبّبةً زَبَداً أخرجَ أفروديايت، محمولةً على أنفاس زافيروس الرطبة (الريح الغربية) عبر البحر المتلاطم، وولِدتْ الإلهة على ساحل كثيراً، وأخيراً حطت علـى شـوطئ قبرص. احتفَتْ بها الهوريات وألبسنها فاخر الثيـاب المزينـة بالأحجـار الكريمـة وأخذتها إلى مقرّ اجتماع الخالـدين. ومـشى إلى جوارهـا الحـب وهـيميروس، الرغبة الرقيقة. وحين شاهدها الآلهة صُدِموا من فرض الإعجاب بذلك الجمال، وكما قال الشاعر، «رغبَ كلٌ في قرارة نفسه أنْ تكون زوجته ويأخذها إلى بيته».

كان من الطبيعي أنْ يتأثّروا، لأنَّ أفروديايت كانت خلاصة الجمال الأنثـوي. ومن شعرها البرّاق وحتى أخمص قدميها كان كل شيء فيهـا يتـسم بـسحرٍ نقـيّ وتناسق. والحقيقة هي أنَّ هيرا وأثينا أيضاً كانتا جميلتين جداً، لكنَّ جمالَ هـيرا المتغطرس كان يفرض الاحترام وجمال أثينا الحادّ كان يأسر الرغبة، أما أفروديايت فكانت تنشر حولها هالةً من الغواية: وإلى قوامها المثالي ونقاء قسماتها أضـافت حُسناً يجذب ويغزو. «كانت دائماً ترسم ابتسامةً وديّة على وجهها العذب».

الاحتكام إلى باريس: نستطيع أنْ نتخيَّل أنَّ بقية الإلهات لم يقبلنَ حـضور هذه المنافِسة المهيبة على جبـل أوليمبـوس دون امتعـاض. وقـد صـمَّمنَ علـى منازعتها على جائزة الجمال. ثم دُعيَ إلى عرس ثيتيس وبيليوس الخالدون كلهم

ما عدا إريس، أو ديسكورد. فأصابَ الحنق إريس من استثنائها فرَمَتْ إلى القاعة التي يتجمّع فيها الضيوف تفاحةً ذهبية منقوش عليها: إلى الأجمل. فطالبتْ بها كلٌ من هيرا وأثينا وأفروديت. ومن أجل حل القضية أمرهنّ زيوس بوضع الأمر بين يديّ شخص من البشر. ووقع الاختيار على شخص اسمه باريس، هو ابن بريام ملك طروادة. ثم أرشد هرمس الإلهات الثلاث إلى فريجيا حيث كان باريس يرعى قطعان والده على منحدرات جبل إيدا. وشعر باريس بحرجٍ شديد وحاولَ أنْ يرفض، ولكنه اضطرَّ إلى الرضوخ لإرادة زيوس، التي عبَّرَ عنها هرمس. وأخذت الإلهات الثلاث تظهر أمامه واحدة إثر أخرى ويُحاولنَ التأثير على قراره بتعزيز قوة وسائل سحرهنّ بوعود مغرية. قالت هيرا «إذا منحتني الجائزة، فسأجعلكَ سيد آسيا كلها». ووعدته أثينا بأنْ تحرص على أنْ تجعل الراعي ينتصر في معاركه كلها. أما أفروديت، التي لم يكن في استطاعتها أن تقدِّم صولجانات ولا انتصارات، فاكتفَتْ بإرخاء المشبك الذي يُثبِّت ردائها قليلاً وحلَّت عقدة حزامها، ثم وعدتْ بأنْ تهب باريسٍ أجمل نساء البشر. ثم أصدر باريس حكمه، ومنحَ راعي جبل إيدا التفاحة المُشتهاة إلى أفروديت. وبهذه الطريقة فاز باريس بهيلين. زوجة مينيلاوس، لكنَّ هيرا وأثينا لم تسامحاه للجرح الذي سبَّبه لكبريائهما وانتقمتا لنفسيهما بقسوة بإنزال الدمار ببلده، وعائلته وشعبه، وحرصتا أيضاً على أنْ ينهارَ هو نفسه تحت ضربات اليونانيين.

ولكن منذ ذلك الوقت بقيَ تفوق أفروديت بلا منافس. حتى هيرا، حين رغبت في أسر حب زوجها الصعب المِراس، لم تتردَّد بالإسراع إلى اللجوء إلى غريمتها السابقة لتستعير منها الحِزام المسحور المزوَّد بقِوة أسر قلوب الآلهة والرجال من البشر على حدٍ سواء. كان حزاماً يصنع المعجزات ومزخرفاً بشكلٍ بارع. كان يحتوي على أنواع الغواية كافة.

كانت إلهة الحب أفروديت سيدة حديث الغواية. «الضحك الرقراق، والخِداع العذب، ومفاتن الحب ومباهجه». تلك كانت إمبراطوريتها، وإن كانت، كغيرها من الآلهة، تناصر أحياناً الشجار بين البشر. في مثل تلك المناسبات كانت هي أيضاً تنخرط في الشجار ونحن نراها وهي تدافعُ عن

الطرواديين وتلعبُ دوراً في المعارك التي تندلع تحت أسوار اليوم، ويمكن أن نُضيف، دون إحراز نجاح. وذات يوم حين هبَّت لنجدة ابنها أنياس وكانت تردُّ عنه سِهامَ اليونانيين بطيَة خِمارها البرَاق، تعرَّفَ عليها ديوميدس. ولما كان يعلم جيداً أنها إلهة تفتقرُ الشجاعة هاجمها، وبرأس رمحه جرح يدها الرقيقة بضربة خفيفة. فتراجعتْ أفروديت في الحال إلى أوليمبوس، فرمقتها أثينا بسخرية وقالت «لا شك في أنّ القبرصية كانت تحاول أنْ تُقنع امرأةً يونانية لتحارب من أجل أصحابها الطرواديين الأعزاء، وبينما كانت تداعبُ المراةَ جرحَ يدها مشبكٌ ذهبي! » اشتكت أفروديت بمرارة إلى سيد الآلهة. فابتسم زيوس وقال لها: «ليس من المفترض بك، يا طفلتي، أنْ تهتمي بشؤون الحرب. اذهبي، وارعي مهمات الحب العذبة».

علاقات أفروديت العاطفية: لقد أثار جمال أفروديت الآلهة جميعاً، لكنَّ هيفيستوس، الأشدّ قُبحاً وغِلظة بينهم، هو الذي نالها كزوجة. ومثل ذلك الزواج غير المتكافئ لا يمكن أن يكون سعيداً، وحتى فوق جبل أوليمبوس وجدتْ أفروديت مَنْ يواسيها، وكان أريس من بينهم، وقد فاجأهما زوجها وهما معاً. وأيضاً هرمس الذي، كما يبدو، كان أكثر براعة من أن يُضبط. وزيادةً على ذلك، كانت أفروديت تستمتع بخبثٍ في إثارة الغرائز الجامحة للخالدين وتدفعهم إلى خوض مغامراتٍ عاطفية. وباستثناء أثينا، وأرتيميس وهيستيا، وقع الجميع تحت تأثيرها. سيد الآلهة نفسه استسلمَ لسلطانها. فبلبلت ذهنه وخدعت روحه المتزنة، ودفعته إلى مطاردة نساء البشر.

قام زيوس، بدوره، وهو ينتقم لنفسه بإلهام أفروديت الرغبة العذبة في رجل من البشر. وهكذا تمكَّنَ الإلهة ولَهُ لا يُقاومَ بأنشيسيس الطروادي، الذي ينافسُ جماله جمال الآلهة. وذات يوم بينما كان أنشيسيس يرعى قطيعه على جبل إيدا، جاءت أفروديت لتنضمَّ إليه. أولاً زرات مقرّ عبادتها في بافوس وهناك دهنت إلهات الحسن جسمها بالعطور وبمرهم غير قابل للفساد وزيّنها بأنفس الحُليّ. «كان خِمارها أشدّ إبهاراً من اللهب، وكانت تلبسُ أساور وأقراطاً، وتحيطُ جيدها بقلادةٍ ذهبية. وسطع صدرها الرقيق كأشعة القمر». وبينما كانت

ترتقي منحدرات جبل إيدا أخذت تطفر من حولها ذئابٌ شعثاء، وأسودٌ منتصبة الشعر ونمور رشيقة. «أمام ذلك المشهد تهللت وأهاجت الحبَّ في قلوبهم».

حين وصلتْ إلى أنشيسيس شرحت له أنها ابنة أوتريوس، ملك فريجيا، وباحت برغبتها في أنْ تكون زوجةً له. ومن دون كثير جَلَبة قادَ أنشيسيس أفروديات إلى أريكته المريحة، وغطّاها بجلد الدببة والأسود. وهكذا «ضاجعَ رجلٌ من البشر. بإرادة الآلهة والقَدَر، إلهة خالدة دون أنْ يعلم مَنْ هي».

حين استيقظتْ أفروديات تجلَّت أمام أنشيسيس بكامل بهائها القدسي. ورآها الراعي ومسّه الرعب، خشية أن يُصاب بالشيخوخة المُبكرة التي يُصاب بها كل مَنْ يُضاجع إلهة من الخالدين. ولكن أفروديات طمأنته ووعدته أنْ تُنجب له ابناً يُشبه الإله. لكنها طلَبت منه فقط ألاَ يكشف أبداً عن اسم أم الطفل. وأصبح الابن لاحقاً هو أنياس الورِع.

لم يكن أنشيسيس هو البشري الوحيد الذي عشقته أفروديات. فالفينيقيون الذين كانوا يتردَّدون على جزر بحر إيجة وموانئ البيلوبونيز جلبوا معهم قصة حب إلهتهم أستارت لأدونيس. وطبعاً أعاد اليونانيون صياغة القصة لتكون عن أفروديات، وكانت قصة أفروديات وأدونيس هي إحدى الحكايات التي غالباً ما يتناولها الشعراء والفنانون.

من بين المفضَّلين لدى أفروديات لا بد من ذِكر فيثون، ابن إيوس وسيفالوس، الذي خطفته الإلهة وهو طفل وأصبحَ «الحارس الليلي لمعابد المقدَّسة». وكان هناك أيضاً سينيراس، الذي يوصف أحياناً بوالد ميرحة ـ وبالتالي والد أدونيس. كان يُعتبَر في المعتاد مؤسّس عبادة أفروديات في جزيرة قبرص التي حكمها.

في الجزيرة نفسها قبرص، في أماثوس، عاشَ نحات اسمه بيغماليون، كرس نفسه بشغفٍ لفنّه، ولم يكن يسعد بيغماليون شيء أكثر من عالم التماثيل الصامت الذي يخلقه إزميله. وكرهه للبشر كان يرجع إلى الاشمئزاز الذي يشعر

به أمام سلوك البروبوتيديين. وهؤلاء فتيات في أماثوس أنكرنَ بتهوُّر ألوهيّة أفروديات. وعقاباً لهنَّ ألهمتهنَّ أفروديات الوقاحة بحيث أنهنَّ، بسبب افتقارهنّ إلى الحس بالعيب، كنَّ يعهرن مع كل عابر سبيل. وفي النهاية تحوّلنَ إلى صخور. وهكذا نبذ بيغماليون مجتمع النساء، لكنّه كان يُبجِّلُ أفروديات بحميّة. ثم حدثَ أن صنع تمثالاً من العاج لامرأة تتصف بجمال خارق حتى أنه وقع صريع غرامه. خسارة! لأنَّ الصورة لم تكن تستجيب للواعج حبّه. وأشفقَت أفروديات على العاشق الفريد. وذات يوم بينما كان يعانق التمثال الجامد بقوة بين ذراعيه شعرَ بيغماليون بالعاج يتحرَّك فجأةً، لقد استجابَ لقبلاته. ودبَّتْ الحياة في التمثال بمعجزة.

هذه المعجزة ما هي إلاّ مثال على سلطة أفروديات المُطلقة على كل المخلوقات. كانت تنشر استمتاعها بالحياة في الطبيعة كلها: لدى ظهورها، كما يقول لوكريشوس، «تهدأ السماوات وتصبُ فيوضاً من النور، وتبتسم أمواج البحر لمرآها». لكنَّ أفروديات كانت أيضاً إلهة مُخيفة تملأ قلوب النساء بسُعر الشغف. تعيسات هن اللواتي تنتقيهن أفروديات ليكُنَّ ضحاياها، إلى درجة خيانتهن لآبائهن مثل ميديا أو أريادن. وتخليهنّ عن أوطانهنّ، مثل هيلين، ليتبعن شخصاً غريباً. وسوف تتغلَّب عليهن، مثل ميرحة أو فيدرا، رغبات سفاحيّة، أو، مثل باسيفه، تمزقهن لواعج همجيّة وضارية.

لكنَّ أفروديات هذه بالذات تحمي الزيجات الشرعية وتظهر في بعض المشاهد بين الإلهات اللواتي يُشرفنَ على قداسة الزواج. وكانت أمهات إسبارطة يُقدمن الأضاحي لها عندما تتزوج بناتهنّ. وهي التي رعت شؤون بنتيّ بانديريوس، ميروب وكليوثيرا، بعد وفاة أبويهما. أطعمتهما الحليب والعسل والخمر اللذيذة، وحين كبرتا طلبت من زيوس الأكبر أن يُبارك زواجيهما. ولو أنَّ الأمر بيد أفروديات وحدها، لأصبحت ميروب وكليوثيرا زوجتين سعيدتين محترمتَين، لكنَّ الشابتين البائستين خُطفتا، في لحظة زواجهما، وأخذهما الهاربيون وجعلوهما من أتباع الفيورات البغيضات.

هرمافروديتوس: من بين أولاد أفروديت كانت هارمونيا، ابنتها، التي حملت بها من أريس والتي تزوجت قدموس. ومن بينهم أيضاً كان هرمافروديتوس، الذي كان والده هو هرمس.

لكي تُخفي امر ولادتها أسرعت أفروديت إلى إيداع هرمافروديتوس لدى حوريات جبل إيدا اللواتي أنشأنه في الغابات. وفي سن الخامسة عشرة كان شاباً بريّاً وهمجياً متعته الرئيسية الصيد في الجبال الكثيفة الأشجار. وذات يوم في كاريا وصل إلى ضفاف بحيرة رائقة أغراه نقاؤها بالاستحمام فيها. فرأته الحورية سالماسيس التي تهيمن على البحيرة وأغرمت بجماله. فباحت له بشعورها، وحاولَ الشاب الحييّ عبثاً أن يصدّها. طوّقته سالماسيس بذراعيها وراحت تنهالُ عليه بالقُبَل. واستمرّ في مقاومتها وظلّت الحورية تهتف: «أيها الشاب القاسي! إنَّ مقاومتكَ لا فائدة منها. أواه أيتها الآلهة! لا تدعي أيَّ شيء يفرّقه عني، أو يفرّقني عنه!» وعلى الفور اتَّحدَ الجسدان وأصبحا جسداً واحداً. «وبصيغتهما المزدوجة لم يكونا رجلاً ولا امرأة: بدا أنهما بلا جنس مُحدَّد وفي الوقت نفسه يحويان الجنسين».

نتيجة هذه الحادثة اكتسبَتْ مياه البحيرة خاصية إفقاد مَنْ يسبح فيها رجولته. وكان هذا تلبيةً لآخر أمنية أعلنها هرمافروديتوس قُبيل أن تجرّه سالماسيس إلى أعماق المياه.

وأوَّلَ البعض هذه الخرافة الغريبة على أنها إحياء لعبادة أفروديت قبرص الملتحيّة.

بطانة أفروديت:

إيروس: من بين رفاق أفروديت الاعتياديين كان أهمّهم إيروس. لم يكن معروفاً في العصر الهومري، ويظهر في كتاب أصول الآلهة لهزيود كابنٍ لإريبوس والليل. وكان دوره أنْ يُنسِّق العناصر التي تؤلف الكون. وهو الذي «يجلب التناسق للعماء»، ويسمح للحياة بالتطوُّر. هذا الإله البدئي هو، تجسيد شبه تجريدي للقوة الكونيّة، لا يُشبه في شيء إيروس التقليدي الذي لم تتطور ملامحه إلا في عصور لاحقة، عندما دخل في بطانة أفروديت.

فيما يخصُّ أصله ليس هناك أي اتّفاق. البعض يقولون إنَّ أمه كانت الإلهة ليثيا، وآخرون يقولون إنه ولِدَ لأريس وزفيروس. أحياناً يُفتَرَض أنه وُلِدَ قبل ولادة أفرودايت، التي رحّبَ بها مع الهوريات على شواطئ قبرص، وأحياناً ـ وهذا التراث هو الأوسع انتشاراً ـ اعتُبرَ ابن أفرودايت. أما عن والده، فالقدماء يتردَّدون بين أريس، وهرمس وزيوس.

كان إيروس هو أصغر الآلهة سناً، كان طفلاً مُجنَّحاً، فاتناً ولكنه متمرد، سبَّبَ مُزاحه ونزواته الكثير من المعاناة بين البشر والآلهة. كان مُسلّحاً بقوس سِهام وخزها يُضرِم نار الشغف في القلوب كلها. وبسبب خبثه لم يكن يُبدي احتراماً حتى لأمه، وكانت أفرودايت تضطرُّ أحياناً إلى معاقبته بحرمانه من جناحيه وكنانته.. ولكن في المعتاد، كان خادمها المتحمّس. كان يساعدها في تبرّجها ورفَيقها في أسفارها. وبينما كانت الإلهة تستقرّ بين ذراعَيّ أريس، كان إيروس بأسلحة إله الحرب الثقيلة ويحاول أن يعتمر خوذته ذات الريشة اللامعة. وبالطريقة نفسها نراه لاحقاً يعبث بأسلحة هرقل.

وقع هذا الشاب الفاتن والقاسي الذي يستمتع بتعذيب الناس هو نفسه ضحية لواعج العواطف التي أثارها في الآخرين. وقد ذُكِرَ هذا في حكاية سايكي، على الرغم أنَّ هذه الحكاية الساحرة هي ابتكارٌ متأخِّر وهي فلسفيّة أكثر منها أسطوريّة.

إيروس وسايكه: سايكه في اللغة اليونانية تعني الروح. وتقول القصة إنها كانت أميرةً ذات جمال خارق حتى أنَّ أفرودايت نفسها غارت منها. فوجَّهت ابنها إيروس ليُعاقبَ المخلوقة البشرية الوقحة. وبعد ذلك بوقتٍ قصير أمرت نبوءة والد سايكه، تحت التهديد بإنزال كوارث رهيبة، أن يوجه ابنته إلى قمة جبل لتكون فريسةً لوحش. وقفَتْ سايكه، وهي ترتعش ولكن باستسلام، تنتظر على صخرة أن تتحقّق النبوءة. وفجأةً شعرت أنها ترتفع برفق وهي بين ذراعي زفيروس، الذي حملها إلى قصر رائع. وعندما هبط الليل وكادت سايكه أن تنام انضمَّ إليها مخلوقٌ غامض وسط الظلام، شارحاً أنه الزوج المقدَّر لها. لم تتمكن من رؤية قسمات وجهه. ولكنَّ صوته كان ناعماً وحديثه مملوءاً بالرقة. وقبل

طلوعِ الفجر اختفى الزائر الغريب، بعد أن دفعَ سايكه إلى القَسَم على ألا تحاول أبداً أن ترى وجهه. وعلى الرغم من غرابة المغامرة، كانت سايكه سعيدة بحياتها الجديدة، ففي القصر كان يتوفَّر لها كل ما تشتهيه ما عدا الحضور المستمر لزوجها المبهج، الذي لم يكن يأتي لزيارتها إلا خلال الساعات الحالكة الظلام من الليل. وكان يمكن لسعادتها أن تدوم على تلك الصورة لو لم تعمد أخواتها ـ اللواتي التهمهنَّ الحسد ـ إلى نثر بذور الشك في قلبها، وقلن: «إذا كان زوجك يخاف أنْ يدعكِ تشاهدين وجهه فلا بد أنه مخلوق غاية في القبح». وأكثرنَ من مضايقتها إلى أن كان ذات ليلة نهضت فيها سايكه، على الرغم من وعدها، من أريكتها التي تتقاسمها مع زوجها، وأشعلتْ مصباحاً خِلسةً وحملته فوق الوجه الغامض. وبدل أنْ ترى وحشاً مخيفاً رأتْ أجمل إنسان وقعت عليه عيناها في العالم ـ إنه إيروس نفسه؛ وعند قدميّ الأريكة كان قوسه وسِهامه. وفي غمرة ابتهاجها، ولكي تتفحَّص قسمات وجه زوجها عن قُرب أكثرن قرَّبتْ المصباح. فسقطت قطرة من الزيت المُحرِق على كتِف الإله العاري. استيقظ في الحال، وأنَّبَ سايكه على قلّة إيمانها واختفى على الفور.

واختفى القصر أيضاً على الفور في آنٍ واحد، ووجدتْ سايكه المسكينة نفسها من جديد على الصخرة الوحيدة وسط العزلة المريعة. في أول الأمر فكّرت في الانتحار ورمتْ بنفسها في النهر القريب، لكنَّ المياه حملتها برفقٍ إلى الضفة المقابلة. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً راح غضب أفروديت يُلاحقها وخضعت لسلسلة من المِحن الرهيبة. لكنها نجحتْ في التغلُّب عليها واحدة إثر أخرى، بفضل عون من جهة غامضة. بل إنها اضطرَّت إلى الهبوط إلى العالم السُفلي. وأخيراً، تأثر إيروس لندم زوجته التي لم يكفّ أبداً عن حبها وحمايتها. وذهبَ إيروس إلى زيوس والتمسَ السماحَ لسايكه بالعودة إليه. ووافقَ زيوس وخلعَ الخلود على سايكه. ونسيتْ أفروديت ضغينتها، واحتُفِلَ بزواج العاشقَين فوق جبل أوليمبوس بفرحٍ عارم.

إلى جوار إيروس كانت تُرى شخصيات ألوهية أخرى معرفة، أبرزها هيميروس وباثوس، وكلاهما يشكِّل تجسيداً لرغبة الحب.

إلهات الحُسن التسع: كانت بطانة أفرودايت تكتمل عادةً بإلهات الحُسن (Graces). وعلى الرغم من أنه قيل أحياناً أنهنّ بنات هيليوس وإيغل فإن الأكثر شيوعاً هو أنَّ إلهات الحُسن وُلِدنَ للأوقيانيدة يورينومه ووالدهن هو زيوس. كنَّ إلهات مبتسمات حضورهنَّ ينشر الفرح ليس فقط في أنحاء العالم الخارجي ولكن أيضاً في قلوب البشر. ويقول بندار لهنّ «معكنّ يصبح كل شيء عذباً وساحراً». وعددهنّ وأسماؤهن وغالباً ما يختلف. ووِفقاً للحُقَبْ الزمنية والمناطق كنَّ يُسمين: كاريس وباسيثيا (تسمية هوزر)، وفي إسبارطة، كليا وفينا، هيغيمونه وأوكسو في أثينا. ولكن الرواية الأكثر قبولاً تُثبت عددهن إلى ثلاث، وأسماؤهن هي أغلايا، ويوفروسينه وثاليا. كنَّ رفيقات أفرودايت ويساعدنها في تبرجها. وقد استفادت الإلهة من خدماتهنّ كلما رغبت في أن تتلبَّس أسلحة الإغراء كافة.

مع عودة الربيع كانت إلهات الحُسن يبتهجن بمخالطة الحوريات، مُشكّلات معهنَّ مجموعات من الراقصات ينقرنَ على الأرض بخطوات رشيقة. ذلك لأنَّ إلهات الحسن ـ اللواتي كان البعض يرون فيهنّ تجسيداً لأشعة الشمس، ولكنهنَّ في الأصل إلهات طبيعة ـ كنَّ يُهيمنَّ على تبرعم الحياة النباتية وإنضاج الثمار. كانت أغلايا «اللامعة»، وثاليا هي «التي تُخرِجُ الأزهار». والفرح الذي كان ينتج عن بركات الشمس يتكشَّف في اسم يوفروسينه: «التي تُبهِجُ القلب». في الأصل كما في الوظيفة كانت إلهات الحُسن مرتبطات بشكلٍ وثيق بأبولو: وبالتالي غالباً ما يشكّلنَ جزءاً من بطانته.

واعتُبِرنَ أيضاً إلهات الامتنان. لهذا كان يُقال إنَّ أمّهن هي ليثه (النسيان) لأنّ الامتنان سرعان ما يُنسى.

إنَّ أشهر مقامات إلهات الحُسن كان موجوداً في أوركومينوس في بويوتيا، حيث كنَّ يُعبدن على شكل نيازك جوّية أو شُهُب. وكان لهنَّ أيضاً مقامان في أثينا.

في أول الأمر كانت إلهات الحُسن يرتدين أثواباً طويلة ويضعن تيجاناً. ولكن، بدءاً بنهاية القرن الرابع قبل الميلاد أصبحنَ يُمثلنَ كثلاث صبايا عاريات تُمسك كلٌ منهنَّ بالأخرى من الكتف.

بوزيدون:

شخصيته ووظيفته: على الرغم من أنَّ مجال روزيدون هو البحر، إلا أنه يحتلُ مركزه المُحدَّد بين الآلهة على جبل أوليمبوس.

على الرغم من رأي هيرودوتس القائل بقدومه من ليبيا، فقد كان بوزيدون في الواقع إلهاً بيلاسيجياً عريقاً جداً، وأقدم حتى من زيوس. ومنطقته، التي لاحقاً اقتصرت على المياه، كانت في العصور القديمة أوسع بكثير.

إنَّ تعليل أصل اسمه الذي قدَّمه الأقدمون، بربطهِ بكلمة «يشرب» و«نهر»، مشكوك فيه. ويبدو اسم بوزيدون مُستنبطاً أكثر من جذر معناه «أن يُسيطر» الذي يوجد مرة أخرى في الكلمة اللاتينية potens.

ومن الممكن أنَّ هذا البوزيدون البدائي، هذا «السيد» المُهيمن، كان ذات يوم إلهاً سماوياً، لأن رمزه، الرمح الثلاثي الشُعَب ـ ربما كان يرمز إلى الصاعقة. وعلى الرغم من أنَّ زيوس حلَّ محلّهن إلا أنَّ بوزيدون بقي يمارسُ هيمنته على الأرض برمّتها، كما تبرهنُ على ذلك الصراعات التي خاضها مع باقي الآلهة الذين نافسوه على الهيمنة على أجزاء من اليونان، وأيضاً الألقاب التي خلعها عليه هومر، مثل الـEnosichthon ـ «الذي يهزّ الأرض». لقد كان بوزيدون، بحق، إله الهزّات الأرضية. حتى حين ضاق مجاله واقتصرت على البحر احتفظَ بوزيدون بشخصيته كإله عظيم: بقي مساوياً لزيوس السامي، فهو زيوس الـElialios (البحري)، الذي امتدَّت سلطته حتى عمَّت كامل الكون الماديّ.

وبوصفِهِ تجسيداً لعنصر الماء لطالما اعتُبرَ بوزيدون إله الخصوبة والنبات.

عبادته وصوره التمثيليّة: كان بوزيدون إلهاً وطنياً لأيونيّي بيلوبونيز، الذين جلبوه معهم عندما هاجر من آسيان وكان يُعبَد خاصةً في هذا الجزء من اليونان. وفي إسبارطة كان يُدعى بالـGenethios (الخالق). لكنَّ عبادته انتشرتْ في أرجاء اليونان كلها، خاصةً في البلدات الساحلية، وفي كورينث ورودس وتيناروس أفلح في أنْ يحلَّ محلّ الإله المحلي.

الحيوانات التي كانت مقدَّسة بالنسبة إليه هي الحصان، رمز الينابيع الفيّاضة، والثور، الذي يرمز إما إلا قدرته على الإخصاب وإما على تهوّره، وفي سياق بعض الاحتفالات المُكرَّسة لبوزيدون وتدعى تاوريا، تُرمى ثيران إلى الأمواج.

بالطريقة نفسها كانت تُقام احتفالات سباقات الخيل على شرف بوزيدون، هذه العادة نشأت في ثيسالي حيث يُقال إنَّ الإله خلق الحصان بضربة من رمحه الثلاثي الشُعَب.

في فن العصور القديمة الكلاسيكية يُشبه بوزيدون إلى حدٍ بعيد زيوس، كان يتصف بالفخامة نفسها حين يُصوَّر واقفاً، عاري الصدر، يقبضُ على رمحه الثلاثي الشُعَب ولكن في المعتاد تكون قسمات وجهه أقلّ صفاءً، وهي تكشف بلحيته الكثّة وشعره الأشعثن عن تعبير مهموم.

أسطورة بوزيدون: كان بوزيدون ابن كرونوس وريا. وتقاسمَ مصير إخوته وأخواته، وعند ولادته ابتلعه والده. وقد تقيَّأه مع الآخرين عندما أعطى زيوس كرونوس، بناء على نصيحة ميتيس، جرعةً جعلته يتقيّأ أطفاله. ووفقاً لرواية أخرى نجحتْ ريا في حماية بوزيدون من نَهَم والده بإعطاء كرونوس مهراً غضاً لكي يبتلعه. وفي تلك الأثناء خبّاتْ ابنها وسط قطيعٍ من الحملان بالقرب من ماتينيا. ثم وُضِعَ بوزيدون في عُهدة حاضنة اسمها آرن وكبُرَ دون معرفة والده. وقد قيلَ أيضاً إنَّ ريا أعطت بوزيدون إلى كافيرا، وهي ابنة أوقيانوس الذي، بمساعدة تلخينس، جلبه إلى رودس.

حين حارب زيوس التيتان والعمالقة، حارب بوزيدون إلى جنبه وقتلَ بوليبوتس بضربه بقطعة من الجُرف اقتُطِعَتْ من جزيرة كوس، وأصبحت لاحقاً جزيرة نيسيروس الصغيرة. وبعد إحراز نصرهم الشامل قُسِّم الإرث الأبوي، كما نتذكّر، إلى ثلاثة أجزاء: أخذ زيوس السماوات اللامتناهية، وهيدس العالم السفلي المكفهر، وحصل بوزيدون على البحر الشاسع.

على الرغم من أنه كان معادلاً لزيوس بالمولد والفخامة إلاّ أنَّ بوزيدون كان خاضعاً لسيطرة أخيه المُطلقَة. كان إله البحر يتذمَّر ويشتكي أحياناً. وذات مرة تمادى إلى درجة التآمر مع هيرا وأثينا لخلع زيوس عن عرشه. وكان زيوس هو

الأقوى مما اضطرَّ بوزيدون لدفع ثمن محاولته التمرُّد بقضاء عام في خدمة لاوميدون المتغطرس، وأنشأ لأجله أسوار طروادة.

هذا لا يعني أنَّ إمبراطورية بوزيدون لم تكن تستحق طموحاته. لم يكن سيداً على البحر فحسب، بل وعلى البحيرات والأنهار. وبمعنى ما حتى الأرض كانت خاضعة له، بما أنَّ مياهه تدعمها ويمكنها أن تزلزلها إذا شاءت. في الواقع، خلال الحرب مع العمالقة شقَّ الجبال برمحه الثلاثي الشُعَب ودحرجها إلى البحر ليكوِّن أول الجزر. وهو الذي، أيام كانت ثيسالي مجرَّد بحيرة ضخمة، فتح الطريق للنهر بينيوس بشق كتلة جبل أوسّا إلى نصفين.

كان ظمأ بوزيدون للامتلاك شديداً جداً بحيث أنه غالباً ما وجدَ نفسه في حالة صراع مع آلهة أخرى.

لقد ذكرنا منذ قليل النزاع الذي نشب بينه وبين أثينا من أجل امتلاك أتيكا، وانتهى لصالح أثينا وبدافع من الغيظ أغرقَ بوزيدون أتيكا. كما أنه لم يتمكَّن من الفوز بمقاطعة تروزن من الإلهة نفسها، فقد منحها زيوس لهما معاً.

لم يكن بوزيدون أكثر حظاً من هيران التي تنافسَ معها على الهيمنة على أرغوليس. وتُرِك أمر اتخاذ القرار إلى حكم إله النهر إناخوس، بمساعدة النهرَين أستريون وسيفيسسوس. ولم يكن الحكم لصالح بوزيدون، الذي انتقمَ لنفسهِ بتجفيف الأنهار الثلاثة ومعها أرغوليس.

كان هناك أيضاً منافسة بين بوزيدون وهليوس حول برزخ كورينث. واختير برياريوس ليفصل في الحكم، فأعطى الاكروبوليس الكورينثي لهليوس كجائزة وترك باقي البرزخ لبوزيدون. كان هذا منشأ العبادة التي بُجِّل بها بوزيدون في برزخ كورينث، وأثناء الاحتفالات المقامة على شرفه كانت تُقام الألعاب الرياضية الاسثمية الشهيرة.

أخيراً تنازع بوزيدون من دون إحراز نجاح حول إيجينا مع زيوس، وحول ناكسوس مع ديونيسوس. واضطرَّ إلى التخلّي عن مقاطعة دلفي لأبولو، التي كان يسيطر عليها حتى ذلك الحين بمشاركة غيا، وتلقّى في مقابلها جزيرة كالاوريا.

من ناحيةٍ أخرى، لم ينازع أحدٌ أبداً بوزيدون على هيمنته على البحر ورسَّخَ مقامه في أعماق بحر إيجة حيث «بُنِيَ له قصرٌ رائع، يتلألأ بالذهب، ويدوم إلى الأبد». وحين يغادر كان يشدُّ إلى عربته أحصنة سريعة ذات أعراف ذهبية ونعالٍ من برونز. يرتدي درعاً من ذهب ويُمسك بيده سوطاً صُنِعَ بمهارة ويندفع بقوةٍ بعربته عبر السهل المائي. ومن حوله وحوشٌ بحرية مرحة، تظهر من الأعماق السحيقة لترحِّب بملكها. ويتباعد البحر المرح أمام عربته وهي تطير بخفة عبر الأمواج التي لا تصل حتى إلى تبليل المحور البرونزي للعربة. وغالباً، كان يُرافقُ ظهور بوزيدون عواصف عاتية، دلالة على غضب الإله الحانق.

أمفيتريت: زوجة بوزيدون هي أمفيتريت التي كانت في الأصل التجسيد الأنثوي للبحر. كانت ابنة أوقيانوس النريوسي. انتقاها بوزيدون ذات يوم حين كانت ترقص مع أخوتها في جزيرة ناكسوس. وعندما طلبَ يدها للزواج رفضتْ أمفيتريت في أول الأمر وفرَّت إلى أطلس. فبعثَ بوزيدون دلفيناً للبحث عنها. فاكتشف الدلفين مكان التجائها وأعادها إلى سيده، ومكافأةً له وضعه بوزيدون بين مجموعة النجوم.

منذ ذلك الحين وأمفيتريت تشاركُ بوزيدون مملكته. ونجدها إلى جوار زوجها على العربة المقدَّسة التي يقودها جن البحر وهم ينفخون في قواقع محارات. أحياناً تحمل بيدها الحربة الثلاثية الشُعَب، شعار بوزيدون الدال على سلطته.

من زواج بوزيدون وأمفيتريت وُلِدَ ابن، تريتون، وابنتان: رود، التي أعطت اسمها إلى جزيرة رودس وكانت أمّ الهليادات، وبنثيسيكيم، التي استقرَّت في أثيوبيا.

كانت أمفيتريت زوجةً مُجاملة وتلاءمت بصبرٍ مع خيانات زوجها المتكرِّرة. مرةً واحدة فقط شعرت بالغيرة: حدث ذلك في حالة سكيلا، التي كانت في الاصل حورية ذات جمال نادر. ثار حنقها بسبب ما أبداه زوجها من حب لها، فرمت أمفيتريت ببعض الأعشاب المسحورة إلى البركة التي تستحم سكيلا فيها، فتبدَّلت الحورية إلى وحشٍ مخيف.

علاقات بوزيدون العاطفية: من بين محظيات بوزيدون اللواتي لا حصر لهنّ سوف نأتي على ذكر الرئيسيات منهن.

من بين الإلهات هناك غيا، التي جعلها أم العملاق المُخيف أنـاتيوس. وهنـاك ديميتر التي تحوَّلت إلى مُهرة لتفر منه، لكنَّ بوزيدون اتّخذَ صورة حـصان ومـن زوجهما وُلِدَت ابن يبقى اسمها غامضاً (لعله كان ديسبونا)، وولد الحصان الجـامح أريون، الذي كانت ساقاه اليمنيان ساقا إنسان ووهِبَ المقدرة على الكلام.

وأيضاً عن طريق تحوّله إلى حصان ـ مـع أنَّ آخـرين يقولـون طـائر ـ نجـح بوزيدون في إغـواء ميـدوزا، في داخـل معبـد أثينـا. حنقَـتْ أثينـا بـسبب هـذا التدنيس، فحوَّلتْ شعر الميدوزا إلى أفاع. وعندما قطعَ برسيوس رأس الميدوزا، وُلِدَ من الدماء التي سُفِكَت منها كريساور والحصان بيغاسوس.

من ألسيون، إحدى البليادات، أنجبَ بوزيدون ابنـةً، إثـوزا، الـتي أحبّهـا أبولو، وولدَين: هايبرينور وهاريوس. الأخير حكـمَ في بويوتيـا وأصـبح ببركـة الآلهة والد العملاق أوريون، الذي سنتكلّم عنه لاحقاً.

ومن كيلاينو، التي تنتمي إلى جنس الهاربي وهم كائنات مزيج من بشر وطير، أنجبَ بوزيدون ابنين: ليكوس، الذي حكـمَ الجـزر المحظوظـة، ويوريبـايلوس، الذي أبلى بلاءً حسناً في حصار طروادة ولعبَ دوراً في حملة الأرغونتيين.

ومن استيبالايا أخت يوروبا؟ أنجب بوزيدون الإغونوت أنايوس.

كيون، ابنة بورياس، أغواها بوزيـدون وأنجَبـتْ ابنـاً، يومولبـوس. ولكـي تُخفي عارها رمت بالوليد إلى البحر، لكنَّ بوزيـدون أنقـذه وحملـه إلى إثيوبيـا وهناك عهد به إلى ابنته بنثيسيكيم، التي أصبحت لاحقاً حماة يومولبوس.

إثرا كانت ابنة بتثيوس، ملك تروزن. أمرتهـا أثينـا في الحلـم بالـذهاب إلى جزيرة سفيريا لكي تقدم أضحية على ضريح سـفيروس. وفوجئت إثـرا بظهـور بوزيدون في المعبد وتعرَّضت للاغتصاب. وبعـد ذلـك تزوّجـت مـن إيجيـوس وأصبحت أماً لثيسيوس بسبب جمالها الفائق. حوصرت ثيوفين، ابنـة بيـزالتس، بالمتودّدين، ولحمايتها من اهتمامهم حملها بوزيدون، الذي وقع هـو نفـسه في

حبها، إلى جزيرة كرينيسا (كروميسا)، فتبعها المتودّدون، ثم حوّلها بوزيدون إلى نعجة، وحوّلَ أهل الجزيرة إلى خراف، وتحوّل هو نفسه إلى كبش، أنجَبت ثيوفين الكبش الشهير ذا الجزّة الذهبية.

كان لألوب، ابن سرسيون، ابنٌ من بوزيدون، تركته في العراء، بعد أن غطّته برداء فخم، حيث أرضعته، وعثرَ عليه رُعاة وحملوه إلى سرسيون، وفي الحال تعرَّفَ سرسيون على الرداء الفخم واكتشف عار ابنته. فحكمَ عليها بالسجن المؤبَّد، ومرةً أخرى ترك الطفل في العراء، ولكنَّ الفرس المُخلِصة عادت من جديد لتُرضِعه. ولهذا السبب سُمّيَ هيبوثوس. ولاحقاً، حين ذُبحَ سرسيون على يد ثيسوس، ارتقى هيبوثوس سُدَّة عرش جدِّه.

ابتُليَ إريسيكثون، ملك ثيسالي، لأنه نهبَ بستاناً مقدّساً لديمتر، بجوعٍ لا يشبع. ولإشباعه اضطرَّ إلى بيع كل ما يملك. وحين نفدت موارده عرضَ ابنته ميسترا أخيراً للبيع. ثم أحبَّ بوزيدون ميسترا ومنحها القدرة على التحوُّل، وهكذا استطاعت أن تهرب من مُشتريها في كل مرة. هذه الخطة سمحت لإريسيكثون أن يبيعَ ابنته مراراً وتكراراً، إلى أن اكتُشِفَ أمرُ الخِدعة أخيراً ولم يبقَ أمامه من بديل غير أنْ يلتهمَ نفسه.

أثناء فترة القحط في أرغوليس الذي كان نتجية حنق بوزيدون على إناخوس، أرسلَ داناوس بناته للبحث عن المياه. إحداهنَّ، أميمون، جرحَت بإهمال منها ساطيراً نائماً فوثبَ عليها. ويقول البعض إنَّ أميمون فوجئت بالساطير بينما كانت هي نفسها نائمة. وفي كلا الروايتين وصلَ بوزيدون، ودفعَ الساطير إلى الفرار وأنقذَ أميمون، وفاز بوصالها. وتعبيراً عن امتنانه ضرب الإله صخرةً برمحه الثلاثي الشُعَب فانبجسَت منها ينابيع ليرنا. ومن ذلك الزواج أنجبت أميمون ابناً، ناوبليوس، الذي أسّسَ لاحقاً مدينة ناوبيليا وابتلعته الأمواج لأنه جدَّفَ على الآلهة. ولنبع بيرين، بالقرب من كورينث، صِلة بأسطورة بوزيدون. فمن الحورية بيرين، ابنة أخيلوس أو أسوبوس، أنجب الإله ابنين انتهيا نهاية مفجعة، ولم تجد بيرين عزاءً في أي شيء ولم تستطع أن تكفَّ عن البكاء، ومن دموعها تكوّنَ النبع الشهير المدعو باسمها.

كانت الحورية تايرو، ابنة سالمونيوس وأسيديس، تضمر ولَعاً بالنهر إنيبيوس. ويئسَ بوزيدون، الذي أحبّها، من التأثير على قلبها. وذات يوم بينما كانت تايرو تتمشّى على ضفاف نهر إنيبيوس اتَّخذ بوزيدون شكل إله واقترب منها. خُدِعَتْ الحورية بتخفيّه واستسلمت له. وحملتْ بولدَين، بلياس ونليوس، فتخلَّت عنهما. «فعثرّ عليهما رعاة وتربيّا بين قطعان الخيول. في تلك الأثناء، كانت تايرو قد تزوجت كريثيوس، ملك إيولكوس، وأساءت سيديرو، حماتها، معاملتها. وحين عاد بلياس ونليوس إلى أمّهما قتلا سيديرو الشريرة».

ذريّة بوزيدون: من بين ذرية بوزيدون الكبيرة العدد سوف نقتصر على ذكر بضعة أسماء:

يوفيموس، ابن يوروبا، الذي تلقّى من والده القُدرة على السير على سطح الماء وكان ثاني ربّان خلال حملة الأرغونوتيين.

هاليروثيوس، ابن الحورية يوريت، الذي أعدمه أريس لأنه اغتصبَ ابنته السيب. وهذه الجريمة أثارت شجاراً بين أريس وبوزيدون، ومن أجل حلّه أُسِّست محكمة الأريوباغوس في أثينا.

إيفدن، ابنة بيتين، التي عُهدَ بها لدى مولدها إلى إيبيتوس، ملك فوزين في أركاديا، والتي حملَتْ لاحقاً ابناً لأبولو، هو إياموس.

المولیونیدیان، وهما صبيّان توأمان ابنا موليون، ولِدا من بيضة فضيّة وكانا من شِدة شبَه أحدهما بالآخر بحيث أنَّ تراثاً لاحقاً قال إنهما ليسا غير جسد واحد برأسين، وأربع أذرع وأربعة سيقان، وهما اللذان أمرا قوات أوجياس بمهاجمة هرقل الذي قتلهما.

سيكنوس، ابن كاليس أو هاربيل، الذي تُرِك على شاطئ البحر عند مولده وأخذه صيادو سمك. ولاحقاً، أصبحَ ملك كولونه، في الترود. ومن زوجته الأولى، بركليا، أنجبَ طفلين، تينيس وهيميثيا. وزوجته الثانية، فيلونوم، كانت تضمر ولعاً بابن زوجها تينيس ولكن عندما عجزت عن إغوائه، افترت عليه لدى والده. فأغلقَ سيكنوس على تينيس وأخته هيميثيا داخل صندوق وأطلقهما في

البحر. لكنَّ بوزيدون أنقذهما. واستقرَّ تينيس في تينيدوس، وأصبح ملكاً عليها. وحين عرفَ سيكنوس الحقيقة قتلَ فيلونوم وذهبَ ليضمّ إلى ابنه. وحاربا معاً في القوات الطروادية ضد اليونانيين وقُتِلا على يد آخيل. ولما كان سيكنوس لا يمكن إيذاؤه، شنقه آخيل بحزام خوذته، ولكن عندما حاولَ أنْ يسلبه أسلحته تبدَّل جسد سيكنوس فأصبحَ طائر بجع.

أخيراً نذكرُ عدداً معيّناً من المخلوقات البشعة المؤذية كانت أيضاً من بين أفراد ذريّة بوزيدون.

أميكوس، ولِدَ من الحورية مليا، وحكمَ بيثينيا. كان يتمتع بقوة معجزة وتحدَّى كل الغرباء الذي جاؤوا إلى مملكته ليشتركوا في مسابقة ملاكمة حتى الموت. وعندما وصلَ الإرغونوتيين إلى بيثينيا تحدّاهم على الفور، ولكنَّ بولوكس قبلَ التحدّي وقتله.

كان الألوديّان طفليّ بوزيدون وإفيميديا، زوجة ألويوس، توأمين هما إفياتس وأوتوس، وكانا يكبران في كل عام بسرعة كبيرة بحيث أنَّ طول كل منهما مع بلوغه سن التاسعة بلغَ ما يُقاربُ عشرين ياردة. وقد رأينا كيف حاولا أن يُزِنا جبل أوليمبوس، وأبقيا أريس أسيراً ثلاثة عشر شهراً. وأخيراً قُضي عليهما إما تحت ضربات أبولو أو بخطة من أرتيميس، وأُلقيَ بهما في تارتاروس بسبب ما ارتكباه من جرائم، وهناك أوثِقا، ظهراً إلى ظهر، إلى عمودٍ بوساطة سلسلة من الأفاعي المتضافرة. وإليهما نُسِبَ تأسيس أسكرا ومؤسسة عبادة الميوزيات فوق جبل هيليكون.

سرسيوس، ابن ابنة أمفيكتيون، عاش في إليوسيس. كان يُجبر المسافرين كلهم على مصارعته وإذا هُزِموا قتلهم. وحده ثيسيوس نجحَ في هزيمته، وقتله، وكان سرسيون والد ألوب، التي هي نفسها أحبّها بوزيدون.

هناك ابن آخر لبوزيدون قتله ثيسيوس. وهو سينيس قاطع الطريق، الذي عاشَ في برزخ كورينث. أخضعَ كل عابري السبيل لعذاب بشع: كان يربطهم إلى أعالي أشجار الصنوبر بعد أن يثنيها إلى أسفل. وحين تُحرَّر الأشجار يتمزَّق الضحايا إلى أشلاء. وقد جعله ثيسيوس يُعاني من العذاب نفسه.

لم يكن ملك مصر، بوسيريس، ابن بوزيدون وأنيب، أقلّ قسوة. وحين دمَّرَ القحط مملكته استشارَ بوسيريس عرّاف قبرص، الذي أعلنَّ أنَّ الكارثة لن تزول إلا إذا ضحّى في كل عام بشخصٍ غريب. بدأ بوسيريس بالتضحية بالعرّاف واستمرَّ بهذه الممارسة الدموية إلى أن وصلَ هرقل ذات يوم إلى مصر ووقعَ عليه الاختيار ليكون الضحية التالية. وأوشكوا أن يحزّوا عنقه وإذا بهرقل يهبّ ويقطع السلاسل التي أوثقَ بها ويقتل بوسيريس ومرافقيه. ومنذ ذلك اليوم توقفت التضحية البشرية في مصر.

إلى هذه القائمة من الوحوش يمكن إضافة السيكلوب بوليفيموس، ابن بوزيدون والحورية ثووسا.

وفي الحقيقة، فإننا نرى هذه الذرية من الكائنات الوحشية التي أنجبها بوزيدون بقايا من انطباع الخوف الذي تركه غضب البحر الهائج في نفس الإنسان البدائي.

هستيا:

شخصيتها ووظيفتها: إنَّ كلمة «هستيا» تعني الموقد، الركن في المنزل الذي يتمُ الاحتفاظ به بالنار مشتعلة. والصعوبة التي يواجهها الرجل البدائي في إضرام النار تفسِّر لماذا تعامل معها باهتمام وبجلها. زيادةً على ذلك فإنَّ العائلة تتجمع حول الموقد. وحين يُغادرُ أحد أفرادها ليكوِّنَ أسرةً جديدة يأخذ معه قبساً من النارِ من موقد والديَه، وهذا يرمز إلى استمرارية العائلة. وعندما بدأتْ العائلات تشكِّلُ مجموعات ضمن بلدات، أصبحَ لكل بلدة موقدها المشترك يتمُ فيه الاحتفاظ بالنار العامة مشتعلة. وأخيراً أصبحت نار هستيا تستخدم في الأضاحي. ولهذه الأسباب المتنوعة أنتسبت هستيا، شأن أغني إله النار الفيديّ، سِمةً مُقدِّسة تجسَّدت لاحقاً على هيئة إلهة اتّخذت اسم المادة التي ترمز إليها.

إذن، كانت هستيا مثل هيفيستوس، إله اللهب. ولكن في حين كان هيفيستوس يمثل العنصر الناري في ظواهره السماويّة والتحت أرضيّة، كانت هستيا تمثِّل النار المنزلية ـ النار المدجنّة، إن صح التعبير. وهذه هي السمة المنزلية والاجتماعية لهذه الإلهة، التي كانت وظيفتها أن تحمي ليس المنزل والعائلة فحسب بل والمدينة أيضاً. وهسيتيا الزمن اللاحق أصبحت تمثّل،

بالقياس، النار الموجودة في مركز الأرض والأرض نفسها، ولكنَّ هـذا التـصوُّر كان فلسفياً أكثر منه أسطورياً.

كانت هستيا مُبجَّلة في بلدات اليونان كلها، وكان لها مذبحها الخاص عنـد كل موقد عام. وكانت هستيا دلفي موضع عبادة خاصة، فقد اعتُقد أنَّ دلفي تقع في مركز الكون وموقدها بالتالي كان الموقد العام لليونان كلـها. وكانـت معابـد هستيا تتميَّز بشكلها الدائري.

إنَّ صور هستيا التمثيلية نادرة. وقد نحت غلوكوز الأرغوسي تمثالاً لها مـن أجل أوليمبيا. وكان هذا تمثال شهيراً جداً في باروس. وهي تصور تارةً جالـسة، وطوراً واقفة، وإنما في وضعٍ ساكن دائماً.

لم تبرز هستيا، كغيرها من الآلهة، من مُخيّلة شعبية، والأساطير التي تدور حولها قليلة جداً.

وفقاً لهزيود (ذلك أنَّ هومر، قبله، لم يكن يعرف الإله هـستيا) كانـت أول طفلة وُلِدَت لكرونوس وريا. لهذا كانت أكبر آلهة الأوليمبوس وحافظـت دائمـاً على تصدّرها. وقد فهم البشر ذلك فهماً جيداً، وعندما كانوا يقدمون الأضاحي كانوا يكرسون الحصص الأولى لهيستيا. وفي الاحتفالات كانوا يـصبّون لأجلـها أول مقدار من دماء القربان وآخر مقدار. وعلى جبل أوليمبوس كان جلال هستيا مؤكّداً وحقوقها كأكبر الموجودين سناً محفوظة. ويبدو أنها لم تستفد قط من هذا ولعبت دوراً ضئيلاً في الدراما الأولمبيَة. «في مقرّ الآلهة» كما يقـول أفلاطـون، «وحدها هستيا تجلس بارتياح». إنَّ كل ما نعرفه عنـها أنَّ بوزيـدون وأبولـو معـاً تقدّما لطلب يدها للزواج. ورفضت هـذا وذاك. ولكـي تـضع حـداً لتوددّاتهمـا وضعت نفسها تحت حماية زيوس وقدَّمت تعهّداً رصيناً، وهي تلمس رأس سيد الآلهة، بأنْ تبقى عذراء إلى الأبد.

قَبِلَ زيوس قَسَمها «وبدل أن يطلبها للزواج قدَّمَ لها مكافأةً مُجزية: أن تتلقى وهي جالسة وسط المقام السماوي الجزء الأفضل من الأضاحي، وأن تكون بين البشر الأشد إجلالاً من الآلهة كلها».

على هذا تقاسمت هستيا مع أثينا وأرتيميس امتياز العِفّة. كانت إحدى اللواتي لم تنجح أفروديت أبداً في ممارسة سلطتها عليها.

الآلهة الأقلّ شأناً على أوليمبوس:

كان مجتمع أوليمبوس منسقّاً على طراز المجتمع الإنساني وتحت مراتب الآلهة العظماء كان هناك آلهة أقل شأناً يحتلون مراكز متنوعة.

ثيميس: من بين هؤلاء يمكن القول أنَّ ثيميس هي الأهمّ. كانت ابنة أورانوس وغيا وتنتمي إلى سلالة التايتان التي حلَّ الأولمبيون محلّها. وعلى الرغم من أصلها التايتاني، فإنها لم تتقاسم مع إخوتها خزيهم، وبقيَتْ ثيميس مُبجَّلة على جبل أوليمبوس. في الحقيقة، في بداية عهد حكم زيوس انتقاها لتكونَ زوجةً له. ويُقال إنَّ الموريات جلبنها له من مناطق قصيّة حيث يُقيمُ أورانوس. ولاحقاً، حين أصبحت هيرا زوجةً لزيوس، بقيَتْ ثيميس إلى جواره لتقدِّم له المشورة والخدمة. ويبدو أنَّ هيرا لم تتأذّ من ذلك: وعندما كانت هيرا تصلُ إلى مقر اجتماع الآلهة كانت تتلقّى كأس رحيق الآلهة من ثيميس.

لم تكن مهمة ثيميس على الأوليمبوس تقتصر فقط على الحِفاظ على النظام، بل ايضاً على تنظيم الاحتفالات، فقد كانت توجِّه الدعوة إلى الآلهة للاجتماع وتُعِدُّ الولائم.

فضلاً على ذلك كانت مفيدة وكريمة. ويُقال إنها هي التي تلقَّت زيوس الطفل الوليد من ريا حين رغبتْ ريا بحمايته من شراهة والده كرونوس. ولاحقاً أشرفت على ولادة أبولو وأرتيميس المتعسّرة. وقيل أيضاً إنها قدَّمَت لأبولو هدية هي مهبط وحي دلفي الذي ورثته من أمها، غيا.

على الأرض كانت دائرة اختصاصاتها واسعة. فقبل أي شيء كانت إلهة العدل. تحمي العادل ـ ومن ذلك جاء لقبها الـSoteira الحامية ـ وتعاقب المُذنب. والقُضاة يُعطون أحكامهم باسمها ووفقاً لنصيحتها. وكانت ثيميس أيضاً إلهة الحِكمة وتُدعى Euboulos، المُستشارة الصالحة، تحت هذا اللقب كانت تُشرِف على الاجتماعات العامة. وأخيراً، بما أنها كانت مُفسِّرة لإرادة الآلهة،

كانت تتمتَّع بموهبة نقل النبوءات، وهي التي بعد الطوفان، اقترحت على ديوكاليون الوسيلة لإعادة إعمار الأرض بالبشر.

من زواجها بزيوس أنجبت ثيميس أطفالاً عِدَّة: الهوريات، والموريات أو الأقدار، ويُقال أحياناً إنَّ الهسبيريدات هنَّ بناتها.

كانت عبادة ثيميس منتشرة في أرجاء اليونان، وكُرِّسَ معبد لها في قلعة أثينا. وكان لها أيضاً مقامات في تروزن وتاناغرا وأولمبيا وطيبة، حيث كانت تُعبَد مع زيوس أغورايوس.

وهي تُمثَّل كامرأة ذات قسمات وجْه جادّة وتعبير متجهِّم. وكان رمزها كفتي ميزان.

أيريس: كان لبونتس وغيا، بين أطفالهم الآخرين، ابن اسمه ثاوماس تزوج من إليكترا، ابنة أوقيانوس وتيثيس. ونتج عن ذلك الزواج هاربيس وأيريس. وعلى جبل أوليمبوس كانت أيريس، التي مثَّلت بالنسبة إلى الأقدمين قوس قُزح، رسولة الآلهة. وقد عُيِّنت خاصّةً لخدمة زيوس. وعندما يصدر زيوس أوامره للآلهة فإن إيريس تقوم بنقلها. وإذا أراد أنْ يعرف البشر إرادته، تهرع أريس هابطة إلى الأرض وهناك إما تستعير شكلاً إنسانياً أو تظهر في شكلها العُلويّ. وفي شكلها الإلهي كانت ترتدي ثوباً طويلاً كاملاً، وتربط شعرها بعصابة، وتحمل في يدها صولجان الكاديكيوس الذي يلتف حوله أفعوانان. وكان يمكن التعرُّف عليها من جناحيها الذهبيين المثبَّتين إلى كتفيها. أحياناً، مثل هرمس، كانت تنتعل خِفاً مُجنَّحاً. أحياناً تشقُّ الجو بسرعة الريح، وأحياناً أخرى تنساب هابطةً قوس قزح الذي يصل الأرض بالسماء. وكانت تشق المياه بالسرعة نفسها. وعندما أرسلها زيوس لتبحث عن الإلهة البحرية ثيتيس، يُخبرنا هومروس كيف غاصت بين الأمواج الداكنة بين ساموس وجروف إمبروس، جاعلةً الخليج نفسه يئنّ بصوتٍ عالٍ. حتى العالم السفلي فغر فاه أمام أيريس وذلك حين ذهبت، بأمرٍ من زيوس، لتُعيد ملء كأسها الذهبي من مياه نهر ستيكس الذي يربط الخالدون بعضهن ببعض بأقسامٍ مُخيفة.

كانت أيريس مُخلصة لزيوس ولكنها كانت مخلصة أكثر لهيرا. فلم تكن ترسل رسائل هيرا فحسب ولكن تنفذ أيضاً انتقامها، كما فعلتْ حين ذهبت إلى صقلية وأصرمت النار، وهي متخفّية بشكل بيرو، في أسطول أنياس. قامت أيريس بدور خادمة هيرا المُخلصة. وكانت تُعدّ حمّام هيرا، وتساعدها في زينتها، وتقفُ نهاراً وليلاً عند أسفل كرسي عرش سيدتها، ولا يغلبها النوم أبداً أو حتى تخلع حزامها أو خِفّها.

كانت أيضاً تخدم باقي الآلهة. فعندما يعودون إلى أوليمبوس بعرباتهم كانت تُنزل العِدّة عن الجياد وتعطيهم شراب الآلهة والرحيق. وحين جرح ديوميدس أفروديت، «أخذت أيريس الإلهة المرتبكة وقادتها بعيداً عن ساحة المعركة»، وساعدتها في امتطاء عربة أريس، وأمسكت العِنان والسوط بيديها.

حتى البشر عرفوا طيبتها. وحين سمعت آخيل يشتكي بمرارة من أنَّ لهب المِحرقة كان بطيئاً في التهام جسد باتروكلوس انطلقتْ على الفور لتعثُر على الرياح ـ التي كانت قد تجمَّعتْ في مقر زيفيروس بمناسبة إقامة وليمة مهيبة ـ وناشدتِ بورياس وزيفيروس كي يأتيا وينفخا على مِحرقة الجنازة.

قال البعض إنَّ زيفيروس هذا نفسه كان زوج أيريس وادّعوا إنَّ إيروس إله الحب كان ثمرة زواجهما.

على الأرض كانت أيريس تبجَّل بصورة خاصة في ديلوس، حيث كان يُقدَّم إليها التين الجاف والكعك المصنوع من القمح والعسل.

هيبه: كان اليونانيون يعبدون هيبه بوصفها إلهة الشباب. وكان لها مذبح في سينوسارغيس في أثينا. وفي فليوس كان لها أيكة مقدسة من أشجار السرو من دخلها كان آمناً وكان لها أيضاً حرم في سيكيون.

كانت ابنة زيوس وهيرا. وكانت تتمتع ببهجة الشباب الأبدي وتمثّل النمط المؤلّه للعذراء الشابة التي كانت في نمط العائلة البدائي مُكرَّسة للأعمال المنزلية. وكانت على جبل أوليمبوس تؤدي واجبات متعددة.

كانت تساعدُ أخاها أيريس على ارتداء الملابس، وتُحمّمه وتُلبسه أثواباً فخمة. وحين ترغب أمها هيرا في الخروج من جبل أوليمبوس كانت هيبه تُعِدُّ لها العربة. لكنَّ واجبها الأساسي كان تمرير كأس رحيق الآلهة عليهم أثناء تناول الولائم. كانت تتنقَّلُ بينهم، حاملةً إبريق الشراب المقدَّس وتملأ به كؤوسهم. وقد قيلَ إنه نتيجة سقطة تعرَّضتْ لها هيبه انكشفَ جسدها أمام عيون الجميع وهي في وضعٍ غير لائق، ففقدت عملها واستُبدِلَتْ بغانيميد.

بعد أن خفَّفَ هرقل من غضب هيرا أخيراً، سُمحَ له بعد موته أنْ يوضع بين مصاف الآلهة، ووُهِبَتْ له هيبه لتكون زوجته. وأنجبا طفلين، ألكسياريس وأنيسيتوس.

غانيميد: في العصور البدائية يبدو أنَّ غانيميد كان يُعتَبَر إلهاً مسؤولاً عن نثر المطر على الأرض. وهو يُقارَن بـSoma الفيدي الذي، مثله، خطفه إندرا ـ وحوله إلى باشِق. وقد طابقه الفلكيون القُدامى مع برج الدلو، حامل الماء.

كان غانيميد يُبجَّل في سيكيون وفي غليوس جنباً إلى جنب مع هيبه.

إنه يُصوّر كمراهق يعتمر قلنسوة فريجيّة ويغطي كتفيه بعباءة، إما جالساً إلى جانب زيوس أو يحمله نسر في الجو.

على الرغم من الموقع المشرِّف الذي احتّله على أوليمبوس، لم يكن غانيميد من منشأ مقدَّس، بما أنه ابن تروس، ملك فريجيا، وكاليرو. على الأقلّ كان هذا هو الرأي الشائع، على الرغم من أنَّ البعض قالوا إنَّ والده هو لاوميدون، أو لوس، أو أساراكوس أو حتى أريكثونيوس. كان مشهوراً بين البشر لجماله الخارق. وقد فتن به زيوس وأراد أن يجعله الأثير لديه، فأمرَ نسراً بجرّه من سهول ترود وجلبه إلى أوليمبوس. وقيلَ أيضاً إنَّ زيوس نفسه أتّخذَ شكل نسر لكي يحمل المراهق الجميل. وعملية خطف غانيميد وقعَتْ، وِفقاً لرويات مختلفة، في ميسيا، أو هارباجيا، في ايدا الفريجيّة أو في رأس داردانوس.

وتعويضاً لتروس عن فقدانه لابنه قدَّم له زيوس جياداً رائعة «سريعة كالعاصفة».

على أوليمبوس أصبحَ غانيميد حامل كأس الآلهة ومتعة أنظار الجميع بجماله.

الهوريات: الكلمة اليونانية التي استُمِدَّ منها اسمهن تدل على الفترة الزمنية التي تنطبق على كل من السنة، والفصول، وساعات النهار. هذه المعاني المختلفة أثّرتْ على التصورات المتتابعة للهوريات.

في البداية كان للهوريات وظيفة ذات صلة بالطقس والأحوال الجوية، واقتصرت على إشباع الأرض بالمطر الواهب للحياة. وكنَّ يُشجّعنَ إزهار الثمار ونضجها ولذلك يرمزنَ إلى الربيع والصيف. بعد ذلك هيمنَّ على نظام الطبيعة وتوالي الفصول، وأصبحن في النهاية يُخلطنَ بها.

إنَّ عدد الهوريات يختلف. الأثينيون يُبجّلون اثنتين: ثالو، التي تجلب الأزهار، وكاربو، التي تُنبت الثمار. عدّ هزيود ثلاث هوريات: يونوميا، ودايك وأيرين. ثم أصبح عددهن أربعاً، ووِفقاً لتصنيف هايجينوس، وصل حتى عشر أو إحدى عشرة.

وسرعان ما أصبحَ نطاق فعاليتهنّ أخلاقياً بالإضافة إلى كونه مادياً، فكن حارسات لنظام الطبيعة، وأيضاً حارسات للنظام الأخلاقي: كانت يونوميا تسهر على تطبيق القوانين، ودايك تسهر على العدالة، وأيرين على السلام. ووِفقاً لتعبير هزيود «كنَّ يصقلنَ سلوكَ البشر». وأخيراً اعتُبرنَ كحاميات للشباب.

شرِّفَتْ الهوريات في أثينا، وأرغوس، وأولمبيا وبخاصةً في كورينث.

ظهرنَ في الصور كعذراوات شابات، يحملنَ بأيديهم منتجات الفصول المتنوعة، غصن مُزهر، وكوز من الذرة، وعود من الكرمة.

حتى قبل أن يُحدَّد عددهن وتُقرَّر أسماؤهن، كان الهوريات أعمالهنَّ المُقررة لهنّ على الأوليمبوس. وبالخصوص كان واجبهن حِراسة بوابات السماء، التي كنَّ يفتحنها ويُغلقنها لمرور الخالدين، وذلك بإزالة غيمة سميكة أو إحلال أخرى خفيفة محلّها. هكذا يظهرنَ في القصائد الهومريّة، حيث نستطيع أيضاً أنْ نشاهدهنّ يشددنّ الجياد السماوية إلى عربة هيرا ويطعمونها من طعام الآلهة.

لاحقاً أضحت شخصيتهنَّ مُحدَّدة: كان معروفاً أنَّ عددهن ثلاثة، وأنَّ أسماؤهنَّ هي يونوميا، ودايك وأيرين، وأنَهنَّ كنَّ بنات زيوس وثيميس. كنَّ حسناوات فاتنات ذوات شعور جميلة، وتيجان من ذهب وخُطى رشيقة. وعلى أوليمبوس كنَّ يُحببن الرقص بصحبة إلهات الحسن، ويشكّلن بذلك جزءاً من بطانة أفروديت، التي كنَّ يُلبسنها ملابسها بأيديهنَّ.

حين بعث زيوس باندورا إلى الأرض لهلاك البشر قامت الهوريات بتعزيز سحرها بتزيين شعرها بأكاليل من الزهور.

في مناسبات عديدة كنَّ يُبدين عطفهنّ نحو الأطفال والشبان. وهنَّ اللواتي أشرفن على تنشئة هيرا. وهنَّ مرةً أخرى اللواتي قمّطنَ هرمس لدى ولادته وشكّلنَ الأكاليل التي ظللته. وأستقبلنَ ديونيسوس عندما خرج من فخذَ زيوس. وكان الشبان الرياضيون يعبدون ثالو، الهورا الآثينيّة، في معبد أغرولوس.

المغامرات المرتبطة بهنّ تظهر أحياناً وكأنها تبرز من الخلط بينهن وبين إلهات أخريات. فمثلاً قيل إنَّ هورا الربيع أحبها زيفيروس، وأنجبت له ابناً، كاربوس، ولكن الحكاية تبدو كأنها تنطبق على كلوريس، إلهة الزهور عند اللاتينيين. وبالطريقة نفسها يجعل البوسانيون من أيرين أماً لبلوتس لأنَّ في أثينا كان هناك تمثال لأيرين وهي تحمل بلوتوس بين ذراعيها، ولكن لا يوجد لدينا ما يؤيد مثل تلك العلاقة. وقيل عن كاربو، وهي ثانية هوريات أثينا، إنها وقعت صريعة حب الشاب كاميلوس، ابن إله النهر مياندر، وأنها بدافعٍ من اليأس أغرقت نفسها في مياه النهر، وعلى الأثر حوَّلها زيوس إلى ثمرة.

آلهة النجوم والأجواء

أنجب التايتان هايبريون، ابن أورانوس وغيا، من أخته ثيا (أو من يوريفيسا)، ثلاثة أبناء: هليوس ـ الشمس، وسيلين ـ القمر، وإيوس ـ الفجر.

هليوس

على الرغم من أنَّ اليونانيين يعبرون أبولو هو إله نور الشمس، إلا أن الشمس ذاتها كانت تُجسَّد بإله خاص، هليوس. في اليونان كانت عبادة هليوس قديمة جداً وكانت تُمارس في طول البلاد وعرضها، في إليس، وأبولونيا، وفي أكروبولوس كورينث، وأرغوس، وتروزن، وفي رأس تيناروم، وفي أثينا، وفي تراقيا وأخيراً، وبخاصةً في جزيرة رودس التي كانت مقدّسة بالنسبة إليه. وفي رودس كان من الممكن رؤية تمثال هليوس العملاق، العمل الشهير للنحات خاريس. كان يبلغ نحو ثلاثين ياردة طولاً، وكان يمكن لسفن تنشر كامل أشرعتها أن تمرّ من بين ساقيّ الإله.

وتقول القصة إنَّ هليوس قد أُغرِقَ في المحيط على أيدي أقربائه، التايتان، ومن ثم ارتفعَ من البحر إلى السماء، وهناك أصبحَ الشمس المنيرة.

في صباح كل يوم يظهر هليوس من الشرق من مستنقع شكّله النهر ـ المحيط في أرض الإثيوبيين النائية، يمطتي العربة الذهبية، التي صمَّمها هيفيستوس، وتشد الهوريات أحصنتها المُجنَّحة. كانت ذات بياض مُبهر، ومناخرها تنفث لهباً وأسماؤها هي لامبون، وفيثون وخرونوس وإيثون وأستروب وبرونت وبايروس وإيوس وفليغون. ثم يمسك الإله بالعِنان ويرتقي إلى قبة السماء. «كان، وهو ينساب بعربته السريعة، ينشر ضوءاً على الآلهة والبشر على السواء، ووميض عينيه الرائع ينفذ من خوذته الذهبية، وأشعة متلألئة تومض من صدره، وخوذته البراقة تشعُّ بريقاً مُبهراً، وجسمه يتدثَّر بنسيجٍ مشرق تسوطه الرياح».

عند الظهيرة يصل هليوس إلى نقطة السمت من مساره ثم ينحدر باتجاه الغرب، ويصل في نهاية النهار إلى أرض الهسبيريديين، حيث يبدو أنه يغوص في المحيط.

ولكنه في الحقيقة يجد مركباً، صنعه هيفيستوس، حيث كانت أمه، وزوجته وأطفاله ينتظرونه هناك، ويُبحر طوال الليل وفي الصباح يعود إلى نقطة انطلاقه.

وقيل أيضاً إنَّ منزل هليوس يقع في جزيرة إيايا حيث تعيش ابنتاه أييتس وسيرسي. ومرة أخرى قيلَ أنَّ خيوله تستقر في جُزر المباركين، على الطرف الأقصى الغربي من الأرض، حيث ترعى العشب السحري.

كان هليوس لا يملك إلا مناطق معيَّنة من الأرض. وعندما تقاسمَ الآلهة العالم كان هليوس غائباً ونُسيَ أمره. واشتكى حول هذا إلى زيوس وحصلَ على جزيرة كانت قد بدأتْ تبرز من تحت الأمواج. سمّاها رودس تيّمناً بالحورية رود، التي كان يحبها.

وذات يوم نشب نزاع بين هليوس وبوزيدون على مُلكيّة برزخ كورنثه. وتم اختيار العملاق بriاروس لكي يفصِل في النزاع، فأعطى البرزخ لبوزيدون وأعطى أوكروبوليتس إلى هليوسن الذي تنازلَ عنه لاحقاً لأفروديت.

كان هليوس يملك على جزيرة ثريناسيا سبعة قطعان من الثيران وسبعة قطعان من النِعاج ذات الصوف الجميل، وكل قطيع يتألف من خمسين رأساً. وكان العدد يبقى دائماً ثابتاً مثل الثلاثمائة وخمسين نهاراً والثلاثمائة وخمسين ليلة التي تتألف منها السنة البدائية. وكانت ابنتا الإله، فيتوسا ولامبتيا، تحرسان تلك الحيوانات. وعندما رسا أوديسوس ورفاقه على جزيرة ثرينيسيا، وضع الرجال أيديهم على القطيع المقدَّس، على الرغم من تحذير رئيسهم لهم. «وقادوا العجول الجميلة العريضة الجبين التي ترعي قريباً من السفينة ذات المقدّمة اللازورديّة، وحزّوا رقابها، ثم قطّعوا اللحم حِصصاً ثبَّتوها إلى سفافيد». وحين أخبرتْ لامبتيا هليوس بما حدث اشتكى إلى الآلهة وهدَّدَ بأنْ يُغلق على نفسه في مملكة هيدس ويُرسل نوره على الموتى. هدّأ زيوس من غضبه ووعده بضرب أولئك البشر الحمقى بصاعقة.

كان هليوس، بوصفه إله النور يرى كل شيء وبعرف كل شيء. ويمكن أن نقول عنه ما قاله بندار عن أبولو: «إنه الإله الذي يختبر القلوب كلها، المعصوم

عن الخطأ، الذي لا البشر ولا الخالدون يستطيعون أنْ يخدعوه بالعمل أو بأشد الأفكار سرّيةً». ومثل إله الشمس الآشور ـ بابليّ شاماش الذي يكتشف جرائم الأشرار، لا شيء كان يفلت من هليوس. فهو الذي أبلغَ ديميتر عن أمر اغتصاب ابنتها، وهو الذي كشفَ عن أمر خيانة أفرودايت لهفيستوس.

انتقمت أفرودايت لنفسها بإحداث وَلَه عند هليوس بليوكوثيا، ابنة أوركاموس، ملك بابل. وبعد أنْ غير مظهره واقترب منها كاد أن يفلح في قضاء وطره منها لولا أن أختها الحسود كليتيا التي كانت تتمتع قبل ذلك بحب الإله أبلغت أباها بما حصل، فأدانَ ابنته وأمرَ بدفنها حيّة. فجاء هليوس على عَجَل، لكنَّ أشعته لم تستطع « أنْ تُعيد دفء الأحياء إلى الأعضاء المتجمّدة لمحبوبته». ولما لم يتمكّن من استرداد حياتها، حوَّلها إلى شجيرة بخور. أما كليتيا، فأدركت أنَّ الإله قد أضحى الآن لا مبالياً بحبها، ووِفقاً لأوفيد، فإنها ماتت يأساً. «وراحت تنام ليلاً ونهاراً، معرضَّةً لأحوال الجو القاسية، وهي عارية على الأرض، وبقيَتْ تسعة أيام دون طعام أو ماء ولم تُطفئ ظمأها إلاّ بندى دموعها... وأخيراً مدَّ جسدها جذوراً في الأرض، واعتراها شحوب الموتى وتبدَّلَت أعضاؤها إلى عيدان ممتقعة اللون، وأصبحَ رأسها زهرةً برّاقةً كالبنفسج وعلى الرغم من جذورها التي تشدّها بقوة إلى الأرض راحت تدير وجهها نحو هليوس الذي لم تكفّ عن عبادته». إنها زهرةِ عباد الشمس.

هليوس أحبَّ أيضاً الحورية أناكسيبيا، لكنها فرَّت منه ولجأتْ إلى معبد أرتيميس أورثيا واختَفتْ. ولم يتمكن هليوس من العثور عليها وصعد إلى السماء، وحملَ المكان اسم أناطوليوس، وتعني الصعود.

وكان لهيليوس أيضاً زوجات لا حصر لعددهن: الأوقيانيدة برسي، التي أنجبَ منها ولدَين، إيتيس وبرسيس، وابنتان، سيرسي وباسيفيه، ونيرا، التي أنجبت له فيتوسا ولامنيتا، حارسي قطعانه، والحورية رود، التي أنجَب منها سبعة أبناء، الهليادين، وابنة واحدة، هي إليكتريون. وكان الهليايديون مميَّزين بذكائهم وإليهم نُسِبَتْ تطوير الصناعة البحرية بالإضافة إلى تجزئة اليوم إلى

ساعات. أحدهم، تيناجيس، كان ذا ثقافة عالية وأخيراً أثار غيرة إخوته، وقتلوه. وبعد الاغتيال تفرَّقوا بين الجُزُر المُجاورة لرودس.

من بين زوجات هليوس هناك أيضاً غيا، التي أنجبت لـه ابنـاً، أخليـوس، وإفينوه أم أوغياس، وأخيراً كليمينن زوجة ميروبس، ملك إثيوبيا، وأنجبَ منها سبع بنات ـ ويسمّون أيضاً الهلياديات ـ وابن واحد، فيثون.

فيثون:

ذات يون نشبَ نزاعٌ بين فيثون وإباهوس، ابن زيـوس و«لـو»، الـذي أثـار شكوكاً حول منشئه الإلهي. تأذَّت مشاعر فيثون وذهب إلى أمـه ليـشتكي إليهـا. ولكي تُطمئنه، نصحته بالذهاب إلى هليوس نفسه ليطلـب منـه مـا يؤكّـد منـشأه الإلهي. أطاعها فيثون وتوسّلَ إلى هليوس كي يمنحه تأييداً ليبرهن للعيون جميعاً أنه بالفعل ابن هليوس. ووعده الإله وأقسمَ بنـهر سـتيكس، ممـا جعـل القـسم نهائياً. عندئذٍ طلب فيثون الإذن بقيادة عربة الشمس ليومٍ واحد. حـاول هليـوس عبثاً أن يُثني الشاب المتجرِّئ عن هذا المشروع. لكنَّ فيثون أصرَّ واضطرَّ هليوس إلى تسليمه أحصنة الشمس، بسبب ارتباطه بوعده. ولمـا لم تُعـد اليـد الحازمـة لسائقها المعتاد تتحكَّم بها، اندفعت الخيول بتـهوُّر ضـارٍ عـبر الفـضاء، حاملـة فيثون التعس، وقد فَقَد كل سيطرة عليها بسرعةٍ مجنونة. اقتربت العربة أكثر ممـا ينبغي من الأرض، فجفّت لأنهار وبدأت التربة تحترق. وكان يمكـن للكـون أنْ يُدمَّر باللهب لو لم يضرب زيوس الشاب المتهوَّر بصاعقة وأرسله وهو يتـدحرج إلى مياه نهر الإريدانوس. حيث دفنته الحوريات. وجاءت اخوتـه ليـبكين عليـه، فأصبحت دموعهنّ كهرمان تجمِّعَ بوفرة على ضفّتي الإريدانوس.

سيرسه:

إحدى بنات هليوس لم تكن تقل عنه شهرةً في التاريخ الميثولوجي لليونان: إنها سيرس. ولأنها تعيش في غرب جزيرة أيايا. حاولَ البعض أن يروا فيها إلهـة القمر. ولكنَّ الأرجح أنها كانت إلهة الحب الفاسق، مثل عشتار البابلية التي كان غيلغامش يُعاملها بخشونة شديدة.

كانت سيرسه قبل أي شيء معروفة بتعاويذها الشريرة وأدوات سحرها. كانت متزوجة من ملك السارماتيين. وقد سمَّمت زوجها وذهبتْ لتعيش في جزيرة أيايا حيث بنَتْ لنفسها قصراً رائعاً. ورَمتْ سحراً على كل مَنْ رسا على أرض الجزيرة وباستخدام جرعاتٍ مسحورة حوَّلَتهم إلى حيوانات. وهكذا حوّلتْ رفاق أوديسيوس إلى خنازير. أوديسيوس وحده نجا من مصيرهم، بفضل عشبة moly، كان هرمس قد أعطاه إياها. ثم إنه أجبر الساحرة على إعادة رفاقه إلى أشكالهم الإنسانية. ولكنه أمضى عاماً مع سيريس، ونسيَ زوجته وبلده. وقيلَ إنَّ تيليماخوس ذبحَ سيرسة وتزوج من ابنتها، كاسيفون.

سيلين (القمر):

سيلين، وتُدعى أيضاً مين، كانت أخت هليوس، وبتاجها الذهبي كانت تُنير الليل الحالك. وفي مساء كل يوم تبدأ رحلتها بعد أنْ يُنهي أخوها رحلته، «فبعد أن تغسل جسمها الجميل في مياه المحيط، ترتدي الإلهة سيلين ذات الجناحين العريضَين أثوابها الرائعة وترتفع إلى كبد السماء على متن عربتها التي تجرها خيولٌ مُشعّة». أحياناً نراها أيضاً تمتطي حصاناً، أو بغلاً أو ثوراً حتى.

على الرغم من أنها كانت عموماً تُعتَبر ابنة هايبريون وثيا (أو يوريفيسا) إلاّ أنه كان يُقال أحياناً إنَّ والدها هو هليوس أو حتى زيوس.

جذبَ جمالها حبَّ زيوس، الذي جعلها أمّاً لثلاث بنات: بانديا، المتميزة بجمالها بين الخالدين: إيرسه، قطرة الندى، ونيميا، وقيلَ إنَّ الأسد النيمي الذي لا يجرحه سلاح وُلِدَ أيضاً لزيوس وسيلين، وإنه سقطَ من القمر على الأرض.

وأحبَّ سيلين أيضاً بان، الذي تَلَبَّسَ شكل كبشٍ أبيض واستدرجها إلى أعماق إحدى الغابات في أركاديا.

سيلين وإنديميون: إنَّ الأسطورة الأوسع انتشار عن سيلين تلك التي تحكي عن حبّها لإنديميون. وللقصة روايتان مختلفتان في إليس وكاريا. ووفقاً للإليسيين، كان إنديميون ملكاً على إليس وكان قبره لا يزال موجوداً في الأولمبيا، وأنجبت له سيلين خمس عشرة بنتاً. ووِفقاً للتراث الكاريّ كان

إنديميون أميراً شاباً كان يصطاد ذات يوم على جبل لاتموس، ثم اضطجعَ قليلاً ليرتاح في غارٍ بارد فاستغرقَ في النوم. فرأته سيلين، وأسرها جماله، فاختلست قبلةً منه أثناء نومه، فطلبَ إنديميون من زيوس أن يمنحه الخلود والشباب الدائم، فوافق زيوس شريطةَ أن يبقى نائماً إلى الأبد.

ثمة تراثٌ أخر يشرحُ مسألة النوم الأبدي هذه بوصفها عِقاباً أنزله زيوس على إنديميون لأنه كان من التهور بحيث طمح في حب هيرا عندما سُمح له بدخول الأليمبوس.

وكائناً ما كانت القصة، فإنَّ سيلين كانت تأتي بكل إخلاص ليلة بعد ليلة وبصمت لتتأمل حبيبها النائم. وهكذا أصبحتْ أشعة القمر العاشق تأتي لتداعب نوم البشر.

إيوس:

كان المولود الثالث للتايتانيين، هايبريون وثيا، هي إيوس (أورورا)، الفجر المتورِّد الأصابع ذو الجفنين الثلجيين. وهي التي جَلَبتْ أول ومضات النهار إلى البشر. وفي صباح كل يوم عند الفجر تتسلَّل من سرير زوجها، تيثونوس، وتبرز من قلب المحيط وترتفع إلى السماء. تظهر أحياناً كإلهة مجنَّحة تُميل جرّةً يسقط منها ندى الصباح. أحياناً تمتطي ظهر الحصان بيغاسوس وتحمل بيديها مشعلاً. وغالباً ما تمتطي إيوس التي ترتدي ثوباً بلون الزعفران عربة أرجوانيّة يقودها حصانان.

لم يتمّ التمييز بين إيوس وهيميرا، إله النهار، إلا لاحقاً، وفي الأصل كانت تُمثّل وهي برفقةِ أخيها هليوس طوال فترة الرحلة كلها.

كانت إيوس في أول الأمر متزوجة من التايتان أستريوس، الذي أنجبت له الرياح، برياس، وزيفيروس، ويوروس، ونوتوس، وأجراماً سماوية متنوعة.

كانت إيوس شابة وجميلة وخُلِقَت لتوقِظ الرغبات. كان يحبها أريس، مما أكسبها عِداء أفرودايت وانتقاماً لنفسها، ألهمَتْ أفرودايت إيوس حب عدد كبير من البشر.

تملكها شغف بالعملاق أوريون فهربت معه، مما أثار انزعاج الآلهة. أخيراً قتلته أرتيميس عن طريق الخطأ في جزيرة أورتيجيا.

إيوس وتيثونوس: ثم ملأت أفروديايت قل أيوس بالحب لتيثونوس، أحد أبناء لاوميدون. ولما كانت ترغب في أن ترتبط بزوجها الجديد إلى الأبد، ناشدت زيوس ليمنحه الخلود، ولكن، للأسف، كانت قد نسيت أن تطلب في الوقت الشباب الدائم، ومع مرور السنين أصبح المحبوب الشاب والوسيم في الأيام السالفة رجلاً عجوزاً مُجمّد الجبين. وأخذت إيوس تُطعِمه من طعام الآلهة السماوي الذي يجعل الجسم غير قابل للفساد. ولكن عبثاً، لقد أفسح التقدم في السن الطريق للفساد. ثم حبست الإلهة تيثونوس في غرفة وظلَّ العجوز الواهن في عزلة إلى أنْ كان يوم أشفقَ الآلهة عليه وحولوه إلى زيز حصاد.

إيوس وسيفالوس: في تلك الأثناء سعت إيوس المتقلّبة إلى العزاء بين بشرٍ آخرين. كان هناك كليتوس، حفيد العرّاف ميلامبوس، الذي حصلَتْ لأجله على نعمة دخول الأوليمبوس وكان هناك سيفالوس، ابن هرمسن الذي كان مصيره أشد مأساويّة. فقط كان سيفالوس قد تزوَّجَ لتّوه من بروكريس، التي كان يحبّها حباً جمّاً، وعندما رأته إيوس وهو يصطاد على جبل هايميتوس حملته معها إلى سوريا. ولم يستجب سيفالوس قط لحب الإلهة، ولم يفكر إلا في حبيبته بروكريس. وطبعاً استشاط غضب إيوس، فملأتْ قلبه بالشكوك حول إخلاص زوجته ونصحته باختبارها، فذهب سيفالوس متخفيّاً إلى زوجته بروكريس، وقدَّمَ لها الأحجار الكريمة، وحاول أن يغويها. فطردته بروكريس في أول الأمر، لكنّ الإغواء في النهاية كان أقوى من قدرها على مقاومته. فكشف سيفالوس عن هويته وطردها. انسحبَتْ بروكريس التعسة إلى يوبويا ووضعت نفسها تحت حماية أرتيميس. أعطتها أرتيميس والبعض يقولون مينوس كلباً لا ينسى الرائحة أبداً ورمحاً لا يُخطئ هدفه أبداً، وأعادتها متخفيّة إلى سيفالوس. هذه المرة كان سيفالوس نفسه، بعد أن قدَّمت له الكلب والرمح، هو ضحية الغواية ووقع في الواقع في الخطأ نفسه الذي ارتكبته زوجته من قبل. فتصالح الزوجان. ولكنَّ بروكريس بَقيتْ تخشى أن يكون زوجها لا يزال غير وفي لها وصارت تلاحقه

حين يخرج إلى الصيد، وتتجسَّس عليه دون عِلمه. وذات يوم حين كانت بروكريس مختبئة في دغل سمعَ سيفالوس صوت حفيف. فحسِبَ أنه وحشٌ ضار، فرمى برمحه الذي لا يُخطئ هدفه أبداً. وقُتِلتْ بروكريس وتمَّ استدعاء سيفالوس للمثول أمام الأريوباغوس، فنُفيَ من أثينا. وذهبَ إلى طيبة، وهناك قامَ بزيارة أمفيتريون، ومن ثم انسحبَ إلى جزيرة أصبح اسمها سيفالينيا تيمّناً به. ووِفقاً لرواية أخرى للقصة فإنّ سيفالوس لم يجد العزاء بعد موت بروكريس ورمى بنفسه من رأس ليوكاس الصخري إلى البحر.

ذريّة إيوس: من زواجها بتيثونوس، أنجبت إيوس ولدين: ميمنون وإيماثيون. إيماثيون حكم الجزيرة العربية وقتله هرقل. وميمنون كان ملك إثيوبيا وتوجّه إلى طروادة على رأس جيش من الإثيوبيين والسوسيانيين لمساعدة بريام. كان أشد المحاربيين الذين وقفوا أمام أسوار طروادة جمالاً. وبعد أن قتلَ أنتيلوخوس، ابن نسطور، قتلَه آخيل. وحصلَتْ إيوس على الخلود لأجله، ومع ذلك لم تكفّ عن البكاء في صباح كل يوم على ابنها الحبيب إلى قلبها، ودموعها هي التي شكَّلت حبَات الندى. ويبدو من المُحتَمَل أن هذا البطل يمثَل إلهاً آسيوياً سابقاً. والحقّ، أنَّ ميمنون معروف عنه أنه أسّسَ سوزا - في إيران حيثُ يوجد قبره - وبنى أسوار بابل. وكان أيضاً مُبجّلاً في مصر: التمثال الضخم الذي أُقيمَ في طيبة كان يُسمى بتمثال ميمنون.

من بين الأبناء الآخرين لإيوس يجب أن نذكُر فيثون، ابن تيثونوس (أو سيفالوس) الذي خطفته أفروديت وجعلته حارساً لمعبدها. لذا فهو مُرتبط بكوكب الزهرة، الذي يُمثّلُه اثنان من أبناء إيوس، فوسفوروس وهيسبيروس، كوجهَين من أوجه الكوكب كنجم الصباح ونجم المساء.

كان فوسفوروس ابن أستريوس، يُرى بالمشعل الذي يحمله بيده وهو مُتخفٍ بصورة روحٍ مُجنَّحة تطير شاقّةً الجو أمام عربة أمه.

كان يُقالُ أحياناً إنَّ هيسبيروس، «النجم الأشد لمعاناً الذي يسطع في قبة السماء»، هو ابن أطلس. وأولاد هيسبيروس كانوا: ديداليون، الذي رمى بنفسه

من مرتفعات بارناسوس في غمرةِ يأسِهِ بعد موت ابنته كيون، وحوَّله أبولو إلى باشق، وسيكس، الذي تزوج ألسيون. وقد تحوَّل سيكس وألسيون معاً إلى عصفورين لأنهما تجرّآا على مقارنة نفسيهما بزيوس وهيرا. وهناك رواية أخرى تقول إنه عندما مات سيكس في حادث تحطُّم سفينة رَمتْ ألسيون بنفسها في نوبة يأس إلى البحر فحوَّلها ثيتيس إلى طائرَيّ قاوَند أو رفراف.

الهسبيريديات:

يُقال أيضاً إنَّ هيسبيروس هو والد الهسبيريديات، مع أنَّ آخرين قالوا إنهنَّ بنات الليل وإريبوس، أو فورسيس وسيتو، أو زيوس وثيميس. والهسبيريديات كنَّ ثلاث أو أربع في العدد: ايغل، وإريثيس، وهيسبيرا، وهستيا أو أريثوزا. يقع مقامهن خلف النهر ـ المحيط، في أقصى عرب حدود العالم، حيث تتجسَّد الغيوم المذهّبة بأشعة الشمس الغاربة. كانوا يعيشون وسط حديقة غنّاء يحرسن التفاح الذهبي الذي ينمو هناك. ولكن لما كان لدى اليونانيين كلمتان متطابقتان لكلمتيّ «تفاح» و«قطيع من الخراف»، فقد ساد تساؤلٌ عمّا إذا لم تكن الهسبيريديات هنّ حارسات للقطعان السماوية التي ترمز إليها الميثولوجيات الهند ـ أوروبيّة بالغيوم.

أوريون، البليادات، الهيادات

تشغل كوكبات نجوم أوريون والبليادات والهيادات مكانةً خاصة في الأساطير اليونانية.

أوريون: كان أوريون عملاق بويوتيا شهيراً بجماله. وهو يُنسب إلى الأرض الأم، أو بوزيدون ويوريال، أو هيريوس، ملك هيريا في بويوتيا. وذات يوم حين كان زيوس وهرمس وبوزيدون مسافرين معاً على الأرض استقبلهم هيريوس بحفاوة. وتعبيراً عن امتنانهم لحُسن ضيافته وعدوه بتحقيق كل أمنياته. فطلبَ هيريوس ابناً. فأخذ الآلهة الثلاثة جلد نعجة، وتبوّلوا عليه ثم دفنوه. وبعد مرور تسعة أشهر خرج أوريون من الأرض. هذا النمط الفريد من الإنجاب يبدو أنه تحقَّقَ من التلاعب بالكلمات، بما أنَّ كلمتيّ أوريون والتبوّل متشابهتين في

اليونانية. كان أوريون ذا جثة عملاقة حتى كان في استطاعته أنْ يسير على قاع البحر دون أن يتبلَّل رأسه. كان يتمتَّع بقوة معجزة وكان صياداً مولعاً بالصيد، ويمارس رياضته المفضّلة يصحبه كلبه سيريوس. كان متزوجاً من سايده التي، بسبب افتخارها بأنها هأجمل من هيرا، نفتها الإلهة إلى تارتاروس. بعد ذلك وقع أوريون صريع حب ميروب، ابنة أونوبيون، حاكم كيوس. وخلَّصَ الجزيرة من حيواناتها الضارية كلها ولكن عبثاً فلقد رفضه أونوبيون. لذا أخذ أوريون ميروب بالقوة، فالتمسَ والدها مساعدة ديونيسوس، الذي أغرقَ أوريون في نومٍ عميق، وأثناء نوم أوريون، اقتلع أونوبيون له عينيه. لكنَّ العملاق اكتشفَ من نبوءة أنَّه يستطيع أنْ يستعيد بصره إذا سافر في اتجاه الشمس. فذهب إلى ليمنوس، وهناك أعطاه هيفيستوس ابنه سيداليون ليكون دليله. وحين استردَ بصره أبحرَ أوريون إلى كريت، وهناك خرج للصيد مع أرتيميس وقد رأينا كيف خطفته إيوس. وتُنسَب نهاية أوريون إلى أرتيميس، وإن كانت هناك روايات متنوعة حول وقوع الأمر. قال البعض أنها صرعته في جزيرة أورتيجيا بعد أن خطفته إيوس، وقال آخرون إنها ضربته عن طريق الخطأ بتحريض من أبولو، أو أنها تسبَّبت بموته بعضّة عقرب بعد أن حاولَ أن يغتصبها، أو، أيضاً، لأنه تفاخرَ بأنه دمَّرَ كل الحيوانات الضارية في كريت. حاولَ أسكليبيوس أن يُحيي أوريون، لكنَّ زيوس ضربه بصاعقة. هبطَ أوريون إلى عالم هيدس، حيث تابعَ ظلّه المزوَّد بهراوة نحاسية صيد الحيوانات الضارية. ولكن وِفقاً لرواية أكثر شيوعاً نُقِلَ أوريون إلى السماء وهناك أخذ ينشر ضوءه في ليالي الشتاء وهو بدرعه الذهبي ويمتشق السيف، لكنَّ بريقه يخفتُ عندما تظهر كوكبة برج العقرب.

البليادات والهيدات: البليادات كنَّ بنات أطلس وبلايون أو إثرا، كان هناك سبع منهن: مايا، وإلكترا، وألكيون، وسيلونو، وستيروب وميروب. الثلاث الأول أحبَهنّ زيوس. وحظي بوزيدون بوصال ألكيون وسيلونو. وكان أريس عشيق ستيروب. وحدها ميروب كان عليها أن ترضى بحب بشري واحد هو سيزيريفوس ـ لهذا هي تشع بسطوعٍ أقلّ في السماء من أخوتها. وقد تبدَّلنَ كلهنَّ إلى نجوم. وطاردهنَّ أوريون الصياد كلهن عبر جبال بويوتيا. وكدنَ أنْ يقعن في

قبضته فهتفنَ طالبات نجدة زيوس. فحوَّلهنَّ إلى يمامات، ثم أطلقهنَّ في السماء. وقيل أيضاً إنَّ البليدات، اللواتي لم يواسيهن أي شيء بعد فقدهن أخواتهنّ، الهيادات، قتلنَ أنفسهنّ من اليأس فحوَّلهنَّ زيوس إلى نجوم. وظهرنَ في السماء في منتصف شهر أيار عندما يتم إعلان عودة الطقس الحَسَن.

وعلى العكس من ذلك، فقد كان ظهور الهيادات عند بدء موسم الأمطار. واسمهنّ يعني اللواتي يجلبن المطر. كنَّ أيضاً بنات أطلس وأثينا أو بلايون. وعددهن يتباينُ بين مؤلفين مختلفين من اثنتين إلى سبع. وأسماؤهنّ ليس ثابتة. والأسماء الأكثر تردداً هي: أمبروزيا، ويودورا وكورونيس. وقيلَ إنهنَّ جُلبنَ إلى زيوس في دودونا، ولاحقاً إلى ديونيسوس في نايسا. على أساس هذه الخدمات وُضِعنَ بين الأجرام السماوية، حيث شكَّلنَ مجموعةً من النجوم في كوكبة تاوروس. وتحولهنَّ فُسِّرَ أيضاً كتعويضٍ عن التعاسة التي عانينَ منها لدى موت أخيهن هياس، الذي قُتِلَ أثناء الصيد بسبب أفعى أو خنزير برّي.

آلهة الرياح:

كان يتقاسم إمبراطورية الرياح أربعة من أبناء إيوس ـ الفجر، وأستريوس ـ السماء المرصّعة بالنجوم. كانوا يُسمّون: بورياس ـ الريح الشمالية، وزيفيروس ـ الريح الغربية، ويوروس ـ الريح الشرقية، ونوتوس ـ الريح الجنوبية.

بورياسن أقام في جبال تراقيا. وإلى هناك وصلتْ أيريس بحثاً عنه لترسل ريحاً إلى المِحرقة الجنائزية لباتروكلوس. وقد قيل إنَّ بورياس خطفَ أوريثيا، ابنة إركثيوس، من ضِفاف إليسوس، وأنجبَ منها عدداً من الأطفال، وأبرزهم كيونه، التي أحبّها بوزيدون، وكليوباترا التي تزوجت من فينيوس، والتوأم زيتيس وكاليس، وتدعيان أيضاً البوريديتان، اللتان لعبتا دوراً في حملة الأغونوتيين، وحاربتا بشجاعة ضد الهاربيين، ومزّقتهما سِهام هرقل في جزيرة زينوس. فتحوّلتا إلى رياحٍ مواتية. تهبُّ من الشمال وأُعطيتا اسم Prodromes الرائدتان، لأنهما جاءنا قبيل ارتفاع نجم الكلب.

اتَّخذَ بورياس شكلَ حصان ليتزوج مع أفراس إريكثونيوس، ومن ذلك الزواج وُلِدَ اثنا عشر مُهراً صغيراً كانوا من الرشاقة حتى أنهم كانوا «يركضون عبر حقول الذرة الباسقة دون أنْ يؤذوا طرَفاً منها وفوق أمواج البحر المُزبدة دون أن يبللوا حوافرهم».

في ذكرى اختطاف أوريثيا أقام الآثينيون معبداً لبورياس على ضفاف الإليسوس وكانوا يُبجّلون على الخصوص بورياس لأنه كان قد بدَّدَ أسطورة الغازي الفارسي زيريكسس. وكان بورياس يُصوَّر كرجل مُجنَّح في عمرٍ ناضج ذي شعر يتطاير مع الريح. ولكن على صدر سيبيلوس يُصوَّر وله أفاعٍ بدل الساقين.

الرفيق الطبيعي لبورياس كان زيفيروس الذي لم يكن، في الأصل، الريح الرقيقة والرفيقة التي تتفتَّح على أنفاسها أزهار الربع. لقد كان كأخيه ريحاً متوحشة ومؤذية ويستمتع بتجميع العواصف ويُطيح بأمواج البحر. عاش مع بورياس في كهوف منطقة ترا الجبليّة. ومن زواجه الهاربية بودارج وُلِدَ حصانان زانثوس وباليوس، اللذان جرّا عربة آخيل.

لاحقاً خفَّت حِدَّة طباع زيفيروس العنيفة. أصبح ريحاً عطِر الرائحة أخذ يهب برفق مناطق إليسيوم المباركة. وكزوجةٍ له وُهِبَ كلوريس الحسناء وأنجبَ منها ابناً، كاربوس ـ أو ثمرة.

كرَّس الآثينيون مذبحاً لزيفيروس على الطريق إلى إليوسيس.

أما نوتوس ويوروس، فشخصيتاهما لم تُحدَّدا أبداً بوضوح.

أيولوس: هناك رواية أخرى لها مصدر في الأوديسة، تضع منزل الرياح في الجزر الأيوليّة، حيث يتم الاحتفاظ بهم تحت حراسة أيولوس. وكان أيولوس ابن بوزيدون وأرن، وأخا بويوتوس. وبعد أن أمضى فترة شباب حافل بالمغامرة استقرَّ في جزر ليباري وتزوج من غيين، ابنة ملك ليباروس. وبسبب ورعه وعدله أصبحَ أيولوس صديقاً للآلهة. وقد قيل إنّه اخترعَ أشرعة السفن. وعيَّنه زيوس حارساً على الرياح التي كان في استطاعته، وفقَ إرادته، أن يُثيرها أو يُهدِّئها. وعندما رسا أوديسوس على جزيرة رحَّب أيولوس به بكل حفاوة ولدى رحيله

أعطاه زقّاً من الخمر حبس في داخله تلك الرياح التي يمكن أن تعترض سبيل رحلته. لكنَّ الفضول تغلَّب على رفاق أوديسوس وفكوا رباط الزِق وتركوا الرياح تتحرَّر.

في أول الأمر كان أيولوس مجرد حارس للرياح، ولكنه أصبح لاحقاً، في الأساطير الرومانية، والدها وأيضاً إله الرياح. ويُقال إنه أقام في جزيرة ليبارا، حيث أبقى الرياح مُكبّلة داخل كهوفٍ عميقة.

الكميّرا والهاربيات: في مواجهة تلك الرياح المنتظمة كان هناك وحوشٌ متنوعة تجسد الرياح العاصفة، «يثبون فجأةً على الأمواج المظلمة، ويُطلقون سراح العواصف الغاضبة لكي تُدمِّر البشر». كان والدهم هو طايفون، ابن تايفويوس، روح الإعصار، وأمّهم إكِدنا، التي كان النصف العلوي من جسمها هو لحورية شابة لكنَّ نصفها السفلي كان لأفعى مُخيفة مُغطاة بالحراشف. ومن بين تلك الوحوش يكفي أن نأتي على ذِكر الكِميرا والهاربيات.

كان لألكميرا رأس أسد، وجسم معزاة وذَنَب تنين. كانت تنفثُ لهباً. وكان من المُتَّفق عليه أنها تجسيد للغيوم العاصفة.

أما الهاربيات اللواتي يُقال عنهن أيضاً بنات ثاوماس وإليكترا ـ فكن إلهات العاصفة، «المُخرِّبات» ولم يُسمِّ هومروس إلا واحدة منهن، بودارج. وذكر هزيود اثنتين، إيلو وأوكيبيت، وهما مخلوقتان مُجنّحتان سريعتان كالطيور والرياح. ولاحقاً أصبح نمط الهاربية مُحدَّد المعالم: وحش بوجه شيطانة عجوز، وأذنيّ دب، وسم طائر وبراثن طويلة ومعقوفة. وكان من عادتهنّ أن ينتزعن وينهشن الطعام عن الموائد، أو يلوّثن المائدة، وينشران القذارة والعفن ويسببن المجاعة. وهكذا عندما أدانَ زيوس فينيوس العرّاف وحكمَ عليه بالشيخوخة الأبدية والجوع الدائم، جاءت الخطافات لسرقة الطعام الممدود أمامه، ملوّثة ببرازها كل ما لم تحمله معها. هاجمهن الأرغونوت وبخاصةً البوريدان زيتيس وكاليس، اللتان لاحقتاهن في الجو وتغلبتا عليهن. لكنهما وهبا لهنّ الحياة نزولاً عند طلب أيريس. ووفقاً لروايات أخرى فإنَّ إحدى الهاربيات أغرقت نفسها في التيغريس، وهو نهر في البيلوبونيز، وهربت الأخرى إلى جزر إكينيد حيث التفت وسقطت على الشاطئ. وهكذا اتّخذت الجزر اسم الستروفيدات، من اليونانية بمعنى «الالتفاف».

آلهة المياه:

بونتوس: أقدم آلهة المياه كان بونتوس، الذي أنجبته غيا من نفسها منذ بدء الزمان. وبونتوس ليس أكثر من البحر المُجسَّد. كان بلا ملامح أو شخصية وكل ما تبقّى منه اسمه، الذي استخدمه الشعراء لاحقاً للإشارة إلى البحر.

أوقيانوس: إنَّ اليونانيين البدائيين، كالكلدانيين، تصوّروا نهراً هائلاً يشكّلُ حزاماً من المياه يُطوِّقُ الكون. إنه يمتد إلى ما بعد البحر ويُطوِّق البحر، ولكن من دون الامتزاج بمياهه. كان ذاك هو نهر أوقيان، أو أوقيانوس، الذي، بما أنه لا منبع له ولا مصبّ، أنجب «الأنهار كلها، والبحر بكلّيته، وكل المياه المنبثقة من الأرض، وكل الآبار العميقة». ومنه ارتفعت النجوم كلها ـ باستثناء الدب الأكبر ـ لتغطس فيه من جديد. وعلى شواطئ أوقيانوس امتدت أراضي الإثيوبيين الفاضلة والشهيرة، وأراضي الكيميريين التي يحفّها الضباب، وفيها الأقزام الصغار.

بما أنه ابن أورانوس وغيا، كان التيتان أوقيانوس هو أحد العناصر الأولى التي ساهمت في تشكيل العالم وإليه يعزو هومروس جواهر الأشياء كلها، حتى الآلهة، واعتبره إلهاً لا تفوق قوته إلاّ قوة زيوس.

تزوج أوقيانوس أخته تيثيس وأنجبَ منها الثلاثة آلاف أوقيانيدة والثلاثة آلاف نهر. ووفِقاً لإحدى الروايات اهتمَّ أوقيانوس وتيثيس بالطفلة هيرا، فآوياها في قصرهما في غرب العالم.

لكنَّ الأولمبيين أسسوا أخيراً إمبراطوريتهم فوق المياه، كما فوق الكون كله وورث بوزيدون العنصر المائي، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً أصبحَ السيد المُطلق على البحر والأنهار، بينما اكتفى أوقيانوس العجوز بمكان تقاعده البعيد.

آلهة البحر:

إنَّ الأهمية التي اكتسبها بوزيدون في المعتقد الديني اليوناني دفعَ الآلهة البحرية الموغلة في القِدَم إلى لعب أدوار ثانوية، ولم تحتفظ عبادتهم إلا بطابع شعبي.

نريوس: كان نريوس ابن بونتوس وغيا. ولِدَ في العصور الأولى للعالم، وقد جعل تراكم القرون منه عجوزاً مُبجَّلاً. لقد كان يُسمى بحقّ «عجوز البحر». كان سمحاً ويمدّ يد المساعدة «بما أنه لا يعرف إلا أفكار العدل والسماحة». وقد ترك المنزل الذي يُقيم فيه مع زوجته دوريس في أعماق البحر الإيجي ليساعد البحارة ويقدم لهم النصيحة المفيدة. ولكن كآلهة البحر الأخرى كان لا يتكلَّم إلا حين يضطر إلى ذلك. ولقد لجأ هرقل إلى القوة لكي يتعلّم منه كيف يصل إلى أرض هيسبيريدس. نريوس أيضاً كان يمتلك موهبة التنبؤ، وقد رآه باريس ذات يوم وهو يبرز من بين الأمواج وسمع صوتَه يُعلن عن قرب دمار طروادة.

نتجَ عن زواج نريوس ودوريس خمسون ابنة، النريدات، وهنَّ عذراوات حِسان ذوات شعور ذهبية عشنَ مع والدهنَّ في مقرّه الغائص، ولكن يمكن مشاهدتهنَّ أحياناً عندما يهدأ البحر يمرحن مع التريتونيين فوق رؤوس الأمواج.

إنَّ غالبية النريدات لا نعرف إلا أسماءهنّ، لكنَّ بعضهنَّ يلعبنَ دوراً في أساطير اليونان.

ذات يوم شاهد الصياد ألفيوس أريثوزا، ووقعَ صريع حبّها في الحال. ولاحقها، ولكي تهربَ منه لجأت أريثوزا إلى جزيرة أورتيجيا، وهناك تحوَّلت إلى نبع ماء. وتحوَّلَ ألفيوس، الذي بقيَ في نواحي أولمبيا، إلى نهر وعبرت مياهه البحر دون أن تختلط فيه، ثم انضمَّت إلى مياه نبع أريوزا على جزيرة أورنيجيا.

تودَّد السيكلوب بوليبهيموس إلى غالاتيا، وهي نيريده أخرى، لكنّها فضَّلت عليه راعياً شاباً من صقلية، اسمه آسيس. وذات يوم فاجأ بوليبهيموس العاشقين وهما يتحدثان في تجويف غار وسحقَ آسيس تحت جلمودٍ هائل من الصخر، لكنَّ غالاتيا نجحت في تحويل آسيس إلى نهر.

أنجبت بساماثة ابناً من أيكوس، هو فوكوس، الذي حكمَ جزيرة إيجينا وقُتِلَ بأيدي بليوس وتيلامون. وانتقاماً لمقتل ابنها أرسلتْ بساماثة ذئباً ضخماً فمزَّقَ قطعان بيليوس.

أشهر النيريدات كانت ثيتيس. وبسبب جمالها سعى كلٌ من زيوس وروزيدون إلى الزواج منها. لكنَّ ثيميس أعلنَت أنَّ ثيتيس ستضع مولوداً أقوى من والده، فتخلّى كلٌ من الإلهين بتعقُّل عن مشروعهما. وقرَّر زيوس أن يزوِّج ثيتيس من بشري، واختارَ بيليوس، ملك ثيسالي. لم تقبل ثيتيس بهذا الزواج الذي اعتبرته، بما أنها من الخالدين، يحطُّ من قدرها، وحاولت أن تهرب من بيليوس بانتحالها أشكالاً متعددة، فتحوّلت إلى سمكة ثم إلى حيوان، وإلى موجة جارفة، ثم إلى لهب يتلظى. وبفضل نصيحة من القنطور كيرون، نجحَ بيليوس أخيراً في القبض عليها وتمَّ الاحتفال بزواجهما باحتفالٍ ضخم بحضور الآلهة، الذين أمطروا هدايا جميلة على الزوجين. وولِدَ لثيتيس وبيليوس صبي، آخيل. وقال البعض إنَّ آخيل كان ابنهم السابع وأنَّ ثيتيس ألقتْ بأول ستة منهم في النار لتدمِّر أي دليل على ذاك الزواج غير الملائم. وهذه الرواية لا تتفق أبداً مع الرقة التي كانت ثيتيس دائماً تُبديها نحو آخيل. وعندما عرفت المصير المشؤوم الذي ينتظر ابنها حاولت أن تمنعه بجعل آخيل منيعاً. ولكي تنفِّذ ذلك، راحت تُعرّضه في كل ليلة للهب وتُغطي جِراحه بشراب الآلهة. لكنّ بيليوس قبضَ عليها على حين غرّة ذات ليلة، فأصيبت بالرعب وانتزعت ولدها وفرَّتْ. ووفقاً لرواية أكثر مصداقية، حالما وُلِدَ آخيل غمرته ثيتيس في ماء نهر ستيكس، وبذلك جعلتْ جسمه منيعاً، في كل مكان ما عدا الكاحل حيث أمسكت به.

إنَّ ثيتيس تلعبُ دوراً في العديد من الأساطير. ولا شك أننا نتذكر كيف هبَّت إلى مساعدة زيوس حين كاد يُهزَم على أيدي هيرا، وأبولو، وبوزيدون وأثينا: وجلبت العملاق برياروس للدفاع عن زيوس. كما حَمتْ ثيتيس وأختها يورينوم هيفيستوس بعد سقوطه من جبل الأوليمبوس. وقامت أيضاً بحماية ديونيسوس حين فرَّ من ليكوغوس.

كانت تُبجَّل في أجزاء مختلفة من اليونان، في ثيسالي، وميسينيا وفي إسبارطة.

بروتيوس: كان بروتيوس «عجوز بجر» آخر. كان ابن أوقيانوس وتيثيس، وكان واجبه أن يحرس قطيع فقمات بوزيدون. وعند ظهيرة كل يوم كان يظهر من بين الأمواج ويأتي إلى الشاطئ ليرتاح في ظل صخرة وحوله ينام أفراد قطيع الفقمة المتراصيّن، أبناء هالوسيدن الحسناء. كان هذا هو الوقت المناسب للحصول من بروتيوس الحكيم على نبوءة حول ما يُخبّئه القّدَر، ذلك أنه كان يرى المستقبل وكان يقول الحقيقة. ولكن، بما أنه لم يكن يتنبّأ إلا إذا اضطّر إلى ذلك، كان من الضروري أولاً القبض عليه ـ وهذا ليس بالأمر البسيط، لأنَّه كان في استطاعة بروتيوس أن يُبدِّل صورته على هواه. ولكي يهرب من كل مَنْ يُعيقه كان يُبدِّل صورته على التوالي إلى أسد، وتنين، ونمر، وماء، ونار، وشجرة... والأمر المهم ألاّ تثير تلك التحولات الخوف في نفس مطارده وعندها سيعترف بأنه قد هُزم وسيتكلّم. وبهذه الطريقة عرِفَ مينيلاوس منه، نزولاً عند نصيحة إدوثيا بروتيوس، كيف يعود إلى بلده. كان بروتيوس يصوَّر بقسمات وجه رجل عجوز، وقد أقام في جزيرة منارة فاروس على الساحل المصري.

ونلاحظ هنا نوعاً من الخلط جرى بين بروتيوس الحكيم هذا وملك خرافي مصري اسمه أيضاً بروتيوس. وقد قيل إنَّ هذا الملك رحَّبَ بباريس وهيلين حين فرّا من إسبارطة إنه، ولكن قيل إنه احتفظ بهيلين معه لكي يُعيدها إلى زوجها الشرعي. وقيل أيضاً إنه انتقل من مصر إلى تراقيا، وهناك تزوج. ولاحقاً، ثارَ غضبه من قسوة ولدّيه، تمولوس وتيليغونوس، فقرَّر أن يعود إلى مصر، وشقَّ له بوزيدون درباً تحت البحر يؤدي إلى المنارة.

فورسيس: إنَّ شخصية فورسيس (أو فوركيس) أشد غموضاً. فقد قال عنه هومروس «العجوز الذي هيمن على الأمواج» ويقول إنَّ ابنته كانت الحورية ثووسا التي أنجَبتْ من بوزيدون الوحش بوليفيموس. ووفقاً لهزيود، كان فورسيس ابن بونتوس وغيا. تزوج من أخته سيتو وأصبح أباً للغريين والغورغون والتنين لادون، وربما لهسبيريدس. وقيل أيضاً إنَّ سكيلا وُلدت من علاقة الحب بينه وبين هيقاتي. وإذا حكمنا من ذرّيته الضارية نرى أنَّه لابد أنَّ فورسيس كان في عيون اليونانيين تجسيداً للبحر الغادر والشرير. إنَّ اسمه ذاته يبدو أنه يُشيرُ إلى الزبَد الأبيض الذي يُتوِّجُ ذرى الأمواج.

غلوكوز: إنَّ اسمَ غلوكوز يُثير في الذهن الصورة التي يتخذها البحر عندما يبدأ بالهيجان. وهي صورة ذات لون قاتم أزرق مائل إلى الخضرة. كانت هناك أساطير متنوعة عن غلوكوز. واحدة تقول إنه كان صياد سمك متواضع من أنثيدون. وذات يوم لدى عودته من الصيد وضعَ أسماكه بين الأعشاب التي تنمو على الشاطئ. فإذا به يراها تقفز إلى البحر وسُمِحَ له الانخراط بين آلهة البحر كواحد منهم. وهناك أسطورة أخرى تحكي أنه أثناء مطاردته لأرنب بري شاهدَ غلوكوز المخلوق يبتلع ورقة من ذلك العشب وفي الحال استعاد رشاقته. وبدافعٍ من فضول تذوَّق غلوكوز أيضاً العشب الغامض واكتسب بذلك الخلود. وتوجّه إلى البحر إما تلبيةً لدافعٍ خفي بثه زيوس، أو بسبب غضبه من عجزه عن جعل أقرانه من البشر يدركون خلوده.

في المعتاد يُقيم غلوكوز في ديلوس. وقد منحه أبولو موهبة التنبؤ التي نقلها إلى ابنته، السيبيلية ديفوب. وغلوكوز يُغادرُ مقرّه مرةً في العام في ديلوس ويقوم بجولة بين الجُزُر في بحر إيجة. كان يظهر للبحّارة، بجسده النحيل الذي يُغطيه عشب البحر والأصداف البحرية، ويتنبأ بظواهر مشؤومة.

كان إلهاً كئيباً، وحتى علاقاته العاطفيّة كانت تعيسة. وفيما عدا سيمي، التي فاز بحبها وحملها إلى جزيرة صغيرة تقع بالقرب من رودس، فإنَّ كل مَنْ تودَّدَ إليهن صَدَتهُ.

وعثر على أريادن في جزيرة ناكسوس وحاولَ أنْ يواسيها عندما وصل ديونيسوس، وربطه بفروع كرمه، وتولّى بنفسه مواساة أريادن. وقيل أيضاً إنَّ غلوكوز حوَّلَ سكيلا إلى وحش بسبب رفضها له إلاّ أنَّ تحوُّل سكيلا يُنسَب أيضاً إلى أمفيتريت الغيورة.

أحياناً يحدث لبس بين غلوكوز وشخص آخر ذي منشأ إنساني ارتفعَ إلى مرتبة الإله البحري: هو ميليسرتس باليمون.

كان ميليسرتيس ابن آثاماس وأخت سيميلي المدعوة إينو. وقد أثارت إينو غضب هيرا لأنها أطعمت وآوت ديونيسوس الشاب بعد موت والدته. وانتقاماً

لذلك جعلتْ هيرا عقل زوجها آثاماس غير متوازن وقام بذبح أحد أبنائه، ليركوس. ولكي تنقذ الابن الآخر، ميليسرتس، من جنون والده، قبضَتْ إينو على الطفل وقفزت معه إلى البحر. رحّبتْ بها النيريدات وأصبحتْ، تحت اسم ليوكوثيا، إلهة تحمي عمّال البحر. أما بالنسبة إلى ميليسرتيس، فقد حملَ جسد دلفين إلى شاطئ كورينث. فعثَر سيزيفوس عليه وأقامَ ضريحاً لميليسرتيس على الشاطئ. وتحت اسم باليمون. صار ميليسرتيس يُعبد منذ ذلك الوقت كإله. وحسب تعليمات النيريدات أقيمت الألعاب الإسثمية على شرفه. وهو في المعتاد يُمَثّل في صورة طفل تحمله الدلافين.

تريتون: حول عربة أمفيتريت، التي كانت ترافقها النيريدات الفاتنات، تطفرُ مخلوقات غريبة رشيقة، نصفها بشر، ونصفها أسماك، أجسامها مُغطاة بالحراشف، وأسنانها حادّة وأصابعها مُسلَّحة بالمخالب. صدورها وبطونها مزوَّدة بالزعانف، وبدل السيقان لها ذيل شوكيّ لوحشٍ بحري. هذه الفرقة الفاسقة كانت تلهو بين الأمواج، وتنفخ في أصدافٍ محاريّة. إنهم التريتون. وبعضٌ منهم، المزوَّدون بقائمتيّ حصان أيضاً، كانوا معروفين بالقنطور التريتون.

على الرغم من أنهم يعيشون في البحر فإنَّ التريتون أحياناً يُغامرون على اليابسة. في تاناغرا، كان الناس يتذكّرون أحد التريتون الذي خرب البلاد واغتصب النساء. ومن أجل أسره وضعوا مزهرية مملوءة بالخمر على الشاطئ. فشربها التريتون، وأثناء نوم السكران قطعَ صياد سمك رأسه. وأقيمَ تمثالٌ لتريتون مقطوع الرأس على معبد ديونيسوس في تاناغرا في ذكرى المناسبة.

أولئك الجان البحريين استمدّوا أسماءهم من إله بدائي، ابن بوزيدون وأمفيتريت، واسمه تريتون. وكان أيضاً نصف إنسان، ونصف سمكة، ويعيش مع والده في أعماق البحر، على الرغم من أنَّ مكانه المفضَّل هو بالقرب من شاطئ ليبيا. ويبدو أنّ أصل تريتون كان إلهاً ليبياً صِرفاً، إلا إذا كان المستعمرون المينيون قد جلبوا معهم إلى أفريقيا الإله السابق للنهر تريتون الذي يتدفّق إلى بحيرة كابيس في بويوتيا.

بوصفِه ابن بوزيدون، تقاسمَ تريتون بعضاً من قِوى والده: كان مثله يستطيع أن يرفع أو يُهدِّئ الأمواج. كان يمكن رؤيته وهو يمتطي الأمواج على متن عربة تجرها جياد حوافرها على شكل مخالب جراد البحر.

في مناسبتين قدَّم تريتون لزيوس معروفَين. فأثناء الحرب مع العمالقة، ساهَم تريتون في إحراز الأولمبيين انتصارهم وذلك ببث الخوف في قلوب العمالقة بالأصوات المُرعبة التي أصدرها بمحارته. ولاحقاً، جعل زيوس تريتون موكلاً بتراجع المياه بعد الطوفان.

أنقذَ تريتون الأرغونوت، بما يُعرف عنه من كرم وميل إلى المساعدة، وذلك حين جرفَتْ عاصفةٌ سفينتهم إلى الشاطئ الليبي. فساعدهم، واستطاعوا بفضل نصيحته أنْ يتابعوا رحلتهم.

تقاسمَ تريتون موهبة التنبّؤ مع إلهَين بحريَّين آخرين، هما نريوس وبروتيوس، وربما كان في الأصل، مجرَّد شكلٍ محلّي لهما. ولكن يبدو أنه كان بشكل خاص يجسِّدُ هدير البحر أو حركته العنيفة، على ما يدل عليه رمزه وهو محارة.

وحوش البحر ـ السيرينات: إنَّ اسم السيزين مُستمدّ من جذر يوناني يعني «يربط» وهو يلمِّح بوضوح إلى الدور الذي لعبته السيرينات في الأسطورة. لكنَّ المرء يميل إلى اعتبارهنّ إلهات يرمزنَ إلى أرواح الموتى. وعلى ذلك يكنَّ جنيات جنائزيات، شرهات إلى الدم ويعادين الأحياء. بجسم العصفور الذي يحملنه ورأس المرأة، يُذكّران بالصقر المصري ذي الرأس الإنساني الذي يُجسّد أرواح الموتى. والسيرينات يُستحضرنَ في لحظة الموت، وصورهنّ توجد على الدوام على القبور. ولكن الأسطورة لم تحتفظ بأي شيء من هذا التصوُّر عنهن، وتصوِّر السيرينات فقط كوحوش بحرية حاقدة.

في أول الأمر كانت تُمثَّل برأس وصدر امرأة وجسم طائر، وفقط لاحقاً صارتْ تُصوَّر كنساء أجسادهنّ تنتهي بأذيال سمك. رموزهن آلة موسيقية ـ قيثارة أو ناي مزدوج. وكان لديهن معبد في سورينتو.

حين أوشكَ أوديسيوس أن يُغادر سيرسي وانطلقَ إلى سفينته السريعة من جديد، حذَّرته من أخطار الرحلة وقالت على وجه الخصوص:

«أولاً تصل إلى مقر إقامة السيرينات الساحرات، اللواتي يغوين الرجال. والرجل غير المتعقل الذي يقترب منهن لا يعود أبداً، لأنَّ السيرينات، المستلقياتِ في الحقول المملوءة بالزهور، سيسحرنه بأغنية عذبة، لكنَّ جثث ضحاياهن مكوّمة حولهن».

وهكذا اقترب أوديسيوس من الجزيرة الصغيرة الصخرية وميَّز المخلوقات الغريبة، اللواتي نصفهن نساء، ونصفهنّ طيور، واللواتي، حين شاهدنَ السفينة، بدأن يغنين:

«اقترب، أيها الشهير اوديسوس، يا مجد الآخيين، أوقف سفينتك وتعال إلينا. لم يمرّ بعد أحد بهذه الجزيرة دون أنْ يُصغي إلى سحر أصواتنا ويستمع إلينا ونحن نغني عن الإنجازات الجبارة التي حقَّقها اليونانيون تحت أسوار طروادة. ذلك أننا نعرف كل ما يحدث على الأرض الخصبة».

كانت أصواتهن من شِدّة العذوبةِ بحيث كاد أوديسيوس ألاّ يتمكَّن من مقاومة دعوتهنَّ لو لم يتبع نصيحة سيرسي ويأخذ حّذَرّه بربط نفسه إلى صاري سفينته. أما رفاقه، فقد قام على سبيل الوقاية بسد آذانهم بالشمع.

وهكذا نجوا من الخطر المريع. لكنَّ العِظام البشرية المنتشرة على الحقول الخضراء لجزيرة السيرين كانت شاهداً أخرس على عدم تعقل البحارة السابقين وعلى وحشية المخلوقات ذوات الأصوات الغاوية.

ولكن السيرينات هكذا دائماً. ففي العصور البدائية كانت السيرينات، بنات النهر أخيلوس، إلهات نهرية.

كان عددهن ـ وفقاً لمؤلفين مختلفين ـ اثنتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً أو حتى ثمان. وكان لهنّ أسماء تُشدِّدُ على سحر أصواتهنّ: أغلاوفونوس أو أغلاوفون (أي ذات الصوت الرائع)، وثيكسيبيا (ذات الكلمات الساحرة)، وبيسينو (المُقنِعة)، ومولب (الأغنية).

كان هناك تفاسير متعددة لشكلهنّ الغريب. وفقاً للبعض كنَّ مع بيرسيفوني حين اغتصبها هيدس، وبطلب منهنّ أعطاهنّ زيوس أجنحة لكي يتمكّنَ من الطيران ويلاحقن المُغتصِب. ووفقاً لآخرين فقد جعلتهن على هذه الشاكلة أفروديت التي عاقبتهن بهذه الطريقة لأنهنَّ كنَّ متمرّدات على الحب.

كانت السيرينات مفرطات الفخر بأصواتهنّ وبموهبتهنّ الموسيقية، ويُقال إنهنَّ جرؤنَ ذات يوم على تحدّي الميوزات. ولكنَّ الميوزات تغلّبنَ عليهنَّ وانتزعنَ ريش أجنحتهنّ، فتخلّينَ عن الينابيع والوديان وذهبنَ لإخفاء عارهنَّ بين الصخور المُدبَّبة على طول سواحل جنوب إيطاليا، ومنازلهنَّ كانت رأس بيلوروس، وكابرين وجزيرة أنثيموس، وجزر سيرين. هناك من الشواطئ كنَّ يجذبن البحّارة بأغانيهن ويلتهمن التعساء البؤساء الذين يعجزون عن مقاومة إغوائهنّ.

ولكن في النهاية عثروا على سيدهنّ. فعندما مرَّت سفينة الأرغونوت بجزيرتهنّ حاولنَ كالمعتاد عرض قِواهن. ولكن فقط بوتيس، ابن زيليون، قفز من السفينة لينضمَّ إلى الإلهات الخادعات. أما الآخرون فمنعهم أورفيوس الذي كان معهم. ثم دوزنَ قيثارته وبدأ يغني، وتغلَّبَ بصوته الشجي على إغواء السيرينات.

بعد هزيمتهنّ فقدت السيرينات كل قُدرة لديهن على الإيذاء وتحوّلن إلى صخور. إحداهن، بارثينوب، رمت بنفسها إلى البحر في نوبة غضب. تقاذفت الأمواج جسدها ورمت به إلى الشاطئ، وأقيمَ قبر لأجلها على البقعة التي أنشئت عليها لاحقاً مدينة نابولي.

كاريبديس وسكيلا: في هذا البحر الصقلي نفسه حيث أقامت السيرينات رسا أيضاً وحشان رهيبان آخران، كاريبدس وسكيلا.

إننا لا نعرف عن كاريبديس إلا بقدر ما يُخبرنا به هومر. «إنَّ كاريبديس المقدَّسة ذات الزئير الرهيب تبتلع أمواج البحر المالحة وتفرغها ثلاث مرات في اليوم». كانت تعيش تحت صخرة تتوّجها شجرة تين خضراء. كانت تُدعى بابنة بوزيدون والأرض، ولأنها سرقت ثيران هرقل ضربها زيوس بصاعقة وحوّلها إلى دوّامة تبتلعُ السفن.

أما أسطورة سكيلا فأطول. كانت ابنة فوركيس وكراتيس، أو طايفون وإكيدنا، أو بوزيدون. ووِفقاً لرواياتٍ أخرى، كانت الأم هي لاميا، ملكة ليبيا التي أحبّها زيوس وشهدت موت أولادها نتيجة غيرة هيرا. كانت سكيلا في أول الأمر حورية ذات جمالٍ فريد. وإما لأنها صدَّت تودّد غلوكوز لها فعاقبها غلوكوز، أو ، على العكس، لأنها استسلمت لبوزيدون وبذلك أثارت غيرة أمفيتريت، حوَّلَتْ سيرسي سكيلا إلى وحش. وبينما كانت تستحمُّ في بركةٍ رَمتْ فيها سيرسي أعشاباً سحرية معيَّنة، فبرزت فجأة ستة أعناق من بين كتفيها، أعناق عملاقة، تعلوها ستة رؤوس مخيفة، وكل منها مزوّد بثلاثة صفوف من الأسنان. وكمنت في تجويف غارٍ مظلمٍ في وسط الحيد البحري لم يبرز منه إلا رؤوسها، التي كانت تعترض بفظاظة طريق الدلافين، وكلاب البحر، والوحوش الضخمة. وحين تمرُ سفينةٌ في منال رؤوسها كان كل رأسٍ من رؤوسها يختطف رجلاً من على مقعد المُجذّفين، ولا تستطيع أي سفينة أنْ تُفاخر بأنها نَجتْ من سكيلا دون خسارة.

حين جلبَ هرقل قطعان غريون من خلال مضائق صقلية، قبضت سكيلا على واحداً من الثيران والتهمته، فقتلها هرقل، لكنَّ والدها فوركيس أعادها إلى الحياة، وعاد البحارة الذين يمرّون من مضائق صقلية يرتعبون من التوأم المخيف كاريبديس وسكيلا.

آلهة المياه العذبة:

الأنهار: كان هناك ثلاثة آلاف نهر وِفقاً لهزيود، هم أبناء أوقيانوس وتيثيس، تقاسموا الطبيعة القدسية لوالديهما وكان البشر يعبدونهم.

كان الشبان ينذرون شعورهم لهم ويضحّون بالأكباش لأجلهم ويرمون في مياههم جياداً وثيراناً حيّة.

كانت الأنهارُ تُمثَّل على هيئة رجال أقوياء بلحى طويلة، قوّتهم يُرمَزُ إليها بالقَرنَين اللذين يزيّنان جبين كل منهم.

أشهر الأنهار وأشدّها احتراماً كان أخيلوس، الذي كان أيضاً أكبر مجرى مائي في اليونان. أخيلوس حاربَ هرقل من أجل طلب يد ديانييرا. وحين انهزمَ تحوّلَ إلى أفعى، ثم إلى ثور برّي. لكنَّ هرقل أمسك به وانتزعَ أحد قَرنَيه، وهو القرن الذي حوَّلته الحوريات إلى قرن الوفرة. وبسبب إحساسه بالخجل من هزيمته، رمى أخيلوس بنفسه في النهر الذي حمل اسمه منذ ذلك الحين. وكان أخيلوس مُبجَّلاً في أرجاء اليونان كلها وحتى في صقلية ـ كان هناك ستة أنهار تحمل اسمه ـ وكان يُستحضَر عند القَسَم. وقد حوَّلَتْ بنات العرّاف إكينوس إلى جُزُر وأصبحن يُدعون بالأحينادات لأنهنَّ أغلنَ تشريفه أثناء تقديم إحدى الأضاحي.

ولم يقلَّ عنه شهرةً الأسوبوس، وهو اسمٌ وُجِدَ أيضاً في ثيسالي وفي البيلوبونيز. كان أسوبوس إله نهر في بويوتيا. أنجبَ من زوجته ميروب ابنين، بيلاسغوس وإسمينوس، واثنتي عشرة بنتاً، من بينهنّ سينوب، التي خطفها أبولو، وكوريسيرا وسالاميس، اللتان أحبّها بوزيدون، وإيجينا، التي اغتصبها زيوس. خرج أسوبوس بحثاً عن إيجينا وعرفَ من سيزيفوس ـ فيمقابل إعطائه نبعاً فجرّه في أكروكورنيث ـ اسم مغتصب ابنته وحاولَ أن يُحقِّق العدل، لكنَّ زيوس ضربه بصاعقة وأجبره على العودة إلى حوض نهره.

كان إيناخوس، إله نهر أرغوليس، وقد تعرَّضَتْ إحدى بناته لغواية زيوس. وأثناء خلاف نشبَ بين هيرا وبوزيدون على ملكية أرغوليس، اختيرَ إيناخوس حكَماً بينهما. فأصدر حكمه لصالح هيرا، فانزعج بوزيدون، وجفَّف له ماءه.

كان سيفيسوس إله نهر فوكيس وبويوتيا. وهو يظهر فقط في الأسطورة كأب لنرسيسوس، الذي أنجبه من الأوقيانيده ليريوب. وكان هناك حَرَمٌ مُكرَّس له في أرغوس.

من بين آلهة النهر الآخرين يمكن ذِكر: بنيوس في ثيسالي، ولادون في أركاديا (الذي كان والد سيرينكس ودافني)، وفي البيلوبونيز، يُقال، إنَّ ألفيوس وقعَ صريع حب أرتيميس. ولكي تتملص منه لجأتْ أرتيميس إلى إليس وعندما وصلت إلى ليتريني موّهتْ نفسها بتلطيخ جسمها بالطين. وقيلَ أيضاً إنّ ألفيوس

كان صياداً وقع في حب الحورية أريثوزا ولاحقها حتى جزيرة أورتيجيا، وهنـاك تحوّلت إلى ينبوع ماء، وتحولَ ألفيوس بدوره إلى نهر، ولكنه ظلَّ يُلاحقُ أريثوزا بعناد. فعبر البحر دون أن يختلط بمائه وفي أورتيجيا عـاد فانـضـمَّ إلى محبوبتـه. وقيل إنَّ اليوروتاس في لاكونيا كان ملكاً على ذلك البلد، وابناً لتايغت. ومن بين بناته كانت إسبارطة، التي تزوجت من لاسيديمون. وكان مسؤولاً عـن تجفيـف المستنقعات التي غطَّت لاكونيا، وأُعطيَ اسمه لقنال حفرها لنقـل الميـاه. وقـال آخرون إنه رمى بنفسه إلى النهر الذي حمل اسمه يأساً بعد أنْ خسر إحدى المعارك.

في فريجيا كان النهران الرئيسيان هما سكاماندر (أو زانثوس) والمياندر. وقد لعب سكاماندر دوراً في حرب طروادة، ويصف هومروس معركتـه مـع آخيـل. فقد قبضَ على البطل بشبكته وتطلَّبَ تدخُّل هيفيـستوس لتهدئـة إلـه النـهر. أمـا مياندر، فيدين باسمه لمياندر، ملك بسينونت، الـذي أقـسم في سـياق الحـرب على أنه إذا انتصر فسوف يُضحّي بأول شخص يأتي لتهنئته. وكـان أول القـادمين لتهنئته هو ابنه. وبرَّ مياندر بوعده، لكنه رمى نفسه في النهر يأساً فحمله معه.

حوريات المياه: كما أنَّ لكل نهر شخصيته المقدسة الخاصة، كذلك فإن في كل جدول، وغدير، ونبع، وبركة، حورية خاصة.

كانت حوريات الماء تُصنَّف وِفقاً لمكان إقامتها. كانت البتوميدات حوريات الأنهـار والجـداول، والنيـادات حوريـات الغـدران، والكرينـات أو البيغيـات حوريات الينابيع، والليمنادات حوريات المياه الآسنة.

على الرغم من أنَّهن في التسلسل الهرمي المقدّس يحتللنَ مرتبـة متدنيـة إلاّ كان يُسمَح لهنَّ أحياناً بدخول الأوليمبوس وكان البشر يبجلوهن بعبادة دينية.

كانت وظائفهن متعدّدة. كنَّ يتمتعّن بموهبة التنبؤ ونقل الوحي. كـنَّ إلهـات طيبات ويشفين المرضى، ويسهرن على الأزهار، والحقول والقطعان.

أحياناً يعشنَ في أعماق المياه، وأحياناً في كهوفٍ بالقرب من الينـابيع ويُهـيمنَّ عليها. هناك كنَّ ينهمكنَ في الغزل والنسج. أحياناً يندمجنَ في بطانة آلهة معينين.

على الرغم من شخصيتهنّ المقدسة إلا أنهنَّ لسن من الخالدين. ووفقاً لبلوتارك فإنَّ مدة حياة الحورية لم تكن تزيد على التسعة آلاف وستمائة وعشرين عاماً. لكنَّ امتيازهن دائماً هو إنهنَّ يحتفظنَ بالشباب والجمال، لأنهنَّ كنَّ يتغذين على رحيق الآلهة.

وعلى الرغم من أنهنَّ عموماً طيبات إلى أنه يمكن أن يصبحنَ خطرات على الرجال الذين يعجبن بهم فيسحبنهم، أحياناً إلى أعماق المياه. هكذا كان مصير هرمافروديتوس ـ ضحية الحورية سلماسيس. وقد لاقى الشاب هيلاس الرفيق الوسيم لهرقل مصيراً مشابهاً. فعندما وصلت سفينة الأرغونوت إلى سواحل الترود جرى إرسال هيلاس، وكان أحد أعضاء الحملة، للبحث عن الماء. وكان أن عثر على نبع، لكنَّ حوريات المكان فُتنَّ به أشد الفتنة حتى أنهنَّ حملنه إلى أعماق مِقامهنّ المائي، وعلى الرغم من صراخ هرقل الذي جعَل الشواطئ تُردِّدُ أصداء اسم هيلاس، فإنَّ الشاب لم يظهر أبداً.

بين الحوريات المعروفة أسماؤهن يمكن ذِكر أغانيب، حورية النبع الذي يحمل ذلك الاسم ويتدفق بالقرب من جبل هيليكون ومياهه تُلهم الذين يشربون منه، وكاسوتيس وكاستاليا، حوريّتا ينابيع التنبؤ فوق جبل بارناسوس، وهوغو، التي تهيمن على نبع جبل ليكيوس. وخلال فترات القحط يلمس كاهن زيوس الليكيني سطح النبع بغصن من شجر السنديان، وفي الحال يرتفع ضباب ويتكثّف ليغدو غمامة وسرعان ما يصبّ المطر المُنتظَر. وكانت هناك بيرين التي شكّلَت دموعها على موت ابنها نبعاً يمكن رؤيته بالقرب من كورينث، وكين، وهي حورية صقلّية التي رافقت برسيفوني حين حملها هيدس، فتحوّلَت، تحت تأثير الحزن الشديد، إلى نبع، ووفقاً لرواية أخرى، انبثق هذا النبع من الحفرة التي صنعها هيدس حين غاصّ إلى أعماق الأرض. وفي كل عام يتجمَّع أهالي سيراكوز هناك ويرمون فيها ثوراً. أحبت أرغيرا، وهي حورية نبع في أركاديا، الراعي سيليمنوس. وحين هجرته شعر سيليمنوس بحزن شديد حتى أنَّ أفروديت أشفقت عليه وحوّلته إلى نهر، وأنزلت عليه النسيان لتشفيه من علّة قلبه. وهكذا، كل مَنْ يستحم في النهر سيليمنوس يشفى من أحزان الحب.

كانت كاليبسو ابنة أطلس وتيثيس، وحكمت، وفقاً لرواية قديمة، جزيرة أورتيجيا في البحر الأيوني. وحين أطاحت عاصفة بأوديسوس إلى شواطئها رحَّبت به وأبقته عندها طوال سبع سنين. ولكي تحتفظ به إلى الأبد عرضت عليه الخلود، لكنَّ زيوس أمرها بتحريره. وكما يُشير اسمها ـ المأخوذ من أصل الكلمة التي تعني «يختبئ» ـ تجسِّدُ كاليبسو أعماق المياه.

آلهة الأرض:

غَيا، ريا، سيبيل

كانت غيا التي تجسد الأرض، كما رأينا، إلهة اليونانيين البدائية. وعلى الرغم من أنَّ عبادتها استمرَّت عبر العصور كلها إلا أنَّ شخصيتها اندمجت في شخصيات إلهات مُشابهة. ففي وقتٍ مبكّر حلَّت ريا (Rhea) محل غيا البيلاسجية فكانت بمثابة الأرض المؤلهة. ويبدو أن ريا كانت من أصل كريتي وأن اسمها مُستمدّ من كلمةٍ قديمة تعني الأرض.

صيغَتْ أسطورة ريا بصورةٍ أو بأخرى من تكرار أسطورة غيا. والثنائي ريا ـ كرونوس يُشبه بالضبط الثنائي غيا ـ أورانوس. وكلا الإلهتين تنطويان على القلق الأمومي نفسه، وزوجاهما انتهيا إلى النهاية المأساوية نفسها، وبالطريقة التي جُعل بها اليونانيون البدائيون من غيا الأم الكبرى وخالقة الكائنات كلها. كذلك أكدوا على تفوُّق ريا من خلال جعلها أمّ الآلهة المهيمنين العِظام على الأوليمبوس.

على الرغم من أصلها الأجنبي سرعان ما اتخذت ريا ملامح يونانية صرفة. ومناطق عديدة من اليونان تدَّعي شرف كونها مسرح الأحداث المقدّسة لأسطورتها. فمثلاً، بالقرب من كيرونيا، على جرف بتراكوس، قدَّمت ريا الحجر إلى كرونوس، والمشهد نفسه وضِعَ أيضاً في ميثيديوم في أركاديا. ويُشير أهل طيبة إلى المكان الذي جَلَبت ريا فيه زيوس إلى العالم، في حين أنَّ الأركاديين قالوا إنه وُلِدَ على جبل ليكوس. وقد نشأ الإله إما في أولمبيا إليس، أو على جبل إيثوم في ميسينيا. وأخيراً افترِضَ أنَّ ريا أقامت على جبل ثاوماسيوم في أركاديا.

لكنَّ السمة الهيلينيّة لريا تغيَّرت بتأثير من الإلهة الفريجيّة الكبرى سيبيل التي أُدخِلَتْ عبادتها. باكراً إلى اليونان، ولكن في النهاية امتزجت الإلهتان.

أصل كلمة سيبيل هو إلهة الكهوف. وقد جسَّدَت الأرض في حالتها البدائية والهمجية وعُبدَتْ فوق ذرى الجبال: فوق إيدا في فريجيا، وعلى بيريسينتوس، وسيبايل، ودينميموس. وقد مارست هيمنتها على الحيوانات المتوحشة التي تشكلُ عادةً جزءاً من بطانتها.

إنَّ الصور التمثيلية اليونانية لسيبيل تحافظُ على سمتها الأسيوية. فنرى الإلهة بتاجها الذي يتخذ شكل برج ـ وهو الرمز المعتاد للآلهة الأم الأسيوية ـ جالسة على عرش يحفّ به من الجانبين أسدان، أو جالسة على عربة يجرها أسدان. أحياناً تحملُ سوطاً مُزيِّناً بعِظام البراجم. وهو شعار القوة، وأيضاً الأداة التي يُعذب كهنة سيبيل المدعوون بالجالي أنفسهم.

كان الجالي أخوية غريبة تحتفل بعبادة إلهتهم برقصات متشنّجة على موسيقى آلات الناي، والطبول والصنج، وهم يقرعون على تروسهم بسيوفهم. وفي غمرة نشوتهم العارمة المتشنجة كانوا أحياناً وطواعية يخصون أنفسهم. كانوا معروفين في اليونان باسم الكوريبانتيين، ويُقال إنهم من ذرّية شخص اسمه كورباس، ابن سيبيل. ولاحقاً جرت مطابقتهم بالكوريتيين الكريتيين.

كان هناك إله أقلّ قيمة يرتبط بالإلهة الفريجيّة العظيمة: إنه آتيس، الذي دوره بالنسبة إلى سيبيل يشبه دور تموز بالنسبة إلى عشتار البابلية، أو دور أدونيس بالنسبة إلى أستارت الفينيقية. ومثلهم كان إلهاً نباتياً: كان الفريجيون يبجلّونه تحت اسم باباس، الوالد.

مع انتشار عبادة سيبيل في أرجاء اليونان تحوَّلتْ شخصية آتيس. كان يُقدِّم كراعٍ شاب ووسيم من كيلاينه، عشقته سيبيل واختارته ليكون كاهنها وفرضتْ عليه قَسَم الطهارة. وحين نقضَ آتيس قَسَمه وتزوج من ابنة النهر سانغاريوس، أنزلتْ عليه هيجاناً هستيرياً وأثناء ذلك خصى نفسه. وحين برئ من جنونه أوشك على قتل نفسه فحوّلته سيبيل إلى شجرة تنوب. ووِفقاً لروايةٍ أخرى ـ ألهمتها دون

أدنى شك أسطورة أدونيس ـ فقد قُتِلَ آتيس ضحية لغيرة زيوس الذي أرسلَ دبـاً برّياً ليُهاجمه. وكان قبر آتيس موجوداً فوق بيـسينوس، وفي كـل عـام في بدايـة الربيع يُقام احتفاله على مدى خمسة أيام. اليوم الأول كان يوم حِداد تسير خلاله مواكب حزينة تُحمَل شجرة تنوب مقدَسة تجـوب شـوارع المدينـة، وفي اليـوم الثاني يرقص الجالي حتى الهذيان على وقع موسيقى همجيّة، وفي اليوم الثالـث تقع عمليات الخصاء الدموي للكهنة الجدد، وفي اليوم الرابع يكون رقصٌ مـرح إحياءُ لذكرى بعث آتيس. وأخيراً اليوم الخامس يُكرَّس للراحة.

تزوجت سيبيل من ملك فريجيا غورديوس، الذي كـان قـد اختـرعَ العقـدة الغوردية الشهيرة. وأنجبت منه ابناً، ميداس، الـذي خلَـفَ والـده علـى كرسـي العرش. كان ملكاً حكيماً وورعاً أسس عبادة زيوس أيدا ودشَّـنَ أسـرار سـيبيل. وبسبب عونه لسيلينيوس، الذي سكِرَ ذات يوم علـى ضـفاف نهـر سـانغاريوس فربطه الفلاحون، كسبَ ميداس عطف ديونيسوس الذي طلب منه أن يتمنى شيئاً يحققه له، فسأله ميداس أن يحوِّل كل ما يلمسه إلى ذهب. وسرعان ما نّدِمَ على هذا الطلب الأحمق، ذلك أنّ حتى الطعام الذي يتناوله تحول إلى ذهب. فأشفقَ ديونيسوس عليه وأرسَله إلى نهر باكتولوس ليتطهَّرَ فيه، والذي أصبح منذ ذلـك الحين يتدفّقُ مع تراب الذهب.

ميداس كان أقلّ حظاً مع أبولو. فحين نطُلبَ منه أن يكون حَكَماً بـين أبولـو ومارسياس بشأنْ مَنْ يعزف ببراعة أكبر على القيثارة أو النـاي، صـوَّتَ ميـداس ضد أبولو الذي منحه، جزاءً له، أذنَيّ حِمار. واستطاعَ ميداس أن يُخفـي تينـك الأذنين تحت قلنسوته الفريجية ولم يعلم بأمر عاره إلا حلاّقه. وجثم الـسر ثقـيلاً على كاهل الحلاّق المسكين فحفرَ حُفرةً في الأرض وأودعها سـره. والآن ينمـو القصب في تلك البقعة وكلما هبَّتْ الـريح بـين عيدانـه يمكـن نـسماعها تـردَّد: «الملك ميداس له أذنا حِمار». فقتلَ ميداس نفسه يأساً وذلك، كما يُقال، بشرب دماء ثور.

شخصيتها ووظائفها: جسّدت غيا وبديلتاها، ريا وسيبيل، بينما مثّلتْ ديميتر التربة الخصبة والمحروثة. من بين العنصرَين اللذين يؤلفان اسمها ـ وهو صيغةً أقدم لكلمة تعني «الأرض الأم» ـ اتّخذَ الجزءُ الأمومي أخيراً الأهمية الأكبر بين اليونانيين.

لقد تمَّ الاحتفاظ بشخصية ديميتر البدائية دون شك في مناطق معيَّنة من اليونان، لا سيما في أركاديا حيث كانت الإلهة تُمثَّل برأس حصان، ومحاطة بأفاعٍ وبحيوانات شرسة، تحمل بإحدى يديها دلفيناً وبالأخرى يمامة. ولكن في أمكنة أخرى، لا سيما في أتيكا، ظهرت ديميتر قبل أي شيء كإلهة الثمار وثروات الحقول. كانت خاصةً إلهة الذرة التي تهيمن على الحصاد وعلى كل الجهود الزراعية التي رعتها.

بلغ تأثير ديميتر، كإلهة للأرض، العالم السفلي، ولكن شخصيتها كإلهة العالم السفلي سرعان ما تطورت من خلال إلهة خاصة ـ برسيفوني ـ جُعِلَتْ ابنة ديميتر.

لطالما بقيت ديميتر على صِلة بالبشر الذي أغدقتْ عليهم ثمار الحضارة. لذا كانت تُسّمى Thesmophoros «التي تشرّع القوانين»، ولربما أخلع عليها هذا اللقب من خلال كونها إلهة الزواج.

العبادة والصور التمثيليّة: كانت ديميتر تُعبَد في أتيكا، وأركاديا وأرغوليس، وعلى قمة ديلوس، وفي كريت، وفي آسيا الصغرى وفي صقلية. وبقيَتْ عبادتها غامضة وكانت تصحبها عربدات. وغالباً ما كانت معابدها، المسمّاة ميغارا، في الغابات.

والجانب الأمومي من ديميتر قبل أي شيء هو الذي أبرزه الفن في الصور المختلفة للإلهة. فهي تظهر تارةً جالسة، وتارة ماشية، ترتدي ثوباً طويلاً وغالباً تضعُ خِماراً يُغطي خلفية رأسها، أحياناً يتوّجها كوزان من الذرة أو شريط، وتحمل بيدها إما صولجاناً، أو كنران ذرة، أو مشعلاً.

المتوددون إلى ديميتر: كانت ديميتر ابنة كرونوس وريا وتنتمي إلى مجموعة الأولمبيين العِظام. وكانت ذات جمال قاسٍ، لا يكاد يُخفف من حِدَّته شعرها الأشقر كالقمح الناضج.

اشتهاها بوزيدون، لكنَّ ديميتر صَّدته. ولكي تهرب منه فرَّتْ إلى أركاديا حيث اتّخذتْ شكل مُهرة، واندمجت مع قطعان الملك أونكوس. لكنَّ بوزيدون نجحَ في العثور عليها، وحوّلَ نفسه إلى حصان وجعلَ منها أمّ الحصان أريون الذي وُهِبَ القُدرة على الكلام، وقدمه اليمنى هي قدمٌ إنسانية. وأنجبَتْ ديميتر أيضاً من بوزيدون ابنة بقيَ اسمها خفياً ولم تعرف إلا بالاسم ـ ديسبونا. كانت تُعبَد خاصةً في ثيسالي.

شعرت ديمتر بالإهانة التي سببها لها بوزيدون وغادرت أوليمبوس في حالة الغضب العارم ـ وعلى هذا أطلقَ عليها في أركاديا لقب Erinnys ـ واخفَتْ عارها داخل كهف. ولكي يعيدها إلى أوليمبوس كان على زيوس أن يتدخَّل شخصياً، واستعادت مكانها بين الخالدين بعد أن طهَّرت نفسها في مياه لادون.

اشتهى ديميتر أيضاً زيوس الذي صدّته بالأسلوب نفسه. لكنَّ زيوس خدعها بتحويل نفسه إلى ثور وجعلها أمّ كور (بيرسيفوني).

لكنّ قلب ديميتر لم يكن محصناً ضدّ العاطفة. وقد قيل أنّها كانت تحب إياسون، «وتضاجعه في حقلٍ محروث ثلاثاً» وأنجبت منه ابناً، بلوتوس. وفقاً للبعض شعر زيوس بالغيرة من إياسون وضربه بصاعقة، ووفقاً لآخرين، عاشَ حياةً مديدة مع ديميتر وأدخلَ عبادتها إلى صقلية.

ديميتر وكور: لكنَّ ديميتر كان يُحتفى بها في الأساس من أجل بليّتها كأم. فقد كانت تحب ابنتها كور بشغف. وذات يوم كانت كور تجمع الزهور في حقول نايسا مع رفيقاتها. وفجأةً رأت زهرة نرجس ذات جمال أخّاذ فهرعت لتقطفها، ولكن حالما انحنَتْ لتفعل ذلك انشقّت الأرض من تحتها وظهر إله العالم الأسفل هيدس الذي قبض عليها وجرّها معه إلى أعماق الأرض. وفقاً لرواية أخرى، تمّ اختطاف كور فوق المرتفعات القريبة من بلدة إنّا في صقلية. وفي

ضواحي سيراكوز بيّنوا المكان الذي غاص فيه هيدس متراجعاً إلى داخل الأرض مُحدِثاً حفرة ضخمة بتلك العملية، وامتلأت منذ ذلك الوقت بمياه من نبع سيان. وقد نسبت مقاطعات عديدة لنفسها أيضاً شرف هذا الخطف المقدَّس.

في تلك الأثناء سمعت ديميتر صرخة ابنتها اليائسة تطلب العون. ويقول شاعر الترتيلة الهومرية، ثم عصرَ قلبها حزنٌ مرير.. ورمت على كتفيها خِماراً قاتماً وطارت كعصفور فوق اليابسة والبحر، باحثةً هنا، وهناك...وعلى مدى تسعة أيام جالت الإلهة المُبجَّلة، حاملةً مشاعل ملتهبة بيديها. وأخيراً ونزولاً عند نصيحة هيقاتي ذهبت لاستشارة هليوس المقدَّس الذي كشفَ لها عن اسم مُغتصب ابنتها. قال لها «الذنب كله ذنب زيوس نفسه، الذي أهدى ابنتكِ إلى أخيه هيدس لتكونَ عروسه البهية». وفي ثورةٍ من غضب ويأس انسحبتْ ديمتر من جبل أوليمبوس وسعت إلى الاختباء بين مدن البشر وهي تتقنَّع بصورة امرأة عجوز. وتجوّلت فترةً طويلة بلا هدى. وذات يوم وصلَتْ إلى إليوسيس وجلست لتأخذ قسطاً من الراحة بالقرب من قصر الحكيم سليوس، الذي كان يحكم ذلك البلد. رأتها بنات الملك واستفسرنَ منها بلطف عن هويتها. أخبرتهن ديميتر أنَّ قراصنةً كريتيين اختطفوها وجلبوها إلى تلك الأصقاع وأضحت غريبة. وأضافت، إنها تبحث عن ملجأ ويسعدها أن تعمل خادمة أو حاضنة.

ثم حدثَ أنَّ ميتانيرا، زوجة سليوس، كانت قد أنجبت طفلاً للتو، اسمه ديموفون. لذا رحَّبَتْ ميتانيرا بالإلهة تحت سقف بيتها، ولكن عندما اجتازت ديميتر عتبة المنزل لمس رأسها العوارض الخشبية فانبعث منها إشعاع مقدس. فامتلأت ميتانيرا بالاحترام وقدَّمَتْ لها مقعدها. لكنَّ ديميتر بقيَتْ واقفة وصامتة، وعيناها مثبتتان على الأرض، ترفضُ الطعام والشراب، ذلك أن اشتياقها إلى ابنتها المزنرة بالأزهار كان يستنزفها. وأخيراً جاءت الصغيرة إيامب، التي على الرغم أنها كانت ابنة بان وإيكو، كانت تعمل خادمة في قصر سيليوس ـ وإليها يُنسَب اختراع مقام الشعر الإيامبي ـ ونجحت في إدخال السرور إلى قلب ديميتر بتهريجها. وأقنعتْ ديميتر بشرب Kykeon، وهو شراب يتألف من الماء، والطحين ونكهة النعناع.

أوكَلَ إلى ديميتر مهمة تنشئة الطفل ديموفوون. لم تكن تطعمه أي شيء، وبدل ذلك كانت تنفخ عليه برقّة، وتدهنه برحيق الآلهة وفي الليل تخبئه داخل النار، كجمرة مشتعلة، لكي تدمِّر كل ما هو بشريّ فيه وتمنحه الخلود. لذا، وأمام ذهول والديه أخذ الطفل يكبر كإله. أثار هذا فضول ميتانيرا فتجسَّست عليها وضبطتها وهي تضع الصبي الصغير في وسط اللهب. صرخت ميتانيرا من فرط الرعب. أثار ذلك حنق الإلهة، فأخرجت ديموفوون من النار ووضعته على الأرض وقال للأم «لولا حماقتك لوضعتُ هذا الطفل إلى الأبد بعيداً عن منال الشيخوخة والموت، أما الآن فلم يُعد في إمكاني أنْ أقيه الموت». ثم ظهرتْ أمام زوجة سيليوس بشكلها المقدَّس. وكشَفتْ عن اسمها وأمرتْ بإقامة معبد لها في إليوسيس حيث على المنتسبين إلى عبادتها أنْ يحتفلوا بطقوسها السرية. ثم خرجت من القصر.

ولكن قبل أنْ تغادر رغبتْ في أنْ تُبدي امتنانها لمضيفيها، فأعطتْ تريبتوليموس، ابن سيليوس الأكبر، أول حبة ذرة، وعلَّمته فنَّ شد الثيران إلى المحراث وكيف يبذر التربة بالحبوب التي تنبت منها المحاصيل الغنية. ومنحته أيضاً عربةً مُجنَّحة تقودها تنانين وأمرته بالتجول في العالم لينشر منافع الزراعة بين الناس جميعاً. وهكذا طاف تريبتوليموس اليونان كلها، وعلَّمَ أركاس، ملك أركاديا، صناعة الخبز، وفي أركاديا أسس مدناً كثيرة. وقام أيضاً بزيارة تراقيا، وصقلية، وسيثيا، حيث حاولَ الملك لينكوس أن يغتاله أثناء نومه وحوّلته ديميتر إلى وَشَق. وزار ميسيا حيثُ حاولَ ملك الغيتيه، كارنابون، عبثاً أن يؤذيه، وأخيراً عاد إلى إليوسيس، وهناك تآمرَ سيليوس لقتلِه، لكنَّ ديميتر منعته، فاضطرَّ سيليوس إلى التخلّي عن العرش لتريبتوليموس.

كان مكوث ديميتر في إليوسيس هو الحدث الأكبر في سياق جولاتها في الأرض، ولكنها أيضاً أقامت مع بيلاسغوس في أرغوس. وزارت فيتالوس ومنحتها شجرة زيتون. وفي أتيكا استقبلها ميسم الذي جعل ابنه أسكالابوس من ديميتر هدفاً لنكاته وعوقِبَ بتحويله إلى سحلية.

لم تجد ديميتر ما يعزّيها عن فقدانها ابنتها فانسحبت إلى معبدها في إليوسيس. وهناك «أعدَّت للبشرية عاماً رهيباً وقاسياً: فقد رفضت الأرض أن تُنبت أي محصول وكاد الجنس البشري يفنى بأكمله من الجوع القارص لو لم يُبد زيوس قلقه»، وأسرعَ بإرسال رسوله أيريس إلى ديميتر، ولكن من دون إحراز نجاح. ثم جاء الآلهة واحداً إثر آخر ليتضرّعوا للإلهة الحقود. فأعلنت بصراحة أنها لن تسمح للأرض أن تُعطي أي ثمار إلا إذا رأت ابنتها من جديد. ولم يكن هناك أي حل غير الاستسلام. فأمرَ زيوس هرمس بالهبوط إلى مملكة هيدس والحصول على وعد من هيدس بإعادة الصغيرة كور ـ التي منذ وصولها إلى العالم السفلي كانت قد اتّخذَتْ اسم بيرسيفوني ـ إلى أمها. ورضخَ هيدس لإرادة زيوس، ولكن قبل إرسال زوجته إلى الأرض أغواها بأكل بضع حبات من الرمان. وكانت تلك الثمرة رمزاً للزواج وكان أكلها يجعل الرباط بين الرجل وزوجته لا ينفصم.

حين عادت كور إلى عالم النور أسرعت أمها إليها وعانقتها بنشوة من الفرح. وصرخت «ابنتي، لا شك في أنكِ لم تأكلي أي شيء منذ أن سجنوك في أصقاع هيدس المظلمة، فإذا لم تأكلي أي شيء فسوف تعيشين معي على جبل أوليمبوس. ولكن إذا أكلت شيئاً فسوفَ تعودين إلى أعماق الأرض». اعترَفَتْ كور بأنها تذوّقَتْ من الرمان المُهلِك. فبدا أنَّ ديميتر سوف تفقد ابنتها من جديد.

وكتعويض عن ذلك قرَّرَ زيوس أنَّ على بيرسيفوني أن تُقيم مع زوجها ثلث العام وتمضي الثلثين الباقيين مع أمها. وقد جلبَتْ ريا المهيبة هذا العرض إلى ديميتر فقبلَتْ به. ونسيتْ غضبها وأعادت للأرض خصوبتها. وسرعان ما تغطّتْ الأرض بالأوراق الخضراء والأزهار. وقبل أنْ تعود إلى أوليمبوس. علَّمَتْ ديميتر ملوك الأرض علومها الإلهية وأدخلتهم إلى أسرارها المقدّسة.

وهكذا فسروا لماذا في كل عام عندما يحلُّ الفصل البارد تتّخذ الأرض مظهراً حزيناً وكئيباً: فلا خُضرة، ولا أزهار في الحقول، ولا أوراق خضراء على الأشجار. البذور تغفو داخل أحشاء الأرض في سُباتها الشتوي. كانت تلك اللحظة التي تهبط فيها بيرسيفوني لتنضم إلى زوجها بين الظلال العميقة. ولكن

عندما يحل الربيع العذب الرائحة ترتدي الأرض عباءتها المؤلّفة من ألف زهرة لتُحيّي عودة كور، التي تنهض مشعّة، كان «مشهداً رائعاً للآلهة والبشر».

الأسرار الإليوسيّة: هذا الحدث المزدوج ـ اختفاء كور وعودتها ـ كان مناسباً لإقامة احتفالات عظيمة في اليونان. ففي أعياد الـThesmophoria التي كان يُحتفل بها في أتيكا في شهر أكتوبر ـ تشرين الأول، يتم إحياء ذكرى مغادرة كور إلى مقرّها الكئيب. ووفقاً لهيرودوتوس فإن أصل تلك الاحتفالات يعود إلى بنات داناوس اللواتي نقلنها من مصر. وكانت مُخصصة حصراً للنساء المتزوجات وتدوم ثلاثة أيام.

كان يحتفَل بعودة كور في الأعياد الإليوسية الصغرى ـ Lesser Eleusinia، وتقع في شهر شباط.

أما الأعياد الإليوسية الكبرى ـ Greater Eleusinia ، فتقع مرة كل خمس سنوات في شهر أيلول، ويبدو أنه ليست لها أي صلة مباشرة بقصة كور. كان احتفالاً رصيناً ـ أعظم احتفالات اليونان ـ يُقام على شرف ديميتر، ومادته الرئيسية الاحتفال بأسرار الإلهة. ومسرح أحداث هذه الاحتفالات الكبرى كان أثينا وإليوسيس.

في اليوم الأول يذهب شبان أثينا (ephebi) إلى إليوسيس لإحضار الأغراض المقدّسة (hiera) المحفوظة في معبد ديميتر، ويُعيدونها باستعراضٍ صاخب إلى أثينا حيث توضع في الإليوسينيون، عند أعتاب الأكروبوليس. وفي اليوم التالي يجتمع المُخلِصون (mystae) الذين يُعتبرون جديرين بالمساهمة في الأسرار في أثينا تلبية لنداء الكاهن. بعد ذلك يذهبون ليتطهَّروا في البحر، ويأخذون معهم خنازير تغسل ومن ثم يُضحَّى بها. وأخيراً يبدأ الموكب المهيب نحو إليوسيس وتُعاد الـhiera بالمراسم السابقة نفسها. وعلى رأس الموكب يُحمل تمثالٌ لإياخوس، وهو اسمٌ غامض لديونيسوس الذي ارتبط منذ وقتٍ مبكر بعبادة ديميتر.

في إليوسيس يتمُ الاحتفال بالأسرار الحقيقية. وحدهم المنتسبون إلى عبادة ديمتر يشتركون فيها ويُحرَّم الكشف عنها للعامة. تتضمن طقوس التنسيب مرحلتين، المرحلة الأولى تحضيرية وتستمر عاماً كاملاً، ثم تليها المرحلة الثانية المدعوة epotae.

إذا لجأنا إلى الحدس، نقول أنّ المُخَلصين ـ mystae، بعد شرب الـKykeon وأكل الكعك المقدَّس، يدخلون إلى المعبد، حيث يحضرون أداء دراما طقسيّة تصوّر اختطاف كور. أما المنتمون إلى المرتبة الأعلى فيحضرون دراما طقسيّة أخرى يدور موضوعها حول زواج ديميتر بزيوس، يمثلها كاهن وكاهنة.

ليس من السهل فهم المعنى لهذه الأسرار. لكنها، ربما كانت أكثر من مجرَّد إحياءٍ بسيط لأسطورة ديميتر وتتعلق بمسألة الحياة الثانية التي ينتظر المنتسبو من آلهتهم أن تكشف لهم عنها.

ديونيسوس

شخصيته ووظائفه: إن الاسم ديونيسوس في الأصل يعني «زيوس نايسا»، ويبدو أنه الصيغة اليونانية للإله الفيدي سوما، على ما تبديه أسطورتهما ووظائفهما من تشابه. ومهد العبادة كان في تراقيا. وقد جلبتها إلى بويوتيا القبائل التراقية التي استوطنت هنا، وبعد ذلك أدخلها المستوطنون البويوتيون إلى جزيرة ناكسوس. وانتشرت عبادة ديونيسوس في أرجاء الجزر كلها، ومنها عادت إلى اليونان القارّية، إلى أتيكا في أول الأمر، ولاحقاً إلى البيلوبونيز.

إنَّ شخصية ديونيسوس البدائية تعقّدها لَمَسات استُعيرت من آلهة أخرى وأجنبية، لا سيما الإله الكريتي زاغريوس، والإله الفريجي سابازيوس، والإله الليدي باساريوس. وهكذا اتّسعَ نِطاق تأثيره مع ازدياد غِنى شخصيته بالإسهامات الجديدة. في الأصل كان ديونيسوس مجرد إله للخمر، بعد ذلك أصبحَ إله الحياة النباتية والطقس الرطب، ثم ظهرَ كإله للملذات وإله الحضارة، وأخيراً، وِفقاً للتصورات الأورفيّة، كنوعٍ من الإله الأسمى.

عبادته وصوره التمثيلية: كان ديونيسوس يُشرَّف في أرجاء اليونان كافة، لكنَّ الاحتفالات التي كانت تُكرَّس له اختلفت باختلاف المنطقة والعصر.

أحد أقدم الاحتفالات كان الـAgrionia، احتُفِلَ به أولاً في بويوتيا، ولا سيما في أوركومينوس حيث كان عباد ديوينسيوس الباخانتيون يضحون بفتى غض. كانت الأضاحي البشرية المرتبطة بهذه العبادة في كيوس وفي ليسبوس،

ولاحقاً استُبدِلَتْ بالجلد. وفي أتيكا، كان يحتفلون بالأعياد الديونيسية الريفية. ففي شهر كانون أول كانوا يحتفلون الـLenaea، وهو احتفال بمعصرة العنب، حين يُقدَّم الخمر الجديد للإله، وفي نهاية شباط يُحتفل بـAnthesteria وهي احتفالات بالأزهار تستمرُ ثلاثة أيام، يُذاقُ خلالها خمر القِطاف الأخير. وفي حَرَم لنويون يسيرُ موكبٌ ينتهي بأضحية تقدِّمها زوجة الملك، وأخيراً يُقدَّم قمح مسلوق لديونيسوس وهرمس. والاحتفالات الأشد روعة كانت الاحتفالات الديونيسة الكبرى، أو ديونيزيا المدنية، في بداية آذار. وخلال تلك الاحتفالات كانت تُقدَّم العروض الدرامية. وبالإضافة إلى تلك المراسم المهيبة كانت اليونان كلها تُقيمُ احتفالات أخرى ذات سِمة معربدة، كتلك التي تجري على سفوح جبل سيثيرون.

لقد تغيَّر مظهر ديونيسوس في وقتٍ واحد مع أسطورته. ففي أول الأمر كان يُصوَّر كرجلٍ ذي لحية، في سنْ ناضج، وجبين يعلوه عادةً إكليل من اللباب. ولاحقاً أصبحَ يظهر كشابٍ غير ملتحٍ ذي سِمة أنثوية. وأحياناً يكسي عُري جسده المراهق الرقيق بالـnebris، وهو جلد نمر أو خِشف: وأحياناً يرتدي ثوباً طويلاً كالذي ترتديه النساء. ويُتوَّجُ رأسه بشعره الطويل المُجعَّد بأغصان الكرمة وعناقيد العنب. ويحملُ بإحدى يديه الـthyrsus (الصولجان)، وبالأخرى، عنباً أو كأساً من الخمر.

مولد ديونيسوس وطفولته: حين جُعِلَتْ الأرض خصبةً بالمطر واهب الحياة، كان لا بد لها، لكي تصل ثمارها إلى مرحلة النضج، من أنْ تتحمَّل لسع أشعة الشمس التي تحرقها وتُجففّها. عندئذٍ فقط تتطور ثمارها وتظهر حبات العنب الذهبية على أغصان الكرمة العُقديّة. يبدو هذا هو معنى أسطورة سيميلي التي كانت تُعتَبرُ أمَّ ديونيسوس.

شاهد زيوس سيميلي، ابنة قدموس، ملك طيبة، واستسلمت له. وكان زيوس يأتي إلى قصر والدها لزيارتها. وذات يوم، وبتلميح من المُخادعة هيرا التي اتّخذت شكل حاضنتها، توسّلَتْ سيميلي إلى زيوس أنْ يظهر أمامها بمهابته الأولمبية. ولم تستطع أن تتحمَّل البريق المُبهِر لحبيبها المقدَّس والتهمتها ألسنة

اللهب التي انبعثت من شخص زيوس. وكان يمكن للطفل الذي كانت تحمله في أحشائها أن يموت، لو لم ينتب فجأة كمٌ كثيفٌ من اللباب والتفَّ حول أعمدة القصر وشكَّل ستاراً أخضرَ يفصلُ بين الطفلِ الذي لم يولد بعد والنار السماوية. حملَ أعمدة القصر وشكَّل ستاراً أخضرَ يفصلُ بين الطفل الذي لم يولد بعد والنار السماوية. حملَ زيوس الطفلَ الوليد وبما أنه لم يكن قد آن بعد موعد مولده، فقد شق فخذه وأودعه فيه. وعندما حان وقت مولده أخرجه من جديد، بمساعدة ليثيا، وإلى ذلك المولد المزدوج يدين زيوس بحصوله على لقب Dithyrambos.

أودعَ زيوس ابنه بين يدي إينو، أخت سيميلي، التي كانت تعيشُ في أوركومينوس مع زوجها أثاماس.

هذه كانت أوسع الروايات شيوعاً للقصة. وقيل أيضاً أنَّ قدموس، حين علِمَ بعلاقة ابنته سيميلي مع زيوس، حبسها في صندوق ورمى به إلى البحر. حملت الأمواج الصندوق حتى وصلت به إلى شواطئ بريزه في البيلوبونيز، وحين فُتِحَ كانت سيميلي ميتة، لكنَّ الطفل كان لا يزال على قيد الحياة وتولّت إينو أمر العناية به.

لم تنطفئ غلواء انتقام هيرا الغيور فأصابت إينو وأثاماس بالجنون. ونجحَ زيوس في إنقاذ ولده للمرة الثانية بتحويله إلى جَدْي وأمرَ هرمس بإيداعه بين أيدي حوريات نايسا.

أين كانت تقع نايسا؟ أكانت جبلاً في تراقيا؟ إنّ من العبث البحث عن موقعها بدقة، ذلك أنَّ كل منطقة تأسَّست فيها عبادة ديونيسوس تفخر بأنها تحتوي على نايسا.

ثم أمضى ديونيسوس طفولته فوق هذا الجبل الخرافي، ترعى الحوريات شؤونه. وقد كوفئ مجهودهن لاحقاً: ذلك أنهنَّ تحوِّلنَ إلى كوكبة من النجوم تحت اسم هيادس. الميوزيات أيضاً ساهمن في تثقيف ديونيسوس، كما فعل الساطير والسيلينيون والميناديون. وفي يوبويا، وفقاً للرواية، أوكل هرمس أمر ديونيسوس إلى ماكريس، ابنة أريستيوس، التي غذّته حينئذٍ بالعسل.

كان الإله الصغير برأسه المتوَج باللباب والغار يتجول بين الجبال والغابات مع الحوريات، جاعلاً الفسحات المكشوفة تردِّدُ أصداء صرخات فرحه. في تلك الأثناء علَّمَ سيلينوس العجوز عقل ديونيسيوس الغض معنى الفضيلة وألهمه حب المجد. وحين كبُرَ اكتشفَ ديونيسوس ثمرة العنب وفن صنع الخمر منه. ولا شك في أنه شرب من الخمر من دون تحفُّظ في البداية، فقد قيل إنَّ هيرا أصابته بالجنون. لكنَّ المرض لم يطُل أمده. وبُغيته الشفاء ذهب ديونيسوس إلى دودونا لاستشارة الكاهن. وفي الطريق وصلَ إلى مستنقع اجتازه على متن حمار. ومكافأة له منح الحيوان القدرة على الكلام. وحين شفيَ ديونيسوس قام برحلات طويلة عبر العالم لكي ينشر الخمر كهدية لا تقدَّر بثمن بين البشر. وقد تميَّز مروره بتلك البلدان بمغامرات رائعة.

أسفار ديونيسوس: أثناء هبوطه جبال تراقيا اجتاز بويوتيا وولج أتيكا. وفي أتيكا رحَّب الملك أيكاريوس به فقدَّم له سويقاً من نبتة الكرمة. وكان إيكاريوس من قلة التعقل بحيث سقى رُعاته خمراً، وعندما أخذوا يثملون اعتقدوا أنهم قد تسمَّموا فقتلوه. وانطلقت ابنة الملك إيكاريوس، إريغون، بحثاً عن والدها، وبفضل كلبها ميرا، اكتشفت أخيراً قبره. ومن فرط يأسها شنَقتْ نفسها على شجرة قريبة. وعِقاباً على هذه الميتة ابتلى ديونيسوس نساء أتيكا بجنون هذياني. وحُمِلَ إيكاريوس إلى السماوات مع ابنته وكلبها المُخلص وتحولوا إلى كوكبات من النجوم وأصبحوا الدب الأكبر، وبرج العذراء، ونجم الكلب الأصغر.

في ايتوليا استقبل الملك أونيوس، ملك كاليدون، ديونيسوس، الذي وقعَ في حب ألثيا، زوجة مضيفه. وتظاهرَ أونيوس بأنه لم يلاحظ وكافأه الإله على تكتّمه بإعطائه سويق الكرمة. ومن الزواج العابر بين ديونيسوس وألثيا ولِدَت ديانيرا.

في لاكونيا نزلَ ديونيسوس ضيفاً على الملك ديون الذي كانت لديه ثلاث بنات، فأُغرِمَ ديونيسوس بالصغرى، كاريا. فهدّدت الأختان الأكبر سناً بكشف أمر العلاقة لوالدهن. فأصابهما ديونيسوس بالجنون، ثم حوّلهما إلى صخرتين. أما كاريا، فكان مصيرها أن تتحول إلى شجرة جوز.

بعد اليونان القارّية زار ديونيسوس جزر أركيبيلاغو. وفي سياق هذه الرحلة تعرَّضَ الإله، وهو يسير ذات يوم على شاطئ البحر، للاختطاف على ايدي قراصنة التايرينيين ونقلوه إلى متن سفينتهم. أخذوه بوصفِهِ ابناً لملك وتوقعوا فديةً كبيرة. وحاولوا أنْ يوثقوه بحبلٍ ثقيل، ولكن عبثاً؛ كانت العقَد تنحلُّ من تلقاء ذاتها والأربطة تسقط على متنِ السفينة. أصيب الربان بالذعر وانتابه شعورٌ مُسبق بأنَّ الأسير مقدَّس وحاولَ أنْ يدفع رفاقه إلى تحريره. لكنَّ القراصنة رفضوا. ثم حدثت سلسلة من المعجزات. فمن حول السفينة المظلمة تدفقّ خمر لذيذ وعطر الرائحة، ونبات كرمة التصقَ بأغصانه إلى الشراع، بينما التفَّ اللبلاب بأوراقه الداكنة حول الصواري. والإله نفسه أصبحَ أسداً ذا مظهرٍ مخيف. أخذ البحارة يقفزون إلى البحر وقد انتابهم الرعب وتحوّلوا فوراً إلى دلافين. وحده الربان لم يتعرَّض له ديونيسوس.

في جزيرة ناكسوس لاحظ ديونيسوس وجود امرأة شابة نائمة على الشاطئ. كانت ابنة مينوس، أريادن، التي جلبها ثيسيوس معه من كريت وتركها هنا. حين استيقظت أريادن أدركت أنّ ثيسيوس قد تركها وأطلقت العنان لدموعٍ حرّة. وقد عزّاها وصول ديونيسوس وبعد مرور وقت قصير تزوجا. حضر الآلهة حفل الزفاف وأمطرا الزوجان بالهدايا. وأنجبَ ديونيسوس وأرديان ثلاثة أبناء: أونوبيون، يوانثيس وستافيلوس. كان لدى هومروس رواية مختلفة لقصة أريادن. فأريادن قد قتلت على يد أرتيميس وديونيسوس لم يتزوجها إلا بعد موتها. وفي ناكسوس يعرضون قبر أريادن ويُقام احتفالان على شرفها؛ واحد حزين، ينعي موتها؛ والآخر مرح، يحتفي بمناسبة زواجها من ديونيسوس.

أسفار ديونيسوس ومغامراته لم تقتصر على العالم اليوناني. فقد توجه إلى فريجيا، مصحوباً ببطانته من الساطير والمينادين، وهناك أدخلته سيبيل إلى أسرارها. وفي إفسوس في كابادوكيا حيث صد الأمازونيات. وفي سوريا حارب ضد دماسكيزو الذي دمَّرَ الكرمة التي زرعها الإله فعوقِبَ بسلخِهِ حياً. ثم توجّه إلى لبنان ليزور أفروديت وأدونيس اللذين كان يحب ابنتهما، بيروه. وبعد أنْ حكمَ بعضَ الوقت أيبريا القوقازية، تابع ديونيسوس رحلته إلى الشرق، عابراً نهر

دجلة على متن نمر أرسله إليه زيوس، ووصل بينِ ضفتي نهر الفرات بحبلٍ غليظ صُنعَ من أغصان الكرمة وحوالق اللبلاب، ووصلَ إلى الهند حيث نشر الحضارة. ونجده أيضاً في مصر حيث استقبله الملك بروتيوس؛ وفي ليبيا ساعدَ آمون على استعادة عرشه الذي كان قد انتزعه منه كرونوس والتيتان.

بعد تلك الحملات المجيدة عادَ ديونيسوس إلى اليونان. لم يعد ذلك الإله الريفي الهابط حديثاً من جبال بويوتيا. كان اتصاله بآسيا قد جعله أنثوياً: أصبح الآن يتقنَّع بقناع المراهق الجميل، الذي يرتدي رداءً طويلاً على الطراز الليدي. وأصبحتْ عبادته معقَّدة بشعائر معربدة مُستعارة من فريجيا. وهكذا استُقبلَ في اليونان بريبة، وأحياناً حتى بعدائية.

حين عادّ إلى تراقيا، أظهر ملك ذلك البلد، ليكرغس، عداءه ضده. اضطرَّ ديونيسوس إلى الفرار واللجوء إلى ثيتيس، في أعماق البحر: في تلك الأثناء، زجَّ ليكرغس بحاشية ديونيسيوس من الباختيين في السجن، فابتلى ديونيسوس البلد بالقحط، وحرم ليكرغس من عقله. وفي غمرة جنونه قتلَ ليكرغس ابنه، دراياس، الذي أخطأ فاعتقده سارق كرمة. لم يتوقف خراب تراقيا إلى أنْ أمرت نبوءةٌ بانتقال لكرغس إلى جبل بانغيوم حيث ديس حتى الموت تحت حوافر أحصنةٍ جامحة.

لم يكن استقبال ديونيسوس أفضل من قِبَل بنثيوس، ملك طيبة، الذي زجَّ بالإله في السجن. فهرب ديونيسوس دون عناء وابتلى أغاف، والدة بنثيوس، بالإضافة إلى نساء طيبة، بالجنون. وحُوِّلنَ إلى مينادات Maenads واندفعنَ إلى جبل سيثيرون حيث أقمنَ حفلات ديونيزية معربدة. وكان بنثيوس من الطيش بحيث لحقَ بهنَّ فقامت أمه بتمزيقه إرباً. وهذه الدراما المريعة تشكّلُ موضوع مسرحية يوروبيديس «كاهنات باخوس».

كانت هناك مأساة أخرى مشابهة تتناول سكان أرغوس الذين رفضوا أيضاً أنْ يعترفوا بقدسية ديونيسوس: فقد فقدت النساء عقولهن، ومزقنَ أولادهنَّ والتهمنهم.

من بين العقوبات التي أنزلها ديونيسوس، واحدة شهيرة جداً تخصّ بنات مينياس، ملك أركومينوس. كنَّ ثلاث أخوات: ألسيثوه، ليوسيب وأرسيب. ولما أنهنَّ رفضنَ الاشتراك في احتفالات ديونيسوس، قام بزيارتهن متخفّياً بصورة فتاة شابة وحاول أنْ يقنعهنّ برقّة. ولما لم ينجح، تحوَّلَ على التوالي إلى ثور، وأسد ونمر. وحين ارتعبنَ من تلك المعجزات فقدت بنات مينياس عقولهن وقامت إحداهن، لبوسيب، بتمزيق ابنها إرباً بيديها. وأخيراً حصلتْ لهنَّ تحولات: الأولى أصبحت فأراً، والثانية بوماً صيّاحاً، والثالثة بوماً.

منذ ذلك الحين لم يحلم أحد بإنكار ديونيسوس أو برفض عبادته.

توَّجَ الإله إنجازاته بهبوطه إلى العالم الأسفل بحثاً عن أمه، سيميلي. وبدَّل اسمها إلى ثايون وجلبها معه إلى أوليمبوس. وفي تروزن في معبد أرتيميس سوتييرا، يعرضون المكان الدقيق الذي عادَ إليه ديونيسوس من رحلته السفلية.

على جبل أوليمبوس لعبَ ديونيسوس دوراً في الصراع ضد العمالقة: فقد أدخلَ نهيق الحمار، الذي كان يمتطيه، الرعب في قلوب العمالقة فقتلَ ديونيسوس يوريتوس.

آلهة أجنبية تَمَثَّلَها ديونيسوس: إنَّ غزارة أساطير ديونيسوس تُفسّرها ليس فقط شعبيته الواسعة بل أيضاً لأنَّ شخصية ديونيسوس استوعبت، كما قلنا، شخصيات عدد من الآلهة الأجنبية، خاصةً سابازيوس الفريجي، وباساريوس الليدي وزاغريوس الكريتي. ولسوف نتوقف عند زاغريوس الكريتي نظراً لصلته بعبادة الأسرار الأورفية.

كان زاغريوس الكريتي على الأرجح موازياً لزيوس الهيليني، وتحت تأثير الصوفية الأورفية عملت المطابقة بين ديونيسوس وزاغريوس على إضافة عنصر جديد إلى أسطورة ديونيسيوس، وهو العنصر المتعلق بآلام الإله وموته ثم بعثه.

وهذا ما قالوه عن ديونيسوس ـ زاغريوس:

لقد كان ابن زيوس وديميتر ـ أو كور. وكان الآلهة الآخرون يشعرون بالغيرة منه وقرروا أنْ يغتالوه. وقد مزّقه التيتان إرباً وألقوا بجسده في المرجل. لكنَّ أثينا استطاعت أنْ تنقذ قلب الإله وأخذته على الفور إلى زيوس الذي ضربَ التيتان بصواعق وخلقَ من القلب، الذي كان لا يزال يخفق، ديونيسوس. أما زاغريوس، الذي دُفِنَتْ رُفاته عند سفح الجبلِ بارناسوس، فقد أصبح إلهاً للعالم السفلي وفي هيدس صار يرحب بأرواح الموتى ويساعد في تطهيرهم.

لقد أضافت الأورفية بعداً صوفياً على آلام وبعث الإله، وطرأ على شخصية ديونيسوس تغييرات عميقة. فلم يُعد ذلك الإله الريفي للخمر والمرح، الذي هبط من الجبال التراقية؛ بل حتى إنه لم يعُد إله الهذيان والعربدة، القادم من الشرق. ومنذ ذلك الحين أصبح ديونيسوس ـ بكلمات بلوتارك ـ «الإله الذي يختفي، ويتخلّى عن الحياة ومن ثم يولَد من جديد» لقد أصبحَ رمز الحياة الأبدية.

وهكذا ليس من المدهش أنْ نرى ديونيسوس مرتبطاً بديميتر وكور في الأسرار الإليوسيّة. ذلك أنه، هو أيضاً، كان يمثِّلُ أحد أعظم القوى الواهبة للحياة في العالم.

بطانة ديونيسوس: الآلهة الريفية

منذ أقدم العصور كانت احتفالات جمع الغِلال في اليونان مناسبات لمواكب مرحة يشتركُ فيها الكهنة والعباد من الرجال والنساء الذين يدعون بالباخيين والباخيات أو الميناثيين، وقد جرت العادة على تزويد ديونيسيوس بحاشية من الآلهة الثانوية التي ارتبطت بعبادته وهي: الساطير، السيليني، والبان، والبريابي، والقنطور، والحوريات.

الساطير والسيليني: إنَّ الساطير كانوا يمثّلون الأرواح البدائية للغابات والجبال كانوا أشبه بجان الغابات الذين يُسبِّب ظهورهم المفاجئ رعب الرُعاة والمسافرين. وكان شكلهم خليطاً من الحمير والتيوس بجباههم المنخفضة، وأنوفهم الفطساء، وآذانهم المُدبَّبة، وأجسامهم الكثيفة الشعر التي تنتهي بذيلٍ

ماعز، والحوافر ذات الأظلاف، هكذا على الأقلّ كان شكلهم البدائي؛ ولكن شكلهم تغير مع الزمن ولم يحتفظوا من الشكل الحيواني القديم إلا بالآذان المدببة والقرون الصغيرة على الجِباه، بينما حملَتْ قسمات وجوههم تعبير الشباب والرقة. كما تغيّرت شخصيتهم أيضاً. وفقاً لهزيود كان الساطير في الأصل سلالة كسول لا فائدة منها لا تحب إلا المسرّة والمرح الممتع. وبما أنهم حسيون وفاسقون كانوا يستمتعون بملاحقة الحوريات في أرجاء الغابات. ولاحقاً، على الرغم من أنهم احتفظوا بطبيعتهم الخبيثة، إلاّ أنهم اكتسبوا المزيد من الكياسة واختصوا في مسرّات الموسيقى والرقص. وكان هناك اعتقادٌ بأنهم إخوة الحوريات والكوريتيين. وهناك رواية أخرى تقول إنَّهم في الأصل من الرجال، أبناء هرمس وإفثيما، لكنَّ هيرا حوَّلتهم إلى حمير عِقاباً لهم على إهمالهم مراقبة ديونيسوس. لكنهم كانوا رفاقاً مخلصين للإله ولعبوا الدور الأساسي في احتفالاته العربيدة.

أحد أكثر الشخصيات فتنة في حاشية ديونيسوس كان سيلينوس، وهو رجل بدين، أصلع، وأفطس الأنف، ودائماً ثمل، ويتبع الإله وهو يتهادى بتقلقُل على متن حِمار. ومع ذلك فإن هذا الثمل الطروب كان مملوءاً بالحِكمة. كان معلّم ديونيسوس وساعدَ في تشكيل شخصيته. كانت معرفته واسعة، ويعرف الماضي والمستقبل، ويستطيع أنْ يكشف عن مصير كل مَنْ يستطيع أنْ يوثقه أثناء نومه الثقيل بعد إحدى نوبات سُكره. ولم يرَ أفلاطون أي ضير في مقارنة أستاذه سقراط بسيلينوس. يبدو أنَّ سيلينوس كان ابن هرمس والأرض. ويقول آخرون إنه وُلِدَ من دماء أورانوس بعد أنْ خصاه كرونوس. يقول بندار إنَّ زوجته كانت نيس.

في الواقع إنَّ اسم سيلينوس هو اسم جنس ينطبق على فئة من الآلهة الريفية، تشبه الساطير وغالباً ما تختلط بهم. ولم يكن السيلينيون من أهل اليونان الأصليين، ولكن من فريجيا، ويمثّلون جان الينابيع والأنهار. ويبدو أنَّ بسمهم يعني «الماء الذي يبقبق وهو يتدفق» وسِمتهم النهريّة جليّة من خصائص معيَّنة لأجسادهم. فخلافاً للساطير المنحدرين مباشرةً من التيوس، فإن السيلينيون

ينحدرون من الحصان ـ رمز الماء ـ الـذي لهـم ذيلـه، وحـوافره وحـتى أذنيـه. ومارسياس، الذي جُعِلَ في العموم ساطيراً، كان في الواقع من السيلينيين، وفي الوقت نفسه، إله نهر في فريجيا. ولهذا صوّتَ ميداس الفريجـي ـ الـذي تـرتبط قصته بصِلة وثيقة بقصة السيلينيين ـ لصالح مارسياس في المسابقة الموسيقية التي تنافس فيها مع أبولو.

بـان، أريـستيوس، بريـابوس: ثمـة إلـه آخـر انـدمجَ لاحقـاً مـع حاشـية ديونيسوس، وغالباً ما يُخلَط مع الساطير بسبب التشابه الشكلي معهم، هو الإله بان، الذي تمركزت عبادته طويلاً في أركاديا. وهكذا جُعِلَ ابـن هـرمس، الإلـه الأركادي العظيم. كانت أمه إما ابنة الملك درايوبس، الذي كـان هـرمس يرعـى قطعانه، وإما بينيلوبه، التي تقرَّب منها هرمس وهو على صورة تيس. ولان نفسه جاء إلى العالم وله ساقا وقرنا ولحية معزاة.

اقتُرِحَتْ تفاسير متعددة الأصل اسم بان. إنَّ الأنشودة الهومرية تربطه بالصِفة التي تعني «كل» بحجّة أنَّ مشهد بان فوق جبل أوليمبوس يُسلّي «كل» الخالدين. التحليل نفسه أثاره علماء الأساطير من مدرسة الإسكندرية الذين اعتـبروا "بـانَ" رمزاً للكون. وقد وجدَ ماكس موللر صِلة بين بان والكلمة السنسكريتيّة pavana، الريح، واعتقدا انَّ بان كان تجسيداً للنسيم الرقيق. ولكـن، في رأينـا يبـدو مـن الأرجح أنَّ الاسمَ ينحدر مـن الجـذر الـذي يعـني «يأكـل» والـذي اسـتمد منـه اللاتينيون صيغة الفعل pascere، «يرعى أو مرعى». لقد كان بان بحقّ قبـل كـل شيء إلهاً راعياً، للغابات والمراعي، حامي الرعاة والقطعان. عاش على سـفوح جبل مينالوس أو جبل ليكيوس، في الكهوف التي يعبده الرعاة الأركاديين فيهـا. هناك جعلَ الماعز والنعِاج غزيرة النسل ـ ومن هنا يأتي جانـب الإلـه القـضيبي ـ وسهّل على الصيادين قتل الحيوانات الضارية؛ وحين يكون الـصيد غـير نـاجح يقومون بسوط صورته على سبيل الانتقـام. كـان بـان نفـسه يبتـهج بـالتجوُّل في الغابات، واللعب والمرح مع الحوريات اللواتي كـان أحيانـاً يُرعبـهنَّ بمظهـره. وذات يوم كان يلاحق الحورية سيرينكس وكاد يـدركها عنـدما أطلقـتْ صـرخةً عالية تنادي أبيها، إله النهر لادون، لكي يحوّلها إلى قَصَبَة، واستُجيبَتْ صلاتها.

عزّى بان نفسه على خيبة أمله بقطع بعض القَصَبَات وصنع منها نايًا من نوعٍ جديد، وسمّاه السيرينكس، أو مزامير بان. وكان أكثر نجاحاً في محاولته مع الحورية بيتيس التي فضَّلَته على بورياس. واستشاط بورياس (الرياح الشمالية القارصة) غضباً ووثبَ على بيتيس، وأخذَ يضربها على صخرة فتكسَّرت عليها أوصالها. فأشفقت عليها غيا وحولتها إلى شجرة صنوبر. وقد قيل إنَّ بان نجحَ في غواية إلهة القمر سيلين؛ أخفى نفسه تحت جزّة صوف نعجة ناصعة البياض واستدرجها معه إلى الغابة، أو أنه اتّخذ شكل كبشٍ أبيض.

بقيَ فترةً طويلة سجين جبال أركاديا كان يتسلّى خلالها بإخافة المسافرين المنفردين فجأةً، ومن هنا جاءت كلمة panic التي تعني الرعب. ولم يلج أتيكا إلا في زمن الحروب الفارسية. وقُبيل معركة ماراثون ظهرَ للسفراء الذين بعثهم الآثينيون إلى إسبارطة ووعد بدفع الفارسيين إلى الفرار إذا ما وافقَ الآثينيون على عبادته في أثينا. وتعبيراً عن امتنانهم له أقاموا حَرَماً له على الأكروبوليس ومن هناك انتشرت عبادة بان في أرجاء اليونان كلها.

قلنا إنَّ بان أصبح أخيراً يرمز إلى الإله الكوني، الكل العظيم. بهذا الخصوص يروي بلوتارك كيف أنَّه في ظل حكم الإمبراطور الروماني تيبيريوس كان بحّار يبحر بالقرب من جزر الإيكينيدات عندما سمعَ صوتاً غامضاً يُناديه ثلاث مرات، قائلاً: «حين تصل إلى بالودي أعلِنْ أنَّ الإله بان قد مات». حدث ذلك بالضبط في الوقت الذي وُلِدَت فيه المسيحية. ولطالما بدت تلك المصادفة غريبة؛ ولكن رايناخ بيَّنَ أنَّ البحّار ببساطة سمعَ النواح الطقسي على شرف أدونيس.

كان لكل منطقة في اليونان بان خاص بها. سمّى ذلك الخاص بثيسالي آريستيوس. ولا شك في أنَّ هذا الأريستيوس كان إلهاً بدائياً عظيماً في هذه الأرض، ذلك أنَّ اسمه يعني «الجيد جداً» وهي أيضاً صِفة زيوس في أركاديا. ويقول بندار أيضاً إنَّ «هرمس حمل أريستيوس فور ولادته إلى غيا والهوريات اللواتي أطعمنه الرحيق وطعام الآلهة، وحوّلنه إلى زيوس، الإله الخالد، وإلى أبولو، النقي، حارس القطعان والصيد والمرج». ووفقاً لأسطورة أخرى كان أريستيوس ابن أورانوس وغيا أو أبولو وسيرين. وقامَ على تنشئته القنطور كيرون

وتعلَّمَ فنون الدواء والعرافة. وكان يُعتّبَر حامياً للقطعان والزراعة، خاصةً الكرمة والزيتون. وهو الذي علَّمَ البشر تربية النحل.

كان تأثيره المُحضِّر يُحسّ في أرجاء اليونان كلها. في بويوتيا تزوجَ ابنة قدموس، أوتونه، التي انجبَ منها ابناً، أكتيون. وخلال فترة إقامته في تراقيا وقع في حب بوريدايس، زوجة أورفيوس. وأثناء هروبها من أريستيوس عضّتها أفعى وماتت. وكانت نهاية أريستيوس غامضة؛ لقد اختفى عن وجه الأرض وهو على جبل هيموس.

بان مايسيا، في آسيا الصغرى، كان بريابوس. كان يُبجَّل خاصةً في لامبساكوس. أصله غامض. قيل إنَّ أمه كانت أفروديت أو كيونه ووالده ديونيسوس، أو أدونيس، أو هرمس أو بان.

وقيل إنَّ هيرا، بسبب غيرتها من أفروديت، جعلته يولد وفيه عيب عجيب يدينُ باسمه له. تخلَّت أمه عنه فأخذه الرعاة. وكان بريابوس يُهيمن على خصوبة الحقول والقطعان، وعلى تربية النحل، وتشذيب الكرمة وصيد السمك. كان يحمي البساتين والحدائق حيث توجد صورته القضيبية. ومن الواضح أنه انخرط في حاشية ديونيسوس عن طرق آسيا.

القناطير: بالإضافة إلى الساطير والسيلينيين كان هناك نوع آخر من المخلوقات الهائلة شكَّلَتْ جزءاً من بطانة ديونيسوس: القناطير. كان لهم جذوع ورؤوس بشر: أما باقي أجسادهم فتخصّ الحصان. لم يكونوا دائماً هكذا: الصور الأولى للقناطير تبيّنهم عمالقة ذوي أجسام كثيفة الشعر؛ ثم رُسِموا كرجال نصفهم السفلي حصان. وشكلهم النهائي لا يعود إلى أبعد من عصر النحات فيدياس.

بما أنهم السكان الأصليون لثيسالي، فإنَّ القناطير ينحدرون من إكسيون، ابن آريس. الذي كان ينوي الزواج من ديا، ابنة إيونيوس. ونشبَّ خلاف بين إكسيون وحمي المستقبل فرماه إكسيون إلى خندق يحترق. هذه الجريمة أثارت استنكاراً كونياً وأضطرَّ إكسيون إلى اللجوء إلى زيوس الذي قدم له الحماية. لكنَّ إكسيون كان من الوقاحة بحيث اشتهى زوجة زيوس، هيرا. ولكي يختبر المدى الذي يمكن لوقاحته أنْ تصل، شكَّلَ زيوس غيمة على صورة هيرا وأعطاها

لإكسيون ليتزوجها. ومن ذلك الزواج الغريب من نوعه ولِدَ وحش، قنطور، الذي هو بدوره تزوج من أفراس بليون، وأصبح والد سلالة من القناطير.

لقد فسَّرَ البعض هذا كله بأنه المُعادل الهيليني لغاندارفاس الفيدي. ولكنَّ الأرجح أنَّ القناطير ـ الذين أصل اسمهم يدل على «الذين يسوقون الثيران» ـ كانوا شعباً بدائياً من مربي الأبقار عاشوا في ثيسالي وكانوا، كأشباههم من رعاة البقر الأميركيين، يجمعون القطيع وهم على ظهور الخيل. كان سلوكهم فظاً وهمجياً، ومن هنا الهمجية التي تُنسَب دائماً إلى القناطير ـ المخلوقات الضخمة، القاسية، المنغمسة في الفسوق والسُكر.

لكنَّ بعضهم كانوا معروفين بحكمتهم. هكذا كان فولوس الذي يُسلّي هرقل. وخاصة كيرون الذي ثقّفه ارتيميس وأبولو كلّ من، وكان بدوره أستاذاً للعديد من الأبطال. ومات متأثراً بجرح سبَّبه له هرقل بسهمٍ مسموم، وتعذَّرَت معالجة الجرح فتنازل كيرون عن خلوده لبرومثيوس. ووضعه زيوس بين مصافَ النجوم حيث أصبحَ جزءاً من كوكبة برج القوس.

الحادثة الرئيسية في خرافة القناطير كانت معركتهم مع اللابيث بمناسبة زفاف بيريثوس. وكان اللابيث أيضاً قوماً رائعين من ثيسالي. وكان ملكهم، بيريثوس، يعقد قرانه على هيبوداميا؛ وكان قد دعا القنطور يوريتيون إلى الاحتفالات. فرح يوريتيون بالخمر وحاولَ أنْ يختطف العروس، لكنَّ ثيسوس منعه من فعل ذلك. وعادَ يويتيون إلى الهجوم مع مجموعة من القناطير مُسلّحة بألواحٍ من الحجر وبجذوع أشجار الصنوبر. ونشبت معركة كبرى خرج منها اللابيث أخيراً منتصرين، وذلك بفضل شجاعة ثيسوس وبيريثوس. وطورد القناطير حتى حدود إبيروس ولجأوا إلى سفوح جبل بندوس.

الحوريات: بين هؤلاء الآلهة الهمجيين والأفظاظ كانت الحوريات رائعات في سحر شبابهن وجمالهن.وكانت الحوريات في حاشية ديونيسوس من الجوانب كلها يشبهن أخواتهن اللواتي سكنَّ الأنهار والينابيع. وكالحوريات أيضاً في حاشية ارتيميس وأبولو كنَّ إلهات حارسات للغابات والجبال. أسماؤهن تختلف

باختلاف أماكن إقامتهنَّ، فالأوريات كنَّ حوريات الجبال والكهوف. والنابيات والأولونيادات، والهايليوريات والألسيدات سكنَّ الغابات والوديان. وحدهنَّ الدريادات حوريات الغابات مسؤولات عن الأشجار، ولا يشاركن أبداً في المواكب المقدسة. يتكلّلنَ بأغصان الزيتون، وأحياناً يتسلّحنّ بفأس لمعاقبة الإساءات إلى الأشجار التي يحرسنها، ويرقصن حول أشجار السنديان التي كنّ يقدسنها. وبعضهنَّ، الهامادريادات، كنَّ ما يزلنَ شديدات الالتصاق بالأشجار التي كان يُقال إنهن يُشكّلنَ جزءاً لا يتجزّأ منها.

من بين الحوريات اللواتي تبعنَ هيرا كان هناك أوريدة اسمها إيكو (الصدى) التي كانت كلما تودَّدَ زيوس لإحدى الحوريات عملَتْ على تشتيت انتباه هيرا بثرثرتها وغنائها. وحين اكتشفَتْ هيرا الأمر حرمَتْ إيكو من نعمة الكلام، وحكمتْ عليها بتكرار المقطع الأخير فقط من الكلمات المنطوقة في حضورها. وبعد ذلك بفترة قصيرة وقعَتْ إيكو في حب ممثل مسرحي شاب اسمه نرسيسوس. ولما لم تكن قادرة على إعلان حبها تخلّى عنها فذهبت لتدفن أحزانها في كهوف موحشة. وكانت محطمة الفؤاد، وتحوّلت عِظامها إلى حجارة، وكل ما تبقّى منها هو صدى صوتها. ونهايتها التعيسة تُعزى أيضاً إلى غضب بان الذي عجز عن كسب قلبها فمزّقها الرعاة إرباً. استقبلَت غيا رفاتها ولكن حتى وهي ميتة احتفظِتْ بصوتها.

أما نرسيسوس فعاقبته الآلهة لأنه تخلّى عن إيكو وحكمت عليه بعشق صورته. وقد تكهَّنَ العرَاف تايريسياس بأنَّ نرسيسوس سَيعش فقط حتى لحظة رؤيته لنفسه. وذات يوم كان نرسيسوس مائلاً فوق المياه الرائقة لنبع فلمحَ انعكاس صورته في الماء. فانتابه وَلَه شديد بصورته ولم يتمكّن من إبعاد نظره عنها، ومات فوراً من شدة الضنى. وتحوَّلَ إلى زهرة تحمل اسمه وتنمو على حواف الينابيع إنها زهرة النرجس.

ضحية أخرى للحوريات كان دافنيس الراعي الوسيم الصقلي. كان دافنيس ابن هرمس وإحدى الحوريات. كانت أمه قد تخلّت عنه فتولى الرعاة أمره وشاركهم حياتهم اليومية عند أعتاب قمة إتنا. وأحبته إحدى الحوريات، اسمها

إكينيس، أو زينيا أو ليسه، جعلته يُقسِم على الوفاء الأبدي تحت محذور فقدان البصر. لكنَّ الأميرة كيميرا أسكرته ونقضَ دافنيس قَسَمه وفي الحال فقدَ بَصَرَه. وحاولَ أن يواسي نفسه بالشِعر والموسيقى: وسُمّيَ بمُخترِع الشعر الريفي. وذات يوم قتلّ نفسه بالسقوط من أعلى جُرف.

حياة الإنسان

لم يكن زيوس، السيد المهيمن على البشر، يتحكّم مباشرة في مصائرهم. كان ينتدب لهذه المهمّة آلهة ثانويين كانوا يصحبون الناس طوال حياتهم المادية والأخلاقية.

آلهة المولد والصحة

ليثيا: في الأزمان البدائية كان هناك اثنتان تدعيان بهذا الاسم وكانت ابنتا هيرا تشرفان على ولادة النساء وتجلبان للحوامل الألم ـ سهام الليثياتان الحادّة ـ والولادة. ولا يمكن أنْ يولد أي طفل إلا إذا كنَّ حاضرات، ولا يمكن لأي أمّ أنْ تجد الراحة من دونهن. لهذا عندما كانت ليتو والدة الإله أبولو. في المخاض، احتفظت هيرا بليثيا على الأوليمبوس تسعة أيام وتسع ليال لكي تمنعها من معونة ليتو على إنجاب أبولو. وكرَّرت هيرا هذه المناورة حين أوشكت ألكمين أنْ تلد هرقل.

أخيراً اندمجت الليثياتان في شخصية واحدة، هي إلهة الولادة. في الواقع، كان يُعتَقد أنها إلهة كريت الأقدم عهداً. كانت تُصوَّر غالباً وهي راكعة، وهو وضع يُعتقَد أنه يساعد على الولادة، وتحملُ مشعلاً، رمز النور، بينما باليد الأخرى تقوم بإيماءة التشجيع.

أسكليبيوس: لقد رأينا، عندما نافشنا أبولو، في الواقع، الظروف المأساوية لمولد أسكليبيوس، ابن أبولو وكورونيس. فقد انتزعه أبولو من المِحرقة التي كانت قد التهمت جثة أمه وحمله إلى جبل بليون حيث عُهِدَ به إلى عناية القنطور كيرون. وقد علَّمه كيرون الصيد وعلم الأدوية. ثم بدأت مسيرة أسكليبيوس الطبيّة. وسرعان ما اكتسب بفضل علاجاته المعجزة شهرة واسعة. بل إنه نجح في

إعادة الموتى إلى الحياة، بفضل إما دم الغورغون الذي نقلته أثينا إليه أو إلى خواص نبات أخبرته أفعى عنه. وشعرَ هيدس إله العالم السفلي أنه قد ضُلِّلَ. فذهب إلى زيوس ليشتكي، فقرر زيوس أنَّ على البشر أن يرضخوا لقَدَرِهم. وعليه اعتبر أسكليبيوس مذنباً بتشويش نظام الطبيعة فضربه زيوس بصاعقة ومات.

انتقم أبولو لموت ابنه بإبادة السيكلوب الذين صنعوا تلك الصاعقة. نُفيَ أبولو من أوليمبوس لمدة طويلة من الزمن نتيجة هذه المذبحة.

في إبيداوروس سرتْ رواية أخرى عن مولد أسكليبيوس. قيلَ إنَّ كورونيس أنجبت ابنها أسكليبيوس بينما والدها، فليجياس، في حملة إلى بيلوبونيز. ثم تركت ابنها المولود حديثاً على جبل تيتيون حيث أطعمته عنزة وقام على حراسته كلب. وذات يوم اكتشفَ راع، اسمه أريثاناس، أمره فأصيبَ بضوء خارق كان يتراقص على الطفل.

مهما يكن، لطالما اعتُبرَ أن إله الصحة ولِدَ من النور والنار. كان يُعيد إلى المرضى الدفء الذي فقدوه. ولما كان هدفاً للتبجيل العظيم في اليونان. كان مُحاطاً بآلهة ثانوية: أولاً، إبيون، زوجته، التي أنجبَتْ الأسكيليبيادیان، بوداليريوس وماكيون. كلاهما لعبَ دوراً في حرب طروادة. وكانا لا يقلاّن براعة في الطب عن أبيهما. وماكيون، بالأخصّ، عالجَ مينيلاوس من جرحٍ سبّبه سهم. وشفى أيضاً فيلوكتيس. وهو نفسه قُتِلَ على أبواب طروادة وأعادَ نسطور جثمانه إلى اليونان. ونجا بوداليريوس من الحملة وأثناء عودته جرفته عاصفة إلى شواطئ كاريا فاستقرَّ هناك.

وكان لدى أسكليبيوس أيضاً بنات: إياسو، باناسيا، وإيغل، وقبلهم جميعاً، هايجيا، التي كانت شديدة الارتباط بعبادة والدها كإلهة صحة. وأخيراً يجب أنْ نذكُر الروح الحارسة للنقاهة، تيليسفوروس، التي كانت تُمثل وهي ترتدي عباءة بقلنسوة، زيّ الذين برؤوا حديثاً من المرض.

أسكليبيوس كان أحياناً يُمثَّل على صورة أفعى، ولكن في الغالب كرجل في منتصف العمر يحمل تعبيراً خيّراً، وكانت عبادته في الوقت نفسه ديانةً ونظام

علاج. أماكن عبادته، كالتي في تريكا، وإبيداوروس، وكوس وبرغاموس، بُنيَت خارج البلدات وفي أماكن صحيّة. كان الكهنة المسؤولون عنها يحتكرون معرفة طبيّة كانت توَّرث من الأب إلى الابن. ولم يُسمح للغرباء بالانتساب إلى الديانة إلا لاحقاً.

في احتفالات الـAsclepeia كانت تُقام طقوسٌ خاصة. فبعد الكثير من عمليات التطهُّر، والاستحمام، والصيام، والأضاحي، يُسمح للمريض بقضاء ليلة في معبد أسكليبيوس حيث ينام إما على جلد الحيوان المُضحى به أو على أريكة موضوعة بالقرب من تمثالٍ للإله. تلك كانت فترة حضانة المرض. وخلال الليل يظهر أسكليبيوس للمريض في منام ويعطيه نصيحة. وفي الصباح يؤوِّل الكهنة الحلم لشرح تصوّرات الإله. ويشكر المرضى أسكليبيوس ذلك برمي قطع الذهب في النافورة وبتعليق نذور على جدران المعبد.

آلهة تهتمُ بالأخلاق

موريات القدر: الموريات، اللواتي يُطلِقُ عليهن الرومان اسم الباركيه، كنّ بالنسبة إلى هومروس القَدرَ الفردي والمحتوم الذي يلحق بكل إنسان فانٍ. ولا يعاملن كإلهات إلا في كتاب أصول الآلهة لهزيود فحسب. كنّ ثلاثاً في العدد، بنات الليل، وكانت أسماؤهن: كلوثو، لاكسيس وأتروبوس. كلوثو، الغازلة، تُجسّد خيط الحياة. ولاكسيس كانت المصادفة، عنصر الحظ الذي يحقُّ للإنسان أن يتوقعه. وأتروبوس كانت القدر المحتوم، الذي لا رادَّ له. كانت حياة الإنسان كلها تُخيِّمُ عليها الموريات. فعند مولده يحضرن إلى سرير الولادة مع ليثيا. وعندما يتزوج كان لا بد من التضرُّع للموريات لكي يكون الزواج سعيداً. وعندما تقترب نهايته تهرع الموريات لقطع خيط حياته. وقد وضعهنَّ هزيود مع الكريات keres، وبذا منحهنَّ دور إلهات الموت العنيف.

رضخت الموريات لسلطة زيوس الذي أمرهنَّ بالسهر على أنْ يُحترَم النظام الطبيعي للأشياء. كنَّ يحضرنَ اجتماعات الآلهة ويمتلكن هبة التنبؤ.

نمسيس: مثل إلهات القَدَر، كانت نمسيس في أول الأمر فكرة أخلاقية عن توازن الوضع الإنساني. كان يمكن للإنسان أنْ يُثير سخط الآلهة بطريقتين، إما بإهانة قانون أخلاقي ـ وبذلك يُثير غضبهم ـ أو ببلوغ أكثر مما ينبغي من السعادة أو الثراء ـ وبذلك يُثير غيرتهم. وفي كلتا الحالتين تلاحق نمسيس، أو الغضب القدسي، الإنسان غير المحترس. فإذا كان قد أثار سخط الآلهة بسبب زيادة في حسن الحظ يمكنه أنْ يأمل باسترضاء الإلهة بالتضحية بجزءٍ من سعادته.

ارتعبَ بوليكريتس، طاغية ساموس، من الحظ غير المسبوق الذي لحق به، وتمنى أنْ يستبق غيرة الآلهة برمي خاتم لا يُقدَّر بثمن إلى البحر كان أثيراً لديه. ولكن حين عاد إليه الخاتم عن طريق صياد سمك كان قد عثر عليه في جوف سمكة، أدركَ بوليكريتس أنَّ نمسيس رفضتْ أنْ تقبل تضحياته وكانت التعاسة في انتظاره.

لاحقاً أصبحت نمسيس إلهة ذات شخصية أكثر تحديداً، وتعددت الرويات بخصوص نسبها. وطبقاً لبعضها كانت ابنة أوقيانوس، وطبقاً لأخرى كانت ابنة الليل وإريبوس، وفي هذه الحالة كانت تمثّل قوةً مميتة. ولكن حين جُعِلَتْ دايك أمها أضحت إلهة مُنصِفة. لكنها كانت دائماً مسؤولة عن التطبيق النظام. وكان أحد ألقابها أدراستيا ـ التي لا غِنى عنها. كانت أحياناً تُصوَّر وهي تضع إصبعاً على شفتيها ـ مما يوحي بالتزام الصمت لتفادي الغضب القدسي. والحَرَم الرئيسي لنمسيس كان موجوداً في رامنوس، وهي بلدة صغيرة في أتيكا.

كان هناك تمثالٌ للإلهة نحته فيدياس من الرخام الذي كان الفرس قد جلبوه نعهم، قبل بدء معركة الماراثون، لكي يُقيموا قوس نصر هناك.

تايكه، آته، والبتيات: لكي نُكمل لائحة الآلهة ذوي الوظائف الأخلاقية، نذكر تايكه، إلهة الحظ. هزيود سمّاها ابنة أوقيانوس وتيثيس. كانت تُرسَم بأشكال مختلفة في مدن مختلفة، وكل منها له نسخته الخاصة من تايكه، مزينة بتاج، وتضع عليها الرموز التي تدل على الوفرة.

من ناحية أخرى، كانت آته، ابنة إريس أو زيوس، إلهة حاقدة، تحثُّ الرجال على القيام بأعمال غير مسؤولة. تقود البشر والآلهة معاً إلى ارتكاب الأخطاء والانحراف. وهي التي، عند ولادة هرقل، أوحَتْ لزيوس بالقَسَم المتسرع الذي سبَّبَ للبطل ما تلا من بؤس. وعليه عاقبَ سيد الآلهة الخبيثة بإقصائها إلى الأبد عن أوليمبوس «وأطاحَ بها من أعالي السماء إلى قلب شؤون البشر».

من أجل إصلاح ما تفسده آته المُخادعة أرسلَ زيوس الليتيات خلفها. لكي يُخفّفن من الأفعال الشريرة التي تقوم بها. وكل مَنْ يُرحِّب بليته باحترام تنهال عليه البركات.

العالم السفلي

في أساطير اليونان كانت مناطق الجحيم هي المكان الكئيب الذي تلجأ إليه أرواح أولئك الذين تركوا أجسادهم وأنهوا وجودهم الأرضي. وكان هناك تصوران متواليان عن مكان وجود العالم الآخر. تقول سيرسي لأوديسيوس «العالم الآخر يقع في آخر الأرض، ما بعد المحيط الشاسع». وكان يُعتَقّد أنَّ سطح الأرض مُسطّح يحدّه ويحيط به نهر مُحيطي هائل. ويجب اجتياز هذا النهر من أجل الوصول إلى الشاطئ المنعزل والبري للمناطق الجحيمية. وهناك لا تنمو إلا أشياء قليلة، فالأرض جدباء ولا يمكن العثور على أحياء هناك، ذلك أنَّ أشعة الشمس لا يمكنها أنْ تنفذ إلى هذا المكان البعيد. وتوجد هناك أشجار حور سوداء، وصفصاف لا تحمل أي ثمار. وتخرج من الأرض نبتة زهر البرواق وهي زهرة جنائزية لا تُرى إلا في المقابر وبين الخرائب.

كان هذا ما وردَ في الشعر الملحمي. وقد تغيَّرَ هذا التصور مع تقدُّم علم الجغرافيا بعد أنْ اكتشف المُبحرون أنَّ في أقصى الغرب ـ حيث افتُرِضَ وجود المناطق الجحيمية ـ أرضٍ مأهولة في الواقع. ومنذ ذلك الحين فصاعداً ساد التصور الجديد عن مكان آخر لمملكة الظلال يقع في مركز الأرض. وبقيَ مكان الأشباح والغموض، وإريبوس. ولم تعد مداخله من خلال المحيط. كان العالم السفلي يتّصل بالأرض بأقنية مستقيمة. وكانت هناك كهوفُ أعماقها لا يمكن بلوغها يمكن أن تقود إليه، ككهوف أكيروسيا في إبيروس، أو هيراكليا بونتيكا.

وبالقرب من رأس تيناروم كان هناك إحدى بوابات المرور تلك، وأيضاً في كولونوس في مكانٍ مُكرَّس لليومنينيدات.

بالطريقة نفسها كان يُعتَقَد أنَّ بعض الأنهار التي كانت تجري جزئياً تحت الأرض تؤدي إلى المناطق الجحيمية. كذلك كان نهر أكيرون في ثيسبروتيا الذي يرفده الكوكيتوس. وزيادة على ذلك، لابد أنَّ أسماء تلك الأنهار أُعطيَتْ إليها بسبب الاعتقاد بأنها تخترق العالم السفلي. فأكيرون مُستمد من الكلمة التي تعني «بلوى». وكان نهر الحزن وكوكيتوس كان نهر التفجُّع.

على الرغم من أنَّ القُدامى وصفوا بعناية المظهر الخارجي للعالم السفلي ومداخله، إلاّ أنهم كانوا أشد إبهاما فيما يخص الداخل. عن هذا الجانب من المناطق الجحيمية ليس لدينا معلومات. واستناداً إلى ما يتوفَّر لدينا، فإنَّ العالم السفلي الحقيقي كانت تسبقه ردهة تُدعى أيكة برسيفوني: هنا توجد أشجار حور سوداء وأشجار صفصاف عقيمة. وكان يجب اجتيازها قبل الوصول إلى بوابة مملكة هيدس. وعند البوابة يقف سربيروس، كلب الحراسة ذو الخمسين رأساً. كان قد وُلِدَ من حب العملاق تايفيوس لأكيدنا. كان سربيروس يُصوَّر بأشكال مختلفة. فأحياناً كان له فقط ثلاثة رؤوس، وأحياناً أخرى كان وبره من الأفاعي وفمه يقطر بالسُم. كان مُخيفاً دائماً. ولكنَّ يمكن تهدئته برمي كعك من الطحين والعسل إليه. وقد استطاعَ هرمس أنْ يُهدِّئه بصولجانه، وسحره أورفيوس بأنغام قيثارته. وحده هرقل تجرَّأ على قياس قوته مع سربيروس، وبعد التغلُّب عليه، حمله برهة إلى الأرض. وسربيروس يُلوِّثُ الأعشاب بسُمِّه الذي جمعه السَحَرة لاحقاً واستخدموه في إعداد مشروبات قاتلة.

داخل العالم السفلي تجري أنهارٌ تحت أرضية: أكيرون مع رافده كوكيتوس، وأيضاً فليغيثون، وليثه، وأخيراً، الستيكس. كان أكيرون ابن غيا. وقد روى ظمأ التايتان أثناء الحرب مع زيوس ورُميَ به إلى العالم السفلي وهناك تبدَّلَ إلى نهر. ومن أجل اجتياز أكيرون كان من الضروري تقديم طلب لكارون، قائد العبّارة الرسمي في العالم السفلي. كان رجلاً عجوزاً قاسياً، صعب التعامل معه. فإذا لم يُقدِّم الميت حديثاً نقوداً إلى كارون، فسوف يُبعِد دون رحمة الدخيل الجاهل

بأسلوب التعامل المحلي. حينئذٍ يُحكَم على الشبح بالتجول على الشاطئ المُقفِر بغير هُدى. ولذلك يحرص اليونانيون على وضع قطعة نقود في فم الميت.

كان الستيكس يُحيط بالعالمِ السفلي؛ ويُجسِّد على صورة حورية، ابنة أوقيانوس وتيشيس. ويُقال إنّ التايتان بالاس أحبّها وأنجبَ منها زيلوس (الغيور)؛ ونايكه (النصر)؛ وكراتوس(القوة)؛ وبيا (العنف). ومكافأةً لها على المساعدة التي قدَّمتها للأوليمبيين أثناء تمرُّد العمالقة تقرَّرَ أنْ يُقسِمَ الخالدون باسمها، وتلك الأقسام لم تكن تُنقَض.

كان الذين يشربون من مياه نهر ليثه ينسون الماضي. وكان ليثه يجري وِفقاً للبعض، عند آخر الحقول الإليسية؛ ووفقاً لآخرين عند حافة تارتاروس. وكانت الحقول الإليسية وحافة تارتاروس المنطقَتين الرئيسيتين في العالم السفلي.

سيد العالم السفلي

كان يُدعى بلوتو، من الكلمة التي تعني «الخيرات». وهو الذي يتلقَّى الكنوز المدفونة؛ وعندئذٍ اعتُبِرَ إله الثروة الزراعية. ومن مركز الأرض كان ينشر تأثيره على الحراثة والمحاصيل.

وهو أيضاً هيدس ـ وكان يُسمّى أيضاً أدونيوس ـ ابن ريا وكرونوس الذي التهمه أبوه كما التهم إخوته وأخواته. ولحسن الحظ أنقذه أخوه زيوس، وأعطاه حصّته من الإرث وهي مملكة العالم السفلي.

حكمِ هيدس هذه المنطقة حكماً مُطلقاً. بدا سعيداً هناك ولم يُرَ خارج مملكته إلا في مناسبتين: مرةً لكي يخطف برسيفوني وفي الأخرى حين خرج بحثاً عن بان لكي يُشفيه من الجرح الذي سبَّبه له هرقل الذي ضرب كتفيه بسهم حادّ النصل. ومن ناحية أخرى، إذا رغب في الخروج من العالم السفلي، لا أحد يستطيع أنْ يراه: لأنَّ خوذته كانت تجعله خفيّاً.

لم يكن هيدس زوجاً شديد التقلُّب. ولم تتذمَّر برسيفوني من خيانته إلا مرتين. في الأولى حين أبدى اهتمامه بمينث، وهي حورية من نهر كوكيتوس. ولاحقت برسيفوني ـ أو ربما كانت ديميتر ـ الحورية التعسة وأخذت تدوسها

بقدميها بوحشية. فحوّلها هيدس إلى نبتة كانت تنمو أولاً في تريفيليا: هي النعناع الذي أضحى مقدَّساً بالنسبة إلى هيدس.

جلبَ هيدس أيضاً ابنة لأوقيانوس إلى مملكته، اسمها ليوس، ماتت ميتة طبيعية وأصبحت شجرة حور بيضاء، شجرة الحقول الإليسية. وحين خرج هرقل من العالم السفلي كان متوَّجاً بأوراقها.

لم يكن هيدس يُبجَّل كثيراً، وإنْ كان مثل بلوتو يتلقَّى الكثير من التقدير. وذلك لأنَّ هيدس كان في الأصل إله الرعب، والغموض.

ولكي يصلي المرء عليه ـ كما يقول هومروس ـ أن يضرب الأرض بيديه العاريتين أو بقضبان. ويُضحَي له بنعجة سوداء أو بكبشٍ أسود. والنباتات التي كانت مقدَّسة للإله هي شجرة السرو وزهرة النرجس.

بيرسيفوني

يظهر اسم زوجة هيدس بأشكالٍ متعددة: فهي بيرسيفوني، وبرسيفوناي، وفيرسيفون، وبرسيفاسا، وفرسيفاتا. ومن الصعب اكتشاف أصل هذه التنوعات كلها ويُعتَقَد أنَّ النصف الأخير من كلمة بيرسيفوني يأتي من كلمةٍ معناها «يُرى» ويُثير فكرة النور. ومن الصعب تقرير إنْ كان النصف الأول مُستمَدّ من كلمة معناها «يدمّر» ـ في هذه الحالة يكون معنى بيرسيفوني هو «تلك التي تدمِّر النور» ـ أو من الجذر الظرفي الذي يعني «البريق المُبهِر» كما في اسم برسيوس.

إنَّ المشكلة معقَّدة من حيث أنَّ بيرسيفوني ليست إلهة جحيمية صِرفاً. وقبل أنْ تتزوج من هيدس عاشت على الأرض مع أمها التي حبلَتْ بها من زيوس. كان اسمها حينئذٍ كور.

من المحتمل أنَّ الأم والابنة كانتا إلهة واحدة. فكما رأينا، كانت ديميتر تهيمن ليس على سطح الأرض فحسب، بل أيضاً على داخلها. وبالتالي تنقسم شخصية ديميتر بحيث إن وظيفتها التحت أرضية انتقلت إلى إلهة مستقلة هي ابنتها.

سوف نستعيد الظروف الدراماتيكية لاختطاف كور: كيف فاجأها هيدس وهي تجمع الأزهار من أحد الحقول، وحملها بعربته وغاصَ بها في أعماق الأرض، وكيف قبِلَتْ ديميتر، حين عجزت عن استعادة ابنتها بشكل كامل، عرضَ الآلهة بأنْ تُمضي بيرسيفوني نصفَ العام معها.

إنَّ أسطورة بيرسيفوني تقتصر على هذه الحادثة الوحيدة، على الرغم من أنَّ المنتسبين الجُدد للأورفيّة كانوا يحاولون أنْ يُثروها بجعل الإلهة أم ديونيسوس - زاغريوس. كانت بيرسفيوني الحبيسة في مملكة الظلال، مثل هيدس، مُستثناة من الانفعالات التي تسيطر على الآلهة الأخرى. وفي أحسن الأحوال قبل إنها شعرت بميلٍ معيَّن نحو أدونيس الجميل.

بوصفها إلهة العالم السفلي كانت رموزها هي الخفّاش، وزهرة النرجس، وثمرة الرمان. كانت تُشرَّف في أركاديا تحت أسماء بيرسيفوني وسوتيريا وديسبونيا. وتشرف في ساردیس وصقليا أيضاً. ولكن بشكل عام كانت عبادتها مندمجة مع عبادة ديميتر وشعائر الاثنتين كانت في الغالب متشابهة.

هيقاتي

ينبغي النظر إلى هيقاتي على أنها إلهة من العالم السفلي، على الرغم من أنها كانت في الأصل إلهة قمرية. كانت تسكن تراقيا القديمة وتشبه من نواحٍ معينة أرتيمس التي كانت في وقتٍ ما مندمجة معها. ويبدو اسمها هو الصيغة الأنثوية لأحد ألقاب أبولو «الرامي إلى البعيد».وهكذا يجعلها هزيود ابنة التيتان برسيس والتيتانة أستريا، وكلاهما رمز للنور الساطع. وبقيتْ شهصية هيقاتي القمرية موجودة دائماً: ولقد شهدت مع هليوس عملية اختطاف هيدس لكور.

كانت هيقاتي قوية في السماء كما على الأرض؛ كانت تمنح البشر الثراء، والنصر والحِكمة؛ وتسهر على ازدهار القطعان وتهيمن على الإبحار. وخلال الحرب مع العمالقة كانت حليفةَ زيوس؛ وهكذا بقيَتْ مُحترمة على جبل أوليمبوس.

تقول روايةٌ لاحقة إنَّ هيقاتي كانت ابنة زيوس وهيرا. وقيل إنَّها استفزَّت غضب أمها بسرقة أحمر شفتيها لتُعطيه ليوروبا. وهربت إلى الأرض واختبأت في منزل امرأة كانت قد أنجبت طفلاً لتوّها، وقد تلوّثت هيكيت منها. ولكي تزيل تلوثها غمسها كابيري في نهر أكيرون، وهكذا أصبحت هيقاتي إلهة من العالم السفلي. وفي المناطق الجحيمية كانت سلطة هيكيت هائلة: كانت تسمّى برايتانيا الموتى أو الملكة التي لا تُقهَر، وهيمنت على عمليات التطهير والتكفير. وكانت إلهة وسائل السحر. وأرسلَتْ شياطين إلى الأرض لكي يُعذبوا البشر. كانت هي نفسها تظهر ليلاً بصحبة حاشية من كلاب الجحيم. والأماكن التي كانت تسكنها في الغالب هي تقاطع الطرق، أو بالقرب من القبور أو مسارح الجرائم. وهكذا كان يمكن مشاهدة صورها عند تقاطع الطرق، على هيئة أعمدة أو تماثيل للإلهة بثلاثة أوجه ـ كانت تُدعى هيقاتي الثلاثية ـ وفي عشية اكتمال القمر، تُترَك التقدِمات أمام تلك الصور لاسترضاء الإلهة الشهيرة.

مساعدو هيدس

ثاناتوس وهيبنوس: ثاناتوس ـ الموت ـ يزوِّد طبعاً هيدس برعاياه. كان ابن الليل. ويُبيِّنُه يوروبيدس وهو يرتدي ثوباً أسود ويحمل بيده سيفاً بتَاراً، ويسير بين الرجال. ولكن في المعتاد لا يظهر الموت بتلك الصورة المشؤومة؛ كان ثاناتوس يُمثَّل عادةً كروحٍ مُجنَّحة. عندئذٍ يشبه تماماً أخاه هيبنوس ـ النوم ـ الذي يعيش معه في العالم السفلي. وهيبنوس يجلب النوم إلى عيون الناس بلمسهم بصولجانه أو بتهويتهم بأجنحته السوداء. وكانت لديه سلطة أيضاً على الآلهة ويُخبرنا هومروس كيف اتّخذ، بطلبٍ من هيرا، شكلَ طائر ليليّ وجلبَ النوم إلى جفون زيوس على جبل إيدا. وكانَ ابن هيبنوس هو مورفيوس، إله الأحلام.

الكيرات keres: كانت الكيرات تنفذ إرادة الموريات أو الأقدار وكنَّ ولا شك يُخلطنَ معهن. وحين كانت الإلهات الحقودات يحددن ساعة الحتف، تظهر الكيرات اللواتي يقبضنَ على البشري التعيس، ويوجّهنَ إليه الضربة الحاسمة، وينزلنَ به أرض الظلال. ووسط المعركة يمكن مشاهدتهن يحوِّمن، بعينٍ متلألئة، وفم مُكشِّر، وأسنان حادة يتعارض بياضها مع اكفهرار وجوهن. كن يرتدين أثواباً

حمراء ويصرخنَ بصوت مُقبض بعد أنْ ينتهين من أمر الجريح. ثم يحفرنَ بمخالبهنَّ الحادة، ويشربنَ الدماء الجارية. ولا عجبَ أنهنَّ لُقِّبنَ بكلاب هيدس.

الإرينيات: كانت الإرينيات يُسمّين أيضاً في وقت من الأوقات «كلاب هيدس». هنَّ أيضاً كنَّ إلهات جحيم مهمّتهنَّ الخاصة كانت معاقبة قتلة الأقرباء وأولئك الذين يحنثون بوعودهم. كان أصلهنَّ غامضاً؛ وِفقاً لهزيود ولِدنَ لغيا التي خصبتها دماء أورانوس. ويسميهن أسخيلوس «أطفال الليل السرمدي»، وسوفوكليس «بنات الأرض والظل». ويبدو أنهنَّ عُبِدنَ أولاً في أركاديا حيث كانت تُعبد ديميتر الإيرينية، ومنها أخذنَ اسمهنَّ. بقي عددهن لمدة طويلة غير مُحدَّد، ولكن لاحقاً ثبتَ عند ثلاثة حين أصبح لهنّ أسماءهنَّ المفردة: تريسيفون، وميغارا وأليكتو.

حين كانت تُرتكَب جريمة في العائلة ـ وفوق كل شيء حين تتلطَّخ يديّ ابن بدماء أبويه ـ تظهر الإلهات السوداوات فوراً. شعورهنّ تعجُّ بالأفاعي، ومُسلّحات بمشاعل وسياط. يجلسنَ على عتبة منزل المذنب ويكون من العبث الفرار. حتى في العالم السفلي يسعين إلى الانتقام ويعذبنَ المذنب في تارتاروس.

انتشرت عبادة الإرينيات في أرجاء اليونان كلها، وقبل أي شيء في أثينا حيث هناك معبد خاص بهنّ بالقرب من الأريوباغوس. هنا كنَّ يُحترمنَ تحت اسم اليومينيدات ـ الخيّرات، وذلك بسبب ـ الاعتدال الذي أبدينه في معاملتهن لأوريستس، الذي، بعد أن قتل أمه بالتعاون مع اخته اليكترا انتقاماً لأبيهما أغاممنون، جاء لاجئاً إلى أثينا.

الحياة في العالم السفلي: أرواح الموتى، بعد أنْ تغادر الأرض، لا تحتفظ إلا بذكرى باهتة عن شخصياتها السابقة. من الناحية الجسدية كانوا شفّافين ومن دون قوام مادي. ومن الناحية المعنوية كانوا أيضاً أشباحاً: اختفت شجاعتهم وذكاؤهم. عدد قليل جداً من الأشخاص، المميَّزين منهم، عاشوا في العالم السفلي كما عاشوا على الأرض، وتولّوا الأعمال ذاتها. استمرَّ أوريون يصطاد، ومينوس يُحاكم الأرواح، وهرقل بقيَ مستعداً دائماً للإطاحة بوحشٍ أو بآخر.

باختصار، كان العالم السفلي، بهذا التصوُّر البدائي له، أشبه بالمنزل أو المُعتزَل الموحِش. ووحدهم المذنبون بوضوح يعانون العذاب المؤبَّد.

ولكن شيئاً فشيئاً أصبح يُنظَر إلى العالم السفلي، ليس على أنه أرض النسيان، بل كمكان لإقامة العدل حيث كل شخص يلقى ما يستحق.

لدى وصول الأرواح تمثُل أمام المحكمة المؤلّفة من هيدس وثلاثة من المستشارين: أياكوس، ومينوس ورادمانثيس.

بعد أنْ تُفحَص أرواح الموتى وتصدر الأحكام في حقهم، كانوا إما يُبعَدون إلى تارتاروس أو يُنقلون إلى الحقول الإليسية أو جزر المباركين.

كانت تارتاروس ببواباتها الرونزية المكان الكئيب للذين ارتكبوا جرائم في حق الآلهة. كانت مُحاطة بجدار ثلاثي وتغسلها مياه الفليغيثون. والجادة التي تقود إلى تارتاروس كانت مُغلقة ببوابة من الماس. هنا كان أسوأ السجناء هم التيتان والعملاق تيتيوس الذي يقتات نسرَان عليه لأنه حاولَ أنْ يغتصب ليتو. وكان يمكن مشاهدة تانتالوس أيضاً، الذي يتعذَّب إلى الأبد بالجوع والعطش؛ وسيزيفوس، الذي كان يدحرج صخرته دون هوادة إلى أعلى الجرف؛ وإكسيون، المربوط إلى دولابه الملتهب الدائر في الهواء؛ والدانيدات، المحكوم عليهن بملء برميل بلا قعر إلى الأبد.

في الحقول الإليسية، على العكس، لم يكن الثلج والمطر والعواصف معروفة. كان نسيمُ عليل يُنعِش دار السعادة تلك التي كانت في أول الأمر تقتصر على أطفال الآلهة، ولكن لاحقاً فُتِحَتْ للمُفضَّلين من الأولمبيين ولأرواح الأبرار.

الأبطال

فكرة اليونانيين عن البطل: لم يكن البطل اليوناني دائماً مخلوقاً خارقاً ينتمي إلى الآلهة. جعله هومروس جعله رجلَ قوةٍ وشجاعة أو مخلوقاً يتلقّى تبجيلاً خاصاً لحِكمته، مثل ليرتس، وأيجيبتوس وديمودكوس. كان يمكن للبطل أنْ يكون أيضاً ببساطة أميراً من عائلةٍ شهيرة مثل أوديسيوس أو مينيلاوس، على سبيل المثال. وذلك على الرغم من أنّ أبطال قصائد هومروس ينتمون إلى الآلهة.

هزيود من ناحية أخرى عمَّمَ فكرة الإنسان المتفوِّق وتحدث عن أصوله. ووفقاً له، الأبطال كانوا ذرية الجيل الرابع من الرجال الأسطوريين، الذين لعبوا دوراً في معارك طروادة وطيبة. وفي تلك الحقبة كان الآلهة غالباً ما يخالطون البشر.

عبادة الأبطال: العبادة التي كان اليونانيون يؤدونها لأبطالهم تشبه إلى حدٍ بعيد التكريس الذي يُشرّفون به أسلافهم. كانوا يعتقدون أنَّ البطل في الواقع ما هو إلا سلفهم الشهير. وفي آخر النهار كانت الأضاحي تُقدَّم إلى الأبطال والأسلاف على قدم المساواة: فتوجَّه الضحية المقدَّمة نحو الغرب وعند أعتاب المذبح يُحفَر خندق ليتلقّى رأس الضحية. لكنَّ الدور الرئيسي للبطل كان أنْ يتوسط بين البشر والآلهة. وعندما يُصبح البشر بعد الموت ظلالاً واهية، يحتفظ الأبطال بخصائصهم الأصلية ويستطيعون أنْ يتشفّعوا للبشر. باختصار، الأبطال، الذين في الأصل كانوا بشراً مثاليين، أصبحوا أشباه آلهة، وفي هرم المراتب يحتلون موقعاً متوسطاً بين البشر والأولمبيين.

هرقل:

لسنا واثقين كثيراً من أصل كلمة هرقل (هيراكليس، وهي الصيغة اللاتينية لكلمة هرقل، المستعملة طوال الوقت هنا). وقد اقتُرِحت الفرضيات المختلفة لشرح الاسم. وادّعى القدماء أنَّ هرقل سُمّيَ هكذا لأنه يدين بمجده إلى هيرا. وتُرجِمَ الاسم أيضاً بمعنى «مجد الهواء». ولكنَّ ليس أي من النظريات المُقدَّمة أفضل من غيرها.

وظائف هرقل: كان يُنظَر إلى هرقل كتجسيد للقوى الجسدية. ومن ناحية كونه البطل ـ الرياضي فإنَّ تأسيس الألعاب الأولمبية يُنسب إليه. ويقول بندار إنه أعدَّ القواعد كلها والتفاصيل. ولكنَّ الوظيفة الأساسية لهرقل كانت أنْ يلعب دور الحامي. وحين أصبح البشر في خطر كان هرقل Alexikakos ملاذهم الرئيسي. ونتيجة لذلك كان يتمتع بقوى طبيّة: كان يُستحضر في حالة الأوبئة، في حين أنّ بعض الينابيع الشافية في هيميرا وثرموبيله كانت مقدّسة بالنسبة إليه. أخيراً، وبوصفه هرقل موساغيتس كان يعزف على القيثارة أحياناً. وباختصار، كان يُهيمنُ على أوجه الثقافة الهيلينية كلها، وبعد أن أصبحَ إله البراعة الجسدية، أصبح الإله الذي غنى عن النصر وصحب صوته عزف القيثارة. كان أكثر من أي شخص آخر صديق البشر ومستشارهم.

صوره التمثيلية وعبادته: صُوِّرَ البطل الممجَّد، والرياضي الذي لا يُقهَر، على هيئة رجل ناضج ذي قوة عضلية فائقة، ورأسه صغير الحجم بالنسبة إلى جسمه. وفي العموم نرى هرقل يقفُ متكئاً على هراوته الثقيلة. في التماثيل الكاملة والنصفية التي تصوّره نلاحظُ وجود تعبير صارم على وجهه، وكأنَّ هرقل القاهر الأبدي، لم يعرف الراحة أبداً. إن مظهره يوحي بأنه ينتظر مهمةَ خارقة أخرى لإنجازها.

لقد كان هرقل يُبجَّل كباقي الأبطال وبالشعائر نفسها، لكنَّ عبادته كانت أكثر شيوعاً. كان اليونانيون كلهم يحترمونه. وفي الحقيقة فقد اتخذت بطولاته من العالم الهيليني كله مسرحاً لها. وكانت طيبة وآرغوس هما المركزان اللذان انطلقَتْ منهما أسطورته.

مولد هرقل. طفولته ومآثره الأولى: ولد هرقل من امفتريون ملك طيبة وزوجته الكمين. وكان امفتريون هو حفيد البطل المعرف بيرسيوس. ولكن الأب الحقيقي لهرقل كان زيوس نفسه الذي اتخذ شكل امفتريون عندما كان غائباً في إحدى حملاته. بعد ذلك عاد أمفتريون وضاجع ألكمين أيضاً، ومن المضاجعتين المتاوليتين أنجبت توأماً: هرقل وامفيكليس.

في يوم مولد هرقل أقسم زيوس أمام آلهة الأوليمبوس على سليل البطل بيرسيوس الذي يوشك أن يولد سوف يكون حاكماً على اليونان كلها. لدى سماعها هذه الكلمات هرعت هيرا، التي علمت بخيانة زيوس وبأبوته لهرقل، إلى آرغوس، وهناك جعلت زوجة ثينيليوس الذي كان أحد أولاد بيرسيوس، تلد قبل الأوان لكي ينطبق على مولودها قسم زيوس من دون هرقل. وفي الوقت نفسه أطالت مخاض ألكمين أم هرقل، وهكذا ولد يوريستيوس قبل هرقل واضطر زيوس إلى الاعتراف به حاكماً على اليونان وفاءً بقسمه. وكان على هرقل طوال حياته أن يتولى أشق المهمات الذي يفرضها عليه منافسه الذي تدعمه هيرا. ومع ذلك فإن رغبة هيرا في الإنتقام لم تُطفأ. فعندما كان هرقل رضيعاً أرسلت عليه أفعوانين هائلين لقتله في المهد، ولكن هرقل قبض عليهما وخنقهما. وبعد ذلك أوكل أمفتريون أمر تربية وتثقيف ابنه هرقل إلى معلمين شهيرين هما رادمانثيس الذي علمه الحكمة والفضيلة، ولينوس الذي علمه الموسيقى. ومن ثم أرسله إلى الجبال لكي يعيش بين الرعاة ويطور قوته الجسدية. ويقال إنه في سن الثانية عشرة قتل أسداً ضارياً بيديه العاريتين. وبينما كان يكمن للأسد في بيت الملك ثيبيوس استغل الفرصة وضاجع بنات مضيفه البالغ عددهن خمسين في ليلة واحدة.

بعد ذلك بوقتٍ قصير دافعَ هرقل عن مدينة مسقط رأسه في وجه مدينة أوركومينوس. وقابلَ رسولها، الذي كان قد وصل إلى طيبة لجمع الأتاوة، وقطعَ له أنفه وأذنيه. وهكذا بدأتْ الحرب. وقُتِلَ أمفيتريون، الذي كان يُقاتلُ إلى جانب ولَديه. لكنَّ هرقل، بعونٍ من أثينا، هزمَ إرجينوس، ملك أوركومينوس. وأصبحَ كريون ملك ذلك البلد ومنحَ ابنته ميغارا لهرقل زوجةً له. وكان زواجهما تعيساً، فأرسلَتْ هيرا إلى هرقل، عفريتة الجنون. المدعوة ليسا، التي أفقدته عقله. وفي إحدى نوبات جنونه لم يتعرف على أولاده وحسبهم أولاد يوريسثيوس، فذبحهم مع أمهم. وبعد هذه الجريمة الفظيعة اضطرَّ هرقل إلى الفرار من البلد. ذهبَ إلى أرغوليس وهناك أمضى اثنا عشر عاماً راضخاً لأوامر ملكها يوريسثيوس الذي فرضَ عليه تنفيذ المهمات الاثنتا عشرة المستحيلة. إذ هكذا أمرت كاهنة دلفي حين استشارها هرقل، عندما أراد أنْ يُزيل عار جريمته.

الأعمال الاثنا عشر:

الأسد النيمي: الوحش الأول الذي كان على هرقل أنْ يقتله هو الأسد النيمي الذي لا يجرحه سلاح، وقد أمره يوريسثيوس بإعادة جلده معه. حاولَ هرقل عبثاً أن يخرق الوحش بسهامه، ثم قاتله بيديه وأخيراً خنقه بقبضته القوية. لكنَّه احتفظ بالجلد لنفسه وصنعَ منه رداءً جعله منيعاً ضد الأذى. ثم عادَ إلى تيرينس وهو يرتدي تذكار النصر هذا.

هيدرا الليرنيّة. هذه الهيدرا، المولودة من طايفون وإكيدنا، كانت أفعى ضخمة ذات تسعة رؤوس. يقع وكرها في مستنقع بالقرب من ليرنا في البيلوبونيز. كانت تندفع لتلتهم القطعان وتعيث فساداً في المحاصيل: إلى جانب أنَّ أنفاسها سامّة إلى درجة أنَّ كل مَنْ يشعر بها يسقط ميتاً.

وصلَ هرقل إلى ليرنا يصحبه أيولاوس، ابن إفيكلس، وعثر على الوحش بالقرب من نبع أميمون وأجبرها على الخروج من المستنقعات بواسطة سهام ملتهبة. ثم حاولَ أنْ يتغلب عليها بقوة هراوته ولكن عبثاً: إذ كلما أطاحَ بأحد رؤوس الهيدرا التسعة نبت اثنان مكانه. ثم أضرمَ أيولاوس النار في الغابة المجاورة بمساعدة جمرات ملتهبة أحرقَتْ رؤوس الأفعى. وقطعَ هرقل رأس الأفعى الأخير وأحرقه. ثم نقعَ سِهامه في دماء الهيدرا فجعلها سامة وقاتلة.

الخنزير البري المتوحش في إريمانثوس: هذا الحيوان المتوحش هبط من جبل إريمانثوس، على الحدود مع أركاديا وأكايا، وخرَّبَ منطقة بسوفيس. ونجحَ هرقل في أسره وحمله إلى تيرينس. وقد ارتعبَ يوريسثيوس من مرأى الوحش إلى درجة أنه فرَّ هارباً واختبأ داخل جرة من البرونز.

في طريقه إلى جبل إريمانثوس كان هرقل قد نزل في ضيافة القنطور فولوس، الذي فتح على شرفه برميلاً من الخمر اللذيذ كان قد تلقّاه هدية من ديونيسوس. اجتذبَتْ وليمة الخمر قناطير أخرى وجاؤوا ركضاً إلى منزل فولوس، مُسلَّحين بالحجارة وبأشجار تنوب مُقتلَعَة، ليُطالبوا بحصتهم من الخمر. فطردهم هرقل بسِهامه. فهلك معظم القناطير ولجؤوا إلى مكان بالقرب من رأس ماليا.

الطيور الستيمفالية: كانت مستنقعات ستيمفالوس في أركاديا مأهولة بطيورٍ ضخمة أجنحتها ومناقيرها ومخالبـها مـن الحديـد. كانـت تقتـات علـى اللحـم الإنساني وكانت كثيرة العدد بحيث أنها حين كانت تحلّق تحجب نـور الـشمس. فأخافها هرقل بصنوج نحاسيّة وذبحها بالسِهام.

أيلة جبل سيرينيا. ثم أمر يوريسثيوس هرقل بأنْ يُعيد إليه أيلة جبـل سـيرينيا حيّةً. كانت حوافرها من البرونز وقرونها من الذهب. لاحقها هرقـل طـوال عـامٍ قبل أنْ يتمكَّن من القبض عليها على ضِفاف نهر لادون.

إسطبلات أوغياس: كان أوغياس، ملك إليس، يمتلك عدداً لا يُحـصى مـن قطعان الماشية بينها اثنا عشر ثوراً مقدّساً بالنسبة إلى هليوس. وكان أحدها اسمه فيثون يمتاز بأنه يسطع كنجم. ولسوء حظ تلـك الحيوانـات الرائعـة فقـد كانـت تُقـيمُ في إسطبلات قذرة، يتكوَّم فيها روث سنوات عديدة. وذات يوم أخذ هرقل على عاتقـه أمر تنظيفها شريطة أنْ يُعطيه الملك عُشر القطيع. ولكي يفعل ذلك خلعَ جدران البناء. ومن ثم غيِّرَ مسار النهرَين ألفيوس وبينيوس، وجعلهما يجريان عبر مـأوى الأبقـار. وبعد انتهاء العمل رفضَ أوغياس تنفيذ ما يتوجب عليه من الصفقة، بحجّة أنَّ هرقل إنما يُنفِّذ فقط أوامر يوريسثيوس. ولاحقاً اضطرَّ البطل إلى معاقبته على خداعه ذاك.

الثور الكريتي: كان بوزيدون قد أعطى مينـوس ثـوراً، مُعتقـداً أنَّ مينـوس سوف يُقدِّمه كأضحية له. ولما لم يفعل الملك ذلك، أصابَ بوزيـدون الحيـوان باجنون. فسرى الرعب في البلاد واستنجدَ مينوس بهرقل الذي تـصادفَ أنْ كـان في ذلك الوقت في كريت. ونجحَ البطل في أسر الحيوان وحمله وعبرَ بـه البحـر عائداً إلى أرغوليس.

أفراس ديوميدس: كان لديوميدس، ابن آريس وملك البيستونيين، أفـراس يُطعمها من لحم البشر. فدخل هرقل بصُحبة بضعة متطـوعين، إلى تراقيـا وأسـرَ تلك الأفراس الرهيبـة، بعـد أنْ قتـلَ حُراسـها. وانطلـقَ نفـير الإنـذار، فوثـبَ البيستونيون عليه وبدأت المعركة. وأخيراً تغلَّبَ هرقل على المعتدين عليه وقُـدِّمَ ديوميدس إلى أفراسه لكي تأكله.

يُقال إنَّ إنقاذ ألكيستيس تمَّ في ذلك الوقت. كان أدميتوس، ملك فيريه، قد حصل من إلهات الأقدار، عبر وساطة أبولو، تطميناً بأنه لن يموت إذا ما وافقَ أحدٌ على أنْ يموت بدلاً عنه. وعندما حانت لحظته المشؤومة حلَّتْ زوجته، ألكيستيس، محلَّه. وعندما أوشكوا أنْ يدفنوا المرأة التعيسة تصادفَ أنْ كان هرقل ماراًّ فاشتبكَ بمعركة مميتة مع ثاناتوس ـ الموت نفسه. ونجحَ هرقل في انتزاع ألكيستيس من قبضة الموت وأعادها إلى زوجها.

حزام هيبوليت: كانت هيبوليت، التي يُسمّيها البعض ميلانيب، ملكة الامازونات في كابادوكيا. وكعلامة على سيادتها كانت تملك حزاماً رائعاً أعطاها إياه أريس. وقد اشتهت أدميت، ابنة يوريسثيوس، إلى أقصى حد قطعة الزينة تلك، ولذلك صدرت أوامر لهرقل بإحضاره. وانطلقَ، مصحوباً بعدد من الأبطال المشهورين ـ ثيسيوس، وتيلامون، وبليوس. محطة توقفه الأولى كانت باروس حيث حاربَ مع أبناء مينوس. وبعد ذلك وصلَ إلى مارياندين في ميسيا حيث ساعد الملك ليكوس في التغلب على البيبريسيس. وتعبيراً عن امتنانه بنى ليكوس بلدة هيراكليس بونتيكا.

حين وصلَ أخيراً إلى بلد الأمازونات لم يواجه هرقل أي عقبات في أول الأمر: وافقتْ هيبوليت على إعطائه الحزام. لكنَّ هيرا استشاطت غضباً، فتنكَّرتْ بصورة إحدى الأمازونات، وأخذت تنشر قصة مفادها أنَّ هرقل خطَطَ لاختطاف الملكة. فتهيّأت الأمازونات بأسلحتهنّ. اعتقدَ هرقل أنهنَّ خدعنه، فقام بذبح الأمازونات، مع ملكتهنّ. وأخذَ الحزام وانتقلَ إلى طروادة.

قطيع غريون: كان غريون وحشاً بثلاثة أجساد سيطرَ على الساحل الغربي لأيبريا أو، وِفقاً لآخرين، على إبيروس. وكان يمتلك قطيعاً من الثيران الحمراء يحرسها الراعي يوريتيون والكلب أورثروس. وبأمرٍ من يوريسثيوس قتل هرقل يرويتيون، وأورثروس وأخيراً غريون، وأسرَ القطيع. وفي طريق عودته خاض مغامرات متنوعة. فذبحَ أبناء بوزيدون الذين حاولوا أنْ يسرقوا الثيران، واضطرَّ إلى التوجه إلى إريكس، ملك الإليمان، في صقيليا، ليعيد أسر ثور كان قد فرّ ووضِعَ في إسطبلات إريكس، لكنَّ إريكس رفض أنْ يُعيد الحيوان إلا إذا فازَ

هرقل عليه في سلسلة من مباريات الملاكمة والمصارعة. وقد استطاعَ هرقل في نهاية الأمر أنْ يقتله. وفي تلال تراقيا أرسلتْ هيرا على القطيع ذبابة خيل أثارت جنونها؛ فتناثرت بين الجبال ولم يتمكن هرقل من إعادة جمعها إلا بعد جهدٍ جهيد. وبعد أنْ فعلَ ذلك جلبها إلى يوريسثيوس الذي ضحّى بها من اجل هيرا.

في سياق هذه الرحلة اخترقَ هرقل بلاد الغال وهناك ألغى تقديم الأضاحي البشرية. وتقاتلَ مع الليغوريين بمساعدة الحجارة التي جعلها زيوس تنهمر من السماء وغطَّت سهل كراو. ورفضَ نهر ستريمون أنْ يسمح له باجتيازه فقام بملء حوضه بالحجارة.

تفاحات الهسبيريدات الذهبية: بعد ذلك أمر يوريسثيوس من هرقل أنْ يجلب له التفاحات الذهبية التي تحرسها الهسبيريدات، وهنَّ بنات أطلس وهسبيروس، في حديقتهنَّ الرائعة في أقصى أقاصي غرب العالم. فسافرَ هرقل أولاً شمالاً، وعلى ضفاف نهر إريدانوس نصحته حوريات النهر باستشارة نريوس بخصوص الطريق. ونجحَ هرقل في أسر الإله المتنبّئ الذي أخبره كيف يصل إلى حديقة الهسبيريدات. أثناء اجتياز هرقل لليبيا اختبرَ قوته مع أنتيوس، وهو قاطع طريق هائل كان يُجبر المسافرين على مصارعته. وكان أنتيوس ابن غيا، الأرض الأم، ويتمتع بالقدرة على استعادة قوته بمجرّد لمس بقدميه. وفي نهاية المطاف خنقه هرقل حتى الموت بحملِهِ عالياً في الهواء مع سلاحه. وبعد ذلك هاجمَ الأقزامُ هرقل أثناء نومه، فخاطهم داخل جلد الأسد، ثم وصل إلى مصر حيث كان البوسيريس، الملك، يُضحّي بشخص أجنبي كل عام لكي يضع حداً للمجاعة الرهيبة السائدة. واختيرَ هرقل كأضحية، ووضِعَ في الأغلال ونُقِلَ إلى المعبد. ولكنه فجأةً طرح السلاسل عنه وذبحَ البوسيريس وابنه أمفيداماس (إفيداماس). ثم استأنفَ رحلته عبر أثيوبيا حيث قتلَ إماثيون، ابن تيثونوس، ووضعَ مكانه ممنون. وعبر البحر في السفينة الذهبية التي منحته إياها الشمس. وفي كاوكاسوس ذبحَ بسِهامه النسر الذي نهش كبد برومثيوس. وأخيراً وصلَ إلى حديقة الهسبيريدات، فقتلَ التنين لادون الذي يحرس المدخل، وحاز على التفاحات وأعطاهم ليوريسثيوس. فأهداها يوريسثيوس له فقدَّمها هرقل بدوره إلى أثينا التي أعادتها إلى الهسبيريدات.

ورُوي أيضاً أنَّ أطلس ساعدَ هرقل في تلك المغامرة. فأقنعَ أطلس أن يجلب له التفاحات ريثما يقوم هو، هرقلٍ، بدعم العالم بكتفَيه. وعندما عادَ أطلس مع التفاحات كره أنْ يستأنف عمله المرهِق التقليدي وكان يمكن أنْ ينجح في ذلك لولا أنَّ هرقل كان أشد ذكاءً منه.

رحلة هرقل إلى العالم السفلي: حين يئس يوريسثيوس من إرهاق هرقل أمره، كعمل ختامي، بإحضار سربيروس، حارس بوابات الجحيم. فانتسب أولاً إلى الأسرار الجحيمية في إليوسيس ومن ثم، بقيادة هرمس، طرقَ الممر التحت أرضي الذي يهبط حتى رأس تيناروم. وهرب الجميع من طريقه ما عدا ميليغر والغورغون. وبعد مسافة أخرى التمس ثيسيوس وبيريثوس، اللذان كانا قد غامرا بطيش بولوج العالم السفلي، مساعدته. فأنقذَ هرقل ثيسيوس، لكنه مُنِعَ من إنقاذ بريثيوس بهزّة أرضية مفاجئة. وحرَّر أسكالافوس من الصخرة الضخمة التي كانت تسحقه، وأطاح بمينوتس، أو مينوتيوس راعي هيدس، وجرح هيدس نفسه وأخيراً حصلَ على الإذن من هيدس في أخذ سربيروس، شريطة أنْ يتمكن من التغلُّب على الوحش من دون أي سلاح سوى يديه العاريتين. وثبَ هرقل على سربيروس وأخيراً تغلَّب عليه بالخنق. ثم جرَّ الوحش من مؤخر عنقه وأعاده إلى الأرض، وعرضَه على يوريسثيوس، ومن ثم أعاده من جديد إلى هيدس.

مآثر أخرى لهرقل: حين تحرَّرَ على الأقلّ من العبودية، انطلق هرقل، وهو أبعد ما يكون من الاتكاء على أمجاده، لخوض مغامرةٍ جديدة. فقد وعد الملك يريتوس بتزويج ابنته يول لمن يستطيع أن يهزمه في مسابقة الرمي بالسهام، وصلَ هرقل وتبارى معه وخرج منتصراً، فرفضَ الملك الوفاء بتعهّده. وبعد ذلك بوقت قصير طلبَ إفيتيوس، ابن الملك، من هرقل أنْ يساعده في البحث عن بعض الجياد المسروقة، فثار غضب هرقل عليه وقتله. بسبب هذه الجريمة ذهبَ هرقل إلى دلفي ليتطهَّر. ولكن بيثا عرافة دلفي رفضت ذلك، فسرق هرقل منصبها الثلاثي وفر هارباً. تبعَ ذلك شجار عنيف مع أبولو اضطرَّ زيوس إلى التدخل فيه. وأخيراً حكمَتْ النبوءة على هرقل بالعبودية مدة عام، واضطرته إلى تسليم أجره لمدة عام إلى يريتوس. فاشترت أومفيل، ملكة ليديا، البطل حين عُرِضَ للبيع

كعبدٍ بلا اسم، مقابل ثلاثة تالنتات. وعلى الرغم من الرواية التي تبيِّن هرقل خلال تلك الفترة وقد رقَّتْ حاشيته بالملذات وارتدى ثوباً شرقياً طويلاً وجلس يغزل الصوف عند قَدَمَيّ سيدته، فإنه لم يبقَ خاملاً. فقد أسرَ السيركوبوس، وهم شياطين أشرار وخبثاء كانوا، ربما، مجرد جماعة من قُطّاع الطُرق يعسكرون بالقرب من إفسوس. وقتلَ ملك أيوليس، سيليوس، الذي كان يُجبر الغرباء على العمل في كروم عنبه ومن ثم يقطع أعناقهم. وخلَّصَ ضفتَّي نهر ساغاريس من أفعى عملاقة كانت تخرِّب المناطق الريفية، وأخيراً رمى ليتيرسيس القاسي في المياندر. وكان من عادة ليتيرسيس أن يجبر الغرباء على مساعدته في جمع الحصاد ومن ثم يقطع أعناقهم بالمنجل. وغمر الإعجاب سيدته أمفيل وأعادت للبطل حريته.

ثم عُرِضَ على هرقل أنْ يُنقذ هزيون، ابنة لاوميدون، ملك ليوم. هذه الأميرة التعسة كانت قد رُبطَتْ بسلاسل إلى صخرة، كقربان لتهدئة غضب وباء انتشر في المنطقة. وكان قد جاء تنين لالتهامها، فمنع هرقل حدوث تلك المأساة، لكنَّ لاوميدون رفض أنْ يمنحه الجائزة المُتَّفَق عليها. فعاد البطل إلى ليوم مع ست سفن، وحاصر المدينة، وأخذها قسراً، وقتلَ لاوميدون وأبناءه، وأعطى هزيون كزوجة إلى صديقه تيلامون. وأثناء رحلة عودته انجرفَ على شواطئ جزيرة كوس بعاصفةٍ أثارتها هيرا. استقبله أهالي الجزيرة استقبالاً سيئاً فانتقمَ لنفسه بنهب الجزيرة وقتل ملكها، يوريبايلوس. بعد ذلك، لعب دوراً في فليغرا في المعركة التي نشبت بين الآلهة والعمالقة.

لم يكن هرقل قد نسي بعد خداع أوغياس في قضية الإسطبلات الأوغياسيّة. فمشى ضدّه وخرَّبَ منطقته. واضطرَّ في تلك المناسبة إلى محاربة المولينوديين، أبناء بوزيدون. وقد قيل إنهم فقسوا من بيض فضي وإنَّ لهم جسم واحد ورأسان، وأربع أذرع وأربع سيقان.

أثناء ضربه للحصار حول بايلوس تقاتلَ هرقل مع بيريكليمينوس الذي كان يتمتَّع بالقدرة على التحوُّل. وعندما حوَّل بيريكليمينوس نفسه إلى نسر قضى عليه هرقل بضربة من هراوته.

أيضاً أعادَ هرقل تنداريوس إلى عرشه بعد أنْ كان هيبوكون وأبناؤه قد خلعوه عنه. وأثناء مروره بأركاديا أغوى هرقل أوغ، ابنة أليوس وكاهنة أثينا. أنجبتْ له ابناً هو تيليفوس، فخبّأته في معبد الإلهة. غضبت أثينا جراء هذا التدنيس، وأرسلتْ وباءً إلى البلد. علِمَ أليوس بأمر عار ابنته وطردها. فلجأتْ إلى الملك تيوثراس في ميسيا وتخلّصت من طفلها بتركه على جبل بارثينيوس. وعندما أصبحَ تيليفوس رجلاً خرج يفتش عن أمه. فعثر عليها في ميسيا، وكاد يتزَّوج منها، بما أنها لم تتعرَّف عليه، لو لم يتدخَّل هرقل ويمنع ذلك السِفاح.

آخر مغامرة لهرقل وقعِّت في ايتوليا وفي أرض تراخيس. فلقد حصل على ديانيرا، ابنة أونيوس، ملك الأيتوليين، زوجةً بعد انتصاره على متقدِّم آخر لطلب يدها، إله النهر أخيلوس. ولكن بُعيدَ اغتياله غير المقصود ليونوموس الشاب، الذي كان خادماً على مائدة طعام حميه، اضطرَّ هرقل إلى الفرار من البلد، مع زوجته. وحين وصلَ إلى نهر إيفينوس أعطى هرقل ديانيرا إلى القنطور نيسوس ليعَبُرَ بها إلى الضفة المقابلة. ولكن في منتصف المسافة حاول نيسوس أنْ يغتصب ديانيرا. شاهدَ هرقل ما حصل وفي الحال سدَّدَ إليه أحد سِهامه. ولما مات نيسوس أعطى دماءه لديانيرا، وقال لها إن هذه الدماء سوف تعمل على المحافظة على حبها وإخلاصها لزوجها.

لسوء الحظ كان هرقل عندئذٍ يحمل الفكرة المشؤومة حول العودة لمعاقبة يوريتوس. وقتلَ يوريتوس وأبناءه، وأخذ يول التي لم يكفّ أبداً عن حبها. وفي طريق عودته توقف في سينيوم في يوبويا ليضحّي لزيوس. وقبل أنْ يفعل ذلك أرسل رفيقه ليخاس إلى ديانيرا في تراخيس لإحضار رداء أبيض. أبدت ديانيرا قلقها لوجود أنَّ يول مع زوجها، فتذكَّرت كلمات نيسوس، ونقعَتْ الرداء في دم القنطور قبل أن ترسله إلى هرقل، آملةً بذلك أنْ تستعيد حبّه.وما أنْ لبس هرقل الرداء حتى شعرَ بأنَّ ناراً تلتهمه من الداخل. وكاد الألم يُثير جنونه، فقبضَ على ليخاس من قدميه وأطاح به إلى البحر، ثم أخذ ينتزع أشجار الصنوبر من جذورها وصنعَ محرقة جنائزية، وارتقاها وأمرَ رفاقه بإشعالها، فرفضَ الجميع. وأخيراً أشعلَ بوياس، والد فيلوكتيتس، خشب الصنوبر فكافأه هرقل بإعطائه قوسه وسِهامه.

طقطقَ اللهب وتصاعد من حول البطل. حين وصل إلى جسده هبطَتْ غمامة من السماوات وإذا بابن زيوس يختفي عن أنظار البشر وسط أصوات الرعد والبرق. وسُمِحَ له بالانضمام إلى أوليمبوس حيث تصالح مع هيرا. وتزوج من ابنتها هيبه ومنذ ذلك الوقت عاش حياةً الخالدين المباركة والرائعة.

ثيسيوس وأبطال أتيكا

مولد وشباب ثيسيوس: كان ثيسيوس، مثل هرقل، قاهر الوحوش العظيم؛ ومثل هرقل مات ميتةً تراجيدية. ومولده أيضاً كان مُشابهاً لمولد البطل الطيبيّ. أمه كانت إيثرا، ابنة بيتثيوس، ملك تروزن، وقد أحبَّها إيجيوس، ملك أثينا، وأيضاً بوزيدون. وهكذا كان لثيسيوس، الذي وُلِدَ من ذلك الزواج المزدوج، والدان، بشري وإلهي. واضطرَّ إيجيوس إلى العودة إلى أثينا قبل مولد الطفل وأخفى سيفه وصندله تحت صخرة ثقيلة. وحين بلغَ ثيسيوس أشدَّه بحيث يستطيع أنْ يرفع الصخرة ويعثر عليهما، جاء إلى أثينا وانضمَّ من جديد إلى والده. وهكذا أمضى ثيسيوس طفولته مع أمه. وحين بلغ السادسة عشرة كشفَتْ له إيثرا عن سرّ مولده وأرته صخرة والدة الشهيرة. عندئذٍ رفعَ ثيسيوس الصخرة الضخمة، وامتلك سيف والده وصندله وانطلقَ قاصداً أثينا.

مآثره الأولى: مغامراته الأولى ظهرت وهو يقوم برحلته إلى أثينا. فبالقرب من إبيداوروس قتلَ لصاً خطيراً، هو بيريفيتيس، ابن هيفيستوس، وأخذ منه هراوته الرهيبة. وفي غابات إسثموس ابتلى سينيس، ابن بوزيدون، بالعذاب نفسه الذي سبَّبه سينيس للآخرين: أي، تمزيقهم إرباً وذلك بربطهم إلى أشجار صنوبر قافزة. قتلَ خنزير كروميون البري، واسمه فايا. وعلى منحدرات ميغاريس رمى سكيرون إلى صخرة ضخمة. وكان سكيرون يُجبر المسافرين على غسل قدميه وحين ينحنون ليفعلوا ذلك يرفسهم ويرميهم من فوق الجرف إلى البحر وهناك تلتهمهم سلحفاة متوحشة. وفي إليوسيس تغلَّبَ على سرسيون الأركادي، وبعد ذلك بقليل، وضعَ حداً لسلسلة جرائم العملاق بوليبيمون، المعروف باسم بروكرستس، الذي كان يُجبر ضحاياه على الاستلقاء على سرير، فإذا كان السرير قصيراً عليهم عمد إلى قطع ما يزيد عن طولهم عنه. وعلى العكس، كان يمطّهم إذا كان السرير أطول مما

ينبغي. فأجبره ثيسيوس على الخضوع للمعاملة نفسها وقتله. وعندما تطهَّرَ بعد كل ذلك القتل على ضفاف نهر سيفيسوس، وصل ثيسيوس أخيراً إلى أثينا.

كان قد ارتدى رداءً أبيض وصفَّفَ شعره الأشقر الجميل بعناية. فسخر العمال الذين يبنون معبد أبولو دلفينيوس من الجو البرئ الذي يُحيط به ومن مظهره المفرط الأناقة. ودون أنْ يتنازل ويردّ التقطَ عربة ثقيلة تجرها الثيران وأطاحَ بها من فوق المعبد. ثم وصلَ إلى قصر والده. وفي تلك الأثناء كان إيجيوس قد تزوج ميديا التي كانت غريزياً غيوراً من الوافد الجديد المجهول. وأثناء المأدبة التي تلت ذلك حاولت أنْ تُسمِّمه. وحين استلَّ ثيسيوس سيفه، تعرَّف والده على السيف وعليه. وبعد ذلك أبعدَ إيجيوس ميديا وأولادها وتقاسم العرش مع ابنه. ومنذ ذلك الوقت حارب ثيسيوس ليعزِّز من سلطة والده. أولاً قضى على البالانتيدات اللواتي كنَّ بنات أخ لإيجيوس وخطَّطن للإطاحة بعمهن، ثم خرج للبحث عن ثور متوحش كان يعيثُ خراباً في أتيكا. ونجحَ في أسر الوحش بالقرب من ماراثون، وأعاده إلى أثينا وضحّى به لأبولو دلفينيوس.

ثيسيوس والمينوطور: وسط هذا كله وصل سفراء من كريت للمرة الثالثة لجمع الإتاوة السنوية المؤلفة من سبع عذارى وتسعة شبان والتي فُرِضتْ على أثينا منذ اغتيال أندروجيوس. كان أولئك الشبان البائسون يُرمون، لدى الوصول إلى كريت، طعاماً لوحش اسمه المينوطور. انطلقَ ثيسيوس مع الضحايا وهو ينوي قتل الوحش، وأخبر والده أنه إذا انتصر فسوف تعود السفينة وهي ترفع شراعاً أبيض اللون؛ وإذا اندحر فسوف تُرفع الراية السوداء. وعندما وصلَ إلى كريت قال ثيسيوس إنه ابن بوزيدون. ولكي يختبر تفاخره ذاك قذفَ مينوس ملك كريت بخاتم ذهبي إلى جوف البحر وطلب من البطل إعادته إليه. غاصَ ثيسيوس وعاد بالخاتم وبتاج كان مينوس قد فقده في البحر. ووقعَتْ أريادن، ابنة مينوس، في حب ثيسيوس وأمدَّته بكرة من الخيوط استطاع بواسطتها أنْ يعرف الطريق خلال المتاهة التي كان يعيش فيها المينوطور، فقتله وعاد. بعد أنْ ذبحَ الوحش غادر كريت مصطحباً أريادن وأختها فيدرا معه: لكنه ترك أريادن على جزيرة ناكسوس. وقد رأينا سابقاً كيف واساها ديونيسوس.

وسط فرح الانتصار نسيَ ثيسيوس أنْ يُغيِّر الشراع الأسود الذي كانت السفينة ترفعه. شاهده إيجيوس من الشاطئ وحين اعتقدَ أنَّ ابنه قد مات، رمى بنفسه في البحر. وقد احتفظ الآثينيون بالسفينة التي استُخدِمت في تلك الحملة بكل احترام وحافظوا بكل حرص على إصلاحها. وقد سُمِّيَتْ البااليا. وفي كل عام كانت تحمل هدايا من أتيكا إلى دليوس.

آخر مآثر ثيسيوس: لدى موت والده أصبحَ ثيسيوس ملكاً على أتيكا، فوحَّد شعبها وزوده بمؤسسات مدنية راقية. فبنى في آثينا مجلساً للشعب، وقسَّمَ المواطنين إلى طبقات، وأقام معابد وأنشأ الرابطة الأثينية. وفي الوقت نفسه واصلَ حياة التجوال والمغامرة.

رافقَ هرقل في حملته ضد الأمازونات، واشتركَ في اصطياد خنزير كاليدون وأبحرَ مع الأرغونوت. وكان يصحبه عادةً صديقه المخلص بيريثوس الذي كان في أول الأمر عدوّه. ومع بيريثوس هاجم أيضاً الأمازونات وخطف إحداهن، أنتيوب ـ مما شكَّل دافعاً للأمازونات لغزو أتيكا. وأنجبت له أنتيوب ابناً، هيبوليتوس، ولكنه تخلّى عنها وتزوج فيدرا. ومرةً أخرى ذهبَ مع بيريثوس إلى إسبارطة وخطف هيلين الصغيرة. واقترعا فيما بينهما فكانت من نصيب ثيسيوس. ولكي يواسي نفسه قرَّر بيريثوس أنْ يخطف بيرسيفوني، وانطلقَ البطلان إلى العالم السفلي. ونجحا في ولوجه. لكنهما لم يتمكّنا من الخروج منه ثانية وتطلبَ إنقاذ ثيسيوس مساعدة هرقل. وعندما عاد إلى أثينا وجدَ الملك في منزله حالة من الصخب والهرج. فقد جاء الديوسكوري (كما كان إخوة هيلين يُلقّبون)، لكي يستعيدوا أختهم؛ وكانت فيدرا تضمرُ حباً سفاحياً لهيبوليتوس ابن زوجها. ولكن هيبوايتوس صدها. وفي غمرة حزنها أخبرت فيدرا ثيسيوس أنَّ ابنه يراودها عن شرفها، فأسرع ثيسيوس إلى تصديقها بسذاجة، وطرد هيبوليتوس واستجلب غضب بوزيدون على الشاب. فاستدعى الإله وحشاً بحرياً بثَّ الرعب في جياد عربة هيبوليت، فسُحِقَ هيبوليت حتى الموت. ويمكن مشاهدة ضريحه في تروزن بالقرب من ضريح فيدرا. وفي المعبد المُكرَّس له تعلِّق العذراوات، في ليلة زفافهن، خصلة من شعورهن.

إثر مصاب ثيسيوس بتلك المآسي المريرة ترك أثينا وقصد سكيروس حيث حل ضيفاً على ملكها ليكوميدس. ولكنَّ ليكوميديس كان يشعر بالغيرة من شهرة ضيفه الواسعة فتآمر عليه ورماه في البحر. ودُفِنَتْ رفات ثيسيوس في سكيروس ولاحقاً عثر كيمون عليها وأعادها إلى أثينا ووضعها في غرفة مقدسة خاصة من الثيزيوم.

بيلروفون وأبطال كورينث

سيزيفوس: إذا كان بيليروفون أشد أبطال كورينث شجاعة، فإنَّ جدَّه، سيزيفوس، كان أشدهم دهاءً. كان سيزيفوس ابن أيولوس وهو الذي أسّسَ إفيرا، الاسم القديم لكورينث. وسيزيفوس هو الذي أخبر إله النهر أسوبوس أنَّ زيوس خطف ابنته إيجينا. وفي ثورة من الغضب أرسلَ زيوس ثاناتوس إليه، لكنَّ الماكر سيزيفوس نجحَ في إيقاع إله الموت في الفخ وتطلَّبَ إطلاق سراحه تدخّل آريس. وهذه المرة اضطرَّ سيزيفوس إلى الاستسلام لمصيره. ولكن قبل أنْ يموت نصحَ زوجته بألاّ تشرّفه بإقامة جنازة. وما أنْ وصل إلى العالم السفلي توجّه من فوره إلى هيدس ليشتكي من إهمال زوجته ويطلب منه السماح بالعودة إلى الأرض برهةً لكي يُعاقبها. أتاح له ما طلب، فعادَ سيزيفوس إلى الأرض ورفضَ أنْ يرجع إلى العالم السفلي. واضطرَّ هرمس إلى التدخُّل شخصياً في شأن تلك الروح المتمردة. وعوقبَ سيزيفوس لسوء نيّته بالحُكم عليه بدحرجة صخرة إلى الأبد على سفح جبل، وكلما أوشك أنْ يصِلَ به إلى القمة، يعود فيتدحرج هابطاً من جديد.

بيليروفون: كان لسيزيفوس ابن يدعى غلوكوس، أهانَ أفروديت، وفي سياق ألعاب رياضية، وطأته جياده وقتلته، وكانت الإلهة قد ضربت الجياد بجنون. وبعد ذلك ظلَّتْ روح غلوكوس تُخيفُ الخيول. وكان ابن غلوكوس المدعو هيبونوس، أوسع شهرةً باسم بيليروفون، وهو اسم خُلِعَ عليه بعد أنْ اغتال كورينثياً اسمه بيليروس. وتكفيراً عن جريمته ذهبَ بيليروفون إلى قصر بروتوس، ملك تايرينس. وعلى الفور وقعَتْ زوجة الملك المدعوة ستينبويا، في حب البطل الشاب. فوبّخها بيليروفون فقالت لزوجها إنه حاولَ أنْ يغويها. لم يجرؤ بروتوس على قتل رجل كان ضيفه، وبدل ذلك أرسله إلى حميه، يوباتس، مع رسالةٍ مختومةٍ تحتوي الحكم عليه بالموت. ففرضَ يوباتس عِدة

مهمات على بيليروفون، واثقاً من أنه سيموت أثناء محاولته تنفيذها. فأولاً، أمرَه بمقاتلة الكيمارا. وكان لدى بيليروفون حصان رائع مُجنَّح يُدعى بيغاسوس، ولِدَ من دماء الغورغون، نجحَ في ترويضه بفضل لجام ذهبي أعطته إياه أثينا. امتطى بيليروفون صهوة بيغاموس وطار فوق الكيمارا وحشا حنك الوحش بالرصاص. ذاب الرصاص في اللهب الذي نفثه الكيمارا ومات به.

بعد ذلك انتصر بيليروفون على قبائل سوليميا الهمجيّة وعلى الأمازونات. وفي طريق عودته نجحَ في التغلُّب على كمين نصبه له يوباتس. وامتلأ يوباتس بالإعجاب حتى إنه أعطى البطل ابنته زوجةً. لكنَّ نهاية حياة بيليروفون كانت مأساوية. فقد ذُبحَ ولداه لاوداميا وإساندروس، الأول بيد أرتيميس، والثاني بيد أريس. ووفقاً لبندار حاول بيليروفون نفسه أنْ يصل إلى أوليمبوس على صهوة جواده الطائر، لكنَّ زيوس أطاحَ به إلى الأرض وسبَّبت له السقطة العرج. يقول هومروس، أصبحَ بيليروفون كريهاً بالنسبة إلى الخالدين كلهم، فراح يجوب الأرض، وقلبه مستنزف من البؤس، وحيداً، هارباً من أشباح الناس.

برسيوس وأبطال أرغوليس

حين وصلت إيو، ابنة إله النهر إناخوس، إلى مصر بعد كل محنها أنجبت ابناً دعته، إبافوس. وكان حفيدا إبافوس الكبيران هما إيجيبتوس ودناوس، وكلاهما متزوجان، ولإيجبتوس خمسون ابناً بينما لداناوس خمسون ابنة. ونشب نزاع بين الأخوَين ونزولاً عند نصيحة أثينا ركب داناوس مع بناته الخمسين سفينة وانطلقوا إلى اليونان، رسا على شاطئ البيلوبونيز واستقبله في أرغوس غيلانور، الملك، الذي استولى على تاجه بعد ذلك بوقت قصير. بعد ذلك بفترةٍ وجيزة جاء أبناء إيجبتوس يبحثون عن عمّهم، داناوس، وكعربون تصالح طلبوا منه أيدي بناته للزواج. وافق داناوس، ولكن ضغينته كانت لا تزال تغلي. وفي يوم الزفاف أعطى كل بنت من بناته خنجراً وأمرها بقتل زوجها أثناء الليل. فأطعنه جميعاً ما عدا هايبرمنسترا، التي فرَّتْ مع زوجها لينسيوس. وقد رأينا كيف أُدين الدانايديون بعذاب دائم في المناطق الجحيمية.

حفيدا هايبرمنسترا، برتوس وأكريسيوس، كانا أيضاً أخوة أعداء. وأخيراً طردَ أكريسيوس أخاه بروتوس من أرغوس وانسحبَ إلى ليسيا وهناك تزوج من ابنة يوباتس، سثينبويا. ثم طالب بنصيبه من أرغوليس وسيطر على تيرينس حيث استقرّ، بعد أنْ تصالح مع أخيه أكريسيوس.

كان أكريسيوس، حزيناً لان لا وريث له، وقد علم من الكاهنة في دلفي أنَّ ابنته داناي سوف تنجب صبياً سيقتل جدَّه، أي هو نفسه. وعبثاً أغلقَ على داناي في غرفة تحت الأرض. وقد رأينا سابقاً كيف وصل زيوس إلى داناي، متخفّياً على هيئة رذاذ من الذهب، وجعلها أمّاً لصبي هو برسيوس. مرة أخرى، وعبثاً وضعَ أكريسيوس الأم والابن في صندوق ورماه في البحر: استقرّ بهما المطاف على شاطئ سيريفوس واستقبلهما بوليديكتس، ملك ذلك البلد. وبعد بضع سنوات وقع بوليديكتس في حب داناي، لكنه شعر باحرج من حضور برسيوس الذي كان قد أصبح مُحارباً شاباً قوياً. لذلك تظاهرَ بأنه يريد أنْ يتزوج هيبوداميا وطلبَ من أعوانه أن يحضروا هدايا العرس، فتنافسوا في تقديم أفضل الهدايا. ولكن برسيوس، بدافع من حرصه على التميُّز، تعهد بالعودة برأس الغورغون. كهدية زفاف. وهنا استراح بوليديكتس لدى تفكيره في أنَّ تلك هي آخر مرة يراه فيها.

غادر برسيوس سيريفوس وذهبَ إلى مقر الغربيّات الثلاث، وهنَّ حفنة من العجائز السليطات اللسان والمُخيفات ليس لهنّ غير سن واحد وعين واحدة يتبادلونها فيما بينهن. سرقَ برسيوس سنّهنّ الوحيدة وعينهن الوحيدة، وبهذه الطريقة أقنعهنَّ بإخباره عن مكان إقامة الغورغون. ومنهن أيضاً سرق حقيبة سحرية وخوذة قاتمة تجعل معتمرها خفيّاً.

بعد أنْ تسلَّح برسيوس بهذه العدة وصل إلى أقصى أقاصي الغرب من الأرض وهناك، كما يقول أسخيلوس، «كانت تعيش وحوشهم يمقتهم البشر كثيراً، شعورهن من الأفاعي، لا يمكن لأحد أنْ ينظر إليهنّ دون أن يموت». كانت الاخوات الثلاث سثينو، ويوريال وميدوزا، بنات فورسيس وسيتو. وبدل الأسنان كان لديهنَّ أنياب خنازير بريّة، وأيديهنّ كانت من البرونز، والأجنحة

الذهبية كانت مثبّتة على أكتافهن، وكل مَنْ يتجرأ على النظر إلى وجوههن يتحوَّل فوراً إلى حجر. واحدة منهنّ فقط كانت من البشر، هي الميدوزا. لذا هاجمهما برسيوس. مسلحاً بمنجل وهو يتفادى نظراتها بعد أن ترك الإلهة أثينا توجه ضرباته. أو، كما يقول البعض، ثبَّتَ عينيه على انعكاس صورتها على السطح الصقيل لترسه. ثم قطعَ رأس الميدوزا بضربة واحدة من المنجل، ومن عنقها النازف خرج بيغاسوس وكريساور، والد غريون الشائن، فوضع برسيوس الرأس الشنيع داخل حقيبته وهرب والغورغونتان الأخريان يلاحقانه دون جدوى.

وصل برسيوس إلى إثيوبيا ليجد البلد في حالة من الخراب. فقد أهانت كاسيوبيا زوجة الملك سفيوس، النيريدات بإعلانها أنها أكثر جمالاً منهنّ. وفي هذا الشجار وقفَ بوزيدون على جانب حوريات المحيط وأرسل وحشاً بحرياً ليلتهم البشر والحيوانات. وحين استُشير كاهن آمون أجابَ بأنَّ أندروميدا، ابنة الملك سفيوس، وحدها تستطيع أنْ تنقذ البلد بتقديم نفسها أضحية للوحش. وحين وصل برسيوس إلى مسرح الأحداث شاهد أندروميدا البائسة موثقة بالسلاسل إلى صخرة، تنتظر حتفها. فوقعَ صريع حبّها منذ النظرة الأولى. أما ما تلا فيمكن التكُّهن به: قتلَ الوحش، وحرَّرَ أندروميدا وتزوجها. ثم عاد إلى سيريفوس، فوجد أنَّ بوليديكتس قد أضطَّهَدَ أمّه. فوضع حداً لذلك وأنهى أمر بوليديكتس برفع رأس الميدوزا عالياً، فشاهد بوليدَيكتس فتحوَّلَ إلى حجر في التوّ واللحظة.

أعادَ برسيوس الحقيبة السحرية والخوذة القاتمة إلى هرمس وقدَّمَ إلى أثينا رأس الغرغون فوضعته على ترسها. ثم انطلق مع أمّه وزوجته إلى أرغوس. وتذكَّرَ أكريسيوس ما كانت النبوءة قد قالته قبل زمنٍ بعيد، ففرَّ هارباً لدى اقتراب ابن ابنته. لكنَّ القدر قضى بأنه ذات يوم بينما كانَ بيرسيوس يرمي القرص خلال الألعاب الرياضية كان أكريسيوس حاضراً فضربه القرص وقتله. ولم يرغب برسيوس في أنْ يخلف جدّه على كرسي العرش وبدل ذلك سيطر على تيرينس وميسينا. وأسَّسَ عائلة البرسيديين التي أصبح هرقل ذات يوم ممثلاً عظيماً لها.

أبطال آخرون من أرغوليس

البيلوبيديون: على الرغم من أنَّ سلالة البيلوبيديين استمدَّت اسمها من بيلوبس، إلا أنهم كانوا يدينون بأصلهم إلى والد بيلوبس، تانتالوس.

كان تانتالوس ملك فريجيا أو ليديا. وقد تلقّى دعوة لتناول الطعام مع الآلهة على جبل أوليمبوس فسرقَ من رحيق وطعام الآلهة. وردّ لهم الدعوة بأخرى، وعندما جلسوا على مائدته قدَّمَ لهم، لكي يختبر ألوهيتهم، جسد ابنه، بيلوبس، طعاماً. وعلى الفور أدركَ الضيوف هذا؛ وحدها ديميتر، ربما لأنها كانت أكثر شروداً أو ربما أكثر جوعاً من الآخرين، أكلت اللحم من الكتف. فأمر زيوس بأنْ تُرمى بقايا الفتى في مرجلٍ سحري وبذلك تمت إعادته إلى الحياة. ولكنّ أحد كتفيه كان ناقصاً فوضع مكانه عاجاً.

بسبب تلك الجرائم أقصيَ تانتالوس إلى المناطق الجحيمية. وقفَ غائصاً حتى خصره في منتصف بحيرة في تارتاروس تكتنفه أشجار مُثقلة بالثمار اللذيذة. وأخذ يتعذَّب بالعطش والجوع اللذين لم يكن يستطيع أنْ يُشبعهما؛ لأنه كلما حاول أنْ يمدّ يده نحو الثمار تتفاداه، وكلما مال ليشرب من الماء يتراجع.

حين شبَّ ترك بيلوبس فريجيا وذهبَ إلى بيزا في إليس حيث تنافس على الفوز بيد هيبوداميا. وكان والدها، أونوماوس، قد وعدَ بإعطاء ابنته لأول متقدِّم لطلب يدها يتغلّب عليه في سباق العربات. وكان خمسة عشر متقدِّماً قد دُحِروا وقُتِلوا. فرَشَا بيلوبس ميرتيلوس، سائق عربة أونوماوس، لكي يحلّ أحد عجلات عربة سيده، وهكذا فاز في السباق وبيد هيبوداميا. بعد ذلك قتلَ ميرتيلوس لكي يتخلَّص من شريكٍ مُحرِجٍ في الجريمة. لكنَّ والد ميرتيلوس كان هرمس، وانتقم هرمس لموت ابنه بإنزال لعنة على بيلوبس وعلى منزله كله.

أنجبَ بيلوبس عدداً من الأطفال من هيبوداميا، من بينهم أتريوس وثيستس. ومن زوجة أخرى أنجبَ ابنه كريسيبوس، الذي كان يكنُّ له حباً خاصاً. وبتحريضٍ من هيبوداميا قام أتريوس وثيستس باغتيال أخيهما غير الشقيق

كريسيبوس، وبسبب هذه الجريمة أُجبِرا على الذهاب إلى المنفى. ووصلا إلى ميسينا. ولدى موت يوريستيوس، ملك ميسينا، خلفه أتريوس على كرسي العرش، شعر أخوه ثيستس بالغيرة وأغوى زوجة أتريوس، أيروب، وأيضاً سرقَ منه كبشاً ذا جزّة ذهبية من الصوف، كان هديةً من هرمس. فطُرِدَ من ميسينا لكنه ترك بليسثينس لكي ينتقم له. وبليسثنيس هو اتبن أتريوس، ربّاه ثيستس كابنه. وكاد بليسثنيس أن يقضي عليه بالضربة القاضية، لكنَّ أتريوس قتله بدل ذلك، مُدرِكاً بعد فوات الأوان أنه ابنه. وانتقاماً لنفسه تظاهرَ أتريوس بأنه يتصالح مع ثيستيس ودعاه وأولاده للعودة إلى ميسينا. وفي الوليمة قدّمَ لثيستيس له لحم ولديه طعاماً. ويُقال إنَّ الشمس اختبأتْ لكي لا ترمي ضوءاً على تلك الجريمة. ولاحقاً قُتِلَ أتريوس بيد إيجيسثوس، وهو ابن آخر لثيستيس، ربّاه أتريوس مع ولدَيه، أغاممنون ومينيلاوس.

سلسلة هذه الجرائم المقزِّزة للنفس لم تتوقف عند هذه النقطة؛ فثيستيس الذي كان قد خلفَ أخاه على عرش أرغوس خلعه عنه قريباه أغاممنون ومينيلاوس. ولدى عودة أغاممنون من حرب طروادة قُتِلَ بدوره بيد أيجيستوس الذي كان يُقيمُ علاقة زنا مع زوجة أغاممنون، كليتمنسترا. وبعد مرور ثماني سنوات قُتِل إيجيستوس وكليتمنسترا بيد ابن كليتمنسترا، أوريستس، الذي كفَّرَ عن جريمته بفترة طويلة من العذاب. عندئذٍ فقط رضيت ربات الانتقام ووضعت حداً للأعمال الوحشية التي لطِّخَتْ عائلة أتريوس بالدم.

الديوسكوري وأبطال لاكونيا

الديوسكوري: مؤسس السلالات الملكية اللا كونيّة كان ليليكس الذي أنجب، من زواجه بناياد، ابنه يوروتاس الذي تزوجت ابنته إسبارطة من لاسيديمون. وكان لاسيديمون يحكم إسبارطة وأعطى اسمه لتلك المدينة. وأشهر ذريته كانوا هيبوكوون، الذي قتله هرقل؛ وإيكاريوس، الذي علّمه ديونيسوس سر صناعة النبيذ وقتله رُعاة سكارى؛ وأخيراً تنداريوس، زوج ليدا ووالد هيلين، وكليتمنسترا، وأيضاً الديوسكوري: أو كاستور وبولوكس.

قيل إنَّ زيوس لعبَ دوراً معيّناً في هذه الأبوة، بما أنه قام بزيارة ليدا وهو متخفٍ بصورة طائر بجع. وحملت ليدا بيضتين خرج من واحدة بولوكس وهيلين، واعتُبرا طفلي زيوس، ومن الأخرى كاستور وكليتمنسترا، اللذان كان معروفاً عنهما أنهما ولدا تيندريوس.

على الرغم من اختلاف منشأيهما كان كاستور وبولوكس كلاهما مؤهّلَين كديوسكوري، أي ابنا زيوس الصغيرين. وكانا دائماً علّى علاقة صداقة حميمة.

إنَّ شخصية الديوسكوري شبه الإلهية شرحها أ.هـ. كراب بأنها نتاج الخرافات التي تكتنف مولد التوأم بين أشد الناس بدائيةً. وبما أنَّ الظاهرة ليست شائعة فقد كانت تؤوَّل على أنها إما نحس ـ ومن هنا يأتي الاضطهاد الذي غالباً ما مورس على التوأمين وأمهما ـ أو حظ حَسَن. وفي كِلا الحالين كان الأمر الشاذ يُبرَّر بافتراض أنَّ أحد الطفلين على الأقلّ كان من منشأ قدسي: هكذا كان الأمر مع هرقل وإفيكلس، وأيضاً مع كاستور وبولوكس.

من بين مآثر الديوسكوري يمكن ذكر حملتهما ضد أثينا من أجل إنقاذ أختهما هيلين من ثيسيوس الذي اختطفها. وانضمّا أيضاً إلى جيسون في حملة الأرغونوت، وأبدى زيوس إحسانه لهما أثناء عاصفة ضربت السفينة «آرغو» في بحر كولخيس، عندما هبط لسانان من اللهب من السماء وحاما فوق رأسَيّ الديوسكوري. وهذا هو أصل نار القديس إلمو التي لا تزال حتى يومنا هنا تُعلنُ للبحارة نهاية عاصفة ما.

بعد ذلك خطف كاستور وبولوكس ابنتيّ لوديبوس وتزوجا منهما. وتلك كانت مناسبة شجارهما مع الأفارديين، إيداس ولينسيوس، اللذين كانا أيضاً يتودّدان إلى الصبيتين. ويبدو أنّ المنافسة لم تكن في صالح الديوسكوري على الرغم من أنَّ لا أحد يعلم كيف كنت النتيجة. فوِقفاً لبندار خرجا في حملة مع الأفاريديين وخدعاهما في نصيبهما من الغنيمة. ووِفقاً لرواة آخرين تنازع الشبان الأربعة على تقسيم قطيعٍ من الثيران. قسّمَ إيداس أحَد الثيران إلى أربعة أقسام وقضّى بأنَّ نصف الغنيمة سوف يكون من نصيب مَنْ يأكل حصّته أولاً، أما النصف الثاني فسوف يذهب إلى مَنْ يُنهي أكله بعده. قال هذا والتهمَ ربعه وربع أخيه وأخذ كامل القطيع.

ثم قاد الديوسكوري حملة ضد الأفاريديين في سياق المعركة قتلَ بولوكس لينسيوس بينما جُرِحَ كستور جرحاً بليغاً بيد إيداس ومات. بكى بولوكس فوق جثة أخيه؛ إذ بما أنه هو نفسه خالد لم يستطع أنْ يتبعه إلى مملكة هيدس. تأثّرَ زيوس من هذا الإخلاص الأخوي وسمحَ لبولوكس أنْ يقتسم مع أخيه ميزة الخلود: وهكذا واصل الديوسكوري الحياة بالتبادل كلُ واحد في يوم. وتقول رواية أخرى إنَّ زيوس وضعهما بين النجوم، في كوكبة الجوزاء؛ التوأم.

في أول الأمر كان الديوسكوري يُعبدان في أكايا، ثم بعد ذلك أصبحا يُشرَّفان في أرجاء اليونان كلها بوصفهما إلهين حارسَين للبحارة وكحاميَين لحُسن الضيافة. أحياناً يمكن مشاهدتهما يرتديان ثياباً بيضاء وعباءة قرمزية، ويعتمران قلنسوة مرصّعة بالنجوم، يصلان إلى المدن ليختبرا حُسن ضيافة السكان للغرباء.

هيلين: كانت أختهما هيلين مشهورة بجمالها. وما أنْ بلغَتْ سن العاشرة حتى خطفها ثيسيوس، ولكن الديوسكوري أعاداها من جديد. وحوصِرَتْ بالمتقدمين لطلب يدها. فدفعَ والدها تينداريوس كلاً منهم لكي يُقسِم على أنه عند الحاجة سوف يهبُّ لمساعدة الرجل المحظوظ الذي سيُصبحُ زوج هيلين. ثم اختار لها مينيلاوس. وعاش الزوجان طوال ثلاث سنوات حياةً سعيدة. ثم قام باريس، ابن بريام ملك طروادة، بزيارة بلاط مينيلاوس، فوقعَ صريع حب هيلين وخطفها. وكان هذا هو سبب نشوب حرب طروادة. وإخلاصاً للقسم الذي قطعوه هبَّ أمراء اليونان كلهم بأسلحتهم وبقيادة أغاممنون للانتقام للعمل الشائن الذي ارتُكِبَ في حق مينيلاوس. وعلى مدى عشر سنوات احتدم الصراع عند أسوار طروادة. ولم تستطع مهارة أوديسيوس، ولا شجاعة ديوميدس، ولا اندفاع آخيل على قهر مقاومة الطرواديين، بقيادة هكتور الباسل. وأخيراً استطاع المحاربون اليونان أن يدخلوا المدينة بالاختباء داخل حصان ضخم صُنعَ من ألواحٍ من الخشب جرَّه الطرواديون أنفسهم إلى داخل المدينة. وهكذا احتُلَّت طروادة وأُشعِلَتْ فيها النار، وذُبحَ العجوز بريام أما باقي أفراد عائلته فقد قُتِلَ أو أستُعبِدَ. واستعادَ مينيلاوس زوجته وتصالح معها. والحق أنه قيل إنَّ هيلين الحقيقية بقيتْ دائماً في مصر حيث عثر زوجها عليها، وإنَّ باريس إنما أخذ فقط

شبح هيلين معه إلى طروادة. ولكن، يبدو جلياً أنَّ هذه الرواية قد اختُلِقَتْ ببساطة للحفاظ على ماء وجه مينيلاوس البائس.

لقد نُقِلَتْ قصة نهاية هيلين بحيوية. فبعد موت زوجها سُمِحَ لها بالانضمام إلى مجتمع النجوم مع الديوسكوري، أو أنها تزوجت من آخيل في جزر المباركين. أو، مرة أخرى، طُرِدَتْ من إسبرطة ولجأتْ إلى رودس حيث شُنُقَت من شجرة بأوامر من الملكة، بوليكسو. وبُجِّلَتْ في تلك الجزيرة تحت لقب دندريتيس.

كليتمنسترا: ابنة تينداريوس الثانية، كليتمنسترا، تزوجت أولاً من تانتالوس، وبعد ذلك من أغاممنون. ولم تسامح أغاممنون أبداً على تضحيته بابنتهما إفجينيا للآلهة، ولدى عودته من طروادة ذبحته في الحمّام، بالاشتراك مع عشيقها إيجسثوس. وحكمَ أوريستس، ابن كليتمنسترا، على القاتلَين بالموت.

أوديبوس وأبطال بويوتيا

قدموس: إنَّ أبطال طيبة الرئيسيين ينتمون إلى عائلة اللابداسيديين التي أسَّسها قدموس الفينيقي. كان قدموس ابن أجينور ملك فينيقيا وزوجته وتيليفاسا. وكان فينيكس وسيليكس هما أخواه ويوروبا أخته. وحين خطفَ زيوس يوروبا، خرج الإخوة الثلاثة للبحث عنها. وسرعان ما سئم سيليكس وفينيكس التفتيش فاستقرّا في كيليكيا. أما قدموس فكان أكثر مثابرةً فوصل إلى بلاد اليونان واستشار كاهنة دلفي فنصحته أنْ يترك أمر البحث، وحين يخرج من المعبد سوف يجد بقرة عليه أن يتبعها، وحيث تتوقف عليه أن يبني مدينة في المكان. اتبع قدموس نصيحة الكاهنة وتبع البقرة حتى توقفت في بيوتيا، وهناك أسَّسَ مدينة طيبة وأنشأ أكروبوليس قدموس. ثم قرَّرَ أنْ يُضحّي بالبقرة لأثينا. واستعداداً لتلك المراسم أرسل خدماً لإحضار ماء من نبع أريس: ولكن عند النبع قابلوا تنيناً التهمهم. وعندما سمع قدموس بما حدث هاجمَ الوحش وقتله. وكانت أثينا قد ساعدته في ذلك ونصحته بأنْ ينتزع أسنان التنين ويزرعها في أخدودٍ قريب. وفي الحال بدأت تنبت وخرج منها محاربون. السبارتي (من الكلمة اليونانية «يبذر»)، وبدؤوا على الفور يتقاتلون فيما بينهم ويقتل أحدهم الآخر. لم يبق على قيد الحياة سوى خمسة وأصبحوا أسلاف الطيبيين.

في تلك الأثناء وتكفيراً عن قتله التنين الذي كان ابن أريس، اضطرَّ قدموس إلى قضاء بضع سنين يعمل عبداً. وبعد ذلك عوَّضته أثينا عن ذلك بمكافأته بتاج طيبة، بينما منحه زيوس يد العذراء الساطعة هارمونيا، ابنة أريس وأفروديت، أو ربما، زيوس وإليكترا.

عاش الزوجان حياة هانئة معاً. وكان أولادهم هم سيميلي، والدة ديونيسوس؛ وإينو، والدة ميليسنتيس؛ وأوتونو، والدة أكتيون؛ وأغاف، والدة بونثيوس؛ وبوليدوروس، والد لابداكوس سلف اللابداسيديين. في نهاية حياتهما ذهب قدموس وهرمونيا إلى إليريا وحكماها، ثم تحوّلا إلى تنينين ونُقلا إلى جزر المباركين.

في اليونان اعتُبِرَ قدموس مُشرِّعاً مقدَّساً ومُنشئاً للحضارة البويوتية: إليه يُنسَب اكتشاف صبِّ المعادن وإدخال الأبجدية إلى بلاد اليونان.

أمفيون وزيثوس: كان أمفيون وزيثوس توأمين، والخرافات التي تتعلّق بهما تنتمي إلى الأيام المبكّرة للعهد الملكي في طيبة. كانا ابنيّ زيوس وأنتيوب. فلما كان والدها يضطهدها، لجأت أنتيوب إلى إبوبيوس في سيكيون. فتزوجها إبوبيوس، لكنَّ أخاها، ليكوس، سارَ إلى سيكيون، وقتلَ إبوبيوس وأعادَ أنتيوب أسيرة. وأثناء رحلة العودة، وفي دغلٍ جانبي، أنجبَتْ أنتيوب توأمها إلى العالم. فتركتهما فوق جبل سيثيرون فأخذهما الرعاة. وسُجِنَتْ أنتيوب فترة طويلة، ولكن ذات يوم سقطت السلاسل من تلقاء ذاتها، وهربت وانضمَّت إلى والديها، أمفيون وزيثوس، اللذين عندئذٍ هاجما طيبة حيث كان ليكوس يحكم. وقتلا ليكوس وأيضاً زوجته، ديرسه، التي أوثقت إلى قرنَيّ ثور بري. ثم حصّنَ الأخوَان المدينة. وحمل زيثوس حجارة إلى حيث جعلَ أمفيون، بالأصوات السحرية التي تصدر عن قيثارته، الحجارة تتحرَّك من تلقاء ذاتها وتنزلق برفق إلى الموقع المرغوب في الأسوار.

بعد ذلك تزوجَ زيثوس من ثيبه وتزوج أمفيون من نيوبه التي أنجبت له اثنا عشر طفلاً. وكانت نيوبه فخوراً بأطفالها الإثنا عشر وتجرّأت لسوء الحظ على

السخرية من ليتو، التي لم يكن لديها إلاّ طفلين. وبسبب هذه الإهانة الـتي وُجِّهَـتْ إلى والدتهما عاقب أبولو وأرتيميس نيوبه بقتل أولادها كلهم. أرهقَ الحـزن الأم الثكلى، فحوّلها زيوس إلى صخرة فوق الذرى المُقفرة لجبل سيبيلوس.

أوديبوس: كان لايوس، ملك طيبة، هو الثالث من سلالة قدموس، وقد تزوج من ابنة عم له اسمها جوكاستا، وعندما حملت جوكاستا أخبرته نبـوءة معبد دلفي بأنه سوف يُقتل على يد ابنه، فلما وضعت جوكاستا ابنـها حملـه لايوس إلى جبل سيثيرون وثقبَ قَدميّ الطفل بمسمار وربطهمـا معـاً بقـوة، على أمل أنْ يضمن ذلك التخلُّص منه. ولكنَّ راعياً عثر على الطفل وأخذه إلى بوليبوس، ملك كورينث، فتنبّاه وسمّاه أوديبوس بـسبب قدمـه المجروحـة. وحين شبَّ أوديبوس حذرته نبوءة معبد دلفي من أنه سيقتل والده وسـيتزوج من أمه، فاعتقد أوديبوس أنّ في استطاعته أنْ يهرب من مصيره بنفي نفسه إلى الأبد عن كورينث، وألاّ يرى مرة أخرى بوليبوس وزوجته اللذين أدّعيا أنهما أبواه الحقيقيان. وذهبَ إلى بويوتيا وفي الطريـق تـشاجر مـع رجـل لا يعرفـه وضربه بعصاه فقتله. وقد كـان القتيـل، في الواقـع، هـو لايـوس، والـده، وواصل أوديبوس مسيره دون أنْ يشك في أنَّ النصف الأول من نبوءة الكاهن قد تحقّق ووصل إلى طيبة حيث علم أنَّ المنطقة قـد ابتليَـتْ بـوحشٍ رهيـب وجهه ونصفه العلوي امرأة، وله جسم أسـد وجناحـا طـائر يحـرس الطريـق المؤدي إلى طيبة، وهو السفينكس الذي كان يستوقف المسافرين كلهم ويُلقي عليهم أحجية: الذين لا يتمكنون من حل أحاجيه كان يلتهمهم. وكان كريون، الذي حكم طيبة منذ الوفاة الحديثة للايوس، قد وعدَ بـأنْ يمـنح تاجـه ويـد جوكاستا للرجل الذي يُحرِّر المدينة من هذا البلاء. صمَّمَ أوديبوس علـى أنْ يخوض ذلك العمل البطولي، ونجـحَ فيـه. فقـد سـأله الـسفينكس: «مـا هـو الحيوان الذي يكون له أربعة أطراف في الصباح، واثنـان في منتـصف النـهار وثلاثة في المساء؟»، فأجاب: «إنه الإنسان، الذي يزحـف في طفولتـه علـى أطرافه الأربعة، ويسير منتصباً على ساقين في سـن النـضج، وفي شـيخوخته بسند نفسه بعصا». فهُزِمَ الفينكس ورمى بنفسه في البحر.

وهكذا، ولا يزال غير مدرك لما يحدث، أصبحَ أوديبوس زوجاً لأمه، جوكاستا ومن زواجهما نتجَ ابنانْ، إتيوكليس وبولينيس، وابنتان، أنتيغونه وإسمين. وعلى الرغم من الجريمة المزدوجة التي ارتكبها أوديبوس بكل براءة، فقد نال الاحترام كملك مخلص لخير شعبه، وبدا أنه يزدهر. ولكن الإرينيات، ربات الانتقام كن في الانتظار. فقد خرَّب وباءٌ الأرض، وحصد الناس، وفي الوقت نفسه جلب قحطٌ هائل المجاعةَ معه. استشيرت نبوءة دلفي فأجابت بانَّ تلك المصائب لن تتوقَّف إلا بعد أنْ يطرد أهل طيبة قاتل لايوس المجهول من البلاد. وبعد أنْ أنزلَ أوديبوس اللعنات التقليدية على القاتل، أخذ على عاتقه معرفة هويته. وأخيراً أدَّتْ استقصاءاته إلى اكتشاف أنَّ المذنب ليس إلاّ هو نفسه، وأنَّ جوكاستا التي تزوجها هي أمه، فعمدت جوكاستا بدافع الإحساس بالعار والحزن إلى شنق نفسها. واقتلعَ أوديبوس عينيه ثم نفى نفسه، مصحوباً بابنته المخلصة أنتيغون، ولجأ إلى بلدة كولونوس أتيكا. وأخيراً بعد أنْ تطهَّرَ من جريمتيه الشنيعتين، اختفى بصورةٍ غامضة عن وجه الأرض.

أما عن ولدَيه، ضحيَّتي اللعنة الأبوية، فقتل كلٌّ منهما الآخر. وكانا قد اتَّفقا على حكم البلاد بالتناوب كل عام. ولكن عندما حان الوقت رفضَ إتيوكليس أنْ يُسلِّم التاج لأخيه، فجمع بولينيسيس جيشاً من الآرغيف وضرب حصاراً حول طيبة، وأثناء ضرب ذلك الحصار ذبحَ كلٌ من الأخويّن الآخر في مواجهة فردية. ومع ذلك قضى مجلس شيوخ طيبة بأنه ينبغي ترك جثة بولينيسيس دون دفن، لكنَّ أنتيغون أعدَّت لأخيها الميّت جنازة مُشرّفة فأدينت لفعلها ذلك وحُكِمَ عليها بدفنها حيّة، فقاسمتها أختها إسمين مصيرها. وهكذا انتهى أمر العائلة التعسة.

ميليغر وأبطال إيتوليا

كان إيتولوس هو الجد الأكبر للإيتوليين، وابن إنديميون وبسبب جريمة قتل ارتكبها عن طريق الخطأ أُجبر إيتولوس على مغادرة أرض والده والاستقرار في منطقة اليونان التي حملّت اسمه لاحقاً. ومن بين أفراد سلالته كان أونيوس، الذي وهبه ديونيسوس أول غصين كرمة ينبت. وكان أونيوس قد حصلَ من زوجتين مختلفتين على ابنين، ميليغر وتيديوس.

ميليغر: كانت والدة ميليغر هي ألثايا، زوجة أونيوس الأولى. حين كان عمره سبعة أيام ظهرت إلهات القدر لأمه، فتنبّأت كلوثو للطفل بوفرةٍ عظيمة؛ ولاخسيس، بقوة خارقة؛ وأعلنت أتروبوس أنه سيبقى على قيد الحياة ما بقيت جمرة معيَّنة كانت تحترق في الموقد. فأسرعت ألثايا إلى إنقاذ الجمرة وأطفأتها ووضعتها في مكانٍ آمين. في تلك الأثناء أصبحَ ميليغر، كما تنبّأت الإلهات، بطلاً ذا بسالة. وذات مرة نسيَ والده أونيوس أنْ يقدِّم لأرتيميس التباشير الأولى من محصول الفاكهة فغضبتْ الإلهة وأرسلتْ خنزيراً برياً متوحشاً لتخريب إيتوليا، ولكي يصطاد الوحش دعا ميليغر أشهر أبطال اليونان جميعاً، ومن بينهم امرأة أركادية شابة تُدعى أتالانتا. كانت عملية الصيد قاسية وشاقة. وقد قتل الخنزير البري الكثير منهم. وكانت أتالانتا هي أول مَنْ أصابه بسهمٍ في ظهره وأجهزَ ميليغر عليه برمحه.

وثار جدال بين الصيادين حول بقايا الوحش التي قدَّمها ميليغر إلى أتالانتا. حاولَ أخوال ميليغر أنْ يستعيدوها منها فقتلهم ميليغر. وحين علمَتْ كيف قتل ابنها السريع الغضب إخوتها، قيل إنَّ الثايا رمَتْ بالجمرة القاتلة في النار وعلى الفور مات ميليغر، وتقول رواية أخرى إنَّ ألثايا اكتفَتْ بترك ابنها لإلهات الانتقام.

وفقاً لهذه الرواية الأخيرة، اندلعت الحرب في تلك الأثناء بين الإيتوليين من جهة والكيوريتين الذين حكمهم أخوال ميليغر من جهة ثانية. حارب البطل ببسالة في أول الأمر، ولكن حين علِمَ أنَّ أمه قد لعنته حبس نفسه في منزله، وعندها انتشر الكيوريتيون في البلدة يُضرمون النار في المنازل، تجاهل ميليغر بعناد تضرعات الأقرباء والأصدقاء ورفضَ أنْ يُقاتل وأخيراً استسلم لتوسلات زوجته، كليوباترا، واستعاد مكانه على رأس قواته وطرد الأعداء وخلال المعركة قيل إنّ أبولو قتله.

أتالانتا: كانت أتالانتا، وهي السبب الخفي لمتاعب ميليغر، ابنة ياسوس الأركادي، الذي تخلى عنها لحظة ولادتها. ووضعها فوق جبل بارناسوس لأنه كان يريد مولوداً ذكراً. وهناك رضعت من دبة وأخذها صيادون تقاسمت معهم حياتهم الخشنة. وعندما بلغت سن الرشد استمرَّتْ أتالانتا في عيش الحياة الريفية وكانت متعتها الوحيدة هي المطاردة وتكره التفكير في الزواج. ذبحت القناطير،

وكذلك ريكوس وهايليوس، الذين حاولوا أنْ يغتصبوها وقد لعبت دوراً شهيراً في اصطياد ميليغر للخنزير البري، وتغلّبت على بلياس في مبارة للمصارعة في الألعاب الرياضية التي أقيمت على شرف بلياس. وأخيراً اعترفَ والدها ياسوس بها وقرَّرَ أنْ يزوِّجها، فأعلنت أنها لن تتزوج إلا الرجل الذي يغلبها في سباق الجري. وكان أكثر من طالب ليدها قد نافسها ولقي حتفه على يديها قبل أنْ يأتي ميلانيون ويفكر في خدعة، فبينما هو يركض كان يرمي من يده تباعاً، ثلاث تفاحات ذهبية أعطته إياها أفروديت. وتوقفت أتالانتا لتلتقطها. وهكذا هُزِمَتْ وتزوجت ميلانيون. ولاحقاً حُوِّلَ الاثنان إلى أسدين لأنهما دنسا معبد زيوس.

تديوس وديوميدس. قتل تديوس، أخو ميليغر غير الشقيق، ابن عمه الذي كان قد تآمر ضد والده. واضطرَّ إلى مغادرة أيتوليا وذهبَ إلى أرغوس حيث تزوجَ ابنة الملك آدراستوس. ولعبَ دوراً في حملة شيوخ القبائل السبعة على طيبة وتميَّز بمآثره المختلفة، وبخاصة بقتِلهِ لخمسين شخصاً من طيبة نصبوا له كميناً، لكنه سقط تحت وطأة ضربات ميلانيبوس الطيبيّ. وعلى الرغم من إصابته بجراحٍ موجعة إلا أنّ أثينا جلبتْ له إكسيراً كان يمكن أنْ يُشيفيه ويجعله خالداً، وكادت تقدمه له حين جاء العرّاف أمفياروس العدو الشخصي لتديوس، وقدَّمَ له رأس ميلانيبوس. وفي غمرة الغضب شقَّ تديوس جمجمة عدوّه والتهم مخّه. ثار غضب أثينا من ذلك الفعل البربري فتركته ليلقى حتفه ومات تديوس بعد ذلك بقليل.

انتقمَ ابنه ديوميدس له بنهب طيبة مع الإبيغوني، وديوميد هذا نفسه كان مشهوراً بمآثره عند أسوار طروادة: فقد جرحَ أفروديت وحتى آريس، ومع أوديسيوس احتلَّ البالاديوم الذي كان أمان طروادة متوقفاً عليه. وبعد الحرب تميَّزت عودته إلى اليونان بالمغامرات. فقد أطاحت به عاصفة إلى ساحل ليكيا وكاد الملك ليكوس يُضحّي به لآريس، ولكن ابنة الملك، كاليروي، أنقذته لأنها أحبته وعندما رحل قتلت نفسها يأساً، وحين عاد إلى أرغوس علم أنّ زوجته كانت تخونه، فغادر أرغوس، التي عاد فغزاها لاحقاً. وأنهى مسيرة حياته في إيطاليا مع الملك داونوس وتزوج من ابنته.

بليوس، وبحارة أرغونوت وأبطال ثيسالي

بليوس: على الرغم من أنَّ بليوس كان أحد أشهر أبطال ثيسالي ولكنه لم يولد في ذلك البلد، كان ابن أياكوس الذي حكمَ جزيرة إيجينا. وقد هرب مع أخيه تيليمون من إيجينا بعد أنْ قتلا أخاهما غير الشقيق فوكوس، استقرَّ تيليمون في سالاميس حيث ورث تاج سيكريوس، الملك. أ ما بليوس فذهب أولاً إلى فثيا حيث قام بزيارة يوريتيون. ولما كان يكره أن يُعرِّف عن نفسه دون أعوان فقد، ناشدَ زيوس فحوَّلَ له بعض النمل إلى رجال وأصبح أسمهم المايرميدون، ورحَّبَ يوريتيون به بحرارة ومنحه ثلث أملاكه، بالإضافة إلى يد ابنته أنتيغون. ولسوء الحظ اشترك بليوس ويرتبون في حملة ميليغر لاصطياد الخنزير البري التي قتل بليوس خلالها حماه دون قصد. ثم لجأ إلى يولكوس مع أكاستوس الذي طهَّره. وضمرَتْ زوجة أكاستوس مشاعر حب لبليوس، لكنه صدَّها، فانتقمت لنفسها بأنْ قالت لأنتيغون كذباً إنّ بليون يخونها. فشنقَتْ أنتيغون نفسها حزناً. وألقتْ أيضاً على مسمع زوجها القصة نفسها. لكنَّ أصول الضيافة منعته من قبل بليوس: بدل ذلك رافق ضيفه إلى الصيد فوق جبل بليون، آملاً أنْ يشهد مقتله. لكنَّ بليوس قهر أشد الحيوانات خطورةً وضراوة، بفضل الخنجر الرائع الذي صنعه هيفيستون. أثناء نوم بليوس سرق أكاستوس منه ذلك الخنجر وخبّأه، مُعتقداً أنه بهذه الطرقة يتركه دون وسيلة دفاع ضد القناطير المتوحشين الذين يسكنون الجبل، وكاد المشروع ينجح، ولكن شاء الحظ أنَّ القنطور كيرون الذي أعادَ إليه خنجره أنقذه، فاستخدمه بليوس لمعاقبة أكاستوس وزوجته الخائنة، وأصبحَ هو نفسه ملكاً على البلاد.

بعد ذلك بوقتٍ قصير تزوج بليوس من النريده ثيتيس، بعد بعض المقاومة من العروس، وكان بوزيدون وزيوس نفسه قد غازلاها، فأصبحت تعتبر الزواج من بشري إهانة لكرامتها.

وبفضل نصيحة كيرون تغلَّبَ بليوس على جهود ثيتيس للتملُّص منه وتمَّ الاحتفال بالزواج ببذخ فوق قمم جبل بليون، ومن زواجهما أثمرَ آخيل. وقد رأينا سابقاً كيف حاولت ثيتيس أنْ تخلع الخلود على ابنها. وقد قاطعَ بليوس هذا

الإنجاز، وفي ثورة من الغضب عادت ثيتيس إلى الانضمام إلى أخواتها، النريدات. وعُهِدَ أمر الصغير آخيل إلى القنطور كيرون الذي راح يُغذّيه من نقي عظام الدببة وأمعاء الأسود.

آخيل: وهكذا ترعرع آخيل إلى أنْ بلغ مبلغ القوة، وكان في التاسعة عندما تنبّأ العرّاف كالخاس بأنه وحده سيقهر طروادة. حاولت ثيتيس، التي كان تعلمُ أنّه في طروادة سيواجه الموت، أنْ تتجنَّب الخطر بإخفائه، فأنشأته في زي ومظهر النساء، في قصر ليبكوميدس، ملك سكيروس. ولكنَّ اليونانيين اكتشفوا، بمساعدة أوديسيوس، آمر الحسناء المزعومة وذلك بخدعة حاذقة، فقد جاء أوديسيوس ذات يوم إلى قصر ليكوميدس حاملاً الهدايا لابنة الملك. ودسَّ بينها ترساً ورمحاً. ثم أطلقَ هو ورفاقه صرخات المعركة وأطلقوا النفير. ظنَّ آخيل أنهم تعرّضوا للهجوم، فاندفع نحو الأسلحة. عندئذٍ أخذه اليونانيون معهم؛ ذلك أن ما كان من الممكن أنْ يفلت من قدره. ونحن نعلمّ مدى البسالة التي أبداها تحت أسوار إليوم؛ وفي معركة منفردة قتل الشجاع هكتور، لكنه هو نفسه قُتِلَ قبل الاستيلاء على طروادة، أصابه سهم في كاحل قدمه القابل للأذى، أصابه به إما أبولو وإما باريس.

ولكن لنعُدْ إلى بليوس: فبينما ابنه يكْبر استمرَّت حياته المغامرة. لعبَ دوراً في رحلة بحارة الأرغونوت. وحاربَ مع اللابيثيين ضد القناطير. وناصرَ هرقل خلال حملته ضد إليوم. وعاشَ أكثر من ابنه وكانت شيخوخته كسولاً، وظروف موته غير معروفة.

جيسون وبحارة الأرغونوت: لقد احتُفيَ بحملة بحارة الأرغونوت ليس فقط في ثيسالي بل في اليونان كلها. وكان الهدف هو الحصول على الجزّة الذهبية، التي أصلها هو ما يلي: كانت إينو، زوجة الملك البويوتي أثاماس تكره ولديّ زوجها فريكسوس وهيل. وكان حياتهما مُهدَّدة فهربا، امتطيا ظهر كبش رائع كان هدية من هرمس هذا الكبش كان ذا عقلٍ ومنطق؛ وله جزّة من الذهب ويستطيع أنْ يطير في الهواء تماماً كما يسير على الأرض. وفي سياق هروبهما سقطت هيلِ في البحر وأعطت اسمها إلى هيليسبونت. وكان فريكسوس محظوظاً أكثر ووصلَ إلى

كولخيس على البحر الأسود، وهناك ضحَّى بالكبش لزيوس، وقدَّم الجزّة إلى ملك البلاد، أيتس، الذي علّقها من شجرة ووضع تنيناً لا ينام أبداً حارساً لها.

في تلك الأثناء في أيولكوس في ثيسالي حكمَ بلياس الذي كان قد انتزع العرش من أخيه، أيسون. وعُهِدَ بأمر ابن أيسون، جيسون، إلى رعاية القنطور كيرون، وحين بلغ مبلغ الرجال ذهب جيسون إلى عمه وطلبَ حصّته من المملكة، انزعجَ بلياس كثيراً، لأنَّ عرّافاً كان قد حذَّره «من الرجل الذي لا ينتعلُ غير فردة صندل واحدة»، وكان جيسون قد مثُلَ أمامه وهو ينتعل فقط فردة صندل واحدة. لذلك أخبر ابن أخيه أنه يرضخ حباً وكرامة لمطلبه شريطة أن يُعيد إليه الجزّة الذهبية.

وبعونٍ من هيرا أو أثينا بنى فوراً سفينة ذات خمسين مجدافاً، الأرغو، ووضعَ فيها غصناً من شجرة سنديان زيوس التنبؤية في دودونا. ثم جمع أشهر الأبطال، من بينهم أمفيون، والديوسكوريين، وهرقل، وأورفيوس، وبليوس، وثيسيوس وميليغر. وانطلقَ المغامرون الأشدّاء بحثاً عن الجزّة الذهبية الأسطورية. وكانت رحلتهم مملوءة بالأحداث: فقد اضطروا إلى مصارعة العوامل الطبيعية كما الرجال. وأخيراً وصلوا إلى مصب نهر فاسيس وجدّفوا إلى أعلى النهر إلى أنْ بلغوا مملكة أيتس. وافقَ أيتس على التخلّي عن الجزّة الذهبية، لكنه فرضَ شروطه الخاصة. كان على جيسون أولاً أنْ يشدّ ثورين حوافرهما من برونز وأنفاسهما من لهب إلى محراث. يحرث به حقلاً ثم يزرعه بأسنان التنانين. ولحسن حظ جيسون أنَّ ابنة أتيس، ميديا، وقعت في حبه، ولما كانت متمرسة بفنون السحر فقد بيَّنت له كيف ينجز هذه المهمة. ثم رفضَ أيتس أنْ يحافظ على كلمته؛ ومرةً أخرى ساعدت جيسون على قتل التنين الذي يحرس الجزّة الذهبية وأن يحوز على الغنيمة الثمينة، وغادر كلاهما البلد على عَجل، وأتيس في إثرهما. ولكي تؤخِّر ملاحقة والدها لها لم تتردَّد ميديا في أنْ تنثر على الطريق أشلاء أخيها الذي ذبحته. وبعد رحلة طويلة ومحفوفة بالأخطار قطعا خلالها نهر الدانوب، والمحيط، والصحارى الليبية، والبحر الأحمر والبحر المتوسط، وعاد بحارة الأرغونوت أخيراً إلى يولكوس. وأثناء غياب

جيسون كان بلياس قد أعدمَ أيسون. ويقول آخرون إنَّ أيسون كان لا يزال حياً بل إنّ أحد مشروبات ميديا السحرية قد جدّدت شبابه، على أي حال، انتقمَ جيسون لنفسه من عمه. وأقنعت ميديا بنات بلياس بأنه في استطاعتهنَّ باستخدام سحرهن أنْ يُعدن والدهن إلى الحياة، ولكن عليهنَّ أولاً أن يُقطّعنه إرباً ويطبخنه. فنفّذنَ تعليماتها وتركت ميديا الأمور على ما هي عليه. وبعد ارتكاب تلك الجريمة الشنعاء انسحبَ جيسون وميديا إلى كورينث. وهناك عاشا حياةً هانئة طوال عشر سنين، ومن ثم وقع في حب كروزا (أو غلوسه)، ابنة الملك كريون، وتخلّى عن ميديا. فانتقمت ميديا لنفسها بإرسال هدية عرس للعروس الجديدة: ثوباً رائعاً التهمها بنارٍ لا تنطفئ. ثم ذبحتْ ميديا أطفالها التي أنجبتهم من جيسون وفرَّتْ إلى أثينا حيث تزوجت إيجيوس، واضطرَّتْ إلى مغادرة أثينا حين حاولتْ أنْ تُسمِّم ثيسيوس وذهبتْ إلى والدها في كولخيس.

أما جيسون، فيقول البعض إنه سئمَ الحياة وقتلَ نفسه، ويقول آخرون إنه بينما كان يستريح في ظل سفينة أرغوس، سقط مؤخَّر السفينة عليه وسحقه حتى الموت.

أورفيوس وأبطال تراقيا

كان أوروفيوس، بطل تراقيا العظيم، مختلفاً كثيراً في شخصيته عن الأبطال اليونانيين الآخرين. فلم يكن يتميَّز بمآثره الحربية؛ لعله كان في الأصل ملكاً تراقياً، ويدين بشهرته قبل أي شيء إلى موهبته الموسيقية المذهلة. كان ابن أبولو، ويغني ويعزف على القيثارة بفنيّة عالية حتى أنّ الحيوانات البريّة كانت تهرع إليه لتصغي إليه وحتى الأشجار كانت تتبعه. وقد أنجزت موهبته معجزات أثناء رحلة الأرغونوت. حتى السفينة أرغو، التي كانت ترسو على الشاطئ، نزلت إلى البحر من تلقاء ذاتها على وقع غنائه، كانت أغنياته تأسر السمبلغيت، تلك الصخور المتحركة الرهيبة التي هدَّدت بأنْ تسحق السفينة وترسلهم إلى أعماق البحر. وهدهدَ التنين، حارس الجزّة الذهبية، حتى نام تحت تأثير غنائه، وهكذا سهَّلَ هروب الروغونوت.

إلى هذه الدرجة وصلتْ قوة صوته وتناغم قيثارته بحيث استسلمت لها حتى آلهات الجحيم، وكان قد تزوج من الحورية يوريديس التي أحبّها بولَه. وذات يوم حين كانت يوريديس تهرب من أريستيوس عضّتها أفعى كامنة في العشب عضّة قاتلة. توجَّعَ أورفيوس لموت زوجته وصمّمَ على الهبوط إلى العالم السفلي للمطالبة بها. واستطاعَ أنْ يسحر هيدس وبرسيفون التي سمحَتْ له بإعادة يوريديس إلى الأرض بشرط وحيد هو ألاّ يلتفت إلى الوراء إليها أثناء الرحلة. وأوشك الاثنان أنْ يصلا إلى بوابات هيدس حين نفد صبر أورفيوس والتفتَ بحركة طائشة إلى زوجته. وفي الحال رجعت إلى المقام الكئيب للموتى واختفتْ هذه المرة إلى الأبد.

لم يكن هناك شيء يمكن أنْ يواسي أورفيوس، ويقول البعض، إنه انتحر. لكنَّ الرأي الأوسع انتشاراً كان أنّ النساء التراقيات قطّعنه إرباً وكان الغضب العارم قد استولى عليهن بسبب حبّه الفائق لزوجته، ورُميَ رأسه وقيثارته إلى نهر هبروس وحملهما حتى لسبوس. علِق رأس المغني المقدَّس في صدع صخرة حيث بقيَ زمناً طويلاً يُعطي تنبؤاته. وفي عصر لوسيان كان لا يزال في الإمكان مشاهدة قيثارته في معبد في لسبوس وكان من التدنيس وضع اليد عليها. وذات يوم حاول نينثوس، ابن طاغية لسبوس، أن يعزف على القيثارة العجائبية فالتهمته الكلاب التي جذبها الصوت. وقيلَ أيضاً إنَّ رأس أورفيوس عثر عليه راع على ضفاف نهر ميلاس، وفي بلدة ليبثرا في مقدونيا كانوا يشيرون إلى ضريحه.

شعراء تراقيون آخرون: كانت تراقيا تفخر بشعراء وموسيقيين شهيرين آخرين، مثل فيلامون، وقيل أيضاً إنه ابن أبولو، وإليه نُسيبَ ترسيخ الرقص الكورالي في معبد دلفي.

ذات مرة تجرّأ ابن فيلامون، ثاميريس، وكان بدوره موسيقياً مشهوراً، على تحدّي الميوزات، وبسبب جرأته حرمنه من صوته ومن بصره.

إلى تراقيا أيضاً ينتمي يومولبوس، ابن بوزيدون وكيون التي كانت ابنة بورياس. رمت أم يومولبوس ابنها في البحر لتُخفي عارها، وعثرَ عليه بورياس وحمله إلى إثيوبيا، ومن هناك توجه يومولبوس إلى بلاط تيجيريوس، ملك تراقيا، وقد قُتِلَ بيد

إريكثيوس حين كان يُقاتل مع الإليوسيين ضد الآثينيين. ويقول البعض إنَّ يومولبوس أسس الأسرار الإليوسيّة على شرف ديميتر التي علّمته كيفية زراعة الكرمة والأشجار. وعلَّم أيضاً هرقل الغناء والعزف على القيثارة.

مينوس وإبطال كريت

إنَّ أساطير كريت العتيقة نُقِلَتْ في وقتٍ مبكّر إلى اليونان وكانت، كما رأينا، أساس الميثولوجيا الهيلينية، مُتّخذةً جوانب جديدة وهي تتكيَّف مع التقاليد القارّية. كانت تتمركز في غالبيتها حول شخصية الملك العظيم مينوس، ولكن يبدو أنّه كانت هناك شخصيات أخرى غير مينوس، وعلينا أن نميِّز على الأقلّ نسختين من مينوس أحدهما كان حفيد الآخر. لكنَّ صُنَّاع الأساطير لا يقلقون أبداً بشأن التسلسل التأريخي وينسجون خرافاتهم كلها حول شخصية واحدة هي مينوس.

إذن ميوس ـ إلى جانب رادامانثيس وساربيون ـ كان ابن زيوس ويوروبا. فبعد وصولها إلى كريت تزوجت يوروبا ملك الجزيرة، أستريوس، الذي تبنّى أولادها، وخلفَ مينوس أستريوس على عرش كريت. وتميّز بحكمة قوانينه وبحسّه العادل الذي رفعه بعد موته إلى مرتبة قاضي العالم السفلي.

كان مينوس قد تزوج من باسيفه. وكانت قد منحته عدة أطفال حين ألهمها بوسيدون، إبّان غضبه من مينوس، بحبٍ طاغٍ لثورٍ بشع، ومن ذلك الزواج وُلِدَ المينوطور، وهو وحش نصفه إنسان، ونصفه ثور.

كان الأثينيون قد قتلوا ابن مينوس، أندروجيوس، فضرب مينوس حصاراً حول أثينا. وكان قبل ذلك قد حاصرَ ميغارا وتغلَّبَ على الملك نيسوس، بفضل خيانة سكيلا ابنة نيسون، التي كانت تحب مينوس؛ ولذلك قصَّتْ خصلة من الشعر الذهبي ـ التي يعتمد عليها أمان المدينة ـ من رأس أبيها. واستغلَّ مينوس هذه الخيانة، ولكنه عاقبَ منفَّذتها؛ أغرقَ سكيلا المُتيَّمة في بحر سارونيك، وهناك تحوَّلتْ إلى قُبَّرة. ولكن عند أسوار أثينا كان مينوس أقلّ نجاحاً. وطالَ أمد الحصار، فالتمس مينوس مساعدة زيوس الذي ابتلى أثينا بوباء. ولكي يتخلّصوا

من هذا الوباء وافق الأثينيون على إرسال أتاوة سنوية إلى مينوس على شكل سبعة شبان وسبع فتيات يُقدَّمون طعاماً إلى المينوطور. وقد رأينا سابقاً كيف حرَّرَ ثيسيوس مدينته من هذه العبودية البائسة.

سجن مينوس المنيوطور، الذي يتغذى حصراً على اللحم البشري، داخل قصر مذهل لا أحد يستطيع أنْ يجد مخرجاً منه: المتاحة التي بناها ديدالوس، الآثينيّ الذي يتميَّز بإبداعه وبراعته. وإلى ديدالوس يُنسَب اختراع الفأس والمنشار. ويُقال إنّه أول مَن ثبَّت ذراعين وساقين إلى الـYoana، أي تماثيل الآلهة البدائية التي لا شكل لها. وقتل قريباً له كان حِرّفياً منافساً ولجأ إلى مينوس. وساعدَ أريادن حين منحتْ ثيسيوس كرة الخيوط الثمينة التي أتاحتْ للبطل أنْ يعثر على طريق خروجه من المتاهة، وبسبب هذه الخيانة سجن مينوس ديدالوس وأثناء طيرانهما تجرّا إيكاروس واقتربَ كثيراً من الشمس، فذاب الشمع الذي ثبَّتَ الأجنحة به وسقط إلى البحر الذي حمل اسمه لاحقاً، البحر الإيكاري. حطَّ ديدالوس في كوميا، ومن هناك توجه إلى صقلية حيث كسبَ حظوة الملك كوكالوس. وهكذا أثناء مطاردة مينوس لديدالوس حطّ على الجزيرة، ورفض كوكالوس أنْ يُسلَّم ضيفه. في الحقيقة، وبدلاً من ذلك فقد خنق مينوس في الحمّام. هكذا كانت نهاية هذه السلالة الملكيّة الشهيرة التي كان ضريحها يُشار إليه في جزيرة كريت.

الباب الثاني

الديانــة الرومانية

الديانة الرومانية

نظرة عامة

Michael Grant
ترجمة: وفاء طقوز

طبيعة الديانة الرومانية

يقول الخطيب والسياسي الروماني شيشيرون Cicero بأن الرومان قد فاقوا كل الشعوب الأخرى في حكمتهم الفريدة التي جعلتهم يتحققون من أن كل شيء خاضع لحكم وتوجيه الآلهة. ومع ذلك فإن الدين الروماني لا يقوم على النعمة والمدد الإلهيين بقدر ما يقوم على العناية المتبادلة بين الإله والإنسان. وكان هدف هذا الدين تأمين تعاون الآلهة وخيرها وسلامها. ولقد اعتقد الرومان بأن هذا العون الإلهي سوف يمكنهم من السيطرة على القوى المحيطة بهم والتي تستثير فيهم الخوف والرهبة. والعيش بنجاح. وهذا ما قاد بالتالي على نشوء مجموعة من القواعد هي نوع من القانون الإلهي الذي يقضي بما يتوجب فعله وما يتوجب تجنبه.

لمدة طويلة من الزمن لم تضمن هذه القواعد، إلا فيما ندر، عناصر أخلاقية، فلقد تألفت في معظمها من تعليمات حول الطريقة الصحيحة لتأدية الشعائر، ولطالما أكد الدين الروماني بشكل حصري على الإجراءات الطقسية التي أُسبغت عليها قداسة التقاليد القومية، فالطقوس الرومانية كانت مشغولة بشكل هوسي بالتفاصيل وعلى قدر كبير من المحافظة، لدرجة يمكن معها القول بأننا إذا استطعنا إزاحة ما تراكم عليها من إضافات خارجية عبر الزمن، لبقي في مقدورنا تحري بقية من الأفكار القديمة الأولى قرب السطح. وهذا ما يميز الديانة الرومانية عن الديانة

الإغريقية التي تختفي فيها مثل تلك البقايا القديمة تحت ستار كثيف لا يمكننا اختراقه إلا بصعوبة بالغة. فالإغريق عندما بدأوا عصر تدوينهم كانوا قد ساروا أشواطاً بعيدة في التعقيد الثقافي والأفكار المجردة بخصوص مفاهيم الألوهة وعلاقاتها بالبشر، بينما حافظ الرومان إلى حد كبير على المفاهيم والممارسات القديمة، يضاف إلى ذلك أنه حتى الوقت الذي تأثروا فيه بالمخيلة التصويرية للإغريق، كانوا يفتقدون إلى الذوق الإغريقي في رؤية آلهتهم في هيئة تشخيصية بشرية، وتزويدهم من ثم بالأساطير التي تقص حكايات نشأتهم وعلاقاتهم. وبمعنى ما يمكننا القول بعدم وجود ميثولوجيا رومانية أصيلة. إن بعض الاكتشافات الأثرية في منطقة إترووريا القديمة (بين نهر التيبر ونهر آرنو، والتي تمتد إلى الشرق والجنوب من أبينينيز) قد تقدم دليلاً على وجود ميثولوجيا لدى الإيطاليين، ولكن مثل هذه الميثولوجيا قليلة ومتناثرة، وما وجد لدى الرومان عبارة عن شبه ميثولوجيا استعارت ثوباً إغريقياً. وبالمقابل أيضاً فإن الدين الروماني لم يعرف العقيدة الدينية الثابتة، وما دام الروماني يقوم بالممارسات الدينية الصحيحة، فإنه يبقى حراً في أن يفكر بآلهته بالطريقة التي تناسبه، وما دامت الحالة هذه، فإنه لا مكان لديه للعواطف الدينية عندما يمارس شعائر عبادته.

على الرغم من وجود بقية من ملامح قديمة للدين الروماني قريباً من السطح، إلا أنه يصعب علينا إعادة بنائه والإلمام بكل مناحي تطوره. إن مصدرنا الرئيس من الإخباريين الذين عاشوا في القرن الأول ق.م مثل فارو Varro وفيريوس فلاكوس Verrius Flacuus، ومعاصريهم من الشعراء الذين عاشوا خلال أواخر عصر الجمهورية وعصر الإمبراطور أوغسطس، قد كتبوا بعد مرور 700 أو 800 سنة على تأسيس روما، وفي زمن انفتاح الرومان على الأساطير وطرائق التفكير اليونانية، الأمر الذي جعل تفسيراتهم للتاريخ المغرق في القدم بعيدة عن واقع الحال، لهذا فقد عمد الباحثون المحدثون على استكمال ما قدمه أولئك من تخمينات أو حقائق بالاعتماد على ما وصلنا من نسخ عن الروزنامة الدينية، وعلى نقوش كتابية أخرى، إضافة إلى كنز ثمين من قطع العملة والميداليات والأعمال الفنية الأخرى.

الدين الروماني المبكر

فيما يتعلق بأبكر العصور الرومانية، لابد من الاعتماد على نتائج علم الأركيولوجيا وما توصلت إليه نتائج التنقيب الأثري، على الرغم من عدم كفايتها لإعطائنا صورة واضحة عن الدين الروماني. على أيّ حال، فإن ما تقوله لنا نتائج التنقيب أنه في وقت مبكر من الألف الأول قبل الميلاد (يجب ألا يتفق بالضرورة مع التاريخ التقليدي لتأسيس مدينة روما نحو عام 753ق.م)، هبط رعاة ومزارعون لاتينيون وسابينيون يحملون محاريثهم الخفيفة من هضاب ألبان Alban وهضاب سابين، فأسسوا عدداً من القرى في منطقة روما، حيث أقام اللاتينيون على هضبة البالانتين Palantine، والسابينيون على هضبة كويرينال Quirinal وهضبة الإسكويلين Esquiline. ونحو عام 620 ق.م تلاقت هاتان الجماعتان وتمازجتا، وتحول السوق التجاري حيث كانتا تتبادلان البضائع إلى نقطة انطلاق لبناء مدينة روما وتوسعها.

تأليه الوظائف:

كغيرهم من الإيطاليين فقد رأى الرومان قوة إلهية ناشئة في الأفعال والوظائف، كما هو الحال في الأفعال الإنسانية مثل الولادة وما إليها. وفي الظواهر الطبيعانية مثل حركة الشمس وفصول السنة الزراعية، وقد وجهوا هذا الإحساس بالتقديس نحو أحداث تؤثر على الإنسان بانتظام، وأحياناً نحو تجل واحد فريد، مثل الصوت الغامض الذي سمع في إحدى المرات وأنقذهم من كارثة، ولقد أكثروا من تصور مثل هذه الآلهة الوظيفية التي تكاثرت حتى شملت كل جانب من جوانب الحياة والطبيعة. كانت مهمات هذه القوى العديدة المتجزئة محددة بشكل دقيق؛ ولكي يتقرب الإنسان منها كان لابد له من معرفة أسمائها الصحيحة وألقابها: لأنه إذا عرف الاسم فقد ضمن الاستماع إليه، وإذا لم يعرفه كان عليه تغطية كل الاحتمالات وذلك بالاعتراف بأن الإله مجهول الاسم، أو يضيف قائلاً «مهما كان الاسم الذي تريد أن تنادى به»، أو «سواء كنت إلهاً أم إلهة».

تقديس الأشياء:

ولقد تجاوز حس الرهبة الوظائف والأفعال إلى أشياء معينة أثارت في النفس الإحساس بأنها أكثر من أشياء عادية، وذلك مثل الينابيع والأجمات والأحجار النيزكية ذات الأصل الغامض، والمقابر، وأحجار الحدود، والأدوات الحجرية، والدروع البرونزية التي وصلتهم من حضارات أكثر تقدماً.

ولوصف القوى الكامنة التي تستثير الروع في هذه الأشياء والوظائف استخدم الرومان كلمة نيومين Numen التي توحي بإشارة تصدر عن الإله، على الرغم من أنه لا يوجد لدينا حتى الآن دليل يؤكد أن هذه الكلمة كانت مستخدمة قبل القرن الثاني ق.م وهنا لابد من الإشارة إلى أن استخدام كلمة «روح» لتفسير كلمة نيومين يحتوي على مفارقة تاريخية، لأننا بذلك نفترض وجود مجتمع ذي مقدرة عالية على التجريد، الأمر الذي لا ينطبق على التاريخ الروماني المبكر. كما أننا لا نستطيع استخدام كلمة «مانا» التي يستعملها سكان الجُزر الميلانيزية في المحيط الهادي في التعبير عن القوى فوق الطبيعانية، لأن المجتمع الروماني والمجتمع الميلانيزي ليسا متشابهين، ولأننا بذلك نفترض أن الرومان قد عرفوا في الأزمنة المبكرة مرحلة من الدين سابقة على الاعتقاد بالآلهة المشخصة، يدور حول القوى الغفلة، وهذا ما لم يقم دليل عليه حتى الآن، بل العكس هو الصحيح، لأن تصورهم للقوى فوق الطبيعانية قد تضمن منذ القدم عدداً من الآلهة رسمت مخيلتهم لها شخصية وشكلاً بشرياً، وبعضهم اعتبر بمثابة آلهة عليا. من بين هؤلاء ألوهة للسماء دعوها جوبيتر يمكن مقارنتها مع ألوهات السماء لدى الشعوب الهندو ـ أوروبية المبكرة الأخرى مثل دياوس Dyaus لدى السنسكريت، وزيوس لدى اليونان. وعلى الرغم من أنه لم يصبح بعد إلهاً شمولياً، على تفوقه على بقية القوى الإلهية، فإن إله السماء هذا قد جرى ربطه مع قوى وظيفية مثل الطقس والبرق، ومع أشياء مثل الحجر الخارق الذي هبط من الأعالي ودعي حجر جوبيتر.

السحر ووظيفة الأضاحي:

هذه الآلهة، والوظائف والأشياء القدسية، بدت للرومان سرية ومروعة وبالتالي مشحونة بالقوة الغامضة. ولكي يضمن الرومان لأنفسهم المؤن والحماية والتكاثر، اعتقدوا أن عليهم استرضاء هذه القوى وكسبها إلى جانبهم، وكانت الأضاحي الطريق الأقصر لتحقيق ذلك فالأضاحي والقرابين من شأنها شحن الألوهة بالطاقة والحيوية، لأنها كانت قوى فاعلة، وبذلك معرضة لأن تفقد حيويتها نتيجة فاعليتها إلا إذا أعيد شحنها كل فترة من الزمن. ومن خلال الغذاء الذي يقدم إليها فإنها تُبقي على فاعليتها وجاهزة أبداً لتلبية مطالب الإنسان. من هنا كان تقديم القرابين يترافق دوماً مع نطق عبارة Mate esto التي تتمنى على هذه الآلهة والقوى دوام النماء والازدهار.

كانت الصلوات تترافق دوماً مع تقديم القرابين. ومع تطور مفهوم القوة الإلهية المشخصة كانت الصلوات تتضمن مزيداً من الإطراء والتزلف، ولكن هذه الصلوات قد ترافقت أيضاً مع الطقوس السحرية التي من شأنها إكراه الآلهة على الفعل في اتجاه معين لا مجرد استرضائها، وعلى الرغم من أن السلطات الرسمية (في قانون الألواح الاثني عشر، 451-450ق.م) قد سعت إلى تحديد الجوانب المؤذية من السحر، إلا أنه استمر فاعلاً في الحياة الرومانية كما هو الأمر في العالم القديمة برمته، حتى أن الطقوس الرسمية لم تخل من آثاره، كما هو الحال في احتفال اللوبركاليا Lupercalia، والرقص الطقوس لكهنة السالي Salii على شرف مارس. وعلى الرغم من أن الرومان في العصور التاريخية قد اعتبروا الممارسات السحرية واردة إليهم من البلدان المشرقية، إلا أن ما يقلل من قيمة هذا الإدعاء أن بعض القبائل الإيطالية مثل قبيلة المارسي Marsi وقبيلة البايليني Paeligni، كانتا مشهورتان بالطقوس السحرية، وساد عندهم بشكل خاص اللعن السحري، على ما تبينه النقوش التي ترجع إلى عام 500ق.م وما بعده، والتي تم العثور عليها بأعداد كبيرة. يضاف إلى ذلك وجود ما يدل على شيوع مفهوم «التابو»، وهو نوع من السحر السلبي، والذي نراه في العزوف عن التحدث مع الإغراب، وعدم الاحتكاك بالجثث والأطفال المولودين حديثاً، والابتعاد عن النقاط التي ضربتها الصواعق، وما إلى ذلك حتى لا يصيب المرء أذى جراء ذلك.

الدين في العصر الإتروسكي

بعد اندماج القرى اللاتينية والسابينية بقليل، جاءت فترة وقعت خلالها روما تحت حكم أسرة واحدة من الإتروسك على الأقل، وهي الأسرة التاركوينية (تقع إتروريا إلى الشمال من نهر التيبر)، وذلك خلال الفترة من عام (575 إلى 510 ق.م) وبعض الباحثين يمد هذه الفترة وصولاً إلى عام (450 ق.م).

أهمية الطقوس:

تميز الإتروسك بإحساسهم بالقلق الديني العميق، وكرسوا أنفسهم للطقوس أكثر من كل الشعوب القديمة، وعلى الرغم من أن مصادرنا عنهم هي أيضاً متأخرة وغير كافية، فإنه يبدو لنا أنهم صاغوا مجموعة شاملة من القواعد التي تنظم طقوسهم. لقد قامت الثقافة الإتروسكية على مؤثرات وردت من بلاد اليونان عبر مراكز للثقافة اليونانية في كامبانيا Campania استوطنتها جماعات من الإيبويانيين Eboeans. ومع ذلك فإن الدين الإتروسكي لا ينسجم مع الموقف الديني اليوناني من حيث الانسحاق تجاه الآلهة والانصياع أمام إرادتها الطاغية، بل على العكس من ذلك فإن هدف السعي الديني لديهم كان محاولة إجبار الآلهة (بما فيهم كبيرهم تين/جوبيتر) على إفشاء أسرارهم من خلال تقنيات العرافة، لقد رأوا رابطة وثيقة بين السماء والأرض تجمعهما في وحدة متكاملة تجعلهما يعكسان بعضهما بعضاً، وكانوا أكثر طموحاً في الكشف عن غياهب المستقبل من كلّ من الرومان والإغريق. وقد كونوا لأنفسهم صورة على درجة عالية من الغنى والتعقيد للحياة الثانية، واهتموا بها إلى درجة جعلت الأحياء مشغولين على الدوام براحة الأموات، يتجلى هذا الاهتمام في قبورهم الفخمة وقرابينهم الجنائزية السخية. فعلى الرغم من قناعتهم بوجود عالم أسفل، كان لديهم قناعة أخرى بأن شخصية الموتى تستمر من خلال رفاتهم، ولذا فإنه من الضروري أن يستمتعوا بحياة القبر كيلا يعودوا لإيذاء الأحياء.

بدءاً من القرن الرابع، وبعد أن فقد الإتروسك سلطتهم في روما، نلاحظ أن فنونهم تعكس خوفاً متزايداً مما يمكن أن يجلبه الموت.

المؤثرات على الديانة الرومانية:

لقد استمر الدين الروماني في إظهار تأثره بالإتروسكبين خلال الفترة التي كانت روما تحت سيطرتهم. هذا مع الاعتراف بأن الأشباح الرومانية المدعوة باللاتينية Di Manes كانت أقل حضوراً وتجسيداً من تلك الأشباح الإتروسكية المرعبة، وعلى الرغم من أن تقنيات العرافة الإتروسكية بواسطة أكباد وأحشاء الحيوانات قد استمرت وشاعت لدى الرومان، إلا أن العرافين الرومان الذي ينتمون إلى ثقافة أكثر واقعية من الإتروسك، لم يطمحوا إلى ما طمح إليه الإتروسك في الحصول على معلومات دقيقة عن المستقبل، ومع ذلك فإن الإتروسك هم الذين رسموا الخطوط العامة للحياة الدينية الرومانية. وفي الحقيقة، فإن العديد من الملامح الدينية التي عزاها المؤرخون الرومان بدوافع وطنية إلى الملك نوما بومبيليوس Numa Pomelius (وهو الخليفة السابيني لرومولوس في القرن الثامن ق.م) يمكن إرجاعها في الواقع إلى فترة الحكم الإتروسكي بعد ذلك بقرنين. على أيّ حال فإن الرومان يُظهرون مديونيتهم لإتروريا من خلال احتفالاتهم الدينية وطقوسهم ومخططات وتزيينات عدد من معابدهم، وعلى رأسها معبد الثالوث الكابيتوليني جونو وجوبيتر ومينيرفا. كما تظهر مديونية الرومان للإتروسك في تماثيل آلهتهم الأولى، بما فيها تمثال العبادة الخاص بجوبيتر الذي صنعه الإتروسيكيون لمعبد الكابيتولين. إن مثل هذه التماثيل التي تظهر الآلهة في هيئة بشرية قد حفزت الرومان على التفكير بآلهتهم بهذه الطريقة، وما يترتب على ذلك من تزويدهم بأساطير تراكمت تدريجياً على طريقة القصص الإغريقي مع الحفاظ على نكهة محلية.

ولعل أهم ما تدين به روما للملوك الإتروسك هو روزنامتها الدينية، التي تم العثور على شذرات من أربعين نسخة لها، بالإضافة إلى الأعمال الشعرية التي تناولت الروزنامة على طريقة الإخباريين، كما فعل أوفيد في عمله المعروف فاستي Fasti. إلى جانب هذه الشذرات الباقية في حلتها التي قام بمراجعتها وتحريرها يوليوس قيصر، لدينا روزنامة من العصر الجمهوري تعود إلى ما بعد عام 100 ق.م بقليل، تم اكتشافها في أنتيوم Antum (Anzio).

ومن الممكن فيما يتعلق بهذه الروزنامات أن نتبين العديد من العناصر الأكثر قدماً، بما في ذلك السنة الشمسية المؤلفة من عشرة أشهر والسابقة على الفترة الأتروسكية على أيّ حال فإن الأسس التي تقوم عليها في حلتها التي وصلت إلينا تحمل سمات متأخرة، بسبب محاولتها للتوفيق بين السنة الشمسية والسنة القمرية وفق الحسابات البابلية. وبشكل عام فإن هذا المشروع برمته يرجع إلى فترة الحكم الإتروسكي، على ما نتبينه مثلاً من أسماء بعض الأشهر ذات الجذور الإترورية، يضاف إلى ذلك أن وجود أو غياب احتفالات معينة يسمح بوضع تاريخ يقارب فترة الحكم الإتروسكية في أواخر القرن السادس ق.م، مع تعديلات أدخلت على الروزنامة في القرن الثاني، وتعديلات أخرى أدخلت عندما تم نشرها عام 30 ق.م.

إن الاحتفالات التي تسجلها الروزنامة والتي دُوِّن أقدمها بأحرف كبيرة، تعكس فترة انتقالية من حياة الريف إلى حياة المدينة. وعلى الرغم من بقاء العبادات المحلية حية وناشطة، فإن أشكالاً عديدة من العبادة والتي كانت حتى ذلك الوقت عبادة أسر ومزارع مختلفة قد تحول الإشراف عليها إلى الدولة الرومانية الناشئة. هذه الإدارة الحكومية قد قطعت الطريق على أي ميل إلى الروحانية، واستبعدت الحاجة إلى مشاركة الأفراد المتحمسين. ومن خلال توكيد السلطة الرسمية على أن الإلهة قد تم استرضاؤها من خلال برنامج يتوافق مع دورة الحياة الطبيعية، فإنها تجعل الأفراد يشعرون بالتأكيد أن العلاقات مع القوة الإلهية هي بين أيدٍ أمينة.

الدين في العصر الجمهوري المبكر

حتى بعد أن تم خلع الملوك الإتروسك قبل عام 500 ق.م، على ما تقوله الروايات، فإن العلاقات التجارية مع إتروريا لم تضعف، وبقيت مدنها الجنوبية مثل كييري Caere (Corveteri) وفيي Veii القريبتين من روما، تستخدمان المدينة الإغريقية كوماي Cumae كمنقذ تجاري وحولتاها إلى مزود مهم بالحبوب. وعندما واجهت روما أزمة حادة في الحبوب، تدبرت أمر استيرادها من كومي. ومن هذه المدينة وردت التأثيرات اليونانية التي حفزت الرومان على

بناء معابدهم على النمط اليوناني. والآن، وبعد أن تعود الرومان على العادات الدينية اليونانية خلال فترة الحكم الإتروسكي، فقد جاء الوقت لكي يمتصوا هذه العادات، وأبدوا الرغبة في ذلك على الرغم من طابعهم الديني المحافظ، يضاف إلى ذلك أن الرومان منذ القرن الثالث ق.م، وربما أبكر من ذلك، قد استعاروا من مناطق أخرى في إيطاليا طقساً خاصاً، يدعى Evicatio باللاتينية، يهدف إلى دعوة آلهة المدن المغلوبة إلى ترك مواطنها والهجرة إلى روما.

في عام 399 ق.م عندما كانت مدينة فيي تتعرض لحصار طويل وقاسٍ، سارت روما شوطاً أبعد في الهلْينة (أي تبني العادات اليونانية)، عندما استوردت طقساً يونانياً يدعى Lectisternium، يُعرض بموجبه تمثالان أجنبيان على أريكتين، وتوضع أمامهما مائدة وضعت عليها أطباق الطعام والشراب، وذلك لإشعارهما أنهما ضيفان عزيزان على روما. ومنذ القرن الرابع، إن لم يكن أبكر، كان يتم دفع بلاء الطاعون والأوبئة الفتاكة الأخرى باللجوء إلى طقس آخر يدعى Supplicatio، يقوم بموجبه كل الأهالي بالدوران حول المعبد والسجود على الطريقة اليونانية، ثم صار هذا الطقس يتبع احتفالاً بالنصر العسكري.

الدين في العصر المتأخر
أزمات واتجاهات جديدة

استمر طقس عرض التماثيل أمام المائدة (Lectisternium) يقام على نطاق أوسع وبأبهة أكثر. وفي عام 217 ق.م كانت إيطاليا تتعرض لحالة من القلق الديني والجيشان العاطفي بسبب الحرب البونية الثانية واجتياح هانيبال القرطاجي أراضيها. ولقد عملت روما على استجلاب عطف وتأييد كل إله اعتقدت بقدرته على مساعدتها، ولكن دون طائل: فلجأت أخيراً إلى دعوة الإلهة سيبيل، الأم الكبرى لآسيا الصغرى، للإقامة في روما بشكل دائم. وقد مضى إلى مدينة بيسنوس المقر الرئيسي لعبادة سيبيل سفراء دينيون وأحضروا معهم إلى روما الحجر الأسود المقدس الذي يرمز إليها، عام 204 ق.م. وبعد 18 سنة كانت عبادة ديونيسيوس (باخوس) المتصلة بالعربدات الجنسية تغزو روما قادمة من إيطاليا الجنوبية، حتى اضطر مجلس الشيوخ إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لقمعها.

ولكن هذه العبادة وغيرها من عبادات الأسرار التي تقدم لأتباعها وعداً بالخلاص إلى حياة ثانية، واستثارة دينية مفقودة في العبادات الرومانية الرسمية، قد جاءت لكي تبقى، وعلى الرغم من كل المقاومة التي أبدتها السلطات الرسمية فإن هذه العبادات قد تأقلمت بعد مدة، ولعبت دوراً مهماً في المشهد الديني الإيطالي، كما ورد إلى روما أيضاً علم التنجيم الشرقي وصارت له شعبية واسعة. وهو يقوم على القناعة بوجود رابطة تعاطفية بين الأرض والأجرام السماوية، ولاسيما الكواكب السيارة السبعة؛ وبما أن ضوء هذه الكواكب يؤثر على الأرض وسكانها في شتى المجالات المادية والمعنوية، فإنه لمن الممكن استخدام تقنيات خاصة للإفادة من الآثار الإيجابية لحركة ونور الكواكب، وتجنب آثارها الضارة.

ولقد تلقى علم التنجيم تشجيعاً خاصاً من الفلسفة الرواقية التي دخلت روما بين القرن الأول والقرن الثاني ق.م على يد بانياتيوس Panaetius وبوسيدونيوس Posedonius. فلقد رأى الرواقيون في هذا العلم الزائف برهاناً على النظرة الأفلاطونية لكون موحد. ولقد أثرت الرواقية على التفكير الديني الروماني بثلاث طرق أخرى. فأولاً، كان في الأفكار الرواقية حول الحتمية ما شجع على الإيمان بالقدر، وبطريقة غير منطقية بالحظ أيضاً، الأمر الذي كان شائعاً في الحضارات المشرقية. وثانياً، أدخلت الرواقية عنصراً روحياً على التفكير الديني، وذلك بقولها إن الروح الإنسانية هي جزء من النفس الكلية للعالم وتشاركها القداسة نفسها، ثالثاً: ترتب على ما سبق ظهور مضامين أخلاقية جديدة، فالبشر على ما يقول الرواقيون إخوة، وعليهم التعامل مع بعضهم على هذا الأساس لقد أثرت هذه الأفكار على صميم السيكولوجيا الرومانية التي تملك ميلاً أخلاقياً قوياً، تأكد الآن من خلال مصادقة جاءت من الفلسفة، ولم يكنَ بمقدور الدين الروماني الشكلاني تقديمها. وهكذا فقد فشل الدين الرسمي للإمبريالية والمادية، وأخذت الفلسفة تملأ الفراغ بالتدريج، وفي الوقت نفسه فإن الوقت السلبي للديانة الرومانية من مسألة الحياة الثانية، قد قابله تكوّن أفكار مزجت بين اللاهوت والتصوف والسحر، وجعلت الشخصية الأسطورية أورفيوس، والشخصية التاريخية شبه الأسطورية فيثاغورس، بمثابة الأنبياء.

ولقد عمل المدافعون عن الاتجاهات الجديدة جهدهم في نقد الدين الروماني، مثل الشاعر القومي إينيوس Ennius، والمسرحي الكوميدي بلوتوس Plautus الذي سخر على المسرح من الآلهة الرومانية. وبالمقابل فإن موقف الطبقة العليا كان يعبر عنه أشخاص مثل المؤرخ بوليبيوس Pllybius، والكاهن القاضي سكيفولا Scaevola، والباحث فارو Varro، والفيلسوف الخطيب شيشرون Cicero الذي قال أن أهمية الدين هي سياسية بالدرجة الأولى، وتكمن في قدرته على التحكم في الجماهير من أجل الحيلولة دون الفوضى الاجتماعية، وفي قدرته أيضاً على تنمية الولاء القومي.

الدين في العصر الإمبراطوري
الأشكال المتأخرة للوثنية الرومانية

بعد انتهاء ويلات الحرب الأهلية في عام 30ق.م، قام أوكتافيان الابن المتبنى ليوليوس قيصر بالتأسيس للنظام الإمبراطوري، وقرر أن الدين القديم ما زال حياً وبعيداً عن الاندثار، وأن إحياء جميع أشكاله سوف يستجيب للحس العام بأن مصائب الأيام السالفة قد وقعت نتيجة لتجاهل الفروض الدينية.

العبادة الإمبراطورية:

اتخذ أوكتافيان اسم أوغسطس (الجليل)، وهو اسم يدل على إدعاء العظمة والتبجيل. ولكن هذا لم يرفعه إلى مصاف الآلهة في حياته. على أن ما رافق ذلك من إدخال الاسم في ممارسة طقوس معينة، قد مهد الطريق أمام تأليهه بعد مماته، مثلما كان الحال بالنسبة ليوليوس قيصر. فلقد تم تأليه هاتين الشخصيتين من قبل الدولة لأنهما قدمتا للبلاد ما هو حري بالآلهة.

وقبل ذلك في بلاد اليونان، هنالك فكرة تقول: إنه أنقذك شخص فإنك تدين له بفروض احترام مثل التي تؤدى للآلهة. ولقد طلب الإسكندر المقدوني وبعض خلفائه من بعده تبجيلهم كمخلصين إلهيين. فقد أدخل الخليفة الثاني للإسكندر على مصر، بطليموس الثاني، عبادة شخصه أثناء حياته. لقد كان من نتيجة الاعتقاد الرواقي بأن الروح الإنسانية هي قبس من

نفس العالم الكلية، القول بأن الرجال العظماء يملكون نصيباً أوفى من العنصر الإلهي فيهم. يضاف إلى ذلك أن الميثولوجي يوهيميروس الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، قد طور نظرية تقول بأن الآلهة أنفسهم كانوا قبل ذلك بشراً عاشوا على الأرض. مثل هذه الأفكار قد بررت سابقاً ارتقاء شخصيات بشرية إلى مصاف الآلهة، مثل هرقل والزوج الديسكوري كاستور وبولوكس، ثم طبقها الرومان على الإله ساتورن، والإله قيرينوس Quirinus الذي جرت مطابقته مع رومولوس البطل المؤسس لمدينة روما الذي صعد إلى السماء. وهكذا صار من المعتاد رفع الأباطرة المحبوبين إلى مرتبة الألوهة بعد وفاتهم بمثل هؤلاء كانوا يدعون ديفي Divi، لا ديي Dei كما هو حال الآلهة الأوليمبيين، فالآلهة الأوليمبية كان يُصلى لها. أما هذا النوع من الآلهة فكان ينظر إليهم بتوقير واعتراف بالجميل.

مع المضي قدماً في العصر الإمبراطوري، تبين أكثر فأكثر أن الدين القديم لم يعد على صلة بمشاغل الناس الحقيقية، وما يتعرض له المجتمع من أزمات. أما عبادة الديفي، وهم الشخصيات الإنسانية المؤلهة، فقد تركزت في قاعة شرف واحدة، وبقيت في مقدمة العبادات الوطنية التي كان يجري تشجيعها باعتبارها قوة جامعة على النطاق القومي، وبتركيز هذه العبادات على الحُماة من الأباطرة وعلى الأمة، فقد اتسع نطاقها لتشمل روما نفسها. وفيما يتعلق بالجيش فقد سجل لنا تقويم دورا أوروبُس في بلاد الرافدين عدداً من الاحتفالات الخاصة به. وفيما يتعلق بالحكام الأحياء من الأباطرة، فكانوا يعاملون على هذه الدرجة أو تلك كشخصيات مقدسة، وعلى النطاق الرسمي كانوا يقرنون عادة بالآلهة. ومع نمو الاتجاهات الدينية التوحيدية، فإن هؤلاء صار ينظر إليهم باعتبارهم مختارون من العناية الإلهية ويقدسون بهذه الصفة. ومع متابعة هذه الطريقة في التفكير خلال الهزيع الأخير من حياة الوثنية الرسمية، اتخذ كل من الإمبراطور ديوكليتيان والإمبراطور ماكسميان اسمي جوفيوز Jovius وهرقوليوس Herculius، تيمناً باسمي راعييهما وحامييهما جوبيتر وهرقل.

دخول المسيحية والميثروية:

في هذا الوقت لم تعد الفكرة الإنسانية التي تقول إن بمقدور الإنسان أن يتحول إلى إله مقبولة. وترافق ذلك مع ظهور أفلوطين وفلسفته الأفلاطونية الحديثة، وهي الفلسفة التي سادت العالم الوثني منذ أواسط القرن الثالث الميلادي، وأعطت صيغة صوفية للمفهوم الأفلاطوني والرواقي عن كون تحكمه قوة واحدة. ومن ناحية أخرى، فإن أكبر شخصية روحية في القرن الثالث الميلادي وهو ماني الإيراني، قد بدأ بتبشيره في بلاد الرافدين منذ العام 240 ميلادي، وقال بالثنوية الكونية وبأن العالم ليس من صنع قوة خيرة فقط وإنما من صنع قوة شريرة أيضاً. لقد أقنعت الكنيسة المانوية الإمبراطور ديوكليتان، ولفترة قصيرة اجتذبت اللاهوتي المعروف القديس أوغسطين قبل تحوله إلى المسيحية، وامتصت إليها عدداً كبيراً من العبادات الغنوصية التي يدَّعي أتباعها امتلاكهم لعرفان صوفي يأتي عن طريق الإلهام والكشف، وهذا العرفان هو الذي يساعدهم على تنقية أنفسهم من العناصر غير المادية وتخليص أرواحهم من سجنها الأرضي. وفي هذا الوقت كانت العبادة الميثروية (نسبة إلى الإله الإيراني ميثرا) تمزج الثنوية المانوية مع عبادات الأسرار وطقوسها الإدخالية بعد تزويدها بنزعة أخلاقية صارمة، وصارت بمثابة حلقة وصل متينة بين عبادة الشمس التي راقت للموحدين المعاصرين، وظاهرة الانسحاب من عالم المادة والحواس الذي ما لبث أن أدى إلى ظهور النسك المسيحي. لقد كان للميثروية قربانها المقدس مثل المسيحية، ولكن حياة ميثرا لم يكن لها نفس التأثير الذي كان لحياة يسوع المسيح. يضاف إلى ذلك أن الميثروية قد استبعدت النساء من عضويتها.

لقد غزت المسيحية، بأفكارها المتميزة بخصوص المحبة الكونية، ويسوع الذي التقت فيه الألوهة بالإنسانية، العالم الروماني، وبعد فترة صراع مريرة راقت للإمبراطور قسطنطين ولبت لديه حاجة للدعم الإلهي في ظرف معين. ومنذ عام 312 م. وعبر عملية تدريجية ومعقدة، صارت الدين الرسمي للإمبراطورية.

تأثيرات الدين الروماني على المسيحية:

لفترة من الزمن، بعد تحول قسطنطين إلى المسيحية، استمرت قطع العملة المعدنية وغيرها من الأعمال الفنية، تعكس رابطة بين العقيدة المسيحية وعبادة الشمس. وحتى بعد انتهاء هذا الطور فإن الوثنية الرومانية تابعت إظهار تأثيراتها إلى هذا الحد أو ذاك، فلقد استمد الباباوات من الأباطرة لقب «الحبر الأعظم»، والقديسون بوظائفهم المختلفة حلوا محل العديد من القوى الإلهية التي كانت تستميل قلوب الناس، والروزنامة الكنسية حافظت على بقية من مواعيد الاحتفالات السابقة على المسيحية، وأهمها عيد الميلاد الذي امتزجت فيه عناصر من عيد الساتورناليا Saturnalia الروماني التقليدي وعيد يوم ميلاد ميثرا. إن التيار الرئيس للمسيحية الغربية مدين لروما القديمة بالنظام الشديد الذي أعطاها استقرارها وشكلها، فجمعت إليها بين الأطر الراسخة وإمكانية الانفتاح على الجديد الذي كان كامناً فيها منذ البداية.

المعتقدات والممارسات والمؤسسات

الآلهة المبكرة:

كغيرهم من الإيطاليين، فإن الرومان لم يعبدوا فقط القوى المحلية ذات الوظائف، بل عبدوا أيضاً بعض الآلهة العليا، وعلى رأسهم إله السماء جوبيتر الذي كانت عبادته في البداية مقتصرة على الجماعات التي تعيش حول تلال ألبان. قبل أن تنتقل إلى الرومان. لقد جعل الرومان لجوبيتر كاهناً خاصاً، ولكن وجود كاهنين رئيسين مخصصين لكل من مارس وقيرينيوس، من شأنه أن يؤيد شواهد أخرى تدل على أن الرومان قد جعلوا هذه الآلهة في ثالوث، وأن هذا الثالوث يعود إلى الأزمنة الموغلة في القدم (ولكن الرأي القائل بأن هذا الثالوث يعكس الطبقات الاجتماعية الثلاث للشعوب الناطقة باللغة الهندو ـ أوروبية، لم يعد مقبولاً اليوم). كان مارس (الذي لا ندري ما إذا كان اسمه هندو ـ أوروبياً أم لا) إلهاً أعلى لعدد من الشعوب الإيطالية، على ما نستشفه من رقيم برونزي عثر عليه في إيجوفيوم Iguvium (Gubbio)، وكان يدافع عنهم في الحروب ويحمي

مزروعاتهم وقطعانهم. وقد اعتبر والداً للملك ريمولوس مؤسس روما، وفيما بعد جرت مطابقته مع إله الحرب اليوناني، وتحت اسم مارس غرايفيوس كان يشرف على بداية الحرب، وتحت اسم مارس قيرينيوس كان يشرف على نهايتها. ولكن قرينيوس القديم كان إلهاً مستقلاً وحامياً لقرية قيرينال قبل اندماجها بالبالاتاين، ثم جرى الاعتقاد بأن قيرينيوس هو ذاته الإله الذي تحول إليه رومولوس بعد موته وصعوده إلى السماء.

من القوى الإلهية التي تعود أيضاً إلى العصور الموغلة في القدم لدينا جانوس القوة الكامنة في البوابة، وفيستا القوة الكامنة في النار، ليس لجانوس معادل يوناني. وكان له مقام عبادة قرب الساحة العامة له بوابتان متقابلتان لقد مثّل في البداية السحر في البوابة المنزلية أو بوابة الكوخ القديم، وبعد ذلك صار جزءاً من الدين الرسمي. وفيما يتعلق بالإلهة فيستا، فقد انتقلت هي الأخرى من المجال المنزلي إلى دين الدولة، وكان لها على الدوام معبد دائري الشكل يعكس الكوخ البدائي الذي رأى الآثاريون بقاياه على الأرض أو رسومه على الجرات الفخارية الجنائزية. وفي معبد فيستا هنالك على الدوام شعلة نار لا تنطفئ، ولكن عدم وجود تماثيل لها في المعبد يدل على أنها سابقة على الفترة التي شهدت ظهور صور الآلهة على أن موقع العبادة الذي تم اكتشافه خارج مستوطنة البالنتاين القديمة، يدل على وجود عبادة نارية أبكر من عبادة فيستا مكرسة لألوهة اسما كاكا Caca على البالنتاين نفسه وقد استمرت عبادة فيستا التي تخدمها كاهنات عذراوات حتى نهاية العصور القديمة، وكان لها دور مهم في الحماية الإلهية لروما.

كان الـ«ديماني» Di Manes هم القوة الجمعية للموتى (وهم الأرواح فيما بعد). والاسم يعني «الأخيار». وهذا من قبيل الإشارة بلطف إلى شيء بغيض، كما هو الحال عند اليونان الذين دعوا ربات الانتقام (الفيوريات Fuirie) باللطيفات. بعد وفاته، يبقى المرء رجلاً كان أو امرأة عضواً في العائلة وفي العشيرة، ويغدو واحداً من الأسلاف الذين يتوجب تبجيلهم واحترامهم، وكان تبجيل الأسلاف بمثابة حجر الزاوية في الدين والحياة الاجتماعية للرومان.

وقد أُطلق على هؤلاء الاسم الجمعي «دي إنريجيتيس» Di Inergites الذي يعبر عن القوة الجمعية للجدود. ومن هؤلاء فريق يدعى لار Lar وهـم يـشرفون على الحقول، وتقام لهم العبـادة إينمـا التقـت وتماسـت الملكيـات الزراعيـة، وتنصب تماثيل صغيرة لهـم في كـل مـصلى مـنزلي (Lararium). وقـد انتقلـت عبادتهم من البيت إلى الدولة وصارت تماثيلهم الحامية توضع على مفارق طرق السفر، وعبـدوا باعتبـارهم أرواحـاً حاميـة للمجتمـع الرومـاني، وإلى جماعـة الأسلاف ينتمي أيضاً الـ«دي بيناتي» De Penates الذين اعتبروا منذ أقدم الأزمنة بمثابة القوى التي تؤمن ما يكفي من الطعام للناس. كانوا يعبدون في المنازل، ثم تحولوا فيما بعد إلى حُماة قوميين.

آلهة الفترة الملكية المتأخرة:

وهنالك ألوهتان أخريتان تُعـزى عبادتهمـا إلى فتـرة الملـوك، وهمـا ديانـا Diana وفورز فورتونا. كانت ديانا إلهة إيطالية للغابات يتضرع إليها النـسوة مـن أجل الحمل، وقد تمت مطابقتها بعد ذلك مـع الإلهـة اليونانيـة أرتمـيس. كـان معبـدها علـى تلـة الأفينـتين Aventin يحـاكي في تـصميمه معبـد أرتمـيس في إفسوس، وفيه تمثال جرى تنفيذه وفق تمثال يونـاني مـن ماسـيليا (Marseille) Massillia نحو عام 540 ق.م.

وقد هدف العامل الروماني سيرفيوس تاليوس Servius Tullius من بناء هذا المعبد إلى محاكاة ما يـشبه الرابطـة الأيونيـة في اليونـان Pan - Lonian league بين اللاتين.

أما فورز فورتونا، فكان معبدها على الجهة المواجهة لروما عبر نهر التيبر واحداً من المعابد القليلة التي كان بمقدور العبيد أن يقـصدوه. كانـت في البدايـة إلهـة للمزارعين، ثم تحولت إلى إلهة للحظ، وجرى بعد ذلك مطابقتها مـع تايكـه Tyche، حامية المدن وإلهة الحظ عند اليونان، وفـق المرويـات الرومانيـة، فقـد حكـم سيرفيوس تاليوس خلال فترة معترضة بين ملكين إتروسـكيين همـا تـاركوينوس بريسكوس Tarqhinus Priscus وتـاركوينوس سـوبيربوس Tarquinus Superbus.

ولقد شرع الملوك الإتروسك في بناء (وربما أنهو) أهم معبد روماني مكرس لعبادة الثالوث الكابيتوليني جوبيتر وجونو ومينيرفا (وقد تم التكريس في عام 509 أو عام 507 ق.م. بعد طرد الإتروسك). إن وضع هذه الآلهة التي تشكل ثالوثاً في ثلاث قاعات هو تقليد إتروسكي، ولكن جمع هذه الآلهة معاً يبدو مديناً للمفاهيم التشخيصية اليونانية. فالإلهتان هيرا وأثينا اللتان قرنتا بجونو ومينيرفا، كانتا على التوالي زوجة وابنة لزيوس (جوبيتر). كانت جونو في إيطاليا أحياناً إلهة حرب عليا للمدينة، ولكن وظيفتها الرئيسية كانت الإشراف على حياة المرأة وبشكل خاص حياتها الجنسية. أما وظائف مينيرفا فاختصت الحرفيين، وهي تعكس الحياة الصناعية النامية لروما. وهناك إلهان إتروسكيان عُبدا في مذبحين في الهواء الطلق قبل أن يكون لهما معبدان في روما، وهما فولكان وساتورن، كان الأول إله نار جرت مطابقته لاحقاً بالإله اليوناني الحداد هفيستوس، والثاني كان إلهاً زراعياً جرت مطابقته مع الإله اليوناني كرونوس والد زيوس، وقد عبد ساتورن على الطريقة اليونانية برأس مكشوف.

كان مركز عبادة هرقل هو المذبح الكبير في سوق الماشية على أطراف مستوطنة البالاتاين، وقد أقيم هذا المذبح في موقع لعبادة الإله الفينقي ملكارت أسسه تجار فينقيون في القرن السابع ق.م وقد اشتق اسم هذا الإله (باللاتينية Hercules) من اسمه اليوناني Heracles وانتشرت عبادته من جنوب إيطاليا إلى شمالها عن طريق التجار الذين قدروا رحلاته وأعماله البطولية الخارقة ومقدرته على مقاومة الشر، وفي الواقع فإن حضور مثل هذا الإله المحبوب على نطاق واسع في سوق يؤمه غرباء من شتى الملل من شأنه أن يحافظ على السلام والوئام بين المتعاملين فيه.

آلهة العصر الجمهوري:

لقد بنيت سلسلة من المعابد المهمة في بدايات القرن الخامس ق.م. وإلى هذه الفترة يعزى بناء معبد ساتون الإتروسكي (497 ق.م)، وكذلك المعبد المكرس للفارسين التوأمين الديسكوري، المدعوين كاستور وبولوكس. ولدينا نقش من لافينيوم يصفهم بالتعبير اليوناني Kouroi، الأمر الذي يشير إلى أصول يونانية من جنوب إيطاليا ودونما توسط إتروسكي. وتقول الأسطورة إن

الديسكوري قد ساعدا روما في معركتها مع اللاتين قرب بحيرة ريجيلوس. وفي الفترات التاريخية كانا يشرفان على موكب الفرسان السنوي الذي يقام سنوياً احتفالاً بهذه المناسبة، ومن جنوب إيطاليا جاءت أيضاً الإلهة سيريس التي بني لها معبد عام (493 ق.م) وسيريس إلهة إيطالية قديمة تتكفل بالقوى الخلاقة في الطبيعة، وجرت مطابقتها مع ديمتر إلهة القمح اليونانية، ويبدو أن إدخال عبادتها إلى روما يعزى إلى تأثير المستعمرة اليونانية كومي Cumae، التي استورد منها الرومان القمح عندما حلت بهم المجاعة. إن مشاركة سيريس لإلهين آخرين في معبدها هما ليبير Liber وهو إله خصب جرت مطابقته مع ديونيسيوس، وزوجته ليبيرا، قد نسج على منوال ثالوث إليوسيس في اليونان. لقد بني المعبد على الطراز الإتروسكي ولكن تزييناته حملت طابعاً يونانياً، وهو يقوم إلى جانب مركز تجاري يوناني على تلة الأفنتاين. كما لعبت كومي دوراً في تقديم عبادة الإله أبوللو إلى روما وهو الذي رفعه الإمبراطور أوغطس فيما بعد إلى مرتبة حامية الشخصي وحامي نظامه السياسي.

على عكس أبوللو، فإن أفروديت لم تحتفظ باسمها عندما جرت مطابقتها مع إلهة إيطالية، بل حملت اسم فينيوس، أي الطبيعة المزدهرة على الغالب. وقد اكتسبت هذه الإلهة أهمية بالغة بسبب أسطورة تجعلها أماً لإينياس سلف روما والبطل الطروادي، الذي تمثله بعض الأعمال الفنية من فيي تعود إلى القرن الخامس وهو يهاجر من طروادة عقب سقوطها وبصحبته ابنه وأبوه.

بعض الآلهة كان لهم مرافقون من الجنس النسائي هن لسن زوجات لهم وإنما شركاء عبادة، ويعكسن جوانب خاصة من قوتهم ومشيتهم أو خصائصهم. وهؤلاء المرافقون عبارة عن أفكار مجردة جرى تجسيدها، مثل «الإخلاص» التي كانت صفة لإله القسم السابيني ثم تحولت بعد ذلك إلى مرافق إلهي، ومثل فيكتوريا التي كانت نصر جوبيتر، والوفرة مرافقته ساتورن والتي قرنت مع هيبي. كان من أولى هذه الخصائص المجردة التي صار لها معبد، على ما نعرف، هي كونكورديا عام 367 ق.م وذلك في أعقاب حرب أهلية، تبعتها سالوس Salus الصحة ورغد العيش عام 302، ثم فيكتوريا عام 300. وكان الإغريق منذ الأزمان

القديمة يبثون الحياة في أمثال هذه المفاهيم مثل الصحة والعدالة والحظ، والتي تناوست بين الشخصية الإلهية المكتملة وبين كونها مجرد تجريدات لا شخصية واضحة لها. ولكن هذه الأفكار والمفاهيم لدى الرومان لم تكن عبارة عن تجريدات ومجازات بل كانت موضع عبادة حقيقية، فهي قوى مقدسة ذات وجود موضوعي وتؤثر على البشر بالطريقة التي تستوجبها أسماؤها. وبتأثير الأفكار الفلسفية ولاسيما الرواقية التي غزت الرومان ذوي الفكر الأخلاقي، فقد تحولت هذه القوى إلى مفاهيم أخلاقية، مثل الفضائل والبركات التي كانت تصور بشكل إنساني على قطع العملة المعدنية كجزء من الدعاوة الإمبراطورية.

الشمس والنجوم:

لم يتم إنجاز شيء ذي قيمة في العالم الروماني فيما يتعلق بعلم النجوم، والرأي الذي قال به أريستارخوس الساموسي Aristarehus of Samos (نحو 240 ق.م) من أن الأرض تدور حول الشمس لم يلق أذناً صاغية من أحد، وبقيت فكرة مركزية الشمس هي السائدة، حيث تم تصور الشمس باعتبارها قلب منظومة الكواكب التي تدور حول الأرض. وقد اعتبر إله الشمس سول Sol واحداً من الأسلاف المقدسين لروما. ومنذ القرن الخامس تمت مطابقة هذا الإله الشمسي الذي كان له أجمة مقدسة في لافينيوم مع الإله أبوللو في وظيفته كواهب للخيرات الزراعية. وخلال القرون الأخيرة قبل الميلاد انتشرت عبادة الشمس في عالم البحر المتوسط وشكلت النقطة التي التأم شمل الوثنية حولها في الهزيع الأخير من حياتها، وقد ارتبط بعبادة الشمس الإله ميترا القادم من إيران. والذي كان بمثابة وكيل الشمس ونصيرها. كما ذاعت عبادة الشمس لدى الفرق العسكرية الرومانية ولاسيما تلك المتواجدة على نهر الدانوب. وقد بنى أورليان أحد أهم الأباطرة العسكريين معبداً هائلاً في روما للإله سول انفيكتوس، أي الشمس التي لا تقهر، سنة 274 ميلادية، وبعد ذلك أعلن الإمبراطور قسطنطين الشمس نسيراً رئيسياً على قطع العملة المعدنية التي تم تداولها في العالم الروماني بأسره، وكرس نفسه لعبادتها قبل تحوله إلى المسيحية.

بعد انتهاء سيادة الملوك كان المنصب الكهنوتي الرئيسي هو منصب «ملك الطقوس المقدسة» Rex Sacrorum. وقد انتقلت إلى هذا المنصب بقية السلطات والواجبات الدينية التي كانت للملوك، والتي لم تنتقل إلى مسؤولي الدولة الجمهورية. وعلى أيّ حال، فإن سلطة هذا الكاهن وزملائه قد أضعفها قانون الألواح العشرة (451-450 ق.م) الذي جعل للسلطات المدنية نصيب في المهمات الدينية. وعلى الرغم من أن مسؤولية الروزنامة الدينية بقيت بين يدي ملك الطقوس حتى عام 275 ق.م. إلا أن منصبه كان قد أضعف إلى حد بعيد.

يمكننا أن نتتبع أصول العديد من الوظائف الكهنوتية إلى أزمان مبكرة، وعلى وجه الخصوص مناصب كهنة جوبيتر ومارس وقيرنيوس، وكان منصب كاهن جوبيتر المسمى دياليس Diàlis محاطاً بعدد من المحرمات أو التابوات الصعبة التي جعلت ملء المنصب في الفترات التاريخية أمراً على غاية من الصعوبة.

فيما عدا ملك الطقوس وكاهن الدياليس اللذين كان منصبهما مهنياً وتقنياً، فإن بقية المناصب الكهنوتية كانت تشغل من قبل رجال بارزين في الحياة العامة. ونظراً لما تؤمنه هذه المناصب من تميز اجتماعي وسياسي، فقد كانت موضع تنافس الراغبين في الحصول عليها.

كل هنالك أربع مجموعات من الكهنة وهم الـPontifices، والـAugures، والـQuindecnviri Sacris Faciudis، والـEpulones. كانت المجموعة الأولى تتألف من ثلاثة كهنة ثم من ستة عشر، وهي التي تشرف على النظام الديني للدولة منذ مطلع القرن الثالث ق.م. أما الكاهن الأعظم المدعو بملك الطقوس المقدسة، فلم يكن ينتخب من هؤلاء وإنما يجري تعيينه من السلطة الرسمية. أما المجموعة الثانية، فكانت مهمتهم معرفة مشيئة الآلهة فيما يتعلق بالإقدام على أي عمل. وكانوا يمارسون ذلك من خلال تقصي حركة الطيور السابحة في السماء. وقد تحولت هذه التقنية، بتأثير الإتروسك، إلى

شيء لا غنى عنه لمشاريع الدولة وقراراتها؛ ولكن مسؤولية اتخاذ الإجراءات لم تكن تقع على عاتق الكهنة بل على عاتق رجال الدولة. وقد بقي هذا النوع من استخارة مشيئة السماء ضرورياً قبل الإقدام على عمل مهم من قبل السلطة حتى زمن شيشرون وهوراس في القرن الأول ق.م. كما صار أسلوب التنبؤ من خلال فحص أكباد وأحشاء حيوانات القربان، والذي يعود إلى العصر الإتروسكي، شائعاً منذ الحرب البونية الأولى، على الرغم من أن ممارسيه (الذين بلغ تعدادهم 60 خلال العصر الإمبراطوري) لم يصبحوا قط أعضاء في السلك الكهنوتي.

وفيما يتعلق بالمجموعة الثالثة فقد كان تعدادها 15، وتتصل مهماتها بالإشراف على الطقوس الأجنبية، وفيما يتعلق بالمجموعة الرابعة فقد كانت تشرف على الاحتفالات الدينية. إضافة إلى هذه المجموعات الأربع، لدينا الـFetiales وهم كهنة يرعون مسائل العلاقات الدولية مثل المعاهدات وإعلان الحرب وما إليها. ولدينا كاهنات فيستا (النار المقدسة) الست اللواتي كن ينتخبن من العائلات الارستقراطية العريقة، وهن يرعين هيكل فيستا وشعلة ناره، ويقمن في سكن قريب حيث يعشن في إسار عدد متنوع من التحريمات التي تعود إلى الأزمنة السحيقة.

المعابد:

تحتوي الروزنامة الرومانية الطقسية التي وضعها أو عدلها الملوك الإتروسك على 58 احتفالاً دينياً منتظماً، بينها 45 احتفالاً تدعى Feriae Publicae تجري في أيام محددة من كل عام، وكذلك احتفال اليوم الثالث عشر من كل شهر المكرس لجوبيتر، واحتفال اليوم الأول من آذار المكرس لمارس. ومن بين الـFeriae publicae يبرز بشكل خاص احتفال اللوبيركاليا Lupercalia في الخامس عشر من شهر شباط، واحتفال الساتورناليا Sturnalia في السابع عشر من شهر كانون الأول. وهنالك أيضاً الـFeriae Conceptivae الذي يحدد موعده كل عام من قبل الجهة المختصة.

إن كلمة Templum التي صارت تعني معبداً فيما بعد، هي كلمة إتروسكية وتدل على قطاع في السماء يحدده الكاهن لاستطلاع الفأل، وفيما بعد صارت تعني مسقطاً لذلك القطاع السماوي على الأرض تتحدد بموجبه قطعة مفرزة ومكرسة للآلهة، في البداية لم تكن هذه القطعة المقدسة من الأرض تحتوي على أبنية دينية وإنما احتوت فقط على مذبح ثم على مقام صغير. وفي روما لدينا معابد منذ عام 575 ق.م، بينها المقام الدائري لفيستا وعدد من المناطق المقدسة قرب نهر التيبر على مسافة غير بعيدة من سوق الماشية. وكانت المعابد الإتروسكية الكبرى تبنى من الخشب وتعلوها تزيينات منفذة بالطين المشوي، وقد بلغت أوجها في معبد الثالوث الكابيتوليني، وبعد ذلك جرى استخدام مواد أكثر صلابة مثل الحجر والرخام والقرميد، أما أرشيفات المعابد التي ضاعت الآن فكانت بمثابة الذاكرة التاريخية التي حفظت فيها الأحداث، كما أن ذكرى النذر والقسم ببناء المعابد وتكريسها، قد تم تسجيلها والاحتفاظ بها على قطع العملة المعدنية.

القرابين وعادات الدفن

كانت التقدمات الرئيسية للرومان عبارة عن قرابين ترافقها نذور وصلوات. وكانت القرابين الحيوانية هي المفضلة والأكثر فعالية في نظرهم، وتتألف من الخنازير والخراف، ويحتفظ بالثيران للمناسبات المهمة. وأفضل أجزاء الذبيحة هي المتصلة بوظائف الحياة مثل القلب والكبد والكلية. وبشكل عام فإن القرابين البشرية كانت غريبة على العادات الرومانية، ولكن وجودها لدى الإتروسك قد ساهم على خلق ألعاب المجالدة حتى الموت في إترووريا وروما، والتي جرى إحياؤها في الأزمات الكبرى بعد ذلك، ولاسيما خلال الحرب البونية الثانية مع قرطاجة عام 216 ق.م.

لقد بلغ الاهتمام بالأسلاف عند الرومان حد الهوس، إلا أن عنايتهم بالموتى لم تبلغ الحد الذي بلغته عند الإتروسك، وعلى الرغم من فلسفة فيرجيل وشيشيرون التي تحدثت عن نوع من حياة الروح بعد الموت، ولاسيما

لمن يستحقها، فإن الأفكار الرومانية عن الحياة الثانية كانت غامضة ومشوشة (إلا إذا كانوا من المؤمنين بديانات الأسرار). وقد كان لديهم خوف من عودة أشباح الموتى، ولاسيما المتوفين حديثاً ممن يحملون ضغينة ما، لإحداث الأذى بالأحياء. وكانت المقابر منطقة حراماً ومحمية من قوى فوق طبيعانية ومحوطة بتحريمات عديدة. في الفترات الأولى مارس الرومان عادة حرق الجثث مثلما مارسوا أيضاً عادة دفنها، ولكن الحرق كان هو العادة السائدة منذ القرن الثالث ق.م. وبعد ثلاثمائة سنة عاد الدفن ليكون العادة السائدة، ربما بسبب شيوع الاعتقاد بأن راحة الروح تعتمد على راحة الجثة في القبر. ومثل هذه الأفكار كانت سائدة في عبادات الأسرار، على الرغم من تعارضها مع توكيدها على استمرار حياة الشخص في عالم روحاني بعد الموت، وكان تصميم مقابرهم يعكس رؤيتهم لاستمرار الروح باعتبارها كائناً مستقلاً حصل على حقه في النعيم.

الفن الديني:

خلف لنا الرومان تركة غنية من فنون العمارة والنحت والميدانيات والرسم والموزاييك، توضّح العديد من جوانب الدين الروماني، وتساعدنا على ردم الفجوة التي تركتها الوثائق الأدبية والنقشية. هذه التركة التي ابتدأت بالدمى الطينية الأولى والتزيينات المنفذة بالطين المشوي للمعابد، قد وصلت حداً من التطور أوصلها إلى إنتاج روائع من الفن مثل تمثال أبوللو المشهور من مدينة فيي، وبعد 400 سنة إلى إنتاج اللوحات التي تظهر الأسرار الديونيسية، والتي وجدت قرب موقع مدينة بومبي، والنحت البارز لأوغسطس أراباكيس في روما، ومع شعارات وقطع عملة قسطنطين، تأتي فترة ألف سنة من الفن الروماني إلى نهايتها.

نتيجة:

لم ينتج الدين الروماني إيديولوجيا دينية ولا قواعد صارمة للسلوك، ولكن طقوس المنزل والحقل القديمة قد صنعت إحساساً بالواجب والوحدة. وأفكاره عن الفهم المتبادل بين الإنسان وإلهه قد منحت الرومان حسن الأمان الذي احتاجوه لبلوغ نجاحاتهم، وأطلقت لديهم فكرة الالتزام المتبادل والعهد الملزم بين الفرد والآخر. وفيما عدا بعض الشذوذات، مثل القرابين البشرية، فإن الدين الروماني لم يتلوث بطقوس العربدة ولا بالممارسات الهمجية، ولم يكن طائفياً ولا حصرياً، بل كان ديناً متسامحاً ومفتوحاً للجميع. وقلما نجد ديناً مثله لم يرتكب أتباعه جرائم تذكر باسمه.

Michael Grant[1]

(1) Michael Grant, Roman Religion, Encyclopedia Britannica, 2005.

الآلهة والأساطير الرومانية

مقدمة

تتطلب عبارة الميثولوجيا الرومانية بعض الإيضاح، بل حتى التبرير، فالنظام الديني الذي كان مركزه في روما لم يكن في الواقع رومانياً خالصاً. فالعناصر التي تألف منها كانت عديدة ومتنوعة. لم تكن وحدة متناغمة، وإنما موازييك من الممكن أن يُميّز فيها إسهامات إترورية، ألبانية، سابينية، يونانية، سورية، فارسية، ومصرية. ومن البديهي أنه كانت هناك عناصر رومانية أيضاً، ولكن ليس إلى درجة الهيمنة على النظام وصبغه بصبغة قومية على وجه الخصوص.

تبدو الميثولوجيا الرومانية فقيرة عند مقارنتها بالغنى الشعري والروحي اليوناني والأساطير الشرقية. كان الرومان شعباً عملياً ذا مخيلة فقيرة، وسعوا لصياغة دين ينسجم مع حاجاتهم. كان من المهم بالنسبة إليهم أن يشعروا بالحماية من الأخطار التي كانت تهدد المجموعة كما الفرد، ولكنهم لم يشعروا بأيّ حاجة باطنية لمحبة وعبادة القوى فوق البشرية التي كانوا يلجؤون إليها ويطلبون معونتها. كانت آلهتهم حماة تُدفع أجور خدماتهم، وفي حال الفشل كانت الأجور تُمنع عنهم. Do ut des: أعطيك ما تعطينيه. هذا هو نص اعترف الإيمان الذي يمكن للمرء أن ينقشه فوق على مدخل البانثيون الروماني.

إننا نستخدم مصطلح البانثيون الروماني خطأً، لأنه لم يكن هناك بانثيون روماني بحت. إن المصطلح هو استيراد يوناني من القرن الثالث قبل الميلاد. ولكن ألم يوجد هنالك مراتبية من الآلهة تُعبد في روما؟ بلى. ولكنها لم تكن على الإطلاق كتلك المجموعة العظيمة من الشخصيات البارزة والرائعة، التي يتميز كل منها بميزاته الفردية الخاصة الواضحة والمعرّفة بسهولة، مما عرفناه في البانثيون الإغريقي. كان الأمر لدى الرومان أكثر تجريداً ونفعيةً: سجلٌّ أو،

كاتالوج فعلي (indigitamenta) يجد فيه أولئك المهتمون أسماء القوى مع وظائف خاصة منسوبة إليها والطقوس التي يجب القيام بها من أجل شراء عطفها وخدماتها.

وعلى مر الزمن، عندما منحت ثروات الحرب الرومان إمبراطورية على العالم القديم، قادتهم الروح النفعية، التي أظهروها في بناء نظامهم الديني الخاص بهم، من دون جهد، إلى إقامة معابد الشعوب التي هزموها فوق تربتهم الخاصة بهم، هذه الآلهة الأجنبية التي أدخلوها في دائرة العائلة أصبحت الحماة الجدد الذين انضموا إلى تلك التي كانت تحمي من قبل العائلة الرومانية والمدينة. روما، عاصمة الإمبراطورية، لقد قبلت بين جدرنها آلهة كانت في السابق عدوة ولكنها راحت تشكّل من الآن فصاعداً جزءاً من المنظومة السياسية الرومانية.

آلهة إيطاليا

كان هناك عدد محدد من الآلهة الإيطالية الخالصة. ولكن مع ذلك يجب ألاّ ننسى أن التأثير الأجنبي، وعلى وجه الخصوص التأثير اليوناني، قد دخل في شعورهم منذ سالف الأزمنة. ولإعطاء بعض التواريخ: تم التأسيس التقليدي لروما في عام 753 قبل الميلاد. وفي ذلك القرن أُنشئت مستعمرات يونانية في صقلية وفي جنوب إيطاليا التي كانت تُسمى في الواقع بـ Magna Graecia. فقد أنشأ الدوريون سيراكوزه في عام 743 وتارنتوم في 707. وأقام الآخيون سيباريس في 217، وكورتون وميتابونتوم، ووطد الإيوبيون (Euboeans) أنفسهم على جانبي مضائق ميسينا.

ومن الواضح أن العلاقات ازدهرت بين هؤلاء اليونانيين والقبائل الإيطالية، وبشكل خاص المدن الأترورية مثل Tarquini وVulci وCaere التي كانت على اتصال منتظم مع المستعمرات اليونانية. لقد أثر الأتروريون إلى حد كبير في تاريخ روما البدائية، التي من الجائز أنهم غزوها. وفي كل الأحوال، تتحدث الروايات عن ملوك أتروربين لروما في القرن السادس، تاركوينوس الأكبر

ـ وهو من أصل يوناني ـ وسيرفيوس توليوس، وتاركونيوس سوبيريوس، وهكذا من الجلي أن الرومان، وعن طريق الوسيط الأتروري، قد انفتحوا باكراً على التأثير اليوناني، الأمر الذي يفسّر لماذا سنجد في هذه الأوراق المخصصة للآلهة الإيطالية تفاصيل معينة سبق ولاحظناها في الميثولوجيا اليونانية، هذا الهيليني في البانثيون الروماني يُؤذن بالتمثّل والتبني الأكثر اكتمالاً الذي حدث في القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد.

رأينا من قبل أن الرومان كانوا يعتبرون آلهتهم كحماة لهم. ولهذا كان هناك طبقتان رئيسيتان من الآلهة الإيطالية: تلك التي كانت وظيفتها حماية الدولة، وتلك التي تحمي العائلة التي كانت تُعتبر نواة متكاملة ومكمّلة للدولة.

سندرس أولاً آلهة الدولة، ولكن هذا لا يعني على الإطلاق أنه بالنسبة للرومان كانت هذه الآلهة أكثر أهمية من آلهة العائلة. في الواقع فإن العبادة التي يمارسها رب الأسرة ـ والذي كان يتصرف كراهب حقيقي ـ لآلهة العائلة كانت على ذات القدر من الأهمية لتلك العبادة المخصصة لجانوس وجوبيتر وبقية الآلهة الرسمية.

آلهة الدولة: الآلهة الرئيسية

جانوس: إن جانوس فريد من حيث كونه في الأصل إلهاً إيطالياً أو، وعلى وجه التحديد، إلهاً رومانياً، وهو لا يظهر في أيّ أساطير أجنبية.

إن أصل اسمه غير معروف على نحو أكيد. وقد حاول شيشرون Cicero أن يجده في الفعل Ire. في حين أن آخرين يفضلون الجذر (divider) Div، ويفترضون أن الصيغة الأولى للاسم كانت Divanus، فيما تقترح فرضية ثالثة صيغة Jana، والتي استُخدمت أحياناً في الاسم ديانا Diana حيث الجذر Dius أو Dium يؤدي فكرة السماء المضيئة.

تتفق هذه الفرضية الأخيرة مع الحقيقة الراسخة في أن جانوس كان في أصله إلهاً شمسياً. ولكن وظائفه كانت واسعة ومهمة ومشتقة من بعضها البعض.

كان جانوس في المرتبة الأولى إلهاً للمداخل: للبوابات العامة (Jani) التي تمر منها الطرقات، وللأبواب الخاصة. وهكذا كانت شارته المفتاح الذي يفتح ويغلق الأبواب، والعصا التي يستعملها البوّابون لإبعاد أولئك الذين لا يملكون الحق في عبور العتبات. يمكّنه وجهاه من مراقبة كلّ من الجهتين الداخلية والخارجية للبيت، ومدخل ومخرج الأبنية العامة.

وحيث إنه إله البوابات فمن الطبيعي أن يكون إله المغادرة والعودة، وبالتالي، إله وسائل الاتصال كافة. وباسم Porttunus كان إله المرافئ، وحيث إن السفر من الممكن أن يتم إما في البحر أو في البر، فمن المفترض أنه اخترع الملاحة.

كذلك كان جانوس إله «البدايات». بوصفه إلهاً شمسياً كان يشرف على طلوع الفجر وسرعان ما اعتبر المحرّض على المبادرات كافة، وبشكل عام، كان يوضع على رأس كل الأعمال الإنسانية. ولهذا السبب يعزو إليه الرومان دوراً رئيسياً في خلق العالم. فهو كان رب الأرباب. جانوس الأب. ويروي أوفيد أن جانوس كان يُدعى كايوس Chaos (أي العماء) عندما كان الهواء والنار والماء والتراب كتلة غير متشكّلة. وعندما انفصلت العناصر اتخذ كايوس Chaos صيغة جانوس، يعبّر وجهاه عن تشوّش حالته الأصلية، وجعلت أساطير أخرى من جانوس ملك العصر الذهبي لمنطقة لاتيوم[1]. وقيل إنه رحّب بساتورن المبعوث من السماء من قبل جوبيتر.

تأسست عبادة جانوس إما على يد رومولوس Romulus أو على يد نوما Numa وبقي على الدوام ذا شعبية بين الرومان. وكان جانوس يظهر في بداية المراسم الدينية، ونظراً لكونه أبا الآلهة، كان الأول في قائمة الآلهة الرومانية ويأتي قبل جوبيتر نفسه وكان يُبجّل في بداية كل شهر. وقد حمل أول شهر من السنة اسمه (Januarius).

---

(1) لاتيوم Latium إقليم قديم في غرب ووسط إيطاليا كانت تحكمه روما، وهو الوطن الأصلي للشعب اللاتيني.

كان له معبد في الساحة العامة يُفتح في أوقات الحرب ويُغلق في أوقات السلم. إن سبب هذه العادة غير معروف تماماً. ومع ذلك فإن بوابات معبد جانوس بالكاد كانت تُغلق مرة تحت حكم نوما، وثلاث مرات تحت حكم أغسطس ومن ثم تحت حكم نيرون، وماركوس أورليوس، وكومودوس، وغورديوس الثالث، وفي القرن الرابع.

ليس لدينا أي تمثال كامل أو نصفي لجانوس، ولكن صوره التي على قطع النقود عديدة. يُمثّل عادة بوجه مزدوج، أو كرجل عجوز ذي لحية، ولا يبدو أي تاج أو أكليل غار في كل صوره.

مارس: مارس هو الإله الأكثر رومانيّة من غير شك، وقد كانت عبادته أكثر أهمية بكثير من عبادة جوبيتر، وهذا يعود إلى أن مارس كان مرتبطاص على نحو حميمي بالتاريخ الروماني، أولاً لأن الروايات جعلته أباً لرومولوس Romulus مؤسس روما، وثانياً بسبب وظائفه كإله زراعي، وأخيراً لأنه كان إله الحرب. وبذلك كان ينسجم مع حالتي المواطن الروماني المتعاقبتين، الذي كان مزارعاً أولاً ثم محارباً غازياً.

إن أصل اسمه مثار جدل فالبعض يربطه بالجذر mar أو mas الذي يعني القوة المولّدة في حين أن آخرين يعطون الجذر mar معنى «الإشعاع»، مما يعني أن مارس كان في البدء إلهاً شمسياً.

أقدم صيغ لاسمه هي Maurs وMavors، ماورس ومافورس، التي تقلّصت إلى الصيغة المعتادة لمارس، أما الصيغ الأخرى ـ Marspiter وMaspiter مارسبيتر وماسبيتر ـ فقد صيغت من إضافة الكلمة Pater أي الأب.

يعتقد اللاتينيون أن مارس هو ابن جونو، ملكة السماء وزوجة جوبيتر، وضعته جونو من دون مساعدة جوبيتر، وإنما عن طريق اتحاد سري خفي مع زهرة رائعة. كان مارس زوج عذراء النار ريا سيلفيا. أخذها مباغتة حينما كانت تبدو نائمة، وأصبح والد رومولوس وريموس Romulus وRemus.

كانت وظائفه في البداية ريفية. في الأزمنة الغابرة كان إله الحياة النباتية والخصوبة وتحت اسم سيلفانوس ـ الذي أصبح فيما بعد إلهاً بارزاً ـ كان يشرف على تكاثر الماشية. كان يعيش في الغابة وفي الجبال، وبشكل عام كان يحمي الزراعة، ومن هذا المنطلق اعتبر ذا صلة بروبيغوس الذي كان يحمي الذرة من الآفات. هنالك عدد من الحيوانات المقدسة لديه، منها نقّار الخشب، والحصان والذئبة التي غالباً ما تظهر صورها في أماكن الإله المقدسة. وهذه الذئبة هي التي أرضعت رومولوس وريموس. وبين النباتات والأشجار التي كانت مكرِّسة له هناك شجرة التين والبلوط والقرانيا والغار والفاصولياء.

جميع هذه التفاصيل بالإضافة إلى حقيقة أن مارس كان إله الربيع، حين يتم الاحتفال بأكثر مهرجاناته أهمية، توضح أن مارس كان في الأصل إلهاً زراعياً، وكان يُدعى مارس غراديفوس، المشتقة من غرانديري Garndiri، والتي تعني «أن يكبر، وينمو».

لم تأتِ وظائفه الحربية إلاَ فيما بعد. ولكنها في النهاية حلّت محل واجباته السابقة التي نُقلت عندها إلى سيريس وليبر. أصبح مارس إله المعركة. وكان يبجّل في معبده في روما قبل الانطلاق بالحملات العسكرية. وكانت تُقدّم له الأضاحي قبل القتال، كما كان يتلقى حصته من الغنائم بعد النصر، وعلاوة على ذلك ظهر أكثر من مرة في أرض المعركة، ترافقه بيلونا وفاكونا إلهتا المحاربين، وبافور وبالور اللذان كانا يلقيان الرعب في قلوب الأعداء، وأونوس وفيرتوس اللذان غرسا في الرومان الشرف والشجاعة. ظل مارس يحتفظ بلقبه السابق غراديفوس Gradivus، ولكن اللقب تغير في المعنى، أصبح الآن مرتبطاً بالفعل Gradi غرادي، والذي يعني «الزحف/السير قدماً». أصبح الآن مارس جندي مشاة. وبعد النصر كانت ترافقه فيتولا وفيكتوريا.

كان مارس يُبجّل في إيترووريا، وفي أمبريا، بين السابينيين الذين ربطوه بالإلهة نيريو Nerio، وفي سامنيوم وبين الأُسكانيين. وفي اللاتيوم Latium، كان له العديد جداً من المعابد وقد شيّد الرومان المزيد منها على الأراضي التي غزوها.

في روما حيث كان يُعبد بالاسم مارس وبالاسم كيرينوس، كان له مذبح Sacrarium فوق هضبة البالاطين Palatine في روما كوادراتا Roma Quadrata أثناء حكم رومولوس، وهناك كان يُحتفظ برماح الربّ المقدسة والتروس الاثني عشر، المدعوة بالأنسيليا Ancilia، وهي عناصر عبادته. وقد أحب مارس أن يظهر للملك نوما محبة وفضلاً فأسقط له من السماء ترساً ارتبط به بعد ذلك قدر روما. ولتجنّب مخاطر السرقة والتخريب والهدم، صنع نوما أحد عشر ترساً مماثلاً ووضعها تحت حراسة مجموعة خاصة من الكهنة سمّوا بالسالي Salii، وقد كانت طقوس السالي في الأصل موجهة لحماية نمو النباتات.

يظهر مارس كإله زراعي بحث في احتفالات الأمبرافاليا Ambravatia التي كان تجري في روما في التاسع والعشرين من أيار، كانت احتفالات تنقية وتطهير، يُمنح أثناءها مارس الـsuovetaunilia حيث يُساق خنزير وكبش وثور في أرجاء المكان قبل التضحية بهم للإله.

كما يظهر مارس أيضاً في تراتيل الأرفالس Arvales وهم مجموعة من الكهنة كانوا مسؤولين عن طقوس الإلهة ديا ـ ديا Dea, Dia، الإلهة الريفية، والقريبة من سيريس.

إن كافة صور وتماثيل مارس تقريباً مشتقة من الفن اليوناني. أما الصورة الأكثر رومانية له ربما كانت صورة مارس ذي اللحية، مع ترس وخوذة، والمأخوذة عن تمثال لمارس أولتور Ultor في المعبد الذي أنشأه أغسطس. أما بالنسبة إلى الصور العديدة لمارس والمنقوشة على ميدانيات فهي مصنوعة وفق النموذج اليوناني وتقلّد نموذج أريس Ares.

بيللونا Bellona، رفيقة مارس، كان لها معبد محتفى به في روما بالقرب من بوابة كارمينتا Carmenta. هناك يعطي مجلس الشيوخ حق الكلام للسفراء، وأمام المعبد يرتفع «عمود الحرب» الذي يتم عنده إعلان الحروب. وكان يتم اختيار كهنة بيلونا من بين المحاربين.

جوبيتر: نجد في اسم جوبيتر الجذرين di وdiv، واللذين يتوافقان مع فكرة اللمعان، النور السماوي.

كانت وظيفة جوبيتر الأتروري، والذي كان يُدعى تينيا Tinia، هي تحذير البشر، وفي بعض المناسبات، معاقبتهم، ولهذا الغرض فهو يمتلك ثلاث صواعق. بوسعه أن يرمي الأولى وقتما يشاء، كتحذير، ولكن لرمي الثانية، والتي كانت بمثابة إنذار، فعليه أن يحصل على إذن اثني عشر إلهاً، والصاعقة الثالثة من أجل العقاب. ولا يمكن إطلاقها إلا بموافقة الآلهة العليا الخفية: dii superious, involuni. من الممكن مقارنة جوبيتر البدائي هذا مع سومانوس Summanus وهو إله رعد أترووري آخر كان يشرف على سماء الليل.

كان جوبيتر اللاتيني بادئ ذي بدء إله النور ـ الشمس والقمر ـ والظواهر الجوية الريح والمطر والرعد والعاصفة والبرق. وهكذا فقد كان دوره مهماً للمواطنين الزراعيين. هناك ألقاب عديدة تتناسب وواجباته المتنوعة: كان جوبيتر لوسيتيوس Lucetius إله النور، وجوبيتر إيليسيوس Elicius الذي يسبب هطول المطر، وجوبيتر ليبر liber إله القوة الخالقة، وجوبيتر داباليس Dapalis الذي يشرف على البذار والزرع، وجوبيتر تيرمينوس Terminus الذي يرعى أحجار حدود الحقول.

وسرعان ما فقد جوبيتر وظائفه الريفية وأصبح حامي المدينة والدولة العظيم، والإله المحارب، ويرمز إلى فضائل العدالة والصدق والشرف. كان يحمي الشباب. وبالمختصر كان القوة الحارسة العظيمة للإمبراطورية: جوبيتر أوبتيموس ماكسيموس Optimus Maximus.

كان جوبيتر يُعبد في كل أنحاء إيطاليا. في Quirinal كان له معبد قديم جداً، Capitolium vetus، حيث يشكّل ثالوثاً مع جونو ومينيرفا. وقد بني هذا المعبد فوق هضبة الكابيتولين وشكّل الآلهة الثلاثة هناك ثالوث الكابيتولين، وهناك حصل جوبيتر على اسمه أوبتيموس ماكسيموس Optimus Maximus.

وقد كان الشيوخ يجتمعون تحت حماية كابيتولين جوبيتر لإعلان الحرب، حيث كان الجنرالات يظهرون أمامه قبل ذهابهم إلى الحرب وبعد النصر يعودون ليقدّموا له تاجاً من الذهب وجزءاً من الغنيمة.

وكان يجري الاحتفال باللودي روماي Ludi romani، وهي ألعاب سنوية تُقام في المدرّج الروماني على شرفه. ويعود إقامتها إلى التاركين الأكبر Elder Tarquin، وهي مباريات رياضية، وبشكل خاص سباق العربات.

بالإضافة إلى اللودي روماني كان هناك اللودي بليبي Ludi plebeii وهي سباقات جري وتسليات مسرحية.

اشتقت صور جوبيتر جميعها عملياً من الفن اليوناني، إلاّ أن جوبيتر الفولسيان Volscian يلفت النظر في كونه من غير لحية وصوّر على الدوام كشاب.

جونو: أخت جوبيتر وزوجته، كانت جونو إلهة إيطالية عظيمة جداً، وقد وُجدت منذ أبعد العهود عند السابينيين، والأسكانيين، واللاتينيين، والأمبريين، والأرترورين.

أقدم ألقابها لوشيتيا ولوشينا Lucetia وLucina، ويتناسبان مع وظائفها الرئيسية.

جونو لوشيتيا Lucetia هي المبدأ الأنثوي للنور السماوي، الذي كان جوبيتر مبدأه الذكري، ومثل جوبيتر كانت أيضاً إلهة قمرية، وفي مظهرها الأخير هذا كانت تُقرن بالإلهة ديانا Diana.

إلهة النور، كانت أيضاً إلهة الولادة، لأن الطفل الوليد يؤتى به إلى النور، عندها كانت الإلهة جونو لوشينا Lucina.

وفي هذا المظهر كانت تحتل جزءاً مهماً في طقوس الزواج وما يليها، كان لديها العديد من الألقاب: جونو برونوبا Juno Pronuba التي تحمي ترتيبات الزواج، وجونو دوميدوكا Juno Domiduca التي تقود العروس إلى بيت زوجها وتطمئن إلى أنها تعبر العتبة.

وجوو نوكسيا Juno Nuxia تمسح عضادة الباب بالعطر. وسينكسيا Cinxia التي تحلّ حزام العروس. فيما بعد صارت جونـو لوشـينا Juno Lucina تحمـي الزوجة الحامـل، وتقـوّي عظـام الرضـيع (جونـو أوسـيباغو Juno Ossipago) وتطمئن على تزويد الأم بالحليب (جونو رومينا Juno Rumina). وتتلقى جونـو سوبيتو Juno Sospita ابتهالات حارّة عند المخاض والولادة.

وبوصفها إلهة ولادة الأطفـال فمـن الطبيعـي أن الزوجـات العـاقرات كـنّ يتضرّعن إليها. وجونو لوشينا هي التي أنقذت نساء السابين من بلاد العقم الـذي ابتلين به بعد خطفهن.

وفي المحصلة، فإن جونو لوشينا هي تجسيد للأم وسيدة المنزل الرومانية ـ نتيجة منطقية للقبها كزوجة لجوبيتر، الإله الأعلى.

لم يقتصر دورها كإلهة لولادة الأطفال على حمايتها للمرأة الرومانية. وباسم بوبولونيا Populonia، صانت جونو أيضاً تكاثر الجـنس البـشري. وتحـت اسـم مارتياليس Martialis، والدة مارس، كانـت إلهـة الـولادة وأخـيراً الخـصوبة ـ كابروتينا Caprotina، وهذا ما قالوه عن أصل هذا اللقب: استغلالاً لضعف روما بعد اجتياح الغاليين، هددوا بهدم روما إن لم تُسلّم جميع النساء والبنات لهـم، عرضت بعض الأمهات أن يذهبن إلى معسكر بوستامياس، متنكرات على أنهـن نساء أحرار. نجحت هذه الخدعة، وفي تلك الليلة، وأثناء نوم الأعـداء، بعـثن من فوق شجرة تين برية إشارة للرومان الـذين أسـرعوا وذبحـوا المعتـدين. وتم إطلاق سراح الأمهات ومكافأتهن من قبل الدولة. وقد جـرى الاحتفـال بـذكرى بطولتـهن كـل سـنة في الـسابع مـن تمـوز، والمعـروف بنونـاي كابروتينـاي Nonae Caprotinae.

جونو مونتينا Juno Moneta، بعد أن كانـت مرشـدة لأولئـك الـذين علـى وشك الزواج، أصبحت مرشدة للشعب الروماني. عندما حاول الغـاليون تـسلّق جدران قلعـة الكـابيتول كـان حيـوان جونـو المقـدّس، الأوز، هـو مـن حـذّر المدافعين وأنبأهم بالخطر.

جونو سوسبيتا Juno Sospita، حامية الولادات، أصبحت بمعنى أوسع تلك المستعدة دوماً لتقديم المساعدة، والمحرّرة. لها معبدان في روما، وفي اللانوفيام كان لها معبد يحرسه ثعبان. كل سنة تقدّم عذراء كعكاً للثعبان فإن أكل منه كان في ذلك فأل حسن، وإن رفض فإن ذلك يعني نذير شؤم وسنة من العقم يجب خشيتها.

بني معبد لجونو لوشينا Juno Lucina فوق الإسكيلين Esquiline في العام 735 قبل الميلاد، بعد بضع سنوات فقط من إقامة روما، في معبد الكابيتولين ترياد Capitoline Triad، الذي بناه التاركينيون Tarquins. حملت جونو لقب ريجينا Regina، وهناك حملت الصولجان الذهبي، والصاعقة، ثم لعبت دور الرفيقة والقرينة الجليلة لجوبيتر وحامية الشعب الروماني. وقد كانت عبادتها منتشرة في كل أرجاء الإمبراطورية.

كانت النساء الرومانيات يُقمن احتفالات جونو لوشينا Juno Lucina المدعوة الماترونااليا Matronatia، في أول شهر آذار، وبعد مراسم كانت تقام في بستان البلاطين المقدّس تنقلب المناسبة إلى احتفال عائلي. كانت ربة البيت شخصيته الأساسية، حيث تتلقى هدية من زوجها وتقوم بخدمة خَدَمِها على الطاولة.

أما جونو ريجينا Juno Regina فتصوِّر على الدوام وهي واقفة: رموزها هي الصولجان وغطاء الرأس والطاووس.

جونو سوسبيتا Juno Sospita مسلّحة برمح وترس.

وتحمل جونو لوشينا Juno Lucina طفلاً بين ذراعيها، وهناك اثنان آخران عند قدميها. كما أنها صوّرت وهي تحمل طفلاً بين ذراعيها وزهرة في يدها، مما يذكّر بالظروف التي حملت بها بالإله مارس.

فيستا Vesta: فيستا هي الأكثر جمالاً بين الآلهة الرومانية، مشعة وصافية مثل اللهب الذي هو رمزها، اسمها مشتقٌ ـ كاسم هيستيا Hestia ـ من جذر سنسكريتي: Vas، الذي يعبّر عن فكرة «الإشعاع».

جعل اللاتينيون فيستا إلهة تجسّد الأرض والنار. واحتفظ الرومان بالشق الثاني فقط من هذين التجسيدين، ولم تكن فيستا إلهة النار في معناها الأوسع، إنما النار المطلوبة للاستعمال المنزلي أو في الطقوس الدينية.

في البداية كانت فيستا على صلة مع جانوس باتر Janus Pater وتيلوس ماتر Tellus Mater، وكانت حامية الحقول المزروعة، كما كانت رمزاً للأمومة المثالية ـ على الرغم من أنها كانت عذراء ـ لأن النار تربّي وترعى.

وبوصفها إلهة النار كانت تتلقى عبادة خاصة وعامة.

كان لكل موقد فيستا خاصة به. مع جوبيتر داباليس Jupiter Dapalis كانت تشرف على تحضير الوجبات. وكان يُقدّم لها أول طعام وشراب ومع لاريس وبيناتيس Lares, Penaets كانت تحتفظ بمكانة سامية في البيت.

في روما كان مركز عبادتها، التي يقال إنها نُظّمت على يد رومولوس Romulus، في الريجيا Regia. وكانت هذه العبادة تدوم طوال السنة تقريباً ولا تتوقف إلاّ في شهري كانون الثاني وتشرين الثاني. كانت الاحتفالات الرئيسية لفيستا هي احتفالات الفيستاليا Vestalia التي كانت تقام في السابع من حزيران. في ذلك اليوم يصبح حرمها المقدس (والذي لا يُسمح بدخوله عادة إلاّ لكاهنتها عذراء فيستا) متاحاً أمام أمهات العائلات اللواتي أحضرن أطباق الطعام. وترئس عذراوات فيستا القدّاس. كانت المراسم بسيطة وغير دموية. كانت عناصر العبادة تتألف بشكل رئيسي من نار الموقد والمياه العذبة الصافية المجموعة في إناء فخاري مصنوع يدوياً وضيق عند القاعدة بحيث يصبح من غير الممكن أن يقف على الأرض. تمتعت عذراوات فيستا، اللواتي لعبن دوراً بالغ الأهمية في الطقوس الدينية الرومانية، بمكانة استثنائية. عندما نصّبهنّ الملك نوما Numa في البداية كانتا اثنتين، وزاد سيرفيوس Servius عددهما إلى ست. وكان يتم اختيارهن بالقرعة من قبل العديد من العائلات الأرستقراطية النبيلة ويبدأن التعلم في سن تتراوح بين السادسة والعاشرة، ويبقين في الخدمة طوال ثلاثين عاماً. خلال السنوات العشر الأولى كن يتلقّين تدريبات بخصوص واجباتهن التي

سيقمن بها طوال السنوات العشر التالية. ثم إنهن خلال السنوات العشر الأخيرة يقمن بدورهن بتدريب عذراوات فيستا أصغر سناً.

أقسمن على العفة المطلقة. وأولئك اللواتي خللن بنذورهن كانت عقوبتهن الموت. كن في الأصل يُضربن بالسياط حتى الموت، إلاّ أن تاركين الأكبر Elder Tarquin عدّل في هذه العقوبة، وأصبحن يُضربن بالسياط ويُحجزن أحياء في قبر يُختم بعد رمي بعض المؤن فيه. وقد تمكّنت عذراوات فيستا اللواتي اتهمن بعدم الطهارة أحياناً بتبرئة سمعتهم. وقد روي كيف أثبتت توكسيا Tuccia عذريتها عن طريق حمل الماء من نهر التيبر في منخل مقدّس. وكان شريك عذراء فيستا يُساط حتى الموت في الساحة العامة. وعلى امتداد أحد عشر قرناً لم تخرق إلاّ عشرين عذراء من عذراوات فيستا نذورهن واستحققن العقوبة.

إن تركت عذراء فيستا النار المقدسة تُطفأ كانت تُجلد بأمر من الحَبر الأعظم.

وعندما تنتهي عذراء فيستا ارتباطها الذي يدوم ثلاثين عاماً يصبح في وسعها أن تتزوج. ونادراً ما استفدن من هذا الحق، مفضّلات أن يحافظن على مكانتهن. كلما ظهرن أمام العامة كان يسبقهن من يُفسح لهنَّ الطريق، وإن حُكم على رجل بالموت وسنحت له فرصة لقاء واحدة من عذراوات فيستا كان يُرجا تنفيذ الإعدام على الفور.

لا يوجد الكثير من تماثيل فيستا. وُجدت صورتها على قطع نقدية، وهي في معظمها تقليد للفن اليوناني. وتظهر مغطاة الشعر دوماً.

فولكان Vulcan: كان فولكان واحداً من أقدم الآلهة اللاتينية، بل إنه يسبق جوبيتر. تحت اسم فولكانوس Volcanus. كان أول جوبيتر في روما وهو حامي تأسيسها. وفي مظهره كجوبيتر شكّل ثنائياً مع جونو. كما أنه جُعل على صلة مع مايا Maia، التي تجسد الأرض الأم، والتي تُعتبر مع فيستا Vesta إلهة للأرض. لم يرتبط مع فينوس Venus التي كانت في تلك الأزمنة البعيدة ما تزال تلعب دوراً صغيراً في الميثولوجيا الرومانية. كان فولكانوس Volcanus والد كاكوس Cacus، الذي سنقص أسطورته فيما بعد. وتُنسب إليه أيضاً أبوة سيرفيوس توليوس Servius Tullius، ملك روما. وإليكم القصة:

جلست عذراء في نواحي برايـنستي Praeneste ذات يـوم بـالقرب مـن نـار عندما سقطت عليها شرارة منها. بعد بضعة شهور ولدت ولداً. تركتـه في الغابـة حيث وجدته بعض الفتيات بالقرب من نار موقدة. ولهـذا أُعتـبر ولـداً لفولكـان Vulcan. وبسبب صغر عينيه أسموه كويكولوس Coeculus. ولّما كبر أقام مدينة برايـنستي Praeneste، واحتفالاً بهذه المناسبة أقام دورة ألعاب رياضية. وعنـدما عبّر بعض الحاضرين عن شكوكهم بنسبه، ناشد والده فولكان Vulcan وأُحـيط الجميع بالنار على الفور.

كان فولكان Vulcan إله الصواعق والشمس، ثم إله النيران التي يستطيع أن يوقف أخطارها، وأخيراً أصبح الإله الذي يهب دفء الحياة.

كان يُتضرع إليه بوصفه إله الموقد، عندما تزوج من مايا Maia، أم الينابيع، أُعتبر أول إله لنهر التيبر. كما أنه امتلك وظائف حربية وربما تقـدَّم علـى مـارس كإله المعارك. في بداية تاريخ روما كان فولكانوس Volcanus شخصية أبرز مـن فولكان Vulcan.

صوّره الرومان دوماً ملتحياً مع تشوه خفيف في الوجه والذي يذكّر من دون شك بعيبه. وبالقرب منه المطرقة والملقط والـسندان، وهـي صـفات أتـت مـن اليونان. يعتمر قلنسوة ورداء قصيراً مما يترك ذراعه اليمنى وكتفه الأيمن طليقين.

ساترون Saturn: ساتورن إله زرعي قديم جداً ذو أصل لاتيني ورومـاني، وقد كان له ذات المرتبة التي لجوبيتر وجانوس Janus. قد يكون لاسمـه علاقـة بالجذر Satur (مليء ومحشو) أو بالجذر Sator (الزارع)، وفي كلتا الحالتين هو مرادف للوفرة.

الساتورناليا Saturnalia: التي يُحتفل بها في السابع عشر مـن كـانون الأول تدوم سبعة أيام، من السابع عشر وحتى الثالث والعشرين من كانون الأول. كانت فترة من الاحتفالات العفوية. بعد المراسم الدينية كانت تقام وليمة هائلة: بـل إن الناس كانوا يحرصون على أخذ حمّامهم في الصباح كي يظلـوا جالـسين طـوال اليوم إلى مائدة الطعام. يخلعون أثوابهم الثقيلـة المرهقـة ويـأكلون براحـة وهـو

يرتدون أرديتهم الطويلة. وفي ذكرى العصر الذهبي يقوم السادة بخدمة العبيد، الذين بوسعهم أن يقولوا ويفعلوا ما يحلوا لهم أثناء الاحتفال. وكانت تُعلّق النشاطات العامة، وتتوقف المحاكم عن عملها، وتُغلق المدارس، وتُعلّق العمليات التجارية والعسكرية.

في معبد ساتورن بالقرب من الكابيتول كان يُحتفظ بخزينة الدولة، بالإضافة إلى رايات فيالق الجيش التي ليست في حملة عسكرية. كان تمثال الإله موثقاً بخطوط صوفية تمنعه من مغادرة الأراضي الرومانية.و لكن أربطته كانت تحل أثناء احتفالات الساتورناليا.

في لوحة من مدينة بومبي يقف ساتورن وصدره نصف عارٍ، ويحمل منجلاً في يده. وعلى قطع النقود يحمل منجلاً أو كوز ذرة.

مينيرفا Minerva: برتبط اسم مينيرفا بالجذر manas أو mens. وقد ظهرت أولاً في إتروريا باسم Menrva وMenrfa وMeneruva وMenarva، ولربما كانت في البداية إلهة الصاعقة. يبدو أن مينيرفا الإتروريين قد امتزجت باكراً جداً بأثينا اليونانية. وبذلك تكون مينيرفا هي الأقل إيطاليّة بين الأرباب الذين شكّلت معهم ثالوث جوبيتر - جونو - مينيرفا.

كانت مينيرفا الرومانية على وجه الخصوص حامية التجارة والصناعة والمدارس. ولم تتخذ شخصية الإلهة المحاربة إلاّ فيما بعد.

تبعاً للتقليد الروماني نشأت عبادة مينيرفا في فاليري Falerii. وفي العام 241 قبل الميلاد لمّا اخذ الرومان هذه المدينة حملوا مينيرفا معهم، وبنوا لها معبداً عند سفح جبل كويليوس Coelius وأسموها مينيرفا كابتا Minerva Capta. وعلى أي حال كان يوجد معبد مكرسٌ أصلاً لمنيرفا في روما على الأفينتين Aventine، ولم تكن عبادتها قديمة في لاتيوم أو بين السابينيين.

كانت مينيرفا تُكرم مع مارس في احتفالات كوينتوارتوس Quinquartus التي كانت تدوم خمسة أيام أثناء الانقلاب الربيعي.

بُجّلت مينيرفا Minerva في أرجاء الإمبراطورية. وكـان يُجلّهـا علـى وجـه الخصوص نقابات الحرفيين وعازفو الناي والأطباء وما إلى هنالك.

لم يكن هناك تصوير روماني بحت لمينيرفا Minerva. صـورها الإتروريـون بجناحين وتحمل بومة في يدها. وهذا الطير كان مقدساً بالنسبة لأثينا.

ميركوري Mercury: يرتبط اسم ميركوري بالجذر merx (بضائع، سلع)، وبالجذر mercari (أن يتعامل بِـ، أ، يتاجر). إنه ليس قديماً جداً لأنه لا يظهر في الإنديجيتامينتا Indigitaments. فالرومان الأوائل الذين كـانوا ريفـيين قبـل كـل شيء لم يكونوا في حاجة إلى التجارة.

لم يظهر الإله الروماني ميركوري إلاّ في القرن الخامس قبل المـيلاد تقريبـاً. وكان إله التجار حصرياً. وعُرف لمدة طويلة بوظيفتـه هـذه فحسـب، بحيـث إن بلاوتوس Plautus في مقدمته لمسرحية أمفيتريون Amphitryon، يذكّر جمهوره أن ميركوري يشرف علـى الرسـائل والتجـارة. ومثـل أربـاب ثـانويين آخـرين ـ Pecunia, Aesculanus, Argentinus ـ كان يرعى أرباح التجار.

كان لميركوري معبد فوق الأفينتين Aventine. ومـن بـين الحيوانـات كـان الديك مقدساً لديه بشكل خاص.

لرسمه قام الرسامون الرومان بشكل عامٍ بالاقتباس من رسوم الإله اليونـاني هرمس. منحـوا ميركـوري Mercury وجهـاً غـير ملـتحٍ، ومـن الرمـوز أعطـوه صولجان هرمس وقبعته المجنّحة، مع محفظة في يده.

الأرباب الزراعيون

فاونوس Faunus: جعلت الأسطورة فـاونوس ابنـاً لبيكـوس Picus وحفيـداً لساتورن. وقد كان يُعتقد بأنه كان واحداً من أوائل ملوك لاتيوم. منح قوانين للقبائـل البربرية واخترع آلة الشوم الموسيقية المـصنوعة مـن أغـصان الأشـجار. ألّـه والـده بيكوس Picus وأمه كانينت Canente التي هزلت وذابت حزناً علـى مـوت زوجهـا حتى لم يتبقّ منها شيء. كان فاونوس أحد الأربـاب الرومـانيين الـريفيين الأوائـل، وفوق كل هذا كان إله الخصوبة. كما إنه امتلك موهبة النبوءة وأطلق أصواتاً لتُـسمع

في الريف. ولكن للحصول على معلومات تنبؤية منه كان يجب أن يُقيّد أولاً، وهذا ما نجح فيه الملك نوما. وتحت اسم لوبيركوس Lupercus كان له معبد في البلاطين، وقد جاء الاسم من كهف اللوبركال Lupercal حيث أرضعت الذئبة التوأم رومولوس وريموس. وكانت تجري احتفالات اللوبيركاليا Lupercalia في الخامس عشر من شباط وهي من بين أهم الاحتفالات في التقويم الروماني. وكانت تهدف إلى التطهر. حيث يُضَحّى بالماعز أنثى وذكراً، وربما بالكلاب أيضاً. وبعد التضحية بالحيوانات كان يُساق شابان إلى المذبح، فيلمس الكهنة حواجبهما بسكاكين يقطر منها الدم ويمسحونها بحشوة صوفية مشبعة بالحليب ينفجر بعدها الشابان بالضحك. ثم يؤدي كهنة لوبيرسي Luperci، نصف عراة وملفوفين فقط بجلد الماعز المُضّحى بها، طقوساً تمد خلالها النساء اللواتي يرغبن بأن يحملن أيديهن ويدرن ظهورهن كي تُساط بجلد الماعز. يقدّم أوفيد Ovid شرحاً مسلياً لعري اللوبيرسي Luperci. فقد فاجأ فاونوس ذات يوم هرقل وأومفاله Omphale نائمين في كهف. أمِلَ فاونوس في أن يستغل المرأة الشابة النائمة، ولكن الحبيبين كانا قد تبادلا بمرح ثوبيهما. لم يلحظ فاونوس هذا في العتمة، ومخدوعاً بتعومة الثوب الذي كان يرتديه هرقل اقترب منه بدلاً من أومفاله Omphale، فرُدّ بفظاظة كما من الممكن أن نتخيّل. ولتجنّب مثل هذه البلية في المستقبل أصر فاونوس Faunus على أن يبقى كهنته عراة عند احتفالهم بمهرجانه. ولم تُحظر اللوبيركاليا إلاّ في العام 494 ميلادي من قبل البابا جيلاسيوس Gelasius الذي استبدلها باحتفال على شرف التطهير الطقسي للعذراء.

كان يشترك مع فاونوس Faunus إلهة الخصوبة فاونا Fauna، التي كانت زوجته أو ابنته. كان يتم التضرّع لفاونا Fauna باسم بونا ديا Bona Dea: وكانت النساء تحتفل بعبادتها في بداية كانون الأول باحتفال غامض ممنوع على الرجال وينحط إلى طقوس عربيدية. كذلك اشتركت أوبس Ops مع فاونوس Faunus، وهي إلهة سابينية قديمة جداً تبّنتها روما. كانت أوبس Ops تشخيصاً للقوة الخالقة والخصوبة الزراعية. وتُبجّل في أوباليا Opalia في التاسع عشر من كانون الأول ويُتَضّرع إليها بالجلوس ولمس الأرض باليد. وقد كانت فاونا Fauna أو بونا ديا Bona Dea قريبة جداً أيضاً من مايا Maia التي ترمز إلى خصوبة

ينابيع الأرض وتُبجّل في أيار. وهناك إلهة أخرى من لاتيوم وهي ماريكا Marica أحبها فاونوس وجعلها، تبعاً لتفسير فرجيل، أم الملك لاتينوس.

كونسوس Consus: كان كونسوس Consus أحد أقدم الألهة في روما. وكان يشرف على البذار. تتألف مهرجاناته الكونسواليا Consualia من احتفالين متمايزين. في الأول، والذي كان يجري في الواحد والعشرين من آب بعد الحصاد، حيث تتم المطابقة بين كونسوس ومع أوبس. وتُنظّم سباقات عربات وأحصنة، تسليات وألعاب، ورقص وسباق غريب على ظهور ثيران مدهونة بالزيت. أما الاحتفال الثاني فقد كان يتم في الخامس عشر من كانون الثاني بعد البذار والزرع. وكان يجري فيه سباقات عربات تجرها البغال. كان لكونسوس مذبح بالقرب من مدرّج ماكسيموس Circus Maximus. وطوال السنة كان هذا المذبح يُغطّى بالتراب وذلك إحياءً لفكرة البذار. ولم يكن يُكنس إلاّ في الكونسواليا Consualia. وعلى ما تقول القصة المعرفة فقد حضرت النساء السابينيات احتفالات كونسوس عندما قام الرجال الرومان باختطافهن.

باليس Pales: كان باليس أول إله ذكر يرتبط بشخص جوبيتر. بعد ذلك اتخذ صيغة أنثوية أصبحت حامية القطعان ومانحة الفحولة للذكور والخصوبة للإناث. وكانت احتفالاتها الباليليا Palilia تجري في الواحد والعشرين من نيسان، هو تاريخ تأسيس مدينة روما. وفي ليلة الاحتفال كان يُقام طقس تطهير في البيوت والاسطبلات يُستخدم فيه مزيج مقدس صنعته عذراوات فيستا. تُرّش فيه المواشي والاسطبلات بمياه مطّهرة. وقد أعطت باليس اسمها لهضبة البالاطين التي قامت عليها روما كوادراتا Quadrata.

ليبر باتر Liber Pater: أول وظيفة أنيطت بهذا الإله الإيطالي هي الإشراف على خصوبة الحقول. وخصوبة الكائنات الحية أيضاً. وقد كان يُبجّل ويُحتفل به في السابع عشر من آذار في الليبراليا Liberalia. وهو اليوم الذي يتسابق فيه المراهقون وهم يرتدون ملابس الرجال. ولم يصبح ليبر باتر إله زارعي الكرمة إلاّ بعد أن خُلط بينه وبين إياكوس ديونيسوس Iacchus Dionysus. أما قرينته فهي ليبيرا Libera، وهي إلهة إيطالية لا تتوفر إلاّ معلومات قليلة عنها.

سيلفانوس Silvanus: كان هذا الإله اللاتيني شهيراً في روما منذ الأزمنة الأولى. وكما يدل اسمه كان سيلفانوس إله الغابة. وهو، كما قيل، ابن لراعٍ من سيباريس وعنزة أو عذراء اسمها فاليريا توسكولاناريا Valeria Tusculanaria. وكان يرعى بشكل رئيسي الأراضي وإقامة المراعي في الريف المشجّر. وقد امتد عمله إلى أعمال زراعة الأشجار كافة، هذا بالإضافة إلى حراسة القطعان وحراثة التربة. وكان يُضّحى له بالماشية المحلية. وغالباً ما كان يُخلط بينه وبين جانوس Janus أو بان Pan الذي له مظهره الخارجي. وكان الأطفال على وجهه الخصوص يخشون سيلفانوس وكذلك النساء اللواتي في المخاض.

تيلوس ماتر Tellus Mater: في أقدم الأزمنة كانت تيلوس ماتر إلهة الخصب بالاشتراك مع إله ذكر وهو تيلونو Telluno. فيما بعد ارتبطت مع جوبيتر. في دورها كأم كانت ترعى الزواج وإنجاب الأولاد. وقد كانت الزوجة تُقدّم لها أضحية عند دخولها منزل زوجها. وكان لها دورها في طقس البوركا برايسيدنيا Porca Praecidnea، حيث يضحي بخنزيره للإلهة سيريس Ceres قبل الحصاد. وبصفتها إلهة زراعية فهي تحمي خصوبة التربة والمراحل التي تمر بها البذور بعد بذرها في التربة.

فلورا Flora: في إيطاليا الوسطى البدائية كانت فلورا إلهة التبرعم في فصل الربيع للحبوب وأشجار الفاكهة والكرمة والأزهار. كانت تحول مع روبيغوس Robigus (أو Robigo) دون انتشار آفات القمح. وترعى مع بومونا Pomona أشجار الفاكهة. وكان لها معبد فوق الكويرينال Quirinal وآخر بالقرب من مدرّج ماكسيماس Circus Maximus. كانت مهرجاناتها، الفلوراليا Floralia، تدوم من الثامن والعشرين من نيسان وحتى الثالث من أيار وهي احتفالات يعمّها الفسق والفجور. وفي الثالث والعشرين من أيار. كان يجري احتفال آخر على شرفها، وهو مهرجان الأزهار. وقد بجّل السابينيون واللاتينيون إلهة أخرى وهي فيرونيا Feronia، والتي شاركت فلورا ببعض وظائفها ورعت أزهار الربيع والخضرة. ومن المحتمل أن فيرونيا Feronia كانت في الأصل إلهة العالم الأسفل. وقد تم جمعها إلى سورانوس Soranus، وهو إله سابيني أصبح إلهاً

شمسياً بعد أن كان في البداية إله العالم الأسفل. وفي معرض التضحية التي كان سكان الجبال يقدّمونها على جبل سوركات Sorcate كانت الذئاب تأتي وتستولي على التقدمات، ثم تلتجئ إلى كهف تخرج منه أبخرة سامة مهلكة. وقد أعلن وسيط الوحي أن هذه الذئاب تحت حماية الإله سورانوس Soranus وأوعز إلى سكان الجبال أن يعيشوا على السلب والنهب، كالذئاب. ومن هنا ظهر اسم Hirpi Sorani الذي أطلق عليهم. وقد خُلد الاسم في عائلة رومانية كانت مكرسة لعبادة سورانوس وفيرونيا. أثناء احتفالات فيرونيا Feronia كان أفراد هذه العائلة، الهيربينيون Hirpini، يمشون حفاة فوق فحم متوهج من دون أن تؤثر النار فيهم.

آلهة الماء: كل المسطحات المائية والينابيع والأنهار كانت مقدّسة. كانت الحورية جوتورنا Juturna وهي من لاتيوم، إلهة المياه الساكنة والأنهار التي توجّها جوبيتر إمبراطورة عليها مكافأة لها على حبها. كانت تبجّل في الجوتورناليا Juturnalia في الحادي عشر من كانون الثاني من قبل جماعة الفونتاني Fontani وهم حرفيون متخصصون في القنوات والنوافير.

ربما كان نبتون في الأصل إلهاً مائياً أو حامياً من الجفاف. أثناء احتفالات النبتوناليا Neptunalia في الثالث والعشرين من تموز كانوا يبنون أكوخاً من الأغصان كملجأ من الشمس.

أما بالنسبة للحوريات، فقد كنّ بشكل عام إلهات مائية. وكن يظهرن عادة مع إله علوي كجوبيتر، أو ديانا وسيريس. وأصل عبادتهن من لاتيوم. وقد وُجدت ينابيعهن بالقرب من بوابة كابينا Capena. الأكثر شهرة هي نافورة الحورية Egeria التي كان يأتيها نوما Numa الملك ليستشيرها في الليل. وبحسب أوفيد فقد تزوجت من نوما وبعد موته انكفأت إلى الغابة في وادي أريسيا Aricia حيث حوّلتها ديانا إلى نافورة. ويقال أنها كانت تتنبأ بأقدار الأطفال حديثي الولادة.

ومن بين الحوريات الممكن ذكرهن الكاميناي Camenae اللواتي كنّ حوريات نبوئية، إحداهن، وهي أنتيفورا Antevora، كانت تعرف الماضي،

وأخرى، واسمها بوستفورتا Postvorta، تعرف المستقبل. والأكثر أهمية بين الكاميناي كانت كارمينتا Carmenta التي سكنت في البداية في أركاديا حيث أنجبت ابناً واسمه إيفاندر Evander من ميركوري. عندها غادر إيفاندر موطنه وجاء إلى إيطاليا، حيث أنشأ مدينة بالانتيوم Pallantium، جاءت كارمينتا معه. غيّرت الأحرف اليونانية الخمسة عشرة التي جلبها إيفاندر Evander إلى أحرف رومانية. وكانت لديها موهبة النبوءة وعاشت حتى بلغت من العمر مائة وعشر سنوات وبعد موتها تلقّت تشريفاً إلهياً.

سيريس وديانا Ceres and Diana: لم تقدّم سيريس وديانا في مظهرهما كإلهتين إيطاليتين أي جديد، كان لسيريس التي جاءت من كامبانيا Campania معبد في روما، ولكن طقوسها كما المعبد نفسه كانت إغريقية. لم تحتفظ ديانا إلاّ لوقت قصير فحسب بشخصيتها الأولى كإلهة للنور والجبال والغابات. وسرعان ما أصبحت إغريقية. كان لديانا معابد عديدة من بينها معبد على شواطئ بحيرة نيمي nemi والذي كان كاهنه تقليدياً عبداً فاراً. وكي يحصل على هذا المنصب كان عليه أن يقتل سلفه أولاً في نزال منفرد. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً يصبح هو نفسه هدفاً لأي قاتل قد يرغب في أخذ مكانه.

فينوس: كانت فينوس تحتل في الأيام الأولى موقعاً متواضعاً في البانثيون الروماني. وقد كانت تمثل مع فيرونيا Feronia وفلورا Flora الربيع والإثمار. وكان لها مكانها في الفلوراليا Floralia (في الثامن والعشرين من نيسان وحتى الثلاثين من أيار) وفي الفينالينا روستيكا Vinalia rustica في التاسع من أب.

فيرتومنوس Vertumnus: من غير المعروف إن كان فيرتومنوس Vertumnus أترورياً أم لاتينياً. وفي كل الأحوال فمن الواضح أن أصل اسمه لاتيني: Vertere، والتي تعني «التغيير».

كان إله الأشجار المثمرة مثل سيريس Ceres وبومونا Pomona. كان جميع الآلهة الزراعيين يتوددون لبومونا، ولكنها لم تستسلم إلاّ لفيرتومنوس. ولكي يغريها اضطر إلى انتحال هيئات عديدة ومختلفة. ظهر أمامها كعامل ومزارع كرمة

وحاصد للزرع. وفي النهاية تغلّب على شكهّا باتخاذه شكل امرأة عجوز. كما اشترك فيرتومنوس أيضاً مع سيلفانوس Silvanus، وكان يُبجّل مع رب نهر التيبر، المجرى الذي كان من المفترض أنه قد غيّره. وتظهره الروايات يدور في مجمع الآلهة، حيث كان يغيّر شكله على الدوام.

آلهة العالم السفلي

استعار الرومان من أتروريا القديمة فهمهم للأقاليم الجهنمية وسكانها. في الجحيم الأتروري تختلط الرؤية الساذجة والمخيفة الشائعة في كل الأديان البدائية مع مفاهيم مجردة من أنظمة أكثر تطوراً. وكلاهما خاضع للتأثير الإغريقي مع الاحتفاظ بالطابع القومي. في الأقاليم الجهنمية بحكم الإله إيتا Eita أو آده Ade (هاريس) وزوجته بيرسيبني Persipnei (بيرسيفوني). ومن الشخصيات الجهنمية الرئيسية هنالك كارون Charun وتوشولشا Tuchulcha، وهي شيطانة أنثى بعينين ضاريتين وأذني حمار ومنقار في مكان الفم، وثعبانين ملفوفين حول رأسها والثالث حول ذراعها. وعند الموت تستولي على الروح جماعتان من الجن الأولى حقودة ويقودها كارون الذي يحمل مطرقة أو مشعلاً. والمجموعة الثانية خيّرة ويقودها فانث Vanth. ويمثل صراعهما الصراع بين الخير والشر. يرتحل الميت إلى العالم الآخر إما في عربة أو على ظهر حصان، أو سيراً على قدميه. ويُرسم أحياناً مع اثنين من الجن، أحدهما يقوده من يده والآخر يتبعه، ويرافقه في بعض الأحيان إله مجنح يحمل في يده اليمنى لفافة ورق حُفرت عليها أعمال الميت. هناك إله جحيمي آخر، وهو Tages تاغس، علّم الأتروريين العرافة وقواعد التنبؤ بالمستقبل بوساطة فحص الأحشاء ومراقبة البرق، وقد انبثق تاغس في هيئة طفل خرج فجأة من ثلم أحد الحقول، أمام أحد المزارعين وهو تارشون Tarchon، وأفشى له بمعادلات سحرية معينة جُمعت فيما بعد في كتاب.

لم يكن للرومان آلهة جحيم عظيمة. وهؤلاء الذين سنتكلم عنهم لهم شخصيات مشوشة لم تتطور إلاّ تحت التأثير اليوناني. في العصور الأولى كانت الآلهة الجهنمية الحقيقية هي المانه Manes التي سنتحدث عنها بعد قليل.

ديس باتر Dis Pater: يدل الشطر الأول من اسمه على أنه كـان أغـنى جميـع الآلهة وبالفعل فإن عدد الواقعين تحت سلطته من الموتى كان يتزايد من دون توقف. وهو في ذلك يشبه إله الموتى اليوناني بلوتو والذي وصف بأنه غني. لم يكـن ديـس باتر Dis Pater محبوباً البتة، وكانت المذابح المكرسة لـه نـادرة. ذلـك إن الرومـان شعب متطير لم يهتموا بعبادة ما يمثل الموت، أو لعلهم احتفظوا بولائهم للمانه.

أوركوس Orcus: يمثّل أوركوس Orcus الموت. كما كان اسمه ينطبق على الجحيم أيضاً. وكان يميت الأحياء بالقوة ويقودهم إلى المناطق الجهنمية، وكان يُخلط بينه وبين بلوتو في بعض الأحيان.

فيبرووس Februus: كان فيبروس هو الإله الإتروري المقابل لـديس بـاتر Dis Pater. ويبدو أن شهر شباط كان مقدساً لديه، فقد كان شهر المـوت. كمـا كانوا يتضرعون في أتروري لإله اسمه مانكوس Mancus، لابد وأنه كـان ديـس باتر Dis Pater آخر.

ليبيتينا Libitina: ربما كانت ليبيتينا إلهة رومانية قديمة أصبحت فيمـا بعـد إلهة الجنازات، وكانت معروفة من قبل البعض بـ بروسربينا Proserpina. وكلمـا مات أحدٌ يتم إحضار قطعة نقود إلى معبدها. ومتعهدو دفن الموتى كان يـدعون ليبيتيناري libitinarii.

ليمورِس، لارفاي Lemures, Larvae: كانت هذه أشباح المـوتى الـذين كانت أعمالهم خبيثة ومؤذية، كانـت تعـود إلى الأرض لتعـذب الأحيـاء. وقـد أقيمت احتفالات الليموريا Lemuria في التاسع والحادي عشر والثالث عشر من أيار على يد رومولوس Romulus في تكفير عن مقتـل أخيـه، ريمـوس Remus الذي ظهر بعد موته للراعي فاوستولوس Faustulus ليطالـب بتعـويض. عنـدها أقام رومولوس الريموريا Remuria التي أصبحت Lemuria بسبب تحريف لحـق بالحرف الأول ليموريا.

في هذه المناسبة كان كل أب لعائلة يمر بطقس استثنائي: حيث يظهر حـافي القدمين في منتصف الليل، ويفرقع بإصبعه ليبعد الظلال ثم يغـسل يديـه ثـلاث

مرات. ويملأ فمه بحبات فاصولياء سوداء ثم يرميها وراءه وهو يقول: «إنني أرمي هذه الحبات ومعها أعتق واخلّص نفسي وذاتي، ويكرر هذا الدعاء تسع مـرات. وفي هذه الأثناء تلتقط الأرواح الجنائزيـة الحبـات. ثم يطهّـر الأب يديـه ثانيـة، ويضرب أداة نحاسية ويكرر تسع مرات: «أيها المانه اذهبوا».. وبعد ذلك يمكنـه أن ينظر بأمان نحو الخلف.

المانه Manes: كانوا يدعون Di Parentes أو Manes والمـصطلح الأخـير مشتق من صفة قديمة وهي manus ـ وتعني «جيد». وهكذا فـإن المانـه كـانوا، على الأرجح، «الأخيار». وقد كانوا هدفاً لعبادة عامة وخاصـة. وكلمـا أنـشئت مدينة كان يُحفر فيها أولاً حفرة مـستديرة. وفي قعرهـا تُطمـر صـخرة، لابـيس مانـاليس Lapis manalis، والـتي تمثّـل بوابـة إلى العـالم الـسفلي. وفي الرابـع والعشرين من آب والخامس من تشرين الأول والثامن من تشرين الثاني، كانـت هذه الصخرة تُرفع كي تسمح بمرور المانه، وكان الغرض من عبـادة المانـه هـو استرضاؤها وتهدئة غضبها. كان يُقدّم لهم في الأصـل تـضحيات دمويـة، ومـن المرجح أن تكون أولى مباريات المجالدة الدموية قد أُقيمت على شرفها. وكـان يحتفى بمهرجاناتها في البارينتالينا Parentalia والفيراليا Feralia في شباط. ومـن التاسع عشر وحتى السادس والعـشرين منـه تتوقـف الأعمـال وتُغلـق المعابـد. وكانت الأضرحة تُزيّن بالبنفسج والورود واليلك والآس وفوقها يوضع طعام من مختلف الأصناف.

كما الأغريق كذلك وضع اللاتين المناطق الجهنمية في مركز الأرض. يمكن الوصول إليها من فتحات عديدة ـ الكهوف، البحيرات، والأهوار، وأكثـر هـذه الفتحات شهرة كانت بحيرة أفيرنوس Avernus في كامبانيـا Campania، وهـي بقعة مروّعة ومنعزلة في نواحي بوزوولي Pozzuoli. أما التلال التي تحيط بها فقد كانت في السابق مغطـاة بغابـات مقدسـة للإلهـة هيقـاتي Hecate (luci averni) ومحفورة بتجاويف بإمكان المرء أن يدعو من خلالها. بحسب شيـشيرون Cicero، أرواح الموتى. وما يزال بالإمكـان رؤيـة كهـف يـدعى كهـف Cumaean Sibyl بالقرب من أفيرنوس Avernus.

آلهة المدينة

فورتونا Fortuna: وكانت تدعى فورس Fors، ثم فـورس فورتونـا Fors Fortuna وهي تمثل القدر بكل عوامله المجهولة. يُشتق اسمهـا مـن fero. وقـد كانت منذ أبعد العصور تُبجّـل في العديـد مـن الأقـاليم الإيطاليـة، إلاّ أن أهـم طقوسها الرئيسة كانت تقام في الـPraeneste في لاتيوم حيث تم اكتـشاف بعـض الألواح من البلوط محفور عليها صيغ غامضة من الممكن تسليم رسائل وسـطاء الوحي بوساطتها.

في الـــPraeneste كانـت فورتونـا Fortuna تـدعى بريميجينيـا Primigenia - أي الابنة البكر (لجوبيتر) - وبشكل غير منطقي وهو أمـر غـير نـادر في تـاريخ الأساطير القديمة، اعتبرت مربية جوبيتر وابنته في الوقت ذاته.

دخلت عبارة فورتونا بريميجينيا إلى روما في العـام 204 قبـل المـيلاد أثنـاء الحرب البونية (القرطاجية) الثانية. إلا أنه كان لدى الرومان أصلاً فورتونا، والتي كما يقولون دعمت المستقبل السياسي المـدهش لـسيرفيوس توليـوس Servius Tullius، العبد الذي أصـبح ملكـاً. وتجعـل إحـدى الأسـاطير مـن سـيرفيوس توليوس ابناً لفورتونا. وأخرى تقول بأنه كان حبيبـها. كـان مـن الواجـب وجـود تمثال ذهبي لفورتونا Fortuna على الدوام في جناح نـوم الإمبراطـور الرومـاني. وكذلك كان لدى المـواطنين المميـزين بحـظ رائـع أو سـيئ فورتونـا Fortuna. لمّا بوغت قيصر بعاصفة في البحر قال للربان المذعور: «ما الـذي تخـاف منـه؟ إنك تحمل قيصر وفورتوناه».

إن صـورة وتماثيـل فورتونـا Fortuna الـتي لا تحـصى تطلعنـا علـى رموزهـا الأساسية وهي العجلة والكرة السماوية ودفة السفينة ومقدّمتها وقرن الوفرة، وتظهر هذه الإلهة أحياناً جالسة وأحياناً أخرى واقفة. وفي بعض الأحيان تحمل أجنحة.

جينيوس Genius: أي الجني هو الإله المجهـول الـذي كـان يحمـي كافـة الجماعات وأمكنة نشاطاتهم. كان عـدد الجـان غـير محـدود. أهـم جـني كـان Genius publicus populi romani الموجود على قطع النقـود، وأحيانـاً يحمـل

ملامح الإمبراطور الحاكم. وهو مسؤول عن حماية الملكة ويأتي بعده جني المقاطعات، ومن ثم أولئك الخاصين بالمدن، والقبائل والمستعمرات كان لكل جماعة جنياً خاصاً بها، وكذلك كل بيت وكل بوابة وكل شارع وهكذا. وقد أقام الأباطرة الرومان عبادة عامة للجان الخاص بهم طوال فترة حكمهم.

اللاروالبينات (الآلهة الحارسة وآلهة البيت) Lares, Penates: كانت العبادة العامة للار lares متأخرة عن عبادتها الخاصة. ولكن دورها في المدينة كان مطابقاً لدورها في الأسرة.

عند اللاتينين والسابينيين والأتروريين كانت آلهة اللاره العامة أو Compitales توضع في البداية عند التقاء حقلين، وعند تقاطع الطرقات كان يوجد إلهين من اللاره Lares لكل تقاطع. وهذا يميز آلهة اللاره العامة عن اللاره الخاصة بالعائلة والتي كانت دوماً مفردة.

ثم جاؤوا من الريف إلى المدينة. وأصبحت الـLares Compitales آلهة وطنية. عندما تعهد ديسيوس موس Decius Mus بأن ينقذ جيش الرومان تضرّع أولاً إلى اللاره lares بالإضافة إلى جانوس وجوبيتر ومارس فأبعدت آلهة اللاره العامة هانيبعل عن أسوار مدينة روما.

في عصر الملوك كان لآلهة البينات Penates عبادة عامة وكانت تدعى penates populi romani وكانت تبجّل في الريجيا Regia حيث تُشعل النار المقدسة وتقف عذراوات فيستا. كان يوجد اثنان منهما ويحملان رماحاً. وكانت عناصر عبادتها ـ والتي استمرت حتى نهاية الوثنية ـ تُحرس من قبل عذراوات فيستا والأحبار.

تايبرينوس Tiberinus: من البديهي أن يتلقّى إله نهر التيبر عبادة خاصة في روما. ولمنعه من الفيضان كانت عذراوات فيستا في الخامس عشر من أيار يرمين أربعة وعشرين تمثالاً خشبياً من فوق جسر Sublicius، وهي من غير شك صورة للتضحيات البشرية السابقة. في السابع عشر من حزيران كان يقام اللودي بيسكاتوري Ludi Piscatori ـ وهو احتفال الصيادين والغطّاسين ـ وفي السابع

عشر من آب التبرناليا Tiberinalia. كان نهر التيبر مبجلاً إلى درجة أن مجلس الشيوخ في القرن الأول رفض مشروعاً لتغيير مجراه. رميت ريا سيلفيا Rhea Silvia، والدة التوأم، في نهر التيبر وأصبحت زوجته.

أنجيرونا Angerona: لا يعرف إلاّ القليل عن الإلهة أنجيرونا Angerona التي صوّرت وهي ترفع إصبعاً إلى فمها المغلق، قد تكون إلهة الصمت، أو كما يُزعم، الاسم السري لروما، والذي كان من المحرّم ذكره علانية.

تيرمينوس Terminus: تتلقى الحياة الاجتماعية حماية آلهة عدة مثل تيرمينوس. وقد كان يلعب دوراً مهماً جداً لكونه يرعى الملكيات الخاصة، الأمر الذي كان مقدساً، ويشرف على تحديد الحدود والتخوم. في الواقع لم يكن تيرمنيوس في البداية إلاّ لقباً لجوبيتر، ولكن أسطورة ما أعطته شخصيته، حيث يُحكى كيف رفض تيرمينوس ويوفينتوس أن يفسحوا الطريق أمام جوبيتر لما أتى ليجلس على الكابيتول، صوّر هذا الإله في البداية على شكل صخرة سوداء وملساء. وفيما بعد صوّر بشكل عمود متوّج برأس إنساني.

فيدس Fides، ديوس فيديوس Deus Fidius، سيمو سانكوس Semo Sancus: كانت هذه الآلهة الثلاثة مسؤولة عن صدق الصفقات العامة والخاصة. فيدس Fides، والذي هو من أصل سابيني، كان يمثل الثقة الحسنة، لاسيما في العقود الشفهية، أما ديوس فيديوس Deus Fidius، والذي هو أيضاً من أصل سابيني، فقد كان حارس حسن الضيافة. وسيمو سانكوس Semo Sancus. وهو إله لاتيني، كان إله القسَم. وهكذا كان يجد الأشخاص الصادقون أنفسهم محميين. إنما لم يكن البقية من دون حُماة. فقد كانت لفيرنا laverna وسومانوس Summanus تتقبّلان صلوات اللصوص والمحتالين.

بونوس إيفينتوس Bonus Eventus: كان نجاح المشاريع والأعمال من مسؤولية بونوس إيفينتوس، الذي كان في البداية إلهاً ريفياً مسؤولاً عن الحصاد، ومن ثم توسّع نشاطه ليشمل كافة أنواع المبادرات. وكان له معبد في روما وتمثال فوق الكابيتول.

فيكتوريا Victoria: ربما كانت هذه الإلهة اللاتينية هي ذات الآلهة السابينية فاكونا Vacuna. بعد أن كانت حامية الحقول والغابات أصبحت مسؤولة عن نجاح الرومان في الحرب. وكانوا يعتبرونها كواحدة من أقدم آلهتهم، وكانوا يبجلّون معها فيكا بوتا Vica Pota وفيتولا Vitula أو فيتليا Vitellia التي ترعى احتفالات النصر.

بعد النصر تأتي باكس Pax (السلم)، ولكن عبادتها لم تكن قديمة ولا واسعة الانتشار. ولم تحظَ بمعبد في روما إلاّ بعد العام 75 ميلادية. وترمز الكونكورديا Concordia من ناحيتها إلى وحدة المواطنين. وقد أقيم لها معبد في العام 367 ق.م في الوقت الذي فاز فيه العامة الرومانيون بمساواة سياسية. وتمثّل فيليسيتاس Felicitas الأحداث السعيدة. وكانت لاتيتيا Laetitia وأنونا Annona مرتبطتين بأحداث مرغوبة من أجل مدينة روما: وعلي الأخص وصول القمح.

أبطال مؤلهون وحكايات رمزية:

هرقل: في الأيام الأولى كانت وظائف هرقل ـ والذي يدمجه البعض مع سيمو سانكوس Semo Sancus، وديوس فيديوس Deus Fidius وسيلفانوس Silvanus ـ ريفية. كان يضمن خصوبة الريف، ويرعى العائلات ويحرس ميراثها، ويرى فيه البعض الجني الحارس للرجال، مثلما كانت جونو بالنسبة إلى المرأة.

وقد ارتبط هرقل بتاريخ موقع روما بالذات عندما ساق قطيع أبقار Geryon، الوحش ذي الأجساد الثلاثة الذي حكم الساحل الغربي لإيبريا. فقد توقف هرقل بين أفينتين Aventine وتلال البلاطين Palatine ونزل في بيت إيفاندر Evander المضياف. أثناء الليل سرق قاطع الطريق كاكوس Cacus ـ والذي نصفه رجل ونصفه الآخر ساطير (ابن فولكان Vulcan) بعضاً من عجوله. ولكي يخفي سرقته جرّ كاكوس الحيوانات من ذيلها إلى مخبئه فوق أفينتين. وفي الصباح التالي خارت العجول المسروقة مجيبة الثيران التي كان يحضرها هرقل ليسوقها. تبع هرقل الصوت وأزال الصخرة الذي أغلق به كاكوس المخبأ وبعد صراع عنيف ذبح قاطع الطريق على الرغم من ألسنة النار التي قذفها أمامه بقوة.

رومولوس Romulus وريموس Remus: كان رومولوس وريموس ابنا مارس. فقد فاجأ مارس عذراء فيستا، ريا سيلفيا Rhea Silvia، بنت نوميتور Numitor، ملك ألبا Alba، أثناء نومها ونام معها. وُضع التوأمان المولودان في سلة في نهر التيبر. فاض النهر ورمى بالسلة أمام كهف Lupercal لوبيركال، تحت شجرة التين رومينال Ruminal. وهناك جاءت ذئبة لترضع الوليدين اللذين آواهما وربّاهما الراعي فاوستولوس Faustulus وزوجته أكالارينتيا Acca Larentia.

عندما قرر التوأم إقامة مدينة جديدة درسا في البداية طيران الطيور. في ذلك القسم من السماء الذي خصّصه صولجان العرّاف لرومولوس رأى اثني عشر نسراً، وفي قسم ريموس لم يكن من الممكن رؤية إلاّ ستة فقط. مضى رومولوس Romulus، مع محراث مشدود إلى بقرة بيضاء وثور أبيض، ليرسم أخدوداً من شأنه أن يحددّ حدود جدران المدينة الجديدة. قفز ريموس فوق الأخدود الضحل بسخرية فقتله أخاه. من المحتمل أن تكون هذه المنافسة بين الشقيقتين رمزاً للمنافسة بين منطقتين قديمتين في روما ـ السيرمالوس Cermalus (أو Aventine الأفينتين) والبالاطين Palatine.

وكي يملأ مدينته، التي كانت مربعة الشكل تقريباً، بالناس Quadrata ـ أقام رومولوس مكاناً يلجأ إليه الناس وراء الأسوار Romu وجلهم طبعاً من الفارين لأسباب شتى. رفض الجيران الزواج من هؤلاء الخارجين عن القانون فاستغل رومولوس مهرجاناً ريفياً يدعى الكونسواليا Consualia لاختطاف بنات قبيلة سابين اللواتي دُعين إلى المناسبة. إن موت رومولوس الغامض واختفاءه في عاصفة هما من اختراع الشاعر إينيوس Ennius. تطابق رومولوس فيما بعد مع كويرينوس Quirinus وعُبد تحت ذلك الاسم.

كاستور Castor وبولوكس Pollux: في معركة بحيرة ريجيلوس Regillus في العام 496 قبل الميلاد وأثناء الحرب مع لاتيوم Latium، نذر الديكتاتور الروماني أولوس بوسثوميوس Aullus Posthumius أن يقيم معبداً لـ كاستور وبولوكس الموقرين في توسكانيا، وهي مدينة كانت عدوّة لروما. بعد ثوانٍ معدودة رؤي كاستور Castor وبولوكس Pollux على رأس فرسان روما وقاداها

للنصر. وفي ذات الأمسية رأى سكان روما شابين يرتديان عباءتين بنفسجتي اللون، يسقيان حصانيهما الأبيضين عند نافورة يوتورنا Juturna في الساحة. كانا كاستور وبولوكس اللذان جاءا ليعلنا النصر وليصبحا على سبيل المصادفة جزءاً من ديانة روما. كانا من أصل إغريقي وقد وصلا عن طريق أتروريا حيث كان الأتروريون يسميانهما كاستور وبولتوك Kastur وPultuk، ولكنهما سرعان ما أصبحا رومانيين. وقد أقيم لهما معبد رائع في الساحة العامة. وقد رافقا الجيش الروماني في حملاته، وأثناء المعارك كانا يظهران في وسط الفرسان كما أنهما يحميان البحارة والمسافرين في البحر. وهدّأا في أوستيا Ostia عاصفة كانت تمنع شحنات محملة بالقمح من دخول الميناء. وبخاصيتهما كإلهين بحريين أشرفا طبعاً على التجارة. وفي القرن الثاني بعد الميلاد صارا جزءاً من الطقوس الجنائزية وكانت شعبيتهما كبيرة إلى درجة أنه حتى المسيحيين لم ينكروا أنهما كانا يرمزان إلى الحياة والموت.

أينياس Aeneas: على الرغم من أنه أصبح فيما بعد بطلاً قومياً لروما. إلاّ أن أينياس من أصل أجنبي وقد كان ابن أنشيسيس Anchises وأفروديت، وصهر بريام Priam ورئيس الوردانيين. صُوّر في الإلياذة بين حلفاء طروادة وظهر كمحارب باسل ومليء بالحكمة. هناك قصص مختلفة وعديدة عنه. تقول إحداها إنه دافع بشجاعة عن قلعة إليوم Illium، وتقول أخرى إنه سلّم المدينة للإغريق وخلف بريام. ولكن أكثر القصص مصداقية هي التي تصف كيف ترك أينياس طروادة بعد سقوطها وتوجه مع محاربيه والطرواديين الباقين باحثاً عن وطن جديد، وبعد محاولات عقيمة في توطين نفسه في تراقيا وكريت وصقلية، وصل في النهاية إلى ضفاف نهر التيبر. وهناك ساعد ملك السكان المحليين، لاتينوس Latinus، في صراعه مع Rutuli، ثم تزوج لافينيا Lavinia ابنة لاتينوس وبنى مدينة سميت لافينيوم Lavinium. خلف فيما بعد لاتينوس وبعد حكم دام أربع سنوات قضى على نحو غامض في معركة مع الروتوليين. قبل أن يجعله فرجيل بطلاً للإنيادة بوقت طويل كان الرومان يبجلّونه ـ تحت اسم جوبيتر إنديغير Jupiter Indiges ـ كمؤسس لعرقهم. ويتباهى العديد من العائلات الرومانية، وبشكل ملحوظ أولئك الذين من جولي Julii ـ بأنهم يتحدرون منه.

ترتبط عبادة أينياس بعبادة أنا بيرينا Anna Perenna، أخت ديدو Dido، التي لجأت إلى أينياس، وأغرقت نفسها في نهر نوميكوس Numicus بسبب الاضطهاد الذي لحق بها من غيرة لافينيا Lavinia. وعندما لجأ عامة روما إلى Mons Sacer، جلبت أنا بيرينا Anna Perena متنكرة في زي امرأة عجوز لهم طعاماً ليأكلوه ومن أجل هذا السبب شُرّفت بمبعد في روما.

الأباطرة: لم يكن تأليه الملوك اختراعاً رومانياً، ففي البلدان الشرقية كان الملوك ولزمن طويل هدفاً لعبادة دينية. في روما كان مجلس الشيوخ هو الذي يمنح شرف التأليه. كانت تقام محرقة هائلة توضع فوقها صورة الأمبراطور المؤله الجديد. وفي وسط ألسنة اللهب يحمل نسر روح الإمبراطور إلى مسكنه السماوي.

لقد حقق يوليوس قيصر الألوهية بعد موته قبل عصر الأمبراطورية. ولكن أوغسطوس كان أول إمبراطور يؤلّه، ومن ثم كلاوديوس Claudius، ثم آخرين وأخيراً حتى الإمبراطورات.

آلهة العائلة:

جينيوس Genius: يعني القوة الخالقة التي أنشأت الفرد، والروح الحافظ الذي يرعى تطوره ويبقى معه حتى ساعة موته، ويشرف على زواجه وسرير الزوجية، ولهذا السبب سميّ genialis. وهو يظهر عند مولد الكائن ووظيفته الحماية، ويصوغ شخصية الرضيع وتعتمد قوة جينيوس genius الطفل على الحظ. إن كان صبياً فروحه الحامية هي جينيوس، وإن كانت بنتاً فهي جونو Juno.

لم يكن الجينيوس والجونو ينجزون مهماتهم الحامية من دون مساعدة، بل كان لديهم العديد من المساعدين نونديناNundina ترعى طهارة الرضيع. وفاتيكانوس Vaticanus تُطلق بكاءه الأول، أما إيدوكا وبوتينا Educa وPotina فتعلّمانه الأكل والشرب. وتبقيه كوبا Cuba هادئاً في مهده. وتسعى أوسيباغو Ossipago وآديونا Adeona لتعليمه المشي، بينما يعمل سينتونوس Sentinus على إيقاظ ملكات الرضيع الفكرية، وهكذا.

وبالإيجاز فإن الجينيوس تدفع نمو الفرد وتدعم ملكاته الفكرية والأخلاقية كافة. إنها بشكل ما توأمه المجرد. كانت طقوس عبادة جينيوس Genius بسيطة جداً: ففي يوم الولادة يُقدم النبيذ والأزهار، وبعد ذلك يرقصون. صُوِّر الجينيوس في البداية كثعبان، وفيما بعد كان جينيوس رب العائلة يُصوّر كرجل في ثوب. وكانت تظهر معه أحياناً جونو زوجته.

آلهة البيت Penates: اشتق اسمهم من Penus بينوس، المخزن أو الغرفة التي يخزّن فيها الطعام وكانت وظيفتها الأولى العمل على الحفاظ على الطعام والشراب. وفي الحقيقة كانت مرتبطة إلى حد كبير بحياة العائلة وتشاطرها أفرادها وأتراحها. كان دورها مهماً جداً إلى درجة أنها كانت تحمل لقب دي dii أو divi، وهو لقب لم يمنح لا للجينيوس ولا للار lar.

كانت آلهة البيت على الدوام مزدوجة. وكان مذبحها هو الموقد الذي تشترك به مع فيستا، وكانت تماثيلها توضع أمام تماثيل الجينيوس في مؤخرة القاعة الرئيسية. وفي كل وجبة كانت توضع بين الأطباق ويُقدّم لها أول طعام.

ويعود تاريخ هذه الممارسات البسيطة إلى أقدم الأزمنة. وفي وقت لاحق كانت تلاحظ فقط في المناطق الريفية. فكان غالباً ما يُضاف إلى آلهة البيت آلهة تمارس حماية خاصة بالنسبة لبعض العائلات. وكان ميركوري Mercury يظهر بين بينات التجار، وفيستا في بيت الخباز، وفولكان Vulcan في بيت الحدّاد. وعندما تنتقل العائلة تنتقل البينات معها. وبنفس الطريقة، عندما تنقرض العائلة فإنها تختفي معها.

اللار Lar: الكلمة أترورية وتعني الرئيس أو الأمير. وتنتمي اللار عند اللاتينيين والسابين والأتروريين إلى أقدم الأساطير الإيطالية.

في البداية كان هؤلاء اللار يحمون الزراعة. ثم صاروا يمارسون الحماية بشكل عام. وكانت تماثيلهم تُنقش بشكل غير متقن ولا مصقول من عقب شجرة وتوضع عادة في مداخل بيوت المزراع.

لم تكن وظائفها وعبادتها تختلف عن تلك الخاصة بالبينـات Penates. وفي الواقع كان كثيراً ما يُخلط بينهم. كما كان مـذبحها أيـضاً الموقـد وكانـت تتلقـى إجلالاً مشابهاً. وفي المناسبات والاحتفالات كانت تُزيّن بأكاليل زهر ويُقدّم لهـا البخور والفواكه ويراق النبيذ من أجلها.

على عكس البينات Penates لم يكن يوجد إلاّ لار Lar واحد للعائلة ويرمز للبيت وكان يُتضرّع إليه في كل المناسبات المهمة لحياة العائلة: الرحيـل، الـزواج، الجنازات وعندما تعبر العروس عتبة بيتها الجديد كان تقدّم للّلار Lar قرباناً وقطعـة نقود، وبعد الجنازات كان يُضحّى له بأكباش من أجل تطهير البيت. كان لار Lar العائلة يصوَّر عادة بشكل صبي ذي شعر مجعّد ورداء قصير ووضعية راقصة.

كان هناك العديد من الآلهة المرتبطة بحياة العائلة، لقد ذكرنا بعضاً من تلك التي ترعى ولادة الطفل وخطواته الأولى. وفي دراستنا لألقاب جونو Juno أشرنا إلى مجموعة معينة من الآلهة ترعى مظاهر الزواج المختلفة بالإضافة إلى هذا كله هناك Orbona أوربونا، الإلهة التي تحمي اليتامى، وفيريبلاكـا Viriplaca الـتي تلطّـف المـشاجرات بـين الـزوج والزوجـة، وديفـيرا Deverra وانترسـيدونا Intercidona وبيلومنـوس Pilumnus وهـم آلهـة المكنـسة والفـأس والهـاون، والذي كان تدخّلهم في لحظة مولد الطفل يدفع أرواح الشر بعيداً. بل كان يوجد في غرفة الزوجية سرير مصنوع مـن أجـل بيلومنـوس Pilummus وأخيـه التـوأم بيكومنوس Picummus اللذين كانا مسؤولَين عن رعاية المولود الجديد. ما يزال من الممكن الإضافة إلى قائمة الآلهة هذه.

مساهمة الإغريق

في القرن الثالث قبل الميلاد عدّد الـشاعر إينيـوس Ennius الآلهـة الاثـنتي عشرة العظام للبانثيون الإغريقي ـ الروماني: جونو Juno، فيستا Vesta، مينرفـا Minerva، سـيريس Ceres، ديانـا Diana، فينـوسVenus ، مـارس Mars، ميركوريـوس Mercurius، جـوف Jove، نبتونـوس Neptunus، فلوكـانوس Volcanus، وأبولو Apollo.

جانوس Janus وساتورن saturn، هما إلهان إيطاليان، فقدا مركزهما السابق رسمياً على الرغم من أنهما ظلاً يتلقيان عبادة مهمة. وقد وجد الآلهة العظام الأخرى إن وظائفهما قد ازدادت وتوسعت بعد أن أضيف إليها وظائف الأسماء الجديدة التي حملتها في البانثيون الإغريقي. وفي الوقت ذاته بدّلت من طبيعتها ولم تعد فكرة تجريدية واتخذت أشكالاً إنسانية. وقد رُقّيت آلهة ثانوية معينة إلى المرتبة الأولى: اكتسبت سيرسس، وديانا وفينوس منزلتهن بضم قواهن ليدميتر وأرتيمس وأفروديت. أما نبتون، الشخصية المتواضعة ذات الواجبات غير المحددة تماماً، فقد ورث إمبراطورية بحرية من بوزيدون. وارتبط ليبرباتر Liber Pater، وهو فلاح إيطالي متواضع، بثروات Laccchus - Diomysus.

انبثق أبولو على نحو غريب وسط الآلهة الرومان وحاز لنفسه موقعاً سامياً عظيماً، وفي الحقيقة كان أبولو هو من فتح الطريق أمام بقية زملائه الإغريق. في القرن الخامس عرضت عرّافة Cumae، كاهنة أبولو، على الملك تاركوين Tarquin تسعة كتب نبوئية. فرفض الملك مرتين إذ وجد السعر باهظاً جداً. وفي كل مرة كانت الكاهنة ترمي بثلاث كتب إلى النار وتضاعف سعر البقية. في نهاية الأمر اشترى تاركوين Tarquin الكتب الثلاثة الأخيرة وأُحتفظ بها في الكابيتول وسميت بالكتب السيبيلية Sibylline وتحتوي على تعليمات من أجل الفوز بنعم وفضائل الآلهة الأجنبية، الإغريقية والشرقية. وبهذه الطريقة شق أبولو طريقه إلى روما، بعد وباء حدث في العام 431 ولنفس السبب تمت دعوة إله Epidaurus، والذي كان الإله ـ الثعبان إيسكولابيوس Aesculapius.

وبشكل متعاقب قُدّمت جميع الآلهة الإغريقية إلى الدين الروماني. عزّز بعضها آلهة موجودة أصلاً، في حين أحضر الآخر عبادات جديدة كلية. وفي ذات الوقت ظهرت الطقوس والطريقة الإغريقية في الصلاة.

بدأت هيلنية الميثولوجيا الرومانية في وقت مبكّر وتابعت بثبات وسرعة. واكتملت بين القرنين الثاني والثالث ق.م. وينسب ليفي هذا الانسحاب للتقاليد الرومانية أمام التأثير الأجنبي إلى الأزمات السياسية والأخلاقية التي رافقت الحرب البونية مع قرطاجة.

المساهمة الشرقية:

أُدخلت آلهة من الشرق إلى إيطاليا مع كامل وظائفها وطقوسها. وحافظت على شخصياتها من دون تغيير. لم تخضع لتبنٍّ، بل كان انتقالاً مادياً بكل بساطة.

آسيا الصغرى Asia Minor: إلهة فريجيا العظيمة، سبيل Cybele دخلت إيطاليا أولاً مع زوجها أتيس Attis باسم Magna Mater Deum idaea وفي العام 205 قبل الميلاد قام الرومان، المذعورين من وابل من الحجارة، باستشارة الكتب السيبيلية. وقد وعدت هذه الكتب بأن هانيبعل، الذي كان ما يزال مقيماً في بروتيوم Bruttuium، سينسحب من إيطاليا بوجود الإلهة سيبيل الأم العظيمة لإيدا Ida. أرسل مجلس الشيوخ سفراءهم إلى الملك أتالوس Attalus وحصلوا منه على حجر نيزكي أسود من المفترض أن يكون عرش الإلهة. وقد تلقّى هذا الجسم المقدس سيبيو ناستيكا لقب Scipio Nastica. «أفضل مواطني روما»، في أوستيا Ostia، وحُمل بواسطة نساء قيّمات إلى البالاطين Palatine ووُضع في معبد النصر (في نيسان 204). وفي العام 202 هُزم هانيبعل في زاما Zama على يد سيبو الذي صار الآن يلقب بالإفريقي Africanus. ثم بنى معبداً لسيبيل على قمة البالاطين وأقيمت الألعاب على شرفها. وقد اتخذت عبادة سبيل Cybele أهميتها الكاملة في بداية عصر الإمبراطورية.

وهناك إلهة أخرى من آسيا الصغرى وهي ما Ma، وتمثل الخصوبة، وقد دخلت ما Ma روما على يد الديكتاتور سولا Sulla في نحو العام 85 قبل الميلاد.

مصر: اخترقت عبادة إيزيس وسيرابيس إيطاليا عن طريق صقلية وجنوب شبه الجزيرة، وقد مارسها في البداية العبيد والمحرّرون في القرن الثاني ق.م. وقد حاول مجلس الشيوخ من غير جدوى إيقاف تقدّمها. ولكنهم لم يتمكنوا من منع انتشارها نحو مركز وشمال إيطاليا. وقد أقامها كاليغولا بشكل رسمي في روما وشيّد في حقل مارس معبداً لإيزيس Campestis كما بنى كاليغولا معبداً اخر فوق الكويرينال Quirinal.

وقد ظل الآلهة المصريون الذين لم يفقدوا شخصيتهم القديمة ذوي شعبية كبيرة، ووصلت شعبيتهم أوجها في القرن الثالث الميلادي. وحتى نهاية القرن الرابع كان من الممكن للمرء أن يشاهد مواكب احتفالية على شرف إيزيس.

سورية: دخلت الإلهة آنارغاتيس، والمعروفة باسم «الإلهة السورية» ـ دياسيريا Deasyria ـ الأراضي اللاتينية منذ القرن الثاني قبيل الميلاد. وكان يعبدها العبيد في البداية.

وكان من نتيجة ضم العديد من البلدان الأجنبية إلى الإمبراطورية دخول العديد من العبادات الأجنبية إلى روما. وقد جاء الأبعال السوريون ومعهم الإلهة بعلتيك إلى روما بواسطة مجندين سوريين كان يشكلون فصائل ممتازة دمجها الإمبراطور بالجيش الروماني. وقد وصلت هذه العبادات السورية ذروتها في القرن الثالث الميلادي، وقد حاول الإمبراطور هيليوغابالوس Heliogabalus أن يتم الاعتراف ببعل مدينة حمص السورية كإله رئيسي للإمبراطورية.

بلاد الفرس: كانت عبادة ميثرا إله النور الفارسي آخر ما ظهر في روما، وذلك خلال القرون الأول قبل الميلاد. وقد أصبحت بالغة الأهمية واستمرت حتى نهاية الوثنية. وكانت تمارس من قبل الموظفين والأباطرة ذاتهم. وقد دخل كومودوس Commodus نفسه في أسرارها. وفي العام 307 كرّس ديوكليتيان Diocletian على الدانوب معبداً لميثرا، «حامي الإمبراطورية».

لقد ابتعدنا عن الآلهة المتواضعة والريفية التي كان يعبدها في الأزمنة الأولى فلاحو اللاتيوم. وقد أُجبر معظمها على إفساح الطريق أمام آلهة أكثر تألقاً، أو ولكي لا تختفي نهائياً اندمجت معها. وتلك، التي نجت بفضل الولاء المثابر لسكان الريف، كان لها سيماء ذابلة متلاشية وظهرت كعلاقات هزيلة في البانثيون الفاخر الذي شيدّته روما، سيدة العالم، كمعيار لمجدها.

الباب الثالث

أوروبا ما قبل المسيحية

الديانة التوتيونية نموذجاً

الآلهة والأساطير التيوتونية

E. Tonnelat
ترجمة: نيفين أديب إسحاق

مقدمة

استوطن التيوتون المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة الإسكندنافية، وكذلك في جزر بحر البلطيق، والسهول الواسعة التي تقع في ألمانيا الشمالية بين نهري الراين وفيستولا، وذلك إبان الفترة التي سبقت العصر المسيحي بثلاثة أو أربعة قرون. وقد شكلوا مجمعات قبلية كثيفة التعداد إلى حد ما، لم تجمعها وحدة سياسية، بل كانت تشن الحروب ضد بعضها. وعلى الرغم من ذلك فقد تحدثت اللغة نفسها وامتلكت تماثلاً ثقافياً معيناً، وتشاركت بعض المعتقدات الدينية التي ورثت قسماً منها من أسلافها الهندو ـ أوروبيين، ذلك أن اللغة والبنية الثقافية للشعب التيوتوني قد تم اشتقاقها قبل ذلك بآلاف السنين من المجمع الهندو ـ أوروبي الضخم. كما أن صلة نسبهم البعيدة مع اللاتين والسلت والإغريق والسلاف قد تفسر التشابه بين بعض من مفاهيمهم وأساطيرهم ونظائرها في اليونان وروما والمشرق. ولكن التيوتون قد عاشوا لأمد طويل منفصلين عن باقي الشعوب الهندو ـ أوروبية، بحيث أنهم استنبطوا ديناً أصيلاً في نهاية المطاف. ولكننا لن نعرف جوهر هذا الدين عندما كان سائداً لدى جميع الشعوب الجرمانية، وذلك لافتقارنا إلى المدونات التي تعود إلى ذلك العصر. إن كل ما وصلنا عن ذلك الدين هو صيغة مطورة نسبياً من بداية العصر المسيحي، وفي سياق القرون القليلة السابقة للميلاد.

خلال العهود التاريخية انقسم التيوتون إلى ثلاث مجموعات كبيرة. فلدينا أولاً التيوتون الشرقيون، أو القوط، الذين استقروا بادئ الأمر بين نهري الأودر Oder،

وفيستولا Vistola ، ثم غادروا هذه المنطقة في أواخر القرن الثاني الميلادي بأعداد كبيرة باتجاه البحر الأسود.

ولدينا ثانياً التيوتون الشماليون الذين شغلوا البلاد الاسكندينافية، ولدينا ثالثاً الجرمان الغربيون، وهم أسلاف الألمان الحاليين والأنكلوساكسون، الذين اقتصرت مواطنهم في البداية على تخوم ألمانيا الشمالية، ثم انتشروا بعد ذلك تدريجياً باتجاه الراين والدانوب، وما لبثوا حتى اصطدموا مع الجيوش الرومانية. وفي هذه الأثناء فإن بعضاً من قبائلهم أعدت نفسها لعبور البحر والاستقرار في بريطانيا. هذا الانتشار قد أثر ولاشك على ثقافتهم وعلى مفاهيمهم الدينية.

فنتيجة لاتصالهم بالحضارة البيزنطية، فقد اعتنقت أعداد كبيرة من القوط الدين المسيحي إبان القرن الرابع. ولم يصلنا من آثار مكتوبة بلغتهم إلا نصوص مترجمة من الإنجيل وشروحات على الكتاب المقدس، كما أن القلة من المؤرخين القدماء الذين تحدثوا عن القوط لم يخبرونا بشيء عد معتقداتهم الوثنية. من هنا، فإن ما نعرفه عن الميثولوجيا التيوتونية قد جاءنا فقط عن طريق أدبيات الجرمان الشماليين والغربيين، إضافة إلى ما ورد في بعض المؤلفات اللاتينية واليونانية. وهنا ينبغي أن نلفت النظر إلى اختلاف التقاليد الدينية للقبائل الجرمانية: فبينما كانت عبادة بعض الآلهة واسعة الانتشار على هذا الجانب من بحر البلطيق، فإنها كانت موضع تجاهل أو حتى غير معروفة على الجانب الآخر، وذلك في الوقت الذي كانت فيه المسيحية تتلمس طريقها.

اعتنق الأنكلو ساكسون البريطانيون الدين المسيحي منذ بداية القرن السابع. وسرعان ما انطلق المبشرون الأنجلو ساكسون في حملاتهم التبشيرية في ألمانيا ثم جاء شارلمان ليكمل بالقوة ما كانوا قد بدؤوه سلماً، كما تبنت الدول الإسكندنافية بدورها الدين الجديد في الفترة الواقعة ما بين القرنين التاسع والحادي عشر الميلاديين، وباستثناء بعض المؤخين اللاتين والإغريق. وقلة من الشعراء الإسكندنافيين، فإن المؤلفين الذين اعتمدنا عليهم بخصوص الميثولوجيا الجرمانية كانوا مسيحيين. وبالتالي مهيئين لإضفاء عناصر مسيحية على الأساطير

الوثنية القديمة. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء المؤلفين قد عاشوا في عهود مختلفة لاحقة، وما جمعوه من موروثات لا تتوافق مع بعضها كما ينبغي.

أما القبائل الجرمانية الغربية، وهم أسلاف الألمان والأنكلو ساكسون فإن الوثائق حولهم ضئيلة، ولم يكن تحت تصرف المؤرخين اللاتين من أمثال تاسيتوس وقيصر سوى معلومات غير مباشرة، وهذا ما دفعهم إلى تفسير الديانة التيوتونية ضمن إطار الديانة الرومانية. فقد دعوا إله دونار بجوبيتر، ودعوا الإله وودن بميركوري، وهلم جرا. لقد كان بوسع المبشرين المسيحيين الأوائل، الذين كانوا أول من دوّن اللغة الألمانية، أن يعطونا لو أرادوا وصفاً دقيقاً وشاملاً للميثولوجيا الجرمانية في القرون الأولى، ولكن مثل هذه المهمة لم تكن على سلم أولوياتهم، وهم لم يتطرقوا إلى الأساطير الوثنية إلا في معرض إدانتها. ولولا أن الملاحم والحكايا الشعبية قد حفظت لنا الكثير فيما يتعلق بالآلهة الثانوية والعفاريت والعمالقة والأرواح من شتى الأشكال، لما كان بمقدورنا فعلياً معرفة أي شيء عن معتقدات الجرمان القدماء. لقد كان للاسكنندنافيين وحدهم الشجاعة على إنقاذ مخزون الذاكرة من المعتقدات القديمة وتخليدها. فلقد دون دارسوهم وشعراؤهم، وبكل ورع أساطير الآلهة الوثنية، حتى بعد انتمائهم إلى الكنيسة المحلية.

إن المجموعة القديمة من القصائد المجهولة المصدر المدعوة بالإيدات Eddas (مفردها إيدا Edda)، التي يعود بعضها إلى ما قبل دخول الديانة المسيحية إلى اسكندنافيا، والتي تركتها الدنمارك والسويد وإيسلندة إبان العصور الوسطى، من شأنها اليوم أن تبث الحياة في مجمع الآلهة التيوتونية الرئيسية، وحاشيتهم من الآلهة الثانوية. فبفضل هذا الأدب الإسكندنافي وحده تقريباً، صرنا نعرف عن أساطير الآلهة الكبار من أمثال أودين ـ وودين (Oden - Woden)، ودونار ـ ثور (Donar - thor)؛ وبالتالي فإن مثل هذه الأساطير هي التي سوف نقتبس عنها فيما يلي من هذه الصفحات القادمة، إلا أن هذا لا يعني أن هذه الآلهة كانت اسكندنافية حصراً، بل على العكس، فتحت أسماء متنوعة كانت تقدس من قبل غالبية الشعوب التيوتونية، وإن كان مصدرها الرئيس بالنسبة لنا هو المرويات الإسكندنافية.

ولادة العالم والآلهة والبشر

عند فجر الزمان، يقول شعراء ومنشدو ملاحم إيسلندة القدماء، لم يكن هنالك رمال ولا أمواج جليدية، لم يكن هنالك أرض ولا سماء، ولا الأعشاب نمت في أي مكان. لم يكن هنالك سوى هاوية واسعة تتمطى عبر المدى. وقبل خلق البحر بزمن طويل كان هنالك عالم من السحب والظلام يدعى نيفلهايم Niflheim، تشكل في المنطقة الشمالية من الهاوية، وانبثق منه ينبوع هفرغيلمر ـ Hvergelmir الذي صدرت عنه مياه جليدية سالت في اثني عشر نهراً. أما في الجنوب فتقع أرض النار موسبيلشايم Muspellsheim والتي تصدر عنها أنهار ماؤها سم زعاف ترسب بالتدريج ليأخذ شكلاً صلباً، وباحتكاكها مع الجليد القادم من الشمال، فإن تلك القرارة (الثابت والمستقرّ من الأرض) الأولى باتت مغطاة بصقيع ملأ جزءاً من فغر الهاوية. إلا أن الهواء الدافئ الذي كان يهب من الجنوب أخذ يذيب الجليد، ومن القطرات الفاترة التي تشكلت ولد عملاق على هيئة بشرية يدعى إيمير Ymir، أول الكائنات الحية طراً.

كان يمير والد جميع العمالقة، فبينما كان نائماً يتصبب عرقاً ولد من إبطه الأيسر رجل وامرأة، عملاقان مثله. وفي هذه الأثناء فإن الجليد الذي استمر في الذوبان أنجب البقرة أودوملا Audumla مرضعة العمالقة، وكان إيمير أول من روى عطشه من ضرعيها اللذين كانا يسكبان أربعة جداول من الحليب، بينما كانت البقرة تلعق كتل الجليد وتتغذى على الملح الذي تحتويه، ومن الجليد الذي كان يذوب تحت لسانها الدافئ جاء إلى الوجود كائن حي يدعى بوري Buri، ثم أنجب بوري ابناً اسمه بور Bor، تزوج إحدى بنات العمالقة واسمها بيستلا وأنجب منها الآلهة الثلاثة: أودين Odin، وفيلي vili، وفي ve. وقد شن هؤلاء الآلهة الثلاثة حرباً على العمالقة انتهت بإبادتهم تقريباً. وقد بدؤوا بقتل العملاق الهرم إيمير الذي سالت دماؤه حتى غمرت الهوة الواسعة، وغرق فيها جميع العمالقة عدا بيرغلمير Bergelmir الذي أبحر على قارب فوق الأمواج الهائجة ونجا برفقة زوجته. ومن هذين الزوجين بدأت سلة جديدة من العمالقة.

في هذه الأثناء قام الآلهة الثلاثة بانتشال جثة يمير من البحر وشكلوا منها الأرض التي منحت اسم ميدغارد Midgard، أي المقام الأوسط، لأنها كانت متوضعة بين النيفلهيام Niflheim، والمسبلشايم Muspellsheim. فتحول جسد يمير إلى الأرض، وصارت دماؤه البحر. وخلق الآلهة من عظامه الجبال، ومن شعره الأشجار، ثم رفعوا جمجمته على أربع قوائم عالية فصنعوا منها قبة السماء، ثم زينوا القبة بشرارات متطايرة من مملكة النار مسبيلشايم، وبهذه الطريقة خلقوا الشمس والقمر والنجوم الكثيرة، وحددوا لها مساراتهم، ونظموا تتابع الأيام والليالي وطول السنة. ثم إن الشمس راحت تجوب السماء الجنوبية ملقية بضوئها ودفئها على جهات الأرض المترامية، وسرعان ما ظهرت بواكير الأعشاب الخضراء.

بعد ذلك جاء بقية الآلهة وانضموا إلى الآلهة الثلاثة أبناء بور، ولكن القصائد الإسكندنافية لا تذكر المكان الذين جاؤوا منها، ولا توضح ما إذا كانوا هم أيضاً من أولاد العمالقة، وقد عمل هؤلاء معاً على تشييد مسكن الآلهة السماوي الفسيح المدعو أسغارد Asgard، أي مسكن جنس الآلهة المسمى أيسير Aeser. في هذا المسكن السماوي كان لكل منهم قصره الخاص به الذي يشبه إلى حد بعيد قصور الأمراء الإقطاعيين، حيث تخصص أكبر القاعات لاستقبال الزوار وإقامة الولائم. وكان هنالك جسر هائل يصل بين مقر إقامة الآلهة وأماكن سكن البشر، اسمه بيفروست Bifrost، وهو قوس قزح نفسه، ثم عقد الآلهة اجتماعاً وتداولوا حول الطريقة المثلى لجعل الأرض آهلة بالسكان.

على الجثة المتفسخة للعملاق إيمير، الذي قتل أودين وأشقاؤه بدأت ديدان صغيرة بالتشكل؛ ومن هذه الديدان صنع الآلهة جنس الأقزام وأعطي لهم الشكل البشري ونعمة العقل. وبما أنهم قد ولدوا من لحم يمير فقد قدر عليهم الآلهة أن يعيشوا داخل لحم يمير الذي تحول إلى تراب وأحجار، وأن يمضوا حياتهم تحت سطح الأرض في مساكنهم السفلية. وبما أنهم كانوا جميعاً من جنس الذكور، لم يتكاثروا ويتوالدوا، الأمر الذي كان يقود في كل مرة إلى انقراضهم، ثم إلى خلق جيل جديد منهم باستخدام تربة مولدهم نفسها، وبذلك استمرت سلالة الأقزام على الدوام.

أما سلالة البشر فقد نشأت عن العالم النباتي، كما يرى التيوتون الشماليون، ففي أحد الأيام كان الآلهة الثلاثة أودين، وهوينر Hoenir، ولودور Lodur، على سفر في الأرض التي كانت مقفرة من السكان، عندما مرّوا بشجرتين يابستين فقرروا أن يحولوهما إلى مخلوقين بشريين، فمنحهما أودين الأنفاس، ومنحهما هوينر الروح والملكات العقلية، ووهبهما لودور الدفء، وألوان الحياة الزاهية، ثم أطلقوا على الرجل منهما اسم أسك Ask، وعلى المرأة اسم إمبلا Embla. ومن هذين الزوجين تحدّر الجنس البشري.

ولكن المؤلف تاسيتوس في كتابه «جرمانيا» يعزو إلى الجرمان الغربيين أسلاف الألمان الحاليين رواية مختلفة. فقد كان الإنسان الأول عندهم يدعى Munnus. وكان والده إما إلهاً أو عملاقاً مولوداً من الأرض اسمه تويستو Tuisto، ثم إن مانوس أنجب ثلاثة أبناء صار كل منهم فيما بعد أباً لإحدى مجموعات القبائل الجرمانية الرئيسية. مثل هذه الأفكار كانت على ما يبدو من إبداع فيلسوف بدائي، لأن اسم الأب تويستو واسم الابن مانوس لا يخلوان من الدلالة؛ وعلى ما يبدو فإن الاسم الأول يعني «الكائن المزدوج الجنس» »، والثاني «الإنسان باعتباره كائناً يتمتع بملكتي التفكير والإرادة».

ولقد تخيل التيوتون الشماليون الأرض على أنها بقعة مستديرة الشكل ومحاطة بالمياه من كل جهاتها. في هذه المحيط الدائري الذي يحفُّ بالعالم، والذي تحيط به أيضاً الهاوية البدئية، يعيش الأفعوان ميدغارد الذي كان ملتفاً على نفسه في حلقات كثيرة تطوق الأرض التي اكتسبت اسمه.

تحت الأرض المدعوة ميدغارد، كان هنالك عالم ثالث يشبه مناطق العالم السفلي الذي تخيل الإغريق وباقي الشعوب القديمة وجوده تحت الأرض. وهو مقر الأموات؛ وقد دعاه الإسكندنافيون باسم نيفلهايم، أو نيفلهل (عالم السديم). كان مكاناً كئيباً ورطباً ومتجلداً تحكم عليه الإلهة هيل Hel (ومنه اسم الجحيم في اللغة الإنكليزية Hell)، وله مدخل يحرسه كل شرس يدعى غارم Garm، يحرص على ألا يتسلل أحد الأحياء إلى داخله.

هذا التقسيم الكوني إلى ثلاثة عوالم متراكبة لا يتوافق مع مفاهيم التيوتون الشماليين الأكثر قدماً. فقد رأينا أن شعراءهم، في معرض شرحهم لأصول العالم، قد وضعوا النيفلهايم إلى الشمال من الهوة الواسعة التي بزغ منها العالم، ومن الممكن أن التيوتون قد تصوروا في الأزمنة القديمة أن الكون عبارة عن سطح واسع تنبسط الأرض في مركزه، أما فيما وراء المحيط والهوة الأصلية فهنالك بلدان غامضة يقطنها العمالقة. ولكن التيوتون فيما بعد، وتحت تأثير التصورات النشوء ـ كونية الإغريقية والشرقية، قد بدؤوا يمثلون عوالم الآلهة والبش والأموات على أنها متوضعة فوق بعضها.

هنالك شيئ من الاختلاف في الروايات التي سردناها، وهذه بدورها لا تتفق مع تصورات أخرى كانت شائعة لدى جميع الشعراء الإسكندنافيين، كانت ترى العالم بأكمله على شكل شجرة هائلة، ذات أوراق دائمة الخضرة، هي شجر الدردار المدعوة ياغدراسيل Yaggdrasil التي كانت من الضخامة بحيث أن أحد جذورها يصل إلى أعماق العالم الأسفل، بينما تناطح أغصانها السامقة تخوم السماء. وفي اللغة الشعرية الإسكندنامية القديمة، فإن الياغدراسيل تعني «جواد المهيب» أي جواد أودين المهيب، وذلك لأن حصان أودين اعتاد أن يرعى على أوراقها. وقرب الجذر الذي غاص إلى النيفلهيل تفجر ينبوع اسمه هفرجيلمر Hvergelmir، وهو المصدر الدافق للأنهار البدئية. أما قرب الجذر الثاني الذي اخترق أرض العمالقة المكسوّة بالجليد والصقيع، فقد ترفق ينبوع ميمير Mimier الذي تكمن فيه الحكمة كلها، والذي تمنى أودين نفسه أن يشرب منه مع أن بضع قطرات منه قد كلفته إحدى عينيه. وأخيراً فتحت الجذر الراسخ، والذي كان وفقاً لبعض المعتقدات يقع في السماء هناك ينبوع يخص إحدى إلهات القدر (أو النورنيات Norns) وهي أحكمهن المدعوة أورد Urd. وكانت الهات القدر أو النورنيات يسحبن الماء من البئر كل يوم ويقمن برش شجرة الدردار كيلا تذبل أوراقها.

على الأغصان الباسقة للشجرة كان يجثم ديك ذهبي مهمته أن يتفقد الآفاق ويحذر الآلهة من هجوم أعدائهم القدامى من العمالقة. وتحت الشجرة طُمر بوق

الإله هايمدال Heimdall، الذي سوف يُقرع ذات يوم لكي يعلن عن المعركة الأخيرة التي سيخوضها آلهة الأيسير ضد كل أعدائهم والتي ستنتهي بدمار العالم. وبالقرب من جذعها القوي هنالك ساحة مكرسة للسلام يجتمع فيها الآلهة كل يوم لإقامة العدل، وهناك العنزة هايدرون Heidron التي ترعى على أغصانها لتقدم الحليب غذاءً لجنود أودين.

ولكن العفاريات الحاقدين كانوا يخططون باستمرار لتدمير شجرة الدردار ياغدراسيل، كما كانت الأفعى الماكرة نيدهوغ Nidhogg تتسلل تحت الجزر الثالث وتقضم أجزاء منه دون توقف. وهنالك أربعة أيائل تجول بين أوراقها تقضم براعمها الفتية. وعلى الرغم من كل ذلك فإن الفضل يعود إلى النورنيات، إلهات القدر، اللواتي أولين الشجرة عنايتهن لتستمر في إنبات فروع خضراء، وتضرب بجذرها المتجدد في أعماق الأرض.

وعلى ما يبدو فقد كان لدى الألمان ذات الفكرة التي ترى أن العالم مدعم بشجرة عملاقة، ولعل الطريقة التي اتبعوها في بناء مساكنهم هي التي أوحت لهم بذلك، فقد كان من عاداتهم أن يدعموا الهيكل الخارجي لمنازلهم بجذع شجرة ضخم. وكانت بعض القبائل الجرمانية تغرس في أعالي الهضاب جذوع أشجار ضخمة مقطوعة تشكل تمثيلاً جلياً للشجرة الكونية، وهم يدعونها إيرمنسول Irminsul، أي الأعمدة الهائلة، وقد قام شارلمان في عام772م، خلال حملته على الساكسون في المقاطعة التي تعرف الآن باسم ويستفاليا، بقطع وإحراق واحداً من تلك الجذوع التي كانت موضع تبجيل عظيم.

على أن هذا العالم لم يكن سرمدياً في نظر أولئك الناس، وهو آيل إلى الزوال في النهاية، ولسوف يشارك الآلهة أنفسهم في دماره من خلال مشاركتهم في المعركة النهائية ضد أعدائهم؛ فسيأتي يوم يحاول فيه العمالقة والعفاريت الشريرة تدمير نظام العالم الذي أرساه الآلهة وحافظوا عليه، ثم ينجحون في مسعاهم؛ عندها يأتي عصر أفول أو غروب الآلهة وانهيار العالم. على أننا قبل أن نأتي إلى رواية أفول الآلهة لابد لنا من وصف ما كانوا عليه، وما هي شخصياتهم ومهماتهم وسلطاتهم.

الآلهة التيوتونية الكبار

لم يتضمن مجمع الآلهة التيوتونية يوماً عدداً دقيقاً من الآلهة، إذ إن العدد كان يتفاوت بين الزيادة والنقصان، وذلك وفقاً للقبائل وللفترات الزمنية، فبعض الآلهة القوية كانت تفقد مع الزمن مكانتها السابقة ليحل محلها آخرون كانوا أقل أهمية، ذلك أن الآلهة الجرمانية لم تكن إلا نوعاً متفوقاً من البشر في نظر عبادها، وهم فانون في النهاية مثلهم، وخاضعون لتقلبات المصائر.

ويبدو أن ثلاثة من هؤلاء الآلهة كانوا موضع عبادة سادت جميع الأراضي التي كان التيوتون يقطنونها، وهم وودين الذي أسماه التيوتون الشمالون أودين، ودونار الذي دعاه الإسكندنافيون ثور، وتيو Tiw الذي دعاه الجرمان الجنوبيون زيو Ziu (قارن مع زيوس الإغريقي) بينما دعاه الإسكندنافيون تير Tyr. ينتمي هؤلاء الثلاثة، وآخرون ممن سنتحدث عنهم لاحقاً، إلى سلالة الأيسير Aesir وهناك سلالة أخرى من الآلهة اعتقد الإسكندنافيون بوجودها وهي سلالة الفانير Vanir التي كان من أشهر آلهتها فراي Frey. وقد نشب صراع رهيب ذات مرة بين الأيسير والفانير انتهى بتسوية جعلت الإله فراي يغدو واحداً من سكان الإيسغارد، شأنه شأن أودين وثور. وعندما قامت ثورة العمالقة الكبرى، خاض الأيسير والفانير المعركة يداً بيد، ومعاً أيضاً خضعوا لمصيرهم. وبالنسبة لشعب مولع بالحرب مثل التيوتون، فإن كل آلهتهم تقريباً كان تشتهر بفضائلها الحربية، حتى الإلهات على قلتهن، واللواتي كن يُظهرن عند الاقتضاء شجاعة نادرة.

إن البنية الأساسية لمجمع الآلهة التيوتوني يقوم على مفهوم تتقاسمه مجموعة الشعوب الهندو ـ أوروبية التي تتميز عن بقية المجموعات الثقافية بوجود صلة بين بنيتها الدينية وبنيتها الاجتماعية، حيث نجد المراتبية في مجمع الآلهة تعكس ذات المراتبية السائدة في الحياة الاجتماعية. إن المقارنة بين ديانات أكثر شعوب المجموعة الهندو ـ أوروبية محافظة، وهم الجرمان والرومان والهندو ـ آريون على وجه الخصوص، تكشف عن تقسيم ثلاثي لمجتمعهم يعود إلى الظهور في تقسيم ثلاثي في ديانتهم فتاريخ نظام الطبقات الهندي الذي أرسته الشرائح الهندو ـ آرية الغازية للهند، يشف عن وجود ثلاث طبقات اجتماعية، وهي طبقة ملكية كهنوتية،

وطبقة محاربين، وطبقة فلاحين. ويقابل هؤلاء في مجمع الآلهة الهندي ثلاث مجموعات من الآلهة، هي مجموعة الآلهة ذات الصلة بحكم العالم بجانبيها التنظيمي والروحي، ومجموعة الآلهة المرتبطة بالقوة البدنية، ومجموعة الآلهة ذات الصلة بالخصب والمفاهيم التي تدور حولها مثل السلام والصحة والصالح العام. لقد التمس أوائل باحثي الأديان الرابطة بين هذا التقسيم الثلاثي وتقسيم الكون إلى سماء وجو وأرض، فلدينا في الهند مجموعة ميترا Mitra وفارونا Varuna المختصة بالمهمة الأولى، ثم إندارا Indura من أجل الثانية، والتوأم آشفين Asvin من أجل الثالثة، وفي روما هناك الثالوث المشع القديم جوبيتر ومارس وكويرينوس. أما لدى الشعوب الجرمانية فإن الإرث الهندو ـ أوروبي يتمثل في وودن وتيو في المرتبة الأولى، ودونار في الثانية، والفانير في الثالثة. إن اختصاص إلهين في المهمة الأولى هي سمة يتقاسمها التيوتون مع الشعوب الهندية، وتتأتى من الجانب المزدوج للسلطة العليا كما تراها الشعوب البدائية. فهنالك أولاً الحاكم أو الملك الكاهن الذي يعمل وفق طرائق سحرية مرعبة عديدة، وهناك أيضاً الملك الموكل بنظام المجتمع، وهو العامل الدستوري الذي يطبق القانون. وهنا فإن الإله الهندي فارونا والإله الجرماني وودن يمثلان النموذج الأول، بينما يمثل الإلهان ميترا وتيو النموذج الثاني.

وبالطريقة نفسها فإن تمثيل المهمة الثالثة، أي الخصب، ووفقاً لطبيعة المفهوم في حد ذاته. قد أُعطي إلى مجموعات ولدى الشعوب الهندو ـ أوروبية فإنها تتوزع على توائم، أي زوج من الإلهة تدعمه إلهة. بناءً على ذلك. علينا أن نبدي تحفظاً عندما نصف الآلهة الهندو ـ أوروبية بأنها آلهة للسماء أو آلهة للعاصفة، وما إلى ذلك ولنأخذ مثالاً بسيطاً على ذلك، وهو أن اسم الإله الهندي فارونا قد تمت مطابقته لغوياً مع اسم الإله اليوناني أورانوس، وهو تسمية شائعة للسماء. ولكن هذا لا يعني أن مهمة فارونا أو أورانوس الأصلية كانت تجسيد السماء، لأن الاسم يبدو مشتقاً من صيغة تعني «سيد الوثاق»، والتي تحمل إشارة إلى الفعاليات السحرية لسيدة العالم الرهيب، الذي تشبَّه قواه بوثاق يترك خصومه عاجزين، أكثر من أن تكون ناتجة عن قوة بدنية.

وودن ـ أودين:

من المفترض أن يكون وودن الإله الرئيسي للشعوب التيوتونية، وقد تم اعتباره كذلك لمدة قرون ولاسيما من قبل الجرمان، وفي الوقت الذي وصف فيه المؤلف الكلاسيكي تاسيتوس عادات الجرمان، أي في بدايات القرن الثاني بعد الميلاد، فإن عبادة وودون كانت سائدة على بقية العبادات الأخرى. وعندما قام الإنكليز والساكسون بغزو الجزيرة البريطانية، في القرن الخامس، تضرعوا إلى وودن قبل الانطلاق في حملتهم، وكانوا يعتبرون وودن سلفاً لملوكهم.

وإلى يومنا هذا ما زال اليوم الرابع من الأسبوع يحمل اسمه، ويدعى يوم وودن، أو Wedenesday، وهذا التعبير يعادل التعبير اللاتيني يوم ميركوري، أو Mercuriides، الذي صار في اللغة الفرنسية إلى Mercredi.

لفترة من الزمن اعتقد الباحثون أن وودن كان إلهاً غير شرعي، وأنه في الأصل عفريت ارتقى إلى مرتبة الإلوهية ليحل محل آلهة أكثر أهمية مثل دونار إله العاصفة، أو تيو إله السماء، إلا أن الأبحاث الحديثة أظهرت عكس ذلك، وأن وودن لم يكن إلا استمراراً لنمط إلهي هندو ـ أوروبي معروف.

تجري النظرية القديمة على النحو التالي: في الأراضي الجرمانية كان يسود الاعتقاد بأنه في الليالي العاصفة كانت تسمع أصوات صاخبة قادمة من السماء لفرقة من الخيالة هم أشباح المحاربين الموتى، وأنهم كانوا بمثابة «الجيش الهائج» أو «الصيد الضاري». وكان على رأس هذا الجيش الهائج قائد اسمه وودە Wode، مشتق من كلمة Wuten التي تعبر عن السعار والضراوة والغضب الشديد، ومع اتخاذ الألوهة شكلاً أكثر تحديداً في مخيلة المؤمنين، فقد تحول الاسم إلى وودن، أو ووتان Wotan لدى أسلاف الجرمان، وأودين لدى أسلاف الإسكندنافيين. في البداية جرى تصور هذا الإله على هيئة فارس يرتدي عباءة فضفاضة وقيمة ذات حواف عريضة ويعتلي صهوة جواد ليجوب في أرجاء السماء يلاحق طرائد وهمية. إلا أنه مع ارتقاء منزلته لم يعد ألوهة ليلية، بل أصبح الإله الذي يمنح البطولة والنصر ويقرر مصائر

البشر. وعلاوة على ذلك فقد كان يعتبر إلهاً للحياة الروحية، وربما لهذا السبب قرنه اللاتين بإلههم ميركوري. إلا أنه لا يوجد لدينا دليل على أن القيام بالصيد البري كان من مهمات وودن الأصلية. ومن جهة أخرى فإن هذا الضرب من النشاط يتوافق مع مركز وودن كإله ساحر للعالم الأسفل. كما لا يوجد لدينا دليل على أن الاسم وود قد سبق الاسم وودن، إذ قد يكونا متزامنين، حيث إن وودن يعني «سيد الغضب Wode»، وهو الغضب الدال على أن جميع قوى العالم الوحشية قد أطلقت من عقالها بوصفها مختلفة عن قواه المنظمة. وكما هو حال الإله فارونا، فإن وودن يسود بالدرجة الأولى من خلال السحر، ويتعدى مجاله عالم الأحياء ليطال أيضاً العالم الأسفل. ذلك إن الميثولوجيا الجرمانية قد اتخذت سمة عسكرية نتيجة انعكاس شروط اجتماعية محضة، وإذا كان وودن يظهر وكأنه يولي المعارك والمحاربين عنايته المفرطة، فذلك لأن الطبقة الملكية القديمة كانت تهتم بالحرب أكثر من أي شيء آخر. ولكن أصوله الشامانية (أي استخدام السحر، للسيطرة على الأحداث) قد تم توكيدها أكثر من مرة. وهو على الرغم من عنايته بالمعارك فإنه لا يشارك فيها بل يتدخل بواسطة السحر، ويستخدم قيوده السحرية التي تبعث الرعب الذي يشل الأوصال. لقد تم توجيه الغضب الذي يتحكم به هذا الإله نحو الحرب، فبات بطريقة ما إلهاً للحرب، وذلك انطلاقاً من كونه الإله المطلق وسيد السحر أكثر الأسلحة فتكاً.

لقد كان الألمان القدماء ولاشك هم الذين زودوا هذا الإله بالأساطير، فلقد فاق بنظرهم كل الآلهة الأخرى، إلا أننا لا نعرف شيئاً عن هذه الأساطير بسبب افتقارنا للوثائق المكتوبة بلغتهم، والتي لم يصلنا منها إلا وصفة سحرية قديمة نعرف منها أنهم كانوا يستغيثون بوودن لشفاء حالات خلوع أو التواء المفاصل. كما نعرف أنهم كانوا يتضرعون إليه في المعارك ويصلون له كي يمنحهم النصر، من هنا فإن أساطير وودون التي تقص عن أعماله ومغامراته لم تحفظ لنا إلا في اسكندنافيا.

في الشمال كان وودن يدعى أودين، وكان إلهاً للحرب والذكاء، وسيماً يتحدث بطلاقة وبلاغة، ويعبر عن نفسه بالشعر الموزون وفقاً للقواعد التي وصفها الشعراء الإسكندنافيون القدماء. كما كانت لديه القدرة على تحويل نفسه إلى أي شكل يريده، سمكة كان أم طائراً أم أفعى أو أي وحش من الوحوش. وعندما كان يتقدم إلى ساحة المعركة نراه ينزل بأعدائه الصمم والعمى ويشل إرادتهم على القتال.

وأودين هو الذي صاغ القوانين التي نظمت أحوال المجتمع البشري، ووفقاً لأوامره كان يتم حرق جثث المحاربين الذين سقطوا في القتال مع كل ما يخصهم من سلاح ومتاع، لكي يجد كلاً منهم جميع مملكاته الدنيوية عندما يصل قاعة الفالهالا Valhala، حيث يستقبل أودين بنفسه كل شهداء المعارك.

يتسلح أودين عادة بدرع براق وخوذة ذهبية، وبرمحه المدعو غونغنير Gungnir الذي لا يخطئ هدفه أبداً والذي صنعه له الأقزام الماهرون في الحرف اليدوية، ويمتطي جواده المدعو سلايبنير Sleipnir أفضل الجياد وأسرعهم ولا يقف دون عائق لا يستطيع أن يتخطاه باستخدام حوافره الثمانية.

وذات يوم بينما كان أودين يتجول في بلاد العملاقة رآه العملاق المدعو هرونغنير Hrungnir وأبدى إعجابه الفائق بهذا الفارس ذي الخوذة الذهبية الذي كان يشق عباب الهواء والسماء بيسر، ثم أخذ يمتدح مزايا جواده المطهم. ولكنه أضاف قائلاً بأنه يمتلك جواداً يبزه قوة وسرعة. فتحداه أودين إلى السباق وانطلق الجوادان يسابقان الريح. كان العملاق يلكز جواده بمهمازيه ولكن دون جدوى، وكلما وصل إلى ذروة من الأرض يجد أودين وقد سبقه إلى الذروة الأخرى، وفي مناسبة أخرى، أراد أودين أن ينقذ أحد أتباعه من قبضة الأعداء، فرفعه ولفّه في ثنايا عباءة فضفاضة ووضعه أمامه على صهوة الجواد وعاد به إلى دياره، وبينما كان الحصان يعدو استبد الفضول بالشاب المشدوه فاختلس النظر من فتحة في العباءة وذهل عندما رأى حوافر الجواد سلايبنير تدق أمواج البحر وكأنها طريق ممهد بالحجارة.

كان مجلس أودين ينعقد في صالة فسيحة تتألق بالـذهب وتـدعى فالهـالا، إليها يأتي من يختارهم من الأبطال الذي سقطوا قتلى في سـاحة المعركـة. وقـد صُنع هيكل القاعـة مـن الزجـاج بينمـا سُـقف أعلاهـا بـالتروس الوضـاءة بـدل القرميد، بينما اصطفت التروس على المقاعد، وعندما يـأتي المـساء فـإن هـذه القاعة الهائلة تضاء بوميض السيوف التي تعكس نيران المـشاعل الممتـدة وسـط موائد الاحتفال. وهنالك 540 بوابة تتسع كل منها لدخول 800 جنـدي جنبـاً إلى جنب. في هذا القصر كان الأبطال يمـضون وقتـهم في تنـاول لذائـذ الأطعمـة، وشرب الخمر، وممارسة الألعاب الحربية تحت أنظار أودين الذي كـان يتـرأس الجلسة، وعلى كتفيه يجثم غرابان يهمسان بأذنيـه بكـل مـا سمعـاه ورأه خـلال جولتهما اليومية في أرجاء الأرض التي كان أودين يرسلهما لتجسس أخبارها.

ومع أودين في الفالهالا عاشت نسوة خارقات يدعين بالفـالكيرات Valkyries. كن حارسات وخادمات في آن واحـد، يجلـبن لـضيوف القـصر الجعـة والـشراب المخمر، ويشرفن على المؤونة اللازمة من طعـام ودنـان خمـر، إلا أن دورهـن لم يقتصر على هذه الأعمال المنزلية، فقد أوكلـت إلـيهن مهمـات عـسكرية. فعنـدما تنشب معركة على الأرض كان أودين يرسلهن إلى صـفوف المقـاتلين، وهنـاك يقررن أياً من المحاربين يجب أن يسقط أرضاً، ويمنحن النصر للجانب أو للقائد الذي حاز على رضاهن. وهن يتدافعن في ساحة القتال على صهوات جيـادهن، يرتدين دروعاً وخوذاً ويمسكن بتروس ويلوحن برمـاح. وكـن محجوبـات عـن الأنظار لا يراهن إلا من حانت منيته وانتقينه لـصحبة أوديـن، فيظهـرن لـه بغتـة ليعلمنه بمصيره الوشيك. وفي النهاية يعدن إلى الفالهالا ليعلن لأودين عن قـرب وصول المحاربين الذين صاروا على وشك الانضمام إلى أتباعه.

غالباً ما كان أودين ينهمك في شؤون البشر، ولكنه نادراً ما كان يظهر لهـم بكامل أبهته الإلوهية، بل كان يتنكر في هيئة مسافر عادي، وهنالك عائلة معينـة خصها أودين برعايته وهي عائلة فولسونغ، وقـد قيـل أن مؤسـس هـذه العائلـة ويدعى سيجي كان واحداً من أبنائه. كان سيجي ذا قدرة عظيمـة بفـضل حمايـة والده، وقادراً على تجاوز كل الأخطار؛ وكان له ابن اسمـه ريـري ظـل لوقـت

طويل دون ذرية، فتوجه بصلاة حارة إلى أودين الذي استجاب له وأرسل إلى زوجته بتفاحة عجائبية أكلتها وأنجبت مولودها فولسوغ الذي صار محارباً ذا شأن. ثم إن فولسوغ أنجب سيغموند، وذات مساء كان سيجموند وبرفقته بعض المحاربين يتحلقون حول موقد كبير في قاعة يرتفع في وسطها عمود خشبي من جذع شجرة هائلة، عندما دخل عليهم رجل مجهول طويل القامة، أعور العين، يضع على رأسه قبعة ذات حواف عريضة وعلى كتفيه عباءة فضفاضة، وقبل أن يتكلم انتضى سيفه وقذفه باتجاه جذع الشجرة فغاص فيه حتى المقبض، ثم أعلن قائلاً: «إن السيف سيكون من حق القادر على سحبه»، ثم اختفى عن الأنظار.

حاول جميع الرجال الحاضرين نزع السيف وفشلوا واحداً أثر آخر، إلى أن جاء دور سيغموند الذي استطاع نزعه دون كبير عناء، ومنذ ذلك الحين حقق سيجموند الكثير من الانتصارات بعون هذا السيف المقدس. ثم جاء يوم كان فيه سيجموند قد شاخ، وكان في مبارزة مع أحد خصومه، عندما ظهر له الرجل الأعور نفسه وقذفه برمحه فانشطر سيف سيغموند إلى نصفين. لم يكن هذا الرجل المجهول سوى أودين نفسه، والذي قرر أن المحارب الأثير لديه قد حانت منيته، فتقدم منه وجرده من سلاحه الذي زوده به وحقق به انتصاراته السابقة، فسقط سيغمود مضرجاً بدمائه تحت ضربات خصمه. عند ذلك سارعت زوجة سيغموند لتضمد جراحه وتنقذ حياته، ولكنه رفض أي مساعدة طالما أن أودين هو الذي رغب في موته، وكانت وصيته الأخيرة هي الاحتفاظ بالسيف المكسور إلى أن يتم في المستقبل جمع جزئيه معاً، وقد تمت هذه المهمة على يد ابن سيغموند، البطل المحمي سيغورد Sigurd، أو كما يسميه الألمان سيغفريد Siegfried، وهو الذي جعلته موسيقى فاغنر في العصر الحديث أشهر من أن يعرف.

كان لأودين العديد من العلاقات الغرامية، على الرغم من كونه زوجاً لأكثر الإلهات تبجيلاً، وهي الإلهة فريغ Frigg (أو فريجا Frija في اللغة الألمانية)، ولكنها بالمقابل لم تكن مخلصة له بأكثر مما كان مخلصاً، وكثيراً ما نراه يسعى لكسب ود النساء من بنات البشر والعمالقة.

لم يكن أودين إلهاً محارباً وعاشقاً فحسب، بل إلهاً للحكمة والشعر أيضاً، ولدينا العديد من القصائد التي تروي عن مشوراته الحكيمة التي قدمها للبشر، وقواعد السلوك التي علمهم إياها. لقد كان معيناً ووهاباً، يعرف الوصفات السحرية التي تشفي من الأمراض، وتلك التي تجعل أسلحة الأعداء عاجزة، أو التي تفك أسر قيد المأسورين، كما كانت تعاويذه تثير الأمواج أو تهدئها، تجعل الميت يتكلم، وتكسب حب النساء، وهو بالفطرة سيد الأبجدية، وتلك الكتابات التيوتونية التي وجدت منحوتة على الحجارة أو الخشب، قد تضمنت دوماً دلالة سحرية وقوة غامضة.

لم يولد أودين ومعه كل تلك المعارف والمهارات ولكنه اكتسبها عن طريق التعلم من كل الذين قابلهم في عالم البراري من العمالقة والأقزام وجن المياه والغابات. وكان ناصحه ومشيره خاله ميمير Mimir (أي: الذي يفكر)، الذي كان عفريت ماء وكان له نبع مقدس على مقربة من أحد جذور شجرة اليجدراسيل، تكمن فيه كل المحكمة والمعرفة، وعندما أبدى أودين المتعطش لمعرفة كل شيء رغبته في الشرب من ذلك الينبوع، لم يسمح له ميمر بذلك إلا بعد أن رهن لديه إحدى عينيه، وعندما سقط ممير قتيلاً في الحرب التي جرت بين الأيسير والفانير، خيط أودين له رأسه بعد أن تلى عليه تعويذة سحرية من شأنها أن تجعل الرأس محتفظاً بالقوة الروحانية، ومتابعة مهمته السابقة في الإجابة على أسئلة أودين وإخباره بالأمور المحجوبة عن الآخرين.

وإذا كان أودين إلهاً للشعر، فذلك لأنه استخدم دهاءه في سرقة «خمر الشعراء» الذي كان العمالقة يحتفظون به. كان خمراً من أصل إلهي، وتجري قصته على النحو التالي: بعد أن وضعت الحرب أوزارها ين سلالة الأيسير وسلالة الفانير، اجتمع الفريقان لعقد الصلح بينهما، في هذا الاجتماع بصق كل بدوره في وعاء، ومن لعابهم الممتزج صنعوا رجلاً دعوه كفاسير Kvasir، بزت حكمته كل الرجال. إلا أن اثنين من الأقزام قتلاه ومزجا دماءه بالعسل، واحتفظا بالمزيج في إبريقين داخل المرجل أودرير Odrerir، وبهذه الطريقة تمت صناعة الشراب الشهير الذي دعي بدوره أودرير، وكل من شرب منه غدا شاعراً وحكيماً.

وقد أدت سلسلة من الأحداث بعد ذلك إلى حصول العملاق سوتونغ Suttung على المصل الثمين فحفظه تحت الأرض في حجرة أغلق مدخلها بصخور ضخمة، ولكن أودين حول نفسه إلى أفعى وانسل من فتحة ضيقة بين صخور المدخل، ووصل إلى الشراب وابتلعه على ثلاث دفعات ثم تسلسل خارجاً وحول نفسه إلى نسر حلق عالياً حتى وصل إلى الإيسغارد. وهناك أعاد سكب الشراب من جوفه وحفظه في أباريق كبيرة، وصار فيما بعد يوزعه على الشعراء الذين يحب أن يكرمهم.

إلا أن أكثر الأحداث استثنائية في حياة أودين، هو قيامه بالتضحية بنفسه وموته طواعية ثم انبعاثه من جديد. وفي هذا الموضوع تقول قصيدة قديمة على لسان أودين: «لمدة تسع ليال بقيت متدلياً من شجرة لا يعرف جذورها البشر، تلعب بي الرياح، مثخناً بجراح من رمحي نفسه، مكرَّساً لأودين، مضحياً نفسي لنفسي». والشجرة المعنية هنا هي شجرة اليغدراسيل، حيث أعمل أودين رمحه في جسده وتركه يتدلى من أغصان شجرة العالم، في طقس سحري يهدف إلى تجديد الشباب. ذلك أن الآلهة أنفسهم كانوا مثل البشر خاضعين لتقلبات الزمن والشيخوخة، لقد قارن البعض بين تضحية أودين بنفسه وموت المسيح على الصليب. وعلى الرغم من أننا لا نستطيع استبعاد التأثير المسيحي على الميثولوجيا التيوتونية، لاسيما وأن هذه الميثولوجيا قد صيغت بصورتها التي وصلت إليها خلال القرون الأولى من العصور المسيحية، إلا أن هذا التأثير بقي سطحياً، وأسطورة تضحية أودين بنفسه وانبعاثه تدور في إطار وثني بحت، وسوف نرى فيما بعد أن أودين لم يعتبر قط إلهاً خالداً، وسيأتي عليه وقت يلاقي فيه حتفه ويختفي إلى الأبد. ومن ناحية أخرى، فإن هذه الأسطورة عن التضحية بالذات تتطابق مع بعض الممارسات الدينية الشامانية في آسيا الوسطى، حيث تتخذ الطقوس الاستسرارية أشكالاً من الموت الظاهري، بما في ذلك الصوم الطويل، والجمود التخشبي، وعمليات الإعدام الزائف.

دونار ـ ثور:

كان إله الرعد، المدعو دونار في اللغة الألمانية القديمة، موضع تبجيل لدى جميع قبائل التيوتون، وقد طابقه الرومان مع كبير آلهتهم جوبيتر الذي كرسوا له يوم الخميس فدعوه Jovis dies، أي يوم الإله جوبيتر، وما زالت هذه التسمية ليوم الخميس قائمة في اللغة الفرنسية بصيغة Jeudi، وقد قلد التيوتون الرومان في ذلك فدعو يوم الخميس Thursday، أي يوم الإله ثور (أو دونار) وقد استمرت هذه التسمية في ألمانيا إلى اليوم بصيغة Donnerstag أي يوم الإله دونار، وفي البلاد الأنكلوساكسونية بصيغة Thursday التيوتونية.

ومع ذلك فإننا لا نعرف عن خصائص وصفات هذا الإله، عدا النزر اليسير مما زودنا به مؤرخو العصور القديمة، ومؤلفو القرون الوسطى، وبعض النصب النذرية التذكارية التي نقشها الجنود الجرمان الذين خدموا في القطعات الرومانية. لقد كان ألوهة مهوبة ومخوفة جداً. وعندما يقصف الرعد بين الغيوم المتلبدة كان الناس يعتقدون أنهم يسمعون صوت عجلات مركبة دونار تهدر في السماء، وإذا نزلت من الأعالي صاعقة قالوا بأن الإله ألقى قذائفه النارية. ويبدو أن سلاح الصاعقة هذا قد تم تصوُّره على هيئة فأس مُعدَّه للانطلاق، أو كمطرقة حجرية جاهزة للرمي على رؤوس الأعداء، من هنا فقد اعتبرت هذه المطرقة بمثابة رمز مرئي للإله ثور.

إلى جانب وظيفته كإله للرعد، كان دونار (وفقاً لتاسيتوس) إلهاً للحرب، وإليه كان الجرما يتضرعون عندما يزحفون إلى المعركة.

وفي ألمانيا يبدو أن دونار لم يكن يضاهي الإله وودن. أما في بعض البلاد الشمالية ولاسيما في النرويج، فقد نجح دونار ثور في التفوق على بقية الآلهة، وله كُرست أكثر المذابح أُبهة، وشيدت المعابد المخصصة حصراً لعبادته. هذا الاختلاف في مكانة الإله ثور يعزى إلى أن المجتمع الألماني خلال عصر الهجرات كان مجتمعاً من النوع الملكي الديني، ولهذا فقد أعطى دوماً من شأن القوة الملكية الحكيمة التنظيمية المتمثلة في أودين، أما المجتمع الإسكندنافي

فقد بقي مؤلفاً من عشائر متفرقة يقودها رؤساء أقوياء قاوموا دوماً إنشاء مملكة موحدة على النمط الأوديني، ونظروا دوماً إلى القوة الجسدية التي يمثلها دونار ثور في مقابل القوة الملكية التنظيمية التي يمثلها الإله أودين.

قدم لنا الشعراء الإسكندنافيون صوراً حيوية عن ثور. فلقد رأوا فيه نموذجاً كاملاً للمحارب البسيط والنبيل والخشن الطباع، المتأهب دوماً لمواجهة المعارك والأخطار، لقد كان الخصم العنيد للعمالقة والعفاريات، وبطلاً لا يعرف الخوف ويمقت السكون. وتروي إحدى قصائد الإيدا عن مشادة كلامية حصلت بين ثور وأودين، وفيها يصف الشاعر بشيء من الدعابة نزق ثور وجوانب من طبعه الخشن على الرغم من نبل شخصيته.

تقول القصيدة إن ثور خلال إحدى رحلاته وصل إلى شاطئ خليج بحري ولم يتمكن من عبوره، فهتف منادياً صاحب معدِّية تقف على الجانب المقابل: «خذني إلى الجانب الآخر، ولسوف أعطيك نصيباً من الأشياء النافعة التي أحملها في جعبتي، ومن طعامي المكوَّن من ثريد الشوفان وسمك السردين». ولم يكن صاحب المعدية سوى أودين نفسه متنكراً تحت اسم هاربارد، أي اللحية الرمادية، فأجابه قائلاً: «أيها الفلاح، إنك لست سوى متشرد مفلس ومتسول حافي القدمين وقاطع طريق وسارق جياد، وإن معديتي ليست لأمثالك». وهنا لم يجد ثور بداً من التعريف بنفسه، وأخذ يعدد بعضاً من مآثره: «أنا الذي قتل هرونغنر، العملاق الذي يملك رأساً صلبة من الصخر. فما الذي كنت تفعله في ذلك الوقت»؟ أجابه أودين المتنكر: «لقد كنت وعلى مدى خمس سنوات متواصلة أساعد ملكاً في محاربته لأعدائه، وانتهزت الفرصة لأفوز بحب ووصال ابنته»، فقال ثور: «لقد أخضعت النساء أنا أيضاً، وأبدت العمالقة البغيضين، ولولا ذلك لتكاثروا بسرعة فائقة». فقال أودين: «هذا صحيح، ولكنك هربت مذعوراً واختبأت في قفاز العملاق سكريمر»!. هنا وجد ثور نفسه أقل براعة من صاحب المعدية في العثور على الكلمات ومجاراته في حججه، فقرر عدم الرد على هذه التهمة، متابعاً تعداد الانتصارات التي حققها على عمالقة الشرق، فقاطعه أودين باستخفاف قائلاً: «لقد كنت أيضاً هناك في

المناطق الشرقية، حيث التقيت بعذارء جميلة ترتدي الكتان الأبيض وتتزين بالحلي الذهبية، فاستجابت لمداعباتي واستسلمت لي». وعبثاً حاول ثور التفاخر بنجاحات ماضية، بينما استمر أودين في السخرية منه مصراً على عدم نقله إلى الطرف الآخر. في هذه القصة يبدو لنا ثور أخرق وأحمق، والقصيدة التي ترويها تعكس موقفاً متحيزاً لأودين، وتبين الفرق بين الوظيفتين الإلهيتين، فأودين يحكم على المحاربين النبلاء، بينما يحكم ثور على جماعات الفلاحين.

وعلى الرغم من ذلك، فقد كان ثور الإله المفضل للعديد من القبائل، كان المحارب الشجاع الذي لا يقهر، ذا المقام المهيب الذي يبتغي المرء حمايته. كانت تزين وجهه لحية حمراء طويلة، ويعلو صوته القوي على جلبة المعارك ليملأ قلوب الأعداء بالعرب، وقد قلده التيوتون في ذلك عندما كانوا يستهلون المعارك بالصياح والصراخ لإرهاب العدو. أما الفأس الحجرية، سلاح ثور المعتاد والتي قرنها الرومان بهراوة هرقل، فقد كانت في الأصل نيزكاً سقط من السماء. وفيما بعد برزت أسطورة تقول بأن تلك الفأس صنعها لثور قزم ماهر في صنع الأدوات الحديدية، لم يكن هذا السلاح يخطئ هدفه قط، وكان بعد رميه يعود من تلقاء نفسه إلى يد ثور، ومن الممكن أن يتقلص حجمه بحيث يستطيع أن يخبئه بسهولة تحت عباءته. أما اسمه فهو مجولنير Mjolnier، أي المدمر. وبسبب طبيعته السحرية، فإن مهمة مجولنير لم تقتصر على محاربة الأعداء بل أعطيت له القدرة على إضفاء القدسية على العهود والمواثيق، وبخاصة صكوك الزواج، ولهذا السبب اعتبر الإله ثور راعياً لمراسم الزفاف وحامياً للمتزوجين ولا سيما في منطقة النروج.

إلى جانب هذه الفأس العجائبية، فقد امتلك ثور طلسمين، الأول منهما عبارة عن نطاق يقوي أعضاءه إذا شده إلى وسطه، والثاني عبارة عن قفاز حديدي يساعده على إحكام قبضته على الفأس. وكباقي الآلهة، فقد كان لثور مقره الخاص في الأيسغارد يدعى قصر بيلسكيرنر Bilskirnir، ويحتوي على 450 غرفة، الأمر الذي جعله أكبر قصر سمع به أحد على الإطلاق. وحين يغادر ثور قصره كان يحب أن يجوب العالم في مركبته التي يجرها تيسان، والتي كانت

قادرة على نقله على أي مكان حتى إلى العالم الأسفل. وإذا جاع في الطريق كان يقوم بذبح التيسين وأكلهما، فإذا انتهى من طعامه وأحب متابعة الترحال بعد فترة من الراحة، كان يضع فأسه المقدسة على جلد الحيوانين فتعود إليهما الحياة ويهبا واقفين مفعمين بالحيوية والنشاط وجاهزين للانطلاق مجدداً.

وهنالك مرويات تجعل من ثور ابناً لأودين، ولاسيما في المناطق التي اعتبر فيها أودين السيد الأعلى لجميع الآلهة، وهذه المرويات تجعل والدته الإلهة يورد Jord، وهذه التسمية تحمل معنى «الأرض»، أما زوجته فتدعى سيف Sif، وكانت مثالاً للإخلاص الزوجي، وأنجبت له العديد من الأولاد الذين ورثوا عنه القوة البدنية الاستثنائية. وقد ورث أبناء المدعوين ماغني (القوة)، ومودي (الغضب)، فيما بعد فاسه وحلاّ محله في العالم الجديد القادم، بعد زوال الجيل الأول من الآلهة كما سنرى فيما بعد.

بصفته الصورة النموذجية للمحارب الجرماني، كان ثور إلهاً ذا شعبية واسعة، وبطلاً في العديد من الأساطير، وقد روى شعراء الملاحم عن حروبه مع العمالقة الأشرار وتفوقه عليهم. ولكن افتقاره إلى الدهاء، جعل العفاريت الأكثر مكراً منه يخدعونه أحياناً. ولكن عندما تصير الأمور إلى تبادل اللكمات لم يكن أحد قادراً على الصمود أمامه.

استيقظ ثور ذات صباح ليكتشف أن مطرقته الثمينة قد فقدت فانتابه القلق وانطلق ليسأل النصح من الإله لوكي Loki الذي كان ذا فطنة ومكر. فقال له لوكي بأن أحد العمالقة ولاشك قد سرقها، وعرض عليه أن يذهب بنفسه للبحث عنها. استعار لوكي من الإلهة فرايغا ـ Freyja ثوباً سحرياً من الريش يساعده على الطيران، ثم انطلق حتى نوصل أرض العمالقة، وهناك التقى مصادفة بالعملاق ثريم Thrym، واكتشف من الحوار معه بأنه السارق، وأنه خبأ المطرقة في باطن الأرض وعلى مسافة ستة أقدام تحت المياه الجوفية. ولكن ثريم عرض على لوكي إعادة المطرقة إذا وافق الآلهة على إعطائه فرايغا زوجة له. عاد لوكي وعرض المسألة على مجمع الآلهة الذين باتوا في حالة من الحيرة والذعر، لاسيما وأن فرايغا رفضت عرض العملاق وكان غضبها عارماً إلى درجة

تضخمت معها عروق الدم في عنقها حتى انفرط عقدها الذهبي وسقط أرضاً. وأخيراً قرر الأيسير أن يعمدوا إلى خداع ثريم، فاقتضت الخطة أن يرتدي ثور ثياب النساء ويضع عقد فرايغا ويذهب إلى ثريم بدلاً عنها.

تردد ثور في البداية ولكنه وافق أخيراً على الخطة، وتوجه بصحبة لوكي الذي تنكر في زي خادم إلى أرض العمالقة، رحب ثريم بضيفته ترحيباً حاراً وأعطى الأوامر لخدم القصر بإعداد وليمة الزفاف. تناولت العروس المزعومة الطعام بشهية أثارت دهشة كل الحاضرين، فقد قامت بالتهام حصة نساء القصر، أي ثوراً بأكمله وثمانية من أسماك السلمون الكبيرة، وأعداداً أخرى من الأطباق الثانوية، ثم أعقبت ذلك باحتساء ثلاثة براميل من الشراب المخمر. فدهش ثريم من هذه الشهية الفائقة، إلا أن لوكي سارع إلى تقديم الاعتذار بقوله إن فرايغا قد امتنعت عن تناول الطعام لمدة ثمانية أيام لتشوقها العارم للحضور إلى أرض العمالقة. وهنا بات ثريم على أحر من الجمر لكي يرفع برقع فرايغا ويرى وجهها، فأمر بالشروع في طقوس الزواج وأرسل في طلب المطرقة وأمر بوضعها على ركبة العروس وهنا رقص قلب ثور فرحاً، وشد بقبضته على السلاح ثم خلع برقعه ولوح بمطرقته بسرور عارم، فصرع في لمح البصر ثريم وكل حاشيته ثم عاد إلى الأيسير مفعماً بالرضى.

لم يكن العمالقة وحدهم هدفاً لحملات ثور، بل الوحوش أيضاً. وقد صمم في شبابه على ذبح الأفعوان ميدغارد الذي كان يتسبب بحركته المتحوية بإحداث عواصف عنيفة في المحيط الذي يطوق الأرض. فارتحل إلى أقصى مدى حتى وصل شاطئ الأوقيانوس العظيم، وهناك التمس المأوى من عملاق يدعى هيمير Hymir. وعندما حل الصباح راح هيمير يستعد للذهاب في رحلة صيد بحرية، فتوسل إليه ثور أن يسمح له بمرافقته ومساعدته، فما كان من العملاق إلا أن أبدى ازدراءه تجاه ذلك المطلب، فأي مساعدة يمكن توقعها من رجل حديث السن وضئيل الحجم مثله؟ شعر ثور بالإهانة ولكنه كبح جماح غضبه وأرجأ ثأره لوقت آخر وسأله: «ما نوع الطعم الذي يؤخذ في مثل هذه الأحوال»؟ فأجابه العملاق بوقاحة: «إذا كنت لا تعرف فليس من شأني أن أخبرك». وعندها أمسك ثور

بالمجداف وراح يجدف، أما هيمير الذي استخف به في البداية فقد كان مجبراً على الاعتراف بعد قليل بأنه بحار من الدرجة الأولى. وعندما وصلا إلى البقعة التي اعتاد العملاق الصيد فيها، أمره بالتوقف قائلاً: إنه لا يجرؤ على التجديف أبعد من هذه النقطة، ولكن ثور تابع التجديف باتجاه المنطقة التي يتوقع أن يجد فيها الأفعوان ميدغارد، ثم أعد العدة وثبت رأس الثور على صنارته ورماها إلى البحر، فاندفع الأفعوان على الفور باتجاه الطعم وابتلعه بنهم، ولم يكد يشعر بوخز الصنارة حتى بدأ يتخبط في الماء باهتياج وهو يشد الخيط بعنف حتى أن قبضتي ثور راحتا تدميان على حافة المركب التي اسند عليها ركبتيه، ولكن حافة المركب انهارت ليجد نفسه في وسط البحر وقدمه واقفة على بقعة صلبة في الأسفل. وبفضل موطئ القدم هذا فقد نجح في حمل الأفعوان ووضع جزء منه في داخل المركب وهما يتبادلان النظرات المرعبة، وعندما مد يده للإمساك بمطرقته، انتهز هيمير، الذي تملكه الرعب من المنظر الهائل، الفرصة وقطع خيط الصنارة فأفلت الأفعوان واختفى في لج البحر.

سوف يمر وقت طويل قبل أن يلتقي ثور بميدغار وجهاً لوجه مرة أخرى، وذلك في زمن الصراع الكبير الذي سيحدث بين الآلهة وأعدائهم المتحالفين، وعندها سيلاقي الأفعوان حتفه تحت ضربات ثور، أما العملاق هيمير الذي تسبب جبنه في فرار الأفعوان فسوف يقع صريعاً أمام هجوم ثور ويتدحرج رأسه ويغرق في المحيط.

لم يحدث سوى مرة واحدة أن اعتقد ثور بأنه قد هزم على يد أحد العمالقة ولكن هذه الهزيمة لم تكن في حقيقة الأمر إلا وهماً أحدثه ساحر ماهر نجح في خداعه وإليكم القصة.

في أحد الأيام عبر ثور البحر وبرفقته لوكي واثنان من الفلاحين، وحط الرحال في بلاد العمالقة، حيث تابع الجميع السير عبر غابة مترامية الأطراف. وبعد مسيرة يوم كامل حل الظلام فبحثوا عن مكان يلجؤون إليه ووجدوا ضالتهم في بناء غريب الشكل له باب هائل دون مصراعين فولجوا فيه وغطوا في نوم عميق. وقبل انبلاج الصبح وقع ما يشبه الزلزال العنيف واهتزت الأرض وكأنها

سفينة تتقاذفها الأمواج، فنهذوا مذعورين وفروا من المنزل ليجدوا عملاقاً متمدداً على الأرض يصدر شخيراً عالياً ويتقلب في نومه مصدراً هذه الضجة الهائلة التي سمعوها. كاد ثور أن ينزل ضربات مطرقته في الراقد الصاخب، لولا أن الرجل استفاق وقفز واقفاً على قدميه وقدم نفسه على أنه العملاق سكريمير Skrymir ثم توجه بحديثه إلى ثور قائلاً: «أما أنت فلستُ بحاجة لسؤالك عمن تكون، فأنت الأيسير ثور. ولكن أخبرني إلى أين سحبتم قفازي، وذهل ثور عندما درك أنه ورفاقه الثلاثة قد أمضوا ليلتهم في قفاز سكريمير الملقى على الأرض.

بعد ذلك عرض سكريمير أن ينضم إلى جماعة ثور الصغيرة، وعرض عليهم بكياسة أن يحمل الكيس الذي يحتفظون فيه بطعامهم. وهكذا سار الرفاق الخمسة طوال النهار. وعندما حل الليل توقفوا تحت شجرة سديان ضخمة، فقال لهم سكريمير إنه منهك، وتمدد على الأرض ليغط في النوم على الفور. في هذه الأثناء بدأ الرفاق بحل أربطة كيس الطعام ولكنهم لم يقدروا على ذلك، فقد عمد العملاق إلى إحكامه بطريقة باءت معها كل محاولاتهم بالفشل. فاستشاط ثور غضباً وحاول إيقاظ العملاق ولكن عبثاً، فاستل مطرقته وضربه بها على جمجمته ضربة قوية، فتثاءب قائلاً وهو شبه مستيقظ: «كأن ورقة نبات سقطت ولامست جبهتي» ثم عاد إلى نومه، وبعد بضع ساعات تضور الجماعة خلالها جوعاً، رفع ثور مطرقته وهوى بها ثانية على جمجمة العملاق حتى أن رأسها غاص عميقاً حتى المقبض، ولكن العملاق تثاءب ثانية وغمغم قائلاً: «كأن ثمرة بلوط وقعت على رأسي» ثم عاد إلى النوم.

عند انبلاج الصبح أفاق العملاق وقال لثور: «هل أفقت من نومك؟ لقد حان وقت الفراق. إنك لست بعيداً عن وجهتك ولسوف تجد هناك رفاقاً لي أقوى مني بكثير». ثم اختفى في الغابة، تابعت الجماعة طريقها إلى أن وصلت عند منتصف النهار إلى قلعة كبيرة محصنة: فلما دخلوها وصلوا إلى قاعة فسيحة يجتمع فيها العديد من العمالقة. لم يكلف سيد القلعة المدعو أوتغارد الوكي Utgardaloki نفسه عناء الرد على تحيتهم، بل هز كتفيه بازدراء وتساءل عما إذا

كان هذا الرجل الهزيل الضعيف الذي يقف أمامه هو الإله الشهير ثور نفسه، وأضاف بأنه لا يحق لأحد أن يدخل القلعة ما لم يثبت من خلال فعل نبيل بأنه جدير بالتقرب إلى أهلها. ولذا فإنه من الضروري على كل من القادمين الجدد أن يبدي براعة فائقة في المجال الذي يختاره أمام أحد العمالقة الحاضرين.

كان لوكي أول من تقديم ليتحدث بتفاخر عن مقدرته على تناول كميات كبيرة من الطعام بسرعة فائقة، فاختار له سيد القلعة خصماً يباريه هو العملاق لوغي Logi، وقدمت للمتباريين كميات ضخمة من المأكولات في أوعية هائلة، ويلمح البصر ازدرد لوكي كل اللحوم التي كانت في وعائه ولم يترك فيه سوى العظام، ولكن خصمه كان قد ابتلع خلال المدة نفسها اللحم والعظم إضافة إلى الوعاء نفسه.

ثم جاء دور الفلاح الشاب تغالفي الذي زعم بأنه يستطيع أن يسبق بالجري أي عملاق، فاختبر لمباراته العملاق هوغي Hugi، ركض تغالفي بسرعة البرق نفسه، ولكن دون جدوى لأن العملاق هوغي تجاوزه بأسرع من البرق وخلّفه وراءه بمسافات شاسعة.

وأخيراً جاء دور ثور الذي ادعى بثقة مطلقة بأنه قادر على مباراة أي مخلوق في سرعة الشراب، فطلب سيد القلعة أوتغارد الوكي أن يأتوا إليه بالقرن المجوف الضخم الذي اعتاد محاربو قلعته استعماله في الشرب في جرعة واحدة أو اثنتين، أمسك ثور بالقرن وعبء منه مثنى وثلاث إلا أن مستوى السائل عندما رفعه إلى شفتيه مجدداً لم ينقص إلا قليلاً جداً. فطغى على ثور شعور عارم بالارتباك، ولكي يسترد اعتباره أمام المجموعة طلب اختباراً آخر لمهاراته، فدعاه أوتغارد لوكي إلى رفع هرة كانت جاثمة عند قدميه. انحنى ثور وحاول بكل قوته رفع الهرة الصغيرة ولكنه لم يستطع إلا أن يرفع مخلبها قليلاً. عند ذلك اقترح عليه أوتغارد لوكي اختباراً ثالثاً وقال له: «هل ترغب في أن تصارع مرضعتي؟ إنها ليست سوى عجوز مسكينة»، فقبل ثور ولكنه وقع بعد فترة وجيزة جاثياً على ركبة واحدة.

وهكذا، وبإحساس مرير بالمهانة أعد الأيسير عدتهم في صباح اليوم التالي لمغادرة المكان، إلا أن مضيفهم قرر أن يشرح لهم قبل مغادرتهم ماذا جرى في اليوم الماضي فعلاً. وكشف لهم عن حقيقة العملاق سكريمير الذي لقوه في الغابة والذي لم يكن إلا أوتغارد الوكي نفسه متخفياً، وقال لثور إنه عندما نام بينهم حمى رأسه بحبال صلبة حذراً من ضربات مطرقته، وأشار إلى سلسلة جبال قريبة لافتاً انتباهه إلى وديان سحيقة قامت مطرقة ثور بحفرها، ثم شرح له أسباب هزيمة الآلهة في الاختبارات التي دخلوها: فلوكي لم يكن نداً لخصمه في تناول الطعام لأن خصمه كان النار نفسها، وهذا هو معنى اسمه لوغي. وهوغي قد سبق تجالفي في سرعة الجري لأنه كان «الفكرة» نفسها.وثور قد عجز عن إفراغ قرن الشراب لأن طرفه كان غائصاً في قلب البحر، ومع ذلك فقد تمكن فعلاً من خفض مستوى البحر خالقاً بذلك التيارات البدئية للمحيط. كما إنه لم يستطع أن يرفع الهرة إلا قليلاً لأنها كانت الأفعوان ميدغارد نفسه. وعندما تمكن من مخلب القطة فإن الزلازل قد ضربت الأرض. وأما العجوز التي صارعها فلم تكن إلا الشيخوخة نفسها، والتي لا يقدر أحد على قهرها. عندما عرف ثور بأنه قد خدع، رفع مطرقته ليقتل بها أوتغارد لوكي، ولكن الساحر اختفى ومعه اختفت القلعة، ولم ير ثور حوله إلا السهل الشاسع والحشائش التي نبتت فيه.

على الرغم من أن ثور كان يبدو أحياناً ساذجاً وبليداً، إلا أنه لم يعجز عن كسب إعجاب التيوتون بقوة ساعده وبسالته الحربية. ولسوف نراه فيما بعد في العديد من الأساطير، لأنه ساهم بشكل أو بآخر في حياة وأعمال الآلهة الآخرين.

تيو ـ تير:

اعتقد العديد من الباحثين بأن هذا الإله هو الإله الأصلي العظيم لكل الشعوب الجرمانية، ولكنه ينتمي في الحقيقة إلى نفس الحقبة التاريخية للآلهة دونار وثور وأودين، وقد أطلق عليه جرمان الجنوب اسم زيو Ziu، وجرمان الشمال اسم تيوز Tiuz، أما الإسكندنافيون فقد دعوه تير Tyr، بينما دعاه الأنجلو ساكسون تيو Tiw. وكل هذه التسميات تتطابق مع الكلمة السنسكريتية دياوس Dyaus، واليونانية زيوس Zeus، واللاتينية ديوس Deus، وعلى هذا

فإن الأسماء الجرمانية لهذا الإله تشتق من اسم هندو ـ أوروبي شائع أطلق على الإلوهية بشكل عام، ولكنه ارتبط بالسماء في العديد من البلدان. من حيث الأصل يمكن موازاة الإله تيو بالإله الهندي الفيدي ميترا، الذي كان مسيطراً على الجانب القانوني من مفهوم الحكومة. إلا أن العسكرة التدريجية للمجتمع الجرماني قد قلصت سلطاته في مجال القوانين إلى مجال القوانين التي تتعلق بالحرب. ولهذا فقد ماثله الرومان بإلههم مارس. وقد خصص له يوم في أيام الأسبوع دعي بيوم تيو Tuesday وهو الثلاثاء الذي ما زال حتى الآن يدعى بالإنكليزية Tuesday. ولكن هذا الإله انتقل إلى مرتبة ثانوية فيما بعد.

وبما أن دونار قد غطى على تيو، فإن الأخير لم يكن له دور بارز في الأساطير الألمانية، وكذلك الأمر في الأساطير الشمالية. يرد الاسم تير بشكل تبادلي في الشعر الإسكندنافي القديم. وقد حاول الشعراء الإسكندنافيون أن ينسبوا تير ـ تيو إلى أسرة الآلهة التيوتونية الكبرى فجعله بعضهم ابناً للعملاق هيمير، وقال البعض الآخر بأنه كان من أولاد أودين. ومن المفترض أنه كان غاية في الشجاعة والأقدام، وطالما وهبَ النصر لأحد الجانبين، ولذا كان التضرع إليه قبل بدء الحرب ضرباً من الحكمة.

وتروي إحدى الأساطير قصة تشف عن شجاعته وطاقته الشخصية. فقد حذرت إحدى النبوءات الآلهة من الذئب العملاق فينرير Fenrir، وهو واحد من أشد أعدائهم خطراً، ونصحهم بأن الحكمة تقتضي وضعه في حالة من العجز لا يستطيع معها إلحاق الأذى بهم، فقرر الآلهة ألا يقتلوه لأن ذلك سيؤدي إلى تدنيس الأرض المقدسة، واختاروا بدلاً من ذلك أن يقيدوه، وتوسلوا إلى الأقزام المهرة أن يصنعوا لهم لا يقدر كائن على كسره، وسرعان ما أحضر إليهم الأقزام المهرة أن يصنعوا لهم قيداً لا يقدر كائن على كسره. وسرعان ما أحضر إليهم الأقزام أغلالاً عجائبية لدنة وناعمة كأنها شريط من حرير، ولكنها من الصلابة بحيث صمدت أمام جميع الاختبارات: فتوجه الآلهة إلى فينرير بخدعة قائلين بأن كل واحد منهم قد حاول كسر القيد دون أن يفلح، وتحدّوه أن يحاول بدوره ويظهر قدرته. لكن الذئب ارتاب في الأمر وتردد، ثم وافق شريطة أن يضع أحد

الآلهة يده بين فكيه ليقضمها إذا تبين لـه وجـود خدعـة. تـردد الآلهـة وتبـادلوا النظرات فيما بينهم، ولكن تير مدّ يده ووضـعها بـين فكـي الـذئب بينمـا شـرع الآخرون في تقييده، وعندما لم يستطع الذئب فك وثاقه أدرك أنه وقع في الفـخ وعمد إلى قضم يد الإله حتى الرسغ، ومنذ ذلك الحين غـدا تـير بيـد واحـدة، وصار يظهر في سياقات ميثولوجية هندو ـ أوروبية أخرى في ثنائي إلهي: أودين، رجل القانون ذو اليد الواحدة، وتيو، رجل السحر الطاغي ذو العين الواحدة.

لوكي:

لا يعد لوكي واحداً من أقدم الآلهة في مجمع الآلهة الجرماني، إلا أن اسمه يرد بنفس التكرار الذي يرد فيه اسم أودين أو ثـور في الأسـاطير الإسـكندنافية، لعله كان إلهاً خيراً في البداية، ولكن الأساطير أخذت تصور بالتدريج لوكي على أنه عفريت أو جني خارق، ومنهمك على الدوام في أذى الالهة، فهـو المـزعج البغيض في أسرة الآلهة. وعلى الرغم من أنه شاركهم حياتهم وخدمهم بحمـاس في العديد من المناسبات، إلا أنه لم ينقطع عن تقويض سـلطانهم، وهـو الـذي تسبب في النهاية بسقوطهم.

لقد جرى تصوير لوكي في البداية على أنه عفريت من نـار، واسمـه يـرتبط بالجـذر الجرمـاني الـذي يفيـد معـنى اللـهب، كمـا أن اسـم والـده فاربـاوتي Farbauti، أي الـذي قـدح لتولـد النـار. أمـا أمـه فكانـت لاوفي Laufey، أي «الجزيرة المشجرة» التي تزود بالمواد اللازمة لإشعال النار. وغالباً ما يرتبط اسمه في التعابير الشعبية التي ما تزال سائدة في اسكندنافيا بالظواهر الـتي تلعـب فيهـا النار دوراً بارزاً. ففي النروج على سبيل المثال يقولـون بـأن لـوكي يقـوم بجلـد أولاده، كلما سمعوا طقطقة الحطب المشتعل في المواقد.

هذا العفريت السابق قد ارتفعت منزلته على نحو بطيء، وفي الأساطير التي يظهر كواحد من شخصياتها نجده كواحد من الأيسير. ولقد تبادل لوكي وأودين في بداية الزمن عهود الصداقة التي بوركت وختمت بالطقوس الشعائرية، حيـث صار الاثنان «أخوان بالدم». لقد كان لوكي وسيماً وجذاباً وودوداً مـع الإلهـات

اللواتي قلما صددنه. وهنالك شيء شيطاني فيما يتعلق بشخصيته وسلوكه. وبما أن الأساطير التي حيكت حوله قد ابتُدعت في وقت متأخر، فمن المحتمل أن بعض السمات المستعارة من الشيطان المسيحي قد عزيت إليه.

سبق ورأينا كيف قام لوكي بمساعدة ثور على استعادة المطرقة التي سرقها العملاق ثريم، بيد أن لوكي لم يكن دوماً شخصية متعاونة، وهو لم يتردد في خيانة ثور إذا كانت مصالحه الشخصية في الميزان. ففي أحد الأيام استعار من الإلهة فرايغا ثوبها المصنوع من الريش وارتداه ثم طار محلقاً في الهواء حتى حط على سقف العملاق غايرود Geirröd. رأى غايرود ذلك الطائر الفريد فأمسك به وحبسه في قفص وتركه لمدة ثلاثة أشهر دون طعام. في نهاية الشهر الثالث كشف له لوكي عن شخصيته الحقيقية وتوسل من أجل إطلاق سراحه. وافق غايرود على ذلك شريطة أن يتعهد لوكي بتسليمه أكثر آلهة الأيسير قوة ومهابة، أي ثور نفسه، ولكن مجرداً من الميزات التي تجعله لا يقهر أي مطرقته وقفازيه وحزامه. وافق لوكي وأُطلق سراحه، فعاد إلى الإيسغارد واستطاع بعد فترة إقناع ثور بالمداهنة والنفاق والكذب أن يترك حزامه وقفازيه ومطرقته ويذهب إلى مقر العملاق غايرود، ولكنه لحسن الحظ التقى في الطريق بالعملاقة غريد Grid التي كانت ما تزال على إخلاصها له بُعد فترة علاقة عاطفية انجلت عن إنجابها ولداً له واسمه فيدار. حذرته غريد من الفخ الذي ينتظره وأعارته قفازيها وحزامها وعصاها السحرية التي ساعدته على النجاة من مكيدة غايرود، فنجح في القضاء على العملاق وجميع أتباعه. وفي مناسبة أخرى كادت إحدى الإلهات تقع ضحية مؤامرات لوكي. ففي إحدى المرات كان لوكي على سفر بصحبة الإلهين أودين وهوينر، عندما شعروا بالجوع وتوقفوا ليقوموا بشواء عجل، إلا أن عقاباً حط على شجرة فوقهم ورمى تعويذة منعت اللحم من النضج ما لم يشاركه الآلهة طعامهم. وافق الآلهة على هذا المطلب ونضج اللحم، ولكن العقاب النهم كان يخص نفسه بأفضل قطع الشواء، الأمر الذي أثار حفيظة لوكي فأمسك بقضيب وهوى به على المتطفل، قفز العقاب وهو يجرجر لوكي على الأرض لأن القضيب قد التصق به وبيد لوكي الذي صار ينزف دماً وامتلأ جسمه بالكدمات.

لم يكن العقاب سوى عملاقاً يدعى تاغياتسي، وقد شعر بالسرور لأنه أوقع أحد الآلهة في الأسر. فاشترط على لوكي مقابل استرداده لحريته أن يُقسم على تسليمه الإلهة إيدون Edun وتفاحاتها العجائبية التي تحافظ على الشباب والتي كان يتناولها آلهة الإيسغارد كعقار ضد الشيخوخة. وافق لوكي على الشرط واسترد حريته متجاهلاً ما يمكن أن يحدثه عمله الأخرق من ضرر بالغ على الآلهة. ولدى عودته استجر الآلهة إيدون بالحيلة إلى داخل الغابة مدعياً أنه سيريها تفاحات أكثر جمالاً من تلك التفاحات التي تقدمها للآلهة. وهنالك وصل تاغياتسي حسب الاتفاق وأمسك بالإلهة وجرها إلى مسكنه.

لم يمض وقت طويل حتى أحس الآلهة بغياب إيدون، وأخذوا يحسون بالشيخوخة تدب في أجسامهم، وعرفوا بطريقة ما أن لوكي هو السبب، فتوجهوا إليه بتهديدات لم يستطع حيالها إلا أن يعدهم باستعادته لإيدون. اتخذ لوكي هيئة صقر وطار إلى بلاد العمالقة، وعندما عثر على إيدون حولها إلى حبة بندق وحملها عائداً إلى الإيسغارد. ولكن تاغياتسي الذي أدرك ما حدث حول نفسه إلى عقاب وتبع لوكي وكاد أن يمسك به لولا أن الآلهة سارعوا إلى إضرام نار هائلة، وعندما وصل العقاب إلى الإيسغارد احترق جناحاه وهوى بين ألسنة اللهب التي التهمته.

لم تنج سيف زوجة لوكي بدورها من أذى لوكي المتعمد، فقد تمكن بالحيلة من قص ضفيرتيها الجميلتين، وعندما عرف ثور بذلك قبض على لوكي وراح يحطم عظامه فصرخ لوكي طالباً الرحمة وأقسم بأنه سيقنع الأقزام بأن يصنعوا لسيف ضفيرتين ذهبيتين سوف تنموان من تلقاء ذاتهما مثل الشعر الطبيعي، عندها هدأ غضب ثور. وفى لوكي بوعده، وتوجه إلى ورشة حدادة الأقزام أبناء إيفالدير lvaldir الذين وعدوه بأن يصنعوا الضفائر الذهبية، وتعهدوا فوق ذلك أن يصنعوا لثور السفينة سكيدبلادنير Skidbladnir التي ما أن ترفع أشرعتها حتى تنطلق من تلقاء ذاتها إلى الوجهة المقصودة، وأن يصنعوا له كذلك الرمح هونغنير Hongnir الذي لا يعيق انطلاقته السريعة عائق.

ومن إحدى أعمال لوكي الخرقاء، أنه راهن على رأسه قزماً يدعى بروك Brokk، زاعماً أن أخاه القزم سيندري Sindri، لن يستطيع على الرغم من براعته في الحدادة والحرف اليدوية الإتيان بمثل تلك الأعاجيب التي صنعها أولاد إيفالدر لثور وزوجته. قبل القزم بروك الرهان وشرع على الفور في العمل مع أخيه سيندري، ولكن لوكي الذي بدأ يشعر بالقلق من خسارته الرهان وخسارته رأسه أيضاً، اتخذ هيئة ذبابة مواشي وراح يلدغهما لكي يحولهما عن العمل فيعجزان عن إتمام المهمة. وعلى الرغم من ذلك فقد نجح الشقيقان في صنع الخاتم دروبنير Droupnir الذي يجعل مالكه يزداد ثراءً على الدوام، كما صنعا الخنزير الذهبي الذي صار فيما بعد ملكاً للإله فراي، وصنعا أخيراً مطرقة الإله ثور الشهيرة. بعد ذلك جرى تحكيم آلهة الأيسير في ذلك، فأعلنوا أن مطرقة ثور قد بزّت كل ما صنعه الأقزام حتى ذلك الوقت، وأنها ستكون الحامي الرئيسي لإيسغارد إلى الأبد. وبذلك فاز القزمان بروك وسيندري بالرهان، وصار رأس لوكي من حقهما. ولكن لوكي الذي كان يملك زوجاً من الأحذية تحمله متى شاء إلى ما وراء الأرض والبحر، اختفى عن الأنظار، فاشتكى القزم إلى ثور الذي سارع دون إضاعة وقت إلى القبض على لوكي وتسليمه إلى بروك الذي أعلن عزمه على قطع رأسه، إلا أن حيل لوكي لم تكن لتنضب فراح يناقش المسألة بحيوية قائلاً إن الرهان لم يذكر شيئاً عن رقبته، ولذا فعلى القزم ألا يقص شيئاً منها. لم يكن عقل بروك على درجة من الخصب تسمح له بالتعامل مع مثل هذه المراوغات. وبعد فترة من الحيرة قرر العزوف عن قطع رأس لوكي والاكتفاء بتخييط شفتيه لكي لا يستطيع بعد ذلك أن يتسبب بالأذى لأحد، فجاء بحبل ومخرز وخاط شفتي لوكي بإحكام. ولكن لوكي بعد فترة، وكما هو متوقع، استطاع قطع الحبل والإفلات من هذه المغامرة الخطيرة.

وفي النهاية، فإن غدر لوكي وحبه للمكائد قد أوقعاه في مشكلات مع جميع الآلهة. وتعرض إحدى قصائد الإيدا مشهداً مثيراً للوكي وهو يوجه

الإهانات إلى جميع آلهة الإيسغارد واحداً تلو الآخر، وذلك خلال مأدبة أقامها العملاق إيغير سيد البحار، ودعا إليها جميع الآلهة والإلهات عدا لوكي. ولقد لبى الدعوى الجميع ولم يتخلف إلا ثور الذي كان يرتحل في مهمة في الأراضي الشمالية. كان ضيوف إيغير يقضون وقتاً ممتعاً ويستمتعون بمباهج الوليمة، عندما فتح لوكي الباب عنوة ودخل. أجال لوكي الطرف في الحاضرين، ثم بدأ يهاجم الآلهة الحاضرين بتعابير مقذعة مذكراً كلاً منهم دون رحمة بتفاصيل أكثر المراحل خزياً في حياته. ولم تنج الإلهات من لسانه حيث اتهم كل واحدة منهن بالخيانة الزوجية، متفاخراً بأنه هو نفسه قد تمتع بوصال العديد منهن. كما اعترف لهم ببهجة ووحشية بالجرائم التي ارتكبها بحقهم عن عمد. اقتربت منه سيف زوجة الإله ثور وقدمت له كأساً وهي تتوسل إليه أن يضع حداً للجدال، فما كان من لوكي إلا أن أطلق المزيد من الإهانات. وتباهى بأنه في إحدى المرات قد ضمها بين ذراعه سعيدة راضية، وهي زوجة ثور العظيم. وما كاد لوكي ينطق باسم إله الرعد حتى سمع صوت قصف هادر آت من الجبال البعيدة، إنه ثور الذي كان يقود مركبته وسط العواصف الهادرة، وما لبث أن دخل القاعة مهيباً مروعاً، وأمر بالتزام الصمت. ولكن لوكي جازف بتذكير أقوى الآلهة بالخزي الذي لحقه في قلعة العملاق الساحر أوتغارد لوكي، عند ذلك لوح ثور بمطرقته في وجه لوكي الذي تراجع إلى الخلف مذعوراً وهو يهم بمغادرة المكان، إلا أنه قبل المغادرة أطلق تهديداً مروعاً قائلاً: بأن العملاق إيمير صاحب الوليمة لن يقدر بعد ذلك على إقامة وليمة أخرى، لأن قصره وكل ما ممتلكاته سوف تلتهمها النيران عما قريب. وبهذه الكلمات لم يكن لوكي يعلن مصير قصر إيميريل احتراق العالم بأسره، كما سنرى في سلسلة الأحداث التي تلت كلمات لوكي المتوعدة.

هايمدال:

يعد هايمدال Heimdal واحداً من آلهة الأيسير ذوي الشأن وعلى الرغم من أنه شغل مقاماً مهماً في الميثولوجيا الجرمانية، إلا أن معلوماتنا عنه قليلة ومبعثرة. كان إلهاً للنور، ومن المحتمل أن اسمه يعني: «هو الذي يلقي بالأشعة المنيرة»، وربما كان يمثل على وجه الخصوص نور الصباح. وربما مثَّل أيضاً قوس قزح.

أما في المنظور الهندو ـ أوروبي الأشمل، فإنه يتبوأ منزلة مهمة تضاهي منزله فايو Vayu الهندي، وجانوس الروماني. فهو الإله الذي يتزعم البدايات الغامضة للأشياء، ومثل الإله جانوس الحارس، كان هايمدال أيضاً حارساً للآلهة، وهو يقبع عند عتبة عالمهم. لقد ولد منذ أزمنة سحيقة، وهو سلف الآلهة والبشر، وله اعتباره في مراتبهم الاجتماعية، وهو أول من يتحدث في المجلس الإلهي، كما أنه هو الذي يفتتح الطور النهائي للعالم عندما يحين وقت غروب الآلهة.

يصوره الإسكندنافيون (وهم التيوتون الوحيدون الذين يأتون على ذكره) على هيئة رجل طويل القامة، وسيم الطلعة، له أسنان من ذهب، يتمنطق سيفاً ويعتلي جواداً ذا وبر براق كان يتواجد عند الجسر العظيم المدعو بيفروست Bifrost أي قوس قزح، وهو الجسر الذي يفصل بين عالم البشر وعالم الآلهة. وكان حارساً لمداخل ذلك المعبر، يحذر الالهة من اقتراب أعدائهم، ولذلك كان دائم السهر قليل النوم، كما امتلك القدرة على الرؤية خلال الليل، والقدرة على السمع المرهف حتى أنه يقدر على سماع الأعشاب وهي تنمو في السهل، والصوف وهو ينمو على ظهور الماشية، وعنده بوق يصل صوته إلى الجهات الأربع.

كان لوكي يسخر باستمرار من مهمة الحراسة الرتيبة التي يقوم بها هايمدال، ومن الأوقات الطويلة التي يقضيها على بوابات الإيسغارد إلا أن ذلك الإله المتواضع النبيل، كان قادراً على معاقبة لوكي عند الاقتضاء. وقد حدث ذات مرة أن قام لوكي بسرقة عقد الإلهة فرايغا، وذهب يخبئه بعيداً تحت حيد البحر الغربي، ولكن هايمدال تنكر في هيئة فقمة ونجح بعد صراع مع لوكي في استرداد العقد. وكما سنرى لاحقاً، فإن هايمدال في الصراع الأخير الذي خاضه الآلهة من أجل بقائهم، هو الذي أنزل بلوكي الضربة القاضية، ولكنه ما لبث أن خر صريعاً تحت ضربات خصومه.

بالدر:

كان بالدر Balder مثل هايمدال إلهاً للنور، وهو ابن أودين وفريغ، جميل إلى درجة أنه كان ينثر الأشعة كيفما تحرك، ليس له ند بين الآلهة في الحكمة، يحبه المرء لمجرد رؤيته أو الاستماع إليه، إنه أثير الآلهة والمفضل لديهم.

لم يكن بالدر موضع تقدير في اسكندنافية وحدها، وإنما كانت له شعبية مماثلة في ألمانيا أيضاً، ولدينا نص سحري قصير باللغة الألمانية القديمة، نرى فيه بالدر على صهوة جواده بصحبة وودون، عندما التوى كاحل جواده، فقام وودن بشفائه من خلال تلاوة بضع كلمات مشبعة بالقوى السحرية الخفية. ولكن أساطير بالدر لم تُحفظ لنا إلا في الأراضي الشمالية، وهي تدور بشكل رئيسي حول موته المأساوي الذي جاء نتيجة مكائد لوكي.

عاش بالدر حياة ملؤها التناغم والسعادة، ثم جاء وقت أقضت فيه مضجعه الكوابيس وتوقعات غامضة بحدوث شر له، وعندما نقل هواجسه للآلهة الذين كانوا يحبونه كل الحب، عملوا جهدهم لدفع الخطر الذي بدأ محدقاً به، فتوجهت أمه فريغ إلى كل الكائنات في الطبيعة حيةً كانت أو جامدة، وأخذت منها عهداً واحداً، أن لا تمس بالدر بأي سوء؛ أخذت عهد النباتات والأشجار والنار والمعادن والأمراض والطيور والزواحف السامة وغيرها، توسلت إليهم أن يقسموا بألا يمسوا بالدر بالأذى قط، فقطع الجميع على أنفسهم ذلك العهد المقدس ولكن لوكي تنكر في هيئة امرأة عجوز وأتى إلى فريغ في حيلة، وسألها عما إذا كانت فعلاً قد أخذت عهداً على كل الكائنات طراً، فقالت له نعم، إلا نبتة صغيرة تنمو في الجهة الغربية من الفالهالا تدعى ميستلتاين، لأنها بدت لي أصغر من أن ألزمها بقسم.

بعد ذلك اجتمع الآلهة يلهون، وراح كل مهم يرمي بالدر بسهم أو رمح أو حجر، وهم مسرورون لأن شيئاً ما بالفعل لا يمكن أن يؤثر في بالدر. هنا تسلسل لوكي وقطف عوداً من النبتة التي لم تقسم أمام فريغ، وعاد فأعطاه إلى

إله ضرير يدعى هود Hod، وقال له: «لم لا تشارك في اللعب لم لا ترمي شيئاً على بالدرة» فقال له هويد: «لأني لا أستطيع الرؤية، وليس عندي سلاح». فقال له لوكي: «في هذه الحالة خذ هذا العود الصغير أرم به ولسوف أقوم بإرشادك». أخذ هويد عود النبتة وقذف به نحو بالدر فاخترقه وخر صريعاً. شده الآلهة وبكوا رفيقهم الجميل بحرقه، وأرادوا معاقبة لوكي على الفور لولا أنهم كانوا في باحة حرام يمنع فيها الاقتتال.

بعد أن أفاق الآلهة من صدمتهم أخذوا يتداولون في أمر استرجاع بالدر من العالم الأسفل، وتوجهت فريغ لهم بالسؤال عما إذا كان بينهم من هو مستعد للهبوط إلى مملكة هيل لإنقاذ بالدر، وستكون جائزته أن يحظى بها كائناً من مكان، فقفز هيرمود Hermod، أحد أبناء أودين على الفور، وامتطى الحصان سليبنر وانطلق به، في الوقت الذي كانت تقام فيه شعائر جنازة بالدر.

بعد مشاق وأهوال يصعب وصفها، وصل هيرمود إلى قصر إلهة العالم الأسفل هيل، حيث شاهد بالدر يجلس على كرسي الشرف، ثم أخبر هيل الهدف من قدومه وتوسل إليها أن تسمح لبالدر بالعودة معه إلى الإيسغارد. وافقت هيل على إعادة بالدر تحت شرط واحد، وهو أن تتمنى كل الأشياء والكائنات الحية في العالم عودة بالدر وتندب موته. وسوف تكون مجبرة على الاحتفاظ به إذا وجد في العالم كائن واحد يرفض ذلك. عاد هيرمود إلى الأيسير حاملاً هذه الإجابة، فأرسلوا بسعادة إلى جميع أنحاء الأرض يناشدون كل الناس وجميع الأحياء والجمادات أن تندب بالدر، وهكذا أخذ العالم بأسره ينتحب من أجل بالدر. وفي طريق عودة السعاة منتشين بنجاح مهمتهم، رأوا عجوزاً عملاقة تعيش وحيدة في أحد الكهوف، رفضت أن تذرف دمعة واحدة على بالدر قائلة: «لم يسد لي بالدر أي خدمة في حياته ولا بعد مماته، ولتحتفظ هيل بما هو لها»، ولم تكن هذه العملاقة العجوز إلا لوكي نفسه الذي تنكر بهذه الهيئة ليضمن عدم عودة بالدر إلى الأبد.

الفانير: نيورد، وفراي:

لم يكن الأيسير هم آلهة التيوتون الوحيدون. فقد آمن الإسـكندنافيون، ولا سيما في السويد بوجود سلالة أخرى من الآلهة.هم الفانير Vanir، الـذين كـانوا آلهة مسالمين، علـى عكـس آلهـة الأيـسير المحـاربين: فهـم يمـدون الحقـول والمراعي والغابات بنور الشمس والمطر وأهب الحيـاة، ويرعـون تكـاثر البـشر والحيوانات والنباتات، وفي فصلي الربيع والصيف يتنعم البشر بفيض عطاياهم، حيث يحل الجني والحصاد وتفيض الأرض بثرواتهـا وتـسمن طرائـدها. وكـان الفانير أيضاً حماة التجارة والملاحة.

وهناك مرويات نرويجية تتحدث عن اندلاع الحرب ذات مرة بـين الأيـسير المولعين بالقتال والفانير المسالمين. ويرى بعض البـاحثين في هـذه المرويـات إشارة رمزية للصراع الذي نـشب في المنـاطق الإسـكندنافية بـين عبـادة أوديـن وعبادة فراي Frey، وذلك بناء على فرضية تـرى أن عبـادة أوديـن انتـشرت في الأراضي الشمالية بعد عبادة فراي الأقدم منها. ولكن الأبحاث الأخيرة تظهـر أن الأمر ليس كذلك، وأن الحرب بين الأيسير والفانير هي امتداد لأسطورة هندو ـ أوروبية، تمثلـت في الهنـد بنـضال الناسـاتيا Nasatya للانـضمام إلى المجمـع الإلهي، كما تمثلت في روما بالتاريخ الأسطوري للحرب التي قامت بين الرومان والسابين، ومهما يكن من أمر فإن الشعراء الإسكندنافيين يروون ما يلي:

في أحد الأيام قام الفانير بإرسال إلهة من عندهم إلى الأيسير تدعى غولفريغ Gulverig، في مهمة لم تذكر ماهيتها. كانت تلك الإلهة بارعة في فنون السحر، وجنت الكثير من الذهب من وراء فنونها الـسحرية. وعنـدما وصـلت إلى هنـاك طمع الأيسير في ثروتها فاعتقلوها وأخضعوها لشتى أنواع التعذيب لمعرفة مكان ذهبها. غضب الفانير من هذا السلوك الشائن وطالبوا بتعويض عن ذلك هـو إمـا مبلغ ضخم من المال وإما أن ترتفع مكانتهم ليتساووا مع الأيسير، ويتلقوا نصيباً مماثلاً من الأضاحي التي يقدمها المؤمنون. رفض الأيسير العرض وفضلوا تسوية المسألة بالحرب. ولكن القتال الطويل بين الطرفين لم يسفر عن نتيجـة حاسمـة،

وقرر الطرفان الوصول إلى تسوية، فقد أقر الأيسير التعامل مع الفانير كانداد لهم، واتفقوا على تبادل الرهائن بين الطرفين. فقام الأيسير بتقديم هوينير القوي وميمير الحكيم، بينما قدم الفانير نيورد Njord الجبار وابنه فراي Frey اللذين عاشا منذ ذلك الوقت في الأسغارد واختلطا بالأيسير.

وفي الحقيقة فإن المرويات التي وصلتنا لا تميز بين وظائف نيورد وفراي، فكلاهما مانح للثروات وحارس على القسم وحامٍ للملاحة. ولقد حاز فراي بشكل خاص على شعبية تضاهي في بعض المناطق شعبية أودين وثور، وازدهرت عبادته في السويد أكثر من غيرها، حيث شيدت له أضخم المعابد وأكثرها فخامة، وكانوا يقدمون له القرابين من البشر ومن الحيوانات أحياناً، واتسمت احتفالاته الدينية بالابتهاج العارم والرقص وضروب اللهو.

وكما هو حال أودين وثور، فقد كان لديه خدم كثيرون ويمتلك تعاويذ سحرية تفعل العجائب، وامتلك حصاناً يقطع الجبال والقفار مثل الريح، ولا يتراجع حتى أمام ألسنة اللهب الحارقة، ولديه سيف يشق عباب الهواء من تلقاء نفسه.

وإذا كان عند ثور تيسان يجران مركبته، فقد كان عند فراي خنزير ذهبي ذو أنياب مخيفة، صنعه له القزمان بروك وسيندري، وهو أسرع من أي حصان، ويغدو الليل وضاءً لدى ظهوره. كما صنع له أقزام آخرون السفينة سيكدبالادنير، التي لا يسبقها في عرض البحر أي مركب آخر، وحالما تنتشر أشرعتها تتوجه مباشرة إلى المرفأ؛ وكانت من الضخامة بحيث تتسع لجميع الأيسير وعتادهم، ومع ذلك كان فراي قادراً على طيّها وحملها في أحد جيوبه عندما لا تكون له حاجة بها في البحر.

وقع فراي في حب فتاة من العمالقة اسمها غيردا Gerda، ولكنه لم يستطع الزواج منها إلا بعد معركة ضارية مع العمالقة، فقد فيها سيفه العجائبي الذي افتقده خلال الصراع الذي جرى بين الآلهة وأعدائهم.

الآلهة الثانويون

هوينروبراجي وفيداروفالي وأول

يدور في فلك آلهة الأيسير الكبار آلهة ذوو صلاحيات محدودة، لم تنتشر عبادتهم لدى جميع الشعوب الجرمانية، وهم لا يظهرون إلا في الأساطير الإسكندنافية، ولا نملك شواهد تدل على أنهم كانوا معروفين لدى الجرمان الجنوبيين.

لقد ورد اسم هوينر Hoenir في أكثر من أسطورة، فقد كان الرفيق المعتاد لأودين ولوكي في ترحالهما عبر العالم. وفي الأزمنة البدائية لعب دوراً في عملية خلق البشر، وهو الذي نفخ الروح في الزوجين الأولين، إلا أن خصائصه الروحانية هذه لم تكن وحدها السبب في بروزه، فقد كان قوي البنية، وسيم الطلعة، جسوراً في القتال، إلا أنه كان ذا ذكاء محدود. وعندما سلمه الأيسير رهينة إلى الفانير بعد انتهاء الحرب بينهما، حرصوا على أن يرافقه ميمير الحكيم.

وهنالك براغي Bragi إله الشعر الذي كان في الحقيقة إبداعاً متأخراً للمخيلة الإسكندنافية، ويبدو أنه كان شاعراً من القرن التاسع رفع فيما بعد إلى مصاف الآلهة. فقد عاش في القرن التاسع شاعر يدعى براغي باداسون Bragi Badason، كان المبدع لشكل شهير من القصائد الغنائية، ومن الممكن أن هذا الشاعر قد أُلِّه بعد وفاته وصار واحداً من الأيسير. وقبل ظهور براجي في الأساطير كان أودين نفسه هو صاحب شرف تعليم البشر الأغاني والقصائد الموزونة، أما خلال القرنين الأخيرين للأديان الوثنية فإن براغي هو الذي صار سيد الشعراء وملهمهم، وقد قيل بأن الحروف الهجائية كانت منحوتة على لسانه، وهذا قول مجازي يهدف إلى إظهار براعته وتفوقه في فنون الشعر. تصوره الشعراء على هيئة رجل مسن ذي لحية طويلة. تزوج من الإلهة إيدون، وكان شاعر أودين الخاص. وفي الفالهالا أنيطت به مهمة تقديم كأس الترحاب للقادمين الجدد واستقبالهم بعبارات المجاملة، وخلال الولائم كان يروي لضيوف أودين حكايات مشوقة عن العهود الغابرة وعن أصول الشعر الملحمي ومغامرات الآلهة في الحب والحرب.

وهنالك شخصيتان إلهيتان حاول الشعراء أن ينسبوا إليهما بعض الأهمية، ولكنهما بقيا في الظل وهما فيدار Vidar وفالي Vali. كان فيدار واحداً من أبناء أودين، وكانوا يلقبونه بالرأس الصامت، نظراً لقلة حديثه في اجتماعات الآلهة، حتى أنه دعي بالبطيء الفهم، ولكن بساطة هذا الإله لم تمنعه من الفوز في مواقف فشل فيها أكثر الآلهة ذكاءً. وسنرى لاحقاً أن أعظم مآثر حياته كانت عندما فاق أودين بشجاعته وصرع الذئب العملاق فيرنير، وكيف نجا من الحرب الأخيرة التي قادت إلى غروب الآلهة وصار واحداً من آلهة عالم جديد أُعيد خلقه.

وفيما يتعلق بالإله فالي، فإن أخباره قليلة لعل أهمها الدور الذي لعبه في الصراع الذي سبق غروب الآلهة. كان ابناً لأودين، ولم يكن قد بلغ من العمر يوماً واحداً فقط عندما شرع في مهمة الانتقام لبالدر من قاتله هويد، ثم وضع بيديه جثة القاتل على المحرقة الجنائزية.

لم يكن فيدار وفالي إلهين قديمين جداً، لقد ابتكرتهما مخيلة صانعي الأساطير فيما بعد لكي يقوما على خدمة الآلهة الأعظم شأناً، ويس من المؤكد أنهما كانا موضوعاً لعبادة خاصة بهما.

ولكن الأمر يختلف قليلاً مع الإله أُول: فبالرغم من أنه يفي في الظل، إلا أنه قد تمتع بعبادة خاصة دامت لفترة طويلة في بعض أنحاء اسكندنافيا، حتى اعتبره البعض واحداً من الآلهة المهمة في الشمال، ومع ذلك فإنه لم يشغل مكانة تذكر في قصائد قدامى الشعراء الإسكندنافيين. قيل إنه كان ابن سيف زوجة ثور، وبذلك يكون ربيباً لثور. كان صياداً وسيماً بارعاً في التزلج فوق الأرجاء المتجمدة الشاسعة، وقنص الطرائد بسهامه، كما كان على درجة من النبل على درجة أن الأيسير، كما قيل، اختاروه ذات مرة ليحل محل أودين في رئاسة مجمع الآلهة، عندما تقرر نفي أودين من السماوات إثر لجوئه إلى وسائل وضيعة الحصول إلى امرأةٍ رغب فيها، وعندما عاد أودين بعد عشر سنوات قام بطرد أول الذي لجأ إلى السويد حيث صارت له سمعه واسعة في السحر ووسائل. وكان يمتلك قطعة من العظم حفرت عليها كتابات سحرية، كانت من القوة بحيث يستطيع استعمالها كسفينة لعبور البحار.

الإلهات:

لقد تحدث شعراء الملاحم ورُواة القصص الإسكندنافيون عن الآلهة أكثر مما تحدثوا عن الإلهات وربما كان السبب في ذلك هو أن هذا النوع من الأدب كان معداً للرجال أكثر منه للنساء. ففي خاتمة الولائم التي تقام بعد عودة المحاربين من المعارك أو الأسفار البعيدة، كان الشعراء يلقون قصائدهم المليئة بالإشارات الميثولوجية اللائقة بمثل هذه المناسبات، حيث يتم التركيز على الآلهة وأفعالهم بينما تبقى زوجهات الآلهة في خلفية الحدث. ومع ذلك فقد حفلت الديانة التيوتونية بالإلهات اللواتي لا نعرف عن أكثرهن إلا الأسماء فقط، كما أن غالبية الشعوب الجرمانية لم تمارس عبادة هؤلاء الإلهات، هنالك واحدة فقط كانت موضع تبجيل كل القبائل وهي التي دعتها اللغة الجرمانية القديمة فرايغا Frija، والأنكلو ساكسونية فريغ Frig، والنرويجية القديمة فريغ Frigg.

وفي الواقع، فإن الاسم فريجا في حد ذاته ليس إلا صفة صارت إلى اسم متداول تدريجياً، وتعني «المحبوبة بصدق»، وقد ماثل الرومان فريجا بإلهتهم فينوس، وهي مماثلة لقيت قبولاً من الألمان عندما دعوا يوم الجمعة لديهم بيوم فرايتاغ Freitag جرياً على سنة الرومان الذين دعوا اليوم نفسه فينيرس ديس Veneris dies أي يوم فينوس، ويقابله فرايدي Friday في اللغة الإنكليزية وفندردي Vendredi في اللغة الفرنسية. ولكننا لا نعرف الكثير عن دور وخصائص ووظائف هذه الإلهة عند أسلاف الألمان وهنالك احتمال كبير في أن تكون زوجة لوودن (أودين)، ونحن لا نملك أسطورة ألمانية تدور حولها.

وعلى العكس من ذلك فإن الإسكندنافيين يظهرون فريغا ـ فريغ ـ وهي تشارك في مغامرات متعددة، وهي زوجة أودين التي شاركته الحكمة والبصيرة، ولكن يبدو أنها لم تكن تتفق مع أودين حول كل المسائل، الأمر الذي أدى إلى نشوء خلافات بينهما لم تكن هي الخاسرة فيها.

كانت حامية الحياة الزوجية، إلا أنها لم تكن على الصعيد الشخصي مخلصة لعهود زواجها، وقد وهبت نفسها إلى العديد من الآلهة سواء بدايع العبث أم المصلحة الشخصية.

غالباً ما يتم الخلط بين فريغ Frigg ـ فريغا Frja وبين فرايغا Freyja التي لا تنتمي إلى سلالة الأيسير بل إلى سلالة الفانير وكانت أخت الإله فراي. وعلى الرغم من حرص بعض الكتاب النروجيين والأيسلنديين على تمييز فرايغا عن فريغ، إلا أن الخلط بينهما كان كاملاً في العديد من الحالات حتى أنها اعتبرت أيضاً زوجة لأودين. كان لديها في أعالي السماء مسكناً مترفاً يدعى فولكفانغ Folkvang تستقبل فيه الأموات من الأبطال وتخصص لهم مقاعد في قائمة ولائمها، فلقد كان لها الحق في أن تجلب إلى قصيرها نصف المحاربين الذين سقطوا في المعركة في كل مرة ترافق فيها أودين إلى ساحات الوغى. لقد كانت في الحقيقة الأولى بين النساء الخارقات المدعوات بالفالكيريات Valkyries وقائدتهن العليا.

وعلى غرار فريغ، كانت فريغا مغرمة بالحلي والمجوهرات، وقد عاش على مقربة من قصرها أربعة أقزام مشهورين في سبك المعادن داخل كهف جعلوا منه مشغلاً لهم. وفي إحدى زياراتها لهم لفت نظرها عقد بديع من الذهب أوشكوا على الانتهاء من صنعه، فتملكتها رغبة طاغية في الحصول عليه وعرضت عليهم مقابله فضة وذهباً وأشياء أخرى ثمينة، ولكن الأقزام هزئوا من عرضها وأفهموها بأنها لا تستطيع الحصول على العقد إلا إذا أمضت ليلة مع كل منهم. ولم تتردد الإلهة في دفع هذا الثمن، وصار العقد من نصيبها، ولم تنج فريغا الجميلة أيضاً من تودد العمالقة الذين نشدوا وصالها بالرضا أو بالقوة. وقد رأينا سابقاً كيف أن العملاق ثريم طلب يدها من الآلهة مقابل أن يعيد إليهم مطرقة الإله ثور المسروقة. وهنالك رواية عن عملاق آخر وعد الآلهة بقصر عظيم يبنيه لهم مقابل يد فريغا الجميلة.

إن التمييز بين الإلهات الجرمانيات صعب في بعض الأحيان؛ فكما تم الخلط بين فرايغا وفريغ، فقد جرت المماثلة من ناحية أخرى بين فريغا وغفيون Gefjon، أي الوهّابة، وكانت إلهة للخصب تُعبد على وجه الخصوص على جزيرة سيلاند Seeland بالسويد.

غالباً ما يورد الشعراء الإسكندنافيون أسماء زوجهات كبار الآلهة، إلا أنهم قلما يجعلون منهن شخصيات رئيسية في قصائدهم، فإلى جانب فرايغا هنالك سيف زوجة ثورن وإيدون زوجة براجي، وسكادي زوجة فورد وغيردا زوجة فراي.

ولقد بجل أسلاف الألمان إلى جانب فريجا إلهة أخرى اسمها نيرثوس Nerthus، والتي يعطي عنها تاكيتوس بعض التفاصيل في كتابه «جرمانيا»، فقد تكون تمثيلاً للأرض، أو إلهة للخصب بشكل عام لأن احتفالاتها كانت تجري في الربيع. وقد كُرست لها غابة مقدسة تقع في وسط البحر، حيث يجري الاحتفاظ بمركبتها التي لا يقترب منها سوى الكاهن الذي يستطيع تمييز اللحظة التي تكون فيها الآلهة حاضرة في حرمها، فيتم عند ذلك شد الثيران إلى مركبتها لأخذ الإلهة الخفية في جولة حول الجزيرة ضمن طقوس رصينة. ويستمر الأمر على هذا المنوال حتى يعلن الكاهن أن الإلهة لم تعد راغبة في التواجد بين البشر، فيقوم بمواكبتها إلى حرمها من جديد. وبعد ذلك يتم غطس العربة وزينتها وتمثال الإلهة نفسه في الماء لغرض التطهير. أما العبيد الذين قاموا بخدمة هذه الشعائر فيتم قتلهم غرقاً، لأنه لا يحق لأي كائن حي سوى الكاهن أن يتباهى بأنه قد اخترق أسرار حرم الإلهة.

ولكن هذه الألوهة المؤنثة عند الألمان قد تحولت إلى ألوهة مذكرة عند الإسكندنافيين متمثلة في الإله نيورد الذي تحدثنا عنه سابقاً. ومن المحتمل أن يكون الإله الذي سبق كلاً من نيورد ونيرثوس إلهاً مزدوج الجنس عُبد كتجسيد للإخصاب في قديم الأزمان.

وكما كان للسماء الوضاءة إلهاتها، كذلك كان للعالم السفلي آلهته أيضاً، فلقد آمنت الشعوب الجرمانية، وعلى غرار اليونانيين والرومان، بوجود عالم سفلي تقطنه أرواح الموتى بعد مفارقتها الأجساد، ولكنهم لم يعتبروا هذا المكان داراً للعقاب إلا بعد اعتناقهم المسيحية. لا نعرف ما إذا كان الألمان قد جسدوا العالم السفلي في صورة إله أو إلهة، لكننا نعرف حق المعرفة أن الإسكندنافيين فعلوا ذلك، وقد غدت كلمة هيل Hel التي كانت في البداية تدل على العالم الأسفل كمكان، اسماً لإلهة اعتبرت سيدة العالم الأسفل المطلقة.

إن الأساطير التي تدور حول الإلهة هيل ليست بالكثيرة، وهي تعود بتاريخها إلى الفترة التي كانت فيها البلاد الشمالية قد غيرت ديانتها، ولذا فإنها تحمل سمة واضحة من المسيحية. وقد قيل إنها كانت ابنة لوكي الذي تمت مطابقته مع الشيطان المسيحي لوسيفر الذي كان على صلة وثيقة بالجحيم، ترعرعت في أرض العمالقة مع الذئب فيرنير والأفعى الهائلة ميدغارد، وقال البعض بأنها كانت شقيقة لهذين الشيطانين. كان فيها شيء غريب ومخيف إلى درجة الفظاعة، فقد كان رأسها يتدلى أمامها، ووجهها نصفه يشبه البشر أما النصف الآخر فلا يوجد فيه أيّ ملامح على الإطلاق، بهذه الهيئة كانت تتقدم لاستقبال الموتى من الأبطال وحتى من الآلهة أنفسهم عندما يهبطون إلى عالمها الذي لم تكن الحياة فيه مختلفة كثيراً عن الحياة الأولى. وفي الحقيقة فإنه لم يكن لهيل دور آخر يزيد عن ترؤس حفلات الاستقبال هذه، فقد كانت بالدرجة الأولى من ابتكار مخيلة الشعراء المحنكين أكثر من كونها شخصية ميثولوجية تتمتع بعبادة شعبية أصيلة. وكملكة لعالم الظلال فقد بقيت هي نفسها شخصية غامضة ومبهمة، ولم تتقاطع حياتها مع حيوات الآلهة الآخرين.

غروب الآلهة

دمار العالم وبعثه من جديد

لم يعتقد التيوتون ببقاء العالم إلى الأبد ولا بخلود آلهة هذا العالم الذين ناضلوا بلا هوادة ضد أعداء كان طبعهم الخداع والحسد. ولكي يحافظوا على تفوقهم على هؤلاء الأعداء والأشرار، كان عليهم اتخاذ الحذر دوماً والحراسة الدائمة والسهر. وكما ذكرنا سابقاً فقد جرى تعيين أحدهم وهو هايمدال حارساً على الجسر بيفروست الذي كان بوابة الوصول الإيسغارد، إلا أن كل هذه الاحتياطات لم تجد نفعاً في النهاية وسقط الآلهة هم وأعداؤهم معاً صرعى الحرب الأخيرة التي نشبت بينهم، ومعهم أنهار العالم الذي طالما صانوه ودافعوا عنه. وقد أُطلقت تسمية غوتر دوميرونغ Goter Dormmerong، أي غروب الآلهة، على هذه الكارثة التي تسردها بقوة وإيجاز واحدة من أروع قصائد الإيدا وتدعى فولوسبا Voluspa.

لقد عاش الآلهة منذ فجر الزمان حياة هنيئة في قصورهم داخل الإيسغارد، وكان من الممكن لهذا العصر الذهبي أن يستمر لولا أن الآلهة أنفسهم قد جلبوا المصائب على أنفسهم بارتكابهم عدداً من الآثام كان من أهمها جريمة تعذيب غولفيغ رسولة الفانير إليهم لكي ينتزعوا منها ذهبها، ثم خيانتهم للوعد الذي أعطوه للعملاق الذي أعاد بناء مساكنهم السماوية بإعطائه فريغا الجميلة زوجة له، وسمحوا للوكي بأن يخدعه بحيلة قذرة عندما جاء وقت الوفاء بالوعد. فمنذ ذلك الوقت أخذت جميع أنواع القسم والمعاهدات التي تبرم في العالم تفقد مصداقيتها، وساد عهد جديد يتسم بالرياء والعنف والحروب، وباتت الضغينة والأحقاد تتملك البشر والآلهة والعمالقة، والفالكيرات يجبن أنحاء العالم وهن يطرن من معركة على أخرى، وراحت الكوابيس تقض مضاجع الأيسير. كان أودين يراقب بقلق نذر الشؤم وهي تتزايد، وأدرك بأن المعركة الكبيرة قد باتت على الأبواب، فوطد لها العزم بهدوء وأعد العدة لها.

كان مقتل بالدر بداية للكارثة الكبرى، فلقد أقسم الأيسير أمام جثته على الانتقام له. لقد عرفوا بأن لوكي هو الذي قام بتسليح وإرشاد قاتل بالدر الأعمى، فأمسكوا بلوكي ووضعوا الأصفاد في يديه، ولكنه حطم أصفاده وانضم إلى أعداء الأيسير من العمالقة والعفاريات، وقاتل في صفوفهم ضد من كانوا رفاقه السابقين.

في هذه الأثناء تزايدت نذر الشؤم. ففي غابة نائية في الشرق أنجبت عملاقة إلى العالم قطيعاً كاملاً من الذئاب اليافعين من سلالة الذئب فيرنير، فقام أحدهم بمطاردة الشمس وأفلح أخيراً في إطفاء أشعتها واحداً تلو الآخر، فاتخذت لوناً أحمر كالدم لفترة ثم ما لبثت أن انطفأت وسادت أعوام مديدة من الشتاء القارس الذي هاجمت عواصفه الثلجية العالم من كل حدب وصوب. وترافق هذا مع اندلاع الحروب في كل مكان وراح الأخ يذبح أخاه، وتنكر الأولاد لروابط الدم، وتحول البشر إلى ذئاب متعطشة إلى الفتك ببعضهم، وصار العالم على حافة هاوية العدم. وعدم تخوم مملكة العمالقة جلس حارسها إيغثر Eggther يراقب مملكة الآلهة ومملكة البشر على حد سواء، وقرب بالنهر الذي يحيط بالعالم السفلي راح غارم كلب العالم الأسفل الشرس ينبح بغضب منادياً أولئك

الذين أوكل بحراستهم أن يهبوا للقتال. وفي الجنوب حيث تبدأ أرض عمالقة النار رفع سورت Surt ملك تلك البلاد إلى الأعلى سيفه المتقد.

عند حافة السماء اتخذ هايمدال حارس مملكة الآلهة موقعه، لم يكن أحد في العالم يملك بصراً حاداً أو سمعاً مرهفاً مثله، وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع لوكي أن يسرق سيفه، ولم يبدأ بنفخ بوقه إلا بعد أن باشر العمالقة زحفهم. أما الذئب المقيد فيرنير فقد حطم أغلاله ولاذ بالفرار، فارتجت الأرض واهتزت شجرة الإيغدراسيل الهرمة، وانهارت الجبال منشطرة من أعلى قممها إلى جذورها، وتاه الأقزام من ساكنيها عن مداخل بيوتهم.

ومن الغرب جاء العملاق هريم منتصباً في شموخ على متن سفينة طاقمها من الأشباح، رافعاً ترسه بيسراه بينما تقبض يمناه على دفة سفينته التي تمخر عباب الأمواج العاتية التي يثيرها الأفعوان ميدغارد وهو يجلد المياه بذيله أثناء اندفاعه المحموم.

ومن الشمال جاءت سفينة أخرى تنفخ الريح في أشرعتها، وهي تحمل سكان العالم السفلي الذي تم إطلاق سراحهم، ويقودها لوكي الذي رافقه الذئب فيرنير فاغراً فاه الذي يصل بين السماء والأرض وتتساقط منه قطرات الدم.

ومن الجنوب ظهر سورت يتبعه عدد لا يحصى من عمالقة النار، يومض البرق من سيفه وتحيط به ألسنة اللهب المتصاعدة من شقوق الأرض المتصدعة. وعندما اقترب انهارت الصخور وارتجت قبة السماء من جلبة هذا الجيش الزاحف ومن حرارة الأتون السفلي فانشطرت إلى نصفين، وعندما قام عمالقة النار بعبور جسر قوس قزح الذي يصل بين عالم البشر وعالم الآلهة، شبت فيه ألسنة اللهب وغار سحيقاً.

ووفق الأعراف الجرمانية القديمة، فقد اتفقت الجيوش المتحاربة على ميدان معركتهم واختار الجميع حقل فيغريد Vigrid الذي يمتد أمامه فالهالا، ويشكل مربعاً طول ضلعه ألف فرسخ. في هذا المكان التحم الآلهة والعمالقة ومعهم عدد لا يحصى من المحاربين ونكلوا ببعضهم البعض شر تنكيل.

كان أودين يعتمر خوذة ذهبية مزودة بجناحي عقاب ضخمين، ويمسك بقبضته الرمح القاطع يونغنير، وهو يندفع مثل البركان في مقدمة محاربيه الذين تدفقوا كسيل لا ينقطع من بوابات الفالهالا، وقد تطاير من حوله حشد من الفالكيرات المجنحات على صهوات جياد باهرة الضياء، وعندما لمح أودين الذئب فيرنير هاجمه شاهراً بسيفه، إلا أن الوحش فغر فاه وابتلع أبا الآلهة على التو، وهكذا كان أودين أول من سقط في هذه المعركة الضارية، وعندما رأت زوجته فريغ ما حدث كاد أن يغمى عليها من شدة الحزن لولا أن رأت فيدار ابن أودين يتجه غير هياب نحو الذئب، فثبت فكه الأسفل إلى الأرض ورفع فكه الأعلى نحو السماء ثم غيب نصل سيفه عمقاً في حنجرته فنفذ إلى قلب فيرنير.

في هذه الأثناء، وجد فراي، الفانير المتألق، نفسه أمام سورت زعيم عمالقة النار. لقد كان بإمكان فراي القضاء على خصمه بسهولة لو أنه ما زال يملك السيف العجائبي الذي صنعه له الأقزام، أما الآن فإن ذلك السيف كان في يد سورت الذي انقض على فراي وصرعه.

أما ثور فقد رأى أمامه خصمه القديم الأعوان ميدغارد الذي غادر مقره المائي وراح يزحف نحو إله الرعد وهو ينفث سماً كفيلاً بتلويث البحر والهواء معاً، ولكن ثور هوى بمطرقته على رأسه فسحقها، وسقط ميدغارد وهو يعاني سكرات الموت، ولكن ثور كان قد تنشق الكثير من السم الذي نفثه ميدغارد، فمشى مترنحاً بضع خطوات ثم سقط ميتاً.

كان لوكي يضمر الشر لهايمدال منذ أن أجبره على إعادة العقد الذي سرقه من فريغا، وما أن اشتملت الحرب حتى راح يبحث عن خصمه القديم حتى وجده وقتله، ولكنه ما لبث أن توفي متأثراً بجراحه.

لم يبق من الأيسير على قيد الحياة إلا تير الذي جاب ميدان المعركة بحثاً عن الذئب فيرنير الذي كان قد قضم يده اليمنى ذات مرة، ولكن فيدار كان قد سبقه إلى القضاء على هذا الخصم القديم، فالتفت إلى كلب الجحيم جارم الذي كان ينبح خلفه واشتبك معه في صراع مخيف ثم أغمد سيفه في قلبه، ولكن جراح جارم كانت بليغة فأودت بحياته أيضاً.

لقد مات جميع الآلهة الكبار، وبما أن ثور حامي الجنس البشري قد اختفى معهم، فقد تُرك البشر لمصيرهم وتم محوهم عن وجه الأرض، أما الأرض نفسها فقد بدأت تفقد شكلها، وراحت النجوم تهوي من السماء على غير هدى لتسقط في الأمواج مثل قطيع سنونو أرهقه الترحال الطويل، ثم قام العملاق سورت بإضرام النار في الأرض برمتها وتحول كل شيء إلى أتون هائل، وأبيدت كل الكائنات الحية وجميع أنواع الحياة النباتية. عند ذلك ارتفع منسوب المياه في الأنهار والبحار وابتلعت الأرض التي غارت نحو الأعماق، واختفى الحقل الشاسع الذي كان ميدان المعركة التي تصادم على أرضها سادة الكون، لقد انتهى كل شيء.

ولكن دورة حياة جديدة كانت على وشك أن تبدأ، ومن حطام العالم القديم كان عالم جديد يتحفز للظهور، وهكذا أخذت الأرض على مهل تظهر من تحت الأمواج، وارتفعت الجبال ثانية لتنبع منها جداول رقراقة المياه، وفي الأعالي عاد العُقاب يحلق من جديد مستعداً للانقضاض على الأسماك التي تلعب في المياه، ومثلما كان في الماضي فقد اكتسبت الحقول بالنباتات الخضراء، ونمت سنابل في بقاع لم تبذرها يد بشر. وظهر شمس هو ابن الشمس الذي التهمه ذئب فيما مضى، ونشر أشعته الصافية في السماء.

ثم ظهر جيل جديد من الآلهة لا تربطهم أيّ صلة بآلهة العالم القديم، لقد كانوا موجودين سابقاً، ولكنهم لم يشاطروا الآلهة السابقين رغباتهم ونزاعاتهم، ولم يحنثوا بالعهود والمواثيق ولا ارتكبوا الخطايا، فظلوا على قيد الحياة، ولهم حُفظت مهمة تجديد العالم.

كما أن إلهاً واحداً قد بعث من الموت وهو بالدر، أوسم آلهة الأيام السالفة والمقرب إليهم جميعاً وبعد أن عاد إلى الحياة تبوأ برفقة أخيه هويد صدارة قاعة الاحتفالات الكبرى حيث جلس أودين ذات يوم. أما أودين نفسه فلم يكن مقدراً له أن يعود، ولكن اثنان من أبنائه هما فيداروفالي، ومعهما اثنان من أبناء أشقائه هما فيلي وفيي، أصبحوا من سكان السماء، وقد بقي على قيد الحياة هوينير رفيق أودين المخلص، الذي أخذ يتمعن في أسرار الحروف السحرية المنقوشة

على العصي وينفذ إلى غياهب المستقبل لكي يطلع السلالة الجديدة على السعادة التي تنتظرهم. وجاء أيضاً اثنان من أبناء ثور وهما ماغني وموددي ليكتمل بهما مجمع آلهة التيوتون الجديد.

كما عاد البشر إلى الظهور أيضاً، بعد أن اختبأت قلة منهم في خشب شجرة الإيغدراسيل التي قاومت حرق العالم، وكانت تتغذى على ندى الصباح وقد صار هؤلاء أسلاف الجيل الجديد من البشر.

الأرواح والعفاريت والجن والعمالقة:

لقد آمن التيوتون بأن الأرض مأهولة بأصناف عديدة من المخلوقات ذات الطبيعة الخارقة وسوف نعدد فيما يلي الأصناف الرئيسية من هذه الكائنات الغامضة.

الأرواح:

كان الجرمان في جميع مناطقهم يكنون الخوف والتبجيل لأرواح الموتى، ويعتقدون بامتلاكها لقوى سحرية خارقة، ولهذا فقد عمدوا أحياناً إلى دفن موتاهم تحت عتبة البيت لكي تبقى روح المتوفى بمثابة الروح الحارسة للبيت وسكانه من الأحياء، كما اعتقدوا بأن الروح يمكن أن تظهر من حين لآخر إما بالشكل القديم لصاحبها أو بشكل حيوان، ويحدث أحياناً أن هذه الأرواح تجعل الأحياء يدفعون ثمن جرائم ارتكبوها، كما حدث مع الأسقف الشرير هاتو Hatto الذي طاردته أرواح ضحاياه على شكل مجموعة كبيرة من الفئران والتهمته حياً.

وعلى نقيض ذلك، فقد ساد الاعتقاد في بعض المناطق بان أرواح الموتى كانت تتواجد في مناطق بعيدة عن أماكن سكن الأحياء، ومن هنا جاءت فكرة المطاردة الوحشية التي تقول بأن ألوفاً من أشباح الموتى يقومون على صهوات مطايا أثيرية بسباق محموم يتقدمهم قائدهم العفريت وود Wode، وهو مسخ عن الإله وودين، وكان يمكن ملاحظة هذا السباق الصاخب بين غيوم العواصف.

في اسكندنافيا كان يعهد بأرواح المحاربين عموماً إلى الفالهالا أو إلى قصور آلهة آخرين، أما في ألمانيا فقد ساد الاعتقاد لبعض الوقت بأن مقر الأرواح كان يقع في الغرب عند المكان الذي تغطس فيه الشمس في البحر، ولهذا فقد اعتبرت بعض القبائل الجرمانية أن بريطانيا هي المأوى الأخير للأموات. ويروي المؤرخ بروكوبيوس Procopius، بأنه على الساحل المقابل لبريطانيا هنالك قرى خضعت لحكم الفرانك ولكن الجزية لم تُفرض على أهلها لأنهم كانوا موكلين بحمل أرواح الموتى إلى الجهة الأخرى من القنال.

فعندما يقترب منتصف الليل كان يقرع على أبوابهم كائن خفي ويستدعيهم للعمل، فينهضون على الفور وينزلون إلى الشاطئ وكأن قوة قسرية مبهمة تدفعهم، وهناك يجدون بانتظارهم سفناً غامضة جاهزة للإبحار ليست ملكاً لأحد من أهل القرية، وعلى الرغم من أنها تبدو للوهلة الأولى خالية، إلا أنهم ما أن يصعدوا إلى متنها ويمسكوا بالمجاديف حتى يلاحظوا أن السفن مكتظة على درجة أنها تنزل في الماء حتى الحواف، وعندما يصلون إلى الشاطئ البعيد المقابل، في سرعة هائلة لا تتوفر لهم في الأحوال العادية، حتى تبدو السفن وكأنها فرغت فجأة من حمولتها؛ وعلى الرغم من عدم رؤيتهم لأي من المسافرين إلا أنهم كانوا يسمعون صوتاً ينادي بالأسماء والمراتب والمواطن الأصلية للقادمين الجدد.

وقد ساد الاعتقاد بإمكانية مغادرة أرواح الأحياء أجسادهم لتتخذ لها وجوداً شبه مستقل لفترة من الزمن. غير أن التمييز الذي وضعه الجرمان بين الروح والجسد لا يتفق تماماً مع مفهوم المسيحية عن هذين العنصرين في الطبيعة الإنسانية، فالروح في المسيحية من طبيعة غير مادية وغير محسوسة كلياً، أما تلك «الذات الثانية» التي آمن الجرمان بوجودها لدى جميع البشر، فتستطيع أن تمارس وظائف الجسد وتتكلم وتتحرك وحتى أن تظهر على هيئة كائن بشري أو هيئة حيوان.

أطلق الإسكندنافيون على هذه الذات نصف المادية اسم فيلكيا Fylkgja، والكلمة تعني بشكل تقريبي «التابع»، أو «الآخر». وكانوا يعتقدون أن الأحلام التي يراها النائم تنتج عن مفارقة هذا التابع وتجواله بحرية خارج الجسد. ولكن

على الرغم من هذه الحرية المحدودة التي يتمتع بها التابع، إلا أنه يلاقي مصير الجسد نفسه إذا تعرض للموت، وقد توصل التيوتون تدريجياً إلى اعتبار التابع كائناً مستقلاً على شكل عفريت لا تربطه صلة بأي شخص محدد، وربما مثل شكلاً من أشكال أرواح الأسلاف، ومن حيث الشكل كان على هيئة امرأة مسلحة تسابق الريح على صهوة حصان، وعلى الرغم من أن هؤلاء التوابع كانوا في الأصل أرواحاً حامية، إلا أنهم بدؤوا يصبحون مصدر خوف باعتبارهم عفاريت مؤذية، وذلك مع بدايات الديانة المسيحية.

إلهات القدر والفالكيرات:

وهنالك أرواح أخرى غالباً ما كانت تتدخل في حياة البشر ولها القدرة على إجراء تحولات في مصائرهم، وهن على الغالب نساء حكيمات عرفهن الإسكندنافيون باسم النورن (أو النورنات) Norns (أي إلهات القدر)، وهو الاسم الذي اشتُهرن به لدى جميع الشعوب الجرمانية. وقد جرى الاعتقاد بأنهن غزّالات يمسكهن بأصابعهن خيوط القدر ويملكهن القدرة على تحديد مصير كل فرد، بما في ذلك الآلهة أنفسهم الذين لم يكونوا بمنجاة من سطوة القدر.

يبدو أنه كان في البداية شخصية إلهية واحدة موكلة بالقدر وتوزيع المصائر، ذلك أن الكلمة التي تدل على المصير في اللهجة الألمانية هي Wurd وفي الأنجلو ساكسونية Wyrd، وفي الإسكندنافية القديمة Urdr، وقد تحولت هذه الكلمة إلى اسم علم لإلهة ما كانت عادلة وصلبة في آن معاً، إلا أن هذه النورن الأولى سرعان ما أصبح لديها أخوات توزعن فيما بينهن أسباب تعاسة الإنسان وسعادته. ولا ريب في أن هذه الألوهيات القديمة المعنية بالقدر هي وراء فكرة الجنيات اللواتي يظهرن في القصص واقفات قرب سرير المولود الجديد لمنحه أقداراً طيبة أو تلاوة لعنات تلاحقه طوال حياته.

من الصعوبة أن نعرف متى أصبح عدد النورنات ثلاثة في البلاد الإسكندنافية: الأولى منهن كانت العجوز أورد Urd، أي القدر، وكان هناك نبع يحمل اسمها قرب أحد جذور شجرة الإيغدارسيل حيث تتواجد النورنات

الثلاث عادة لكي يقمن برش الماء على الشجرة العملاقة من مياه الينوع، وتقول بعض الوثائق بان رفيقتي أورد حملتا اسم فيرداندي Verdandi واسم سكولدر Skuld، وقد فسرهما الباحثون الأيسلنديون في العصور الوسطى بأنهما يدلان على الحاضر والمستقبل، مما يعني أن أورد كانت تمثل الماضي. ومن الممكن أن هذا التفسير قد تأثر بمعرفة هؤلاء الباحثين للميثولوجيا اليونانية التي أثرت أيضاً على ما يبدو على جعل النورنات ثلاثاً، وذلك تماشياً مع عدد ربات الأقدار اليونانية.

ولقد كانت الفالكيرات أيضاً توزع الأقدار، إلا أن مجال سلطتهن كان مقتصراً على المحاربين، فكن يمنحن النصر لهذا الجانب أو لذاك في ساحة المعركة ويشاركن في القتال أيضاً. وقد اعتاد الشعراء على تمثيل الفالكيرات كإلهات يعتمرن خوذات ويمسكن برماح يتوجها اللهب، على صهوات مطايا طائرة تتساقط من شعر أعناقها قطرات الندى إلى قلب الوديان، أو حبات البرد فوق الغابات وقد جرى تصويرهن أيضاً على شكل عذارى يرتدين ريش البجع ويطرن في الهواء. كانت هذه المخلوقات الغريبة الفاتنة تمتع نفسها بارتياد البحيرات وبرك المياه في الغابات المنعزلة، وكن يستطعن أن ينزعن عنهن ريش البجع ليظهرن بهيئة بشرية متى رغبن في ذلك، فإذا تمكن إنسان من سرقة ريشهن فسيكون عليهن إطاعة مشيئته.

وهنالك أكثر من قصة عن بطل سرقة ريش فالكيرة أو أكثر، ومنها قصة الفالكيرة برينهليد Brynhilt التي خلدها الموسيقار فاغنر في الدراما الموسقية المعروفة بهذا الاسم، فعندما كانت يرينهيلد تطير مع ثمانية من أخواتها على مبعدة من فالهالا، شعرن بالتعب فهبطن ونزعن الريش عنهن، عندما اقترب الملك أغنار وسرق ريش برينهيلد وخبأه تحت شجرة سنديان، فصارت برينهيلد تحت سيطرته، فأمرها أن تساعده في الحرب التي كان يشنها ضد عدوه القديم هيالميونار Hjalmjunar، وأن تعمل أيضاً على أن يقتل عدوه هذا في المعركة، ولكن هيالميونار كان تحت حماية أودين الذي قرر أن يمنحه النصر، وعندما لم تتحقق مشيئته غضب على الفالكيرة برينهيلد ورماها بشوكة كانت تسبب لمن

تصيبه النوم العميق، ثم أخذها ووضعها في قصر تحيط به ألسنة اللهب الدائمة الاشتعال ومنذ ذلك الحين لن تعود برينهيلد إلى الفالهالا لأنها جردت من كل مزايا الألوهية وحُكم عليها بالحياة الدنيوية، أما الرجل الوحيد الذي يقدر على إيقاظها والزواج منها فهو البطل الجريء الذي سيستطيع على ظهر حصانه اختراق ألسنة اللهب التي تفصلها عن العالم، وكان ذلك البطل هو سيغورد Sigurd (أو سيغفريد كما يدعوه الألمان Seigfried).

الجن والأقزام:

لم يكن هنالك في الطبيعة بقعة تخلو من الأرواح التي لعبت دوراً مهماً في الميثولوجيا التيوتونية كان صغير الحجم، أو على الأكثر بحجم القامة الإنسانية، وتطلق عليهم التسمية العامة للجن «إلف Elves». وكان الرأي السائد بأن هؤلاء الجن كانوا مخلوقات أكثر وسامة وأحسن هيئة من بني البشر، وينتظمون في مجتمعات على غرار البشر ويحكم عليهم ملوك مخلصون، كما كانوا مغرمين باللهو والرقص، وقد يمضون الليل بطوله وهم يرقصون. فإذا طلع النهار اختفوا لأنهم يخافون من ضوء الشمس ويتجنبون أعين البشر. ولكن إذا تصادف مرور أحد من البشر بالبقعة التي يرقصون فيها تحت ضوء القمر، فإنه يعجز عن أن يرفع بصره عن وجوه صبايا الجن لأن جمالهن يسلب اللب، فإذا شعر أحد بوجوده، أو سولت له نفسه المشاركة في الرقص صار في عداد المفقودين، لهذا لا يوجد شهود عيان على حفلاتهم الراقصة، إلا أن آثار أقدامهم كانت تظهر على الأعشاب الندية في الصباح لقد كانوا مخلوقات حكيمة وماهرة ويعرفون ما يكنه المستقبل.

أما عن الأقزام، فهم صنف خاص من الجن؛ كانوا صغار الحجم ويعيشون في أماكن خفية تقع عادة في كهوف الجبال وتحت سطح الأرض. وقد تمتعوا بذكاء حاد وبصيرة نافذة، ولكنهم على عكس الجن لم يكونوا حسني الطلعة، وهم في معظم الأحيان ذوو ظهور محدودبة وهيئات مشوهة، برؤوس ضخمة ووجوه شاحبة ولحى طويلة. وقد قيل بأن عمال المناجم غالباً ما لقوا الأقزام في الأنفاق التي يحفرونها تحت الجبال، وكانوا يرتدون زي عمال المناجم نفسه

ويحملون المشاعل والفؤوس والمعاول، فلقد كانوا ماهرين في أعمال المناجم والتعدين، وهم في ذلك أكثر براعة من البشر ولا يرتادون إلا الأماكن التي تكتنز فيها المعادن النفيسة. ولقد كانوا المالكين الحقيقيين للكنوز الدفينة تحت الأرض ولكل الذهب والأحجار الكريمة المكنوزة هناك. من هنا فقد كانوا الجنس الأمهر في صياغة الذهب وصناعة الحلي من المجوهرات وغيرها، وفي الحدادة وصناعة الأسلحة وما إليها، وإليهم يدين أودين بصناعة رمحه يونغيرا الذي لا يحيد عن هدفه، وصياغة خاتم دروبنير الذي يزيد ثروة صاحبه بلا حدود، ومن الأقزام أيضاً حصل ثور على مطرقته، وفراي على خنزيره الذهبي وقاربه السحري، وحصلت سيف على أقفالها الذهبية، وفريغا على عقدها الجميل.

ومن أنواع الجن أيضاً لدينا جن الينابيع والأنهار الذين كانوا يتخذون عادة هيئات بشرية وأكثر أنواعهم شهرة هم النيكسيس Nixies، الذين يعيشون في الماء على هيئة رجال ونساء نصفهم الأسفل على شكل السمكة. كانت نساؤهم فائقات الجمال يجلسن تحت أشعة الشمس لتمشيط شعورهن الذهبية على ضفاف النهر. وقد تقع إحداهن في حب شاب من البشر فتستدرجه إلى أعماق المياه ولا يعود إلى الظهور أبداً. وقد حدث لمن شاهدهن أو سمع غناءهن الشجي أن فقد قواه العقلية، لقد كان هؤلاء كائنات مؤذية تستمتع بإلحاق الأذى بالبشر.

وهناك نوع من الجن الذين استقروا في منازل البشر كأرواح أليفة يدعون الكوبولد Kobolds؛ كان لهم هيئة بشر عجائز ذوي وجوه متغضنة يعتمرون قلنسوات مدببة، ويترددون على الحظائر والإسطبلات والأقبية بغية أن يكونوا ذوي منفعة في أرجاء المنزل، فيجلبون الماء ويحتطبون ويطمعون القطيع ويمشطون شعر الأحصنة. ولقد كان الكوبولدز يجلبون الحظ السعيد للمنزل الذي يأويهم، ولم يكن واحدهم يطلب إلا القليل في مقابل خدماته، وهو بعض الحليب وفتات من مائدة العشاء. وكان على الخادمة ألا تتناسى حصته وإلا فإن ذلك المخلوق الصغير سيسعى للانتقام منها فتحرق أصابعها بالماء الساخن أو تكسر آنية أو تتعثر في أعمالها، وعندها سوف تسمع ضحكة الكوبولد المتشفية صادرة من زاوية ما.

وأخيراً هناك أرواح تقطن الحقول والغابات، وكان بإمكان الحطابين والصيادين رؤيتها بين الأجمات والأشجار المتشابكة، وكانت هيئات هذه الأرواح من ذكور وإناث مستمدة من البيئة التي يعيشون فيها، فأجسادهم المشعرة تكسوها الطحالب، ووجهوهم متجعدة كما هو لحاء الأشجار، وكانوا ذوي فائدة ونفع، إذ أنهم عرفوا الخصائص السرية للأعشاب، ويستفيدون منها للحد من انتشار الأمراض. ولكنهم قد يتخذون هيئة الحشرات والعث والديدان فينشرون الأمراض بين البشر.

وتتخذ أرواح الحقول المزروعة هيئات الحيوانات، وكان حفيف سنابل القمح الناضجة أثناء هبوب الرياح يعزى إلى عبور حيوان خفي من أرواح الحقول، مثل «ذئب القمح»، أو «كلب الزيوان»، وكان القمح نفسه يعتبر بمثابة جسد لروح القمح مثلما إن الشجرة هي تجسيد لروح الشجرة.

وكانوا يقولون بأن ذئب القمح (أو روحه) كان يتوارى في ذلك الجزء من الحقل الذي لم تحصد سنابله بعد، هارباً من مناجل الحصادين أثناء الحصاد، إلا أن الحصادين ما يلبثون حتى يأخذوه سجيناً في آخر حزمة قمح محصودة، ثم يؤدون تمثيل عملية قتله بواسطة المنجل، وفي مناطق أخرى يتم نقل القمح في الحزمة الأخيرة التي تعقد على شكل «فزاعة الحقل» (أو خيال المآتة)، وينقل إلى القرية باحترام حيث يوضع في الأعلى من بقية الحزم.

العمالقة:

هنالك عدة وجوه شبه بين العمالقة وبين كل أنواع الجن والأقزام من حيث أدوارها والقدرات المعزوة إليها، ولعل الاختلاف الوحيد يكمن في الحجم فقط، ومثل الأقزام فقد كان العمالقة ودودين أحياناً وعدوانيين في أحيان أخرى، وإن الرعب الذي يثيرونه حولهم وما ينسب إليهم من طبع ميال إلى الأذى، ليجد تفسيره في أصولهم، فقد كانوا في الحقيقة تجسيداً للظواهر الطبيعية الكبرى مثل أعاصير الشتاء وثورات البراكين والزلازل وما شابه ذلك.

كان العمالقة، كما رأينا في البداية، أول الكائنات الحية التي ظهرت على وجه الأرض، وجميع الأرواح بما في ذلك الآلهة أنفسهم، وقد ظل في طباعهم وهيئاتهم شيء من شراسة ووحشية ذلك الزمنم البدئي الذي انبثقت فيه الأرض من الهوة الجليدية، وقد عرفوا بالاسم الإسكندنافي ترول Troll ـ أي الجبابرة.

وكشأن الأقزام أيضاً، فقد انتشروا في أرجاء الطبيعية، وكان بالإمكان مشاهدتهم ضمن الغيوم الداكنة التي تدفعها رياح العواصف، وهم الذين يرسلون حبات البرد التي تتساقط فوق الحقول الجاهزة للحصاد، ويمكن سماع أصواتهم عندما يزمجر الرعد في الأعالي. وإذا تدافعت الغيوم في السماء فإن عملاقاً ما كان يطارد فتاة جميلة ليحظى بها بالقوة، هؤلاء العمالقة القريبين من جنس الآلهة لم يترددوا في تحديهم، ونحن نتذكر الطريقة الوقحة التي اتبعها العملاق ثريم في سرقة مطرقة الإله ثور، وهنالك قصة تروي كيف استدرج العملاق جيرود الإله ثور إلى قلعته وتحداه إلى مباراة من نوع غريب أملاً في وضعه تحت رحمته فقد قام جيرود بالتقاط كتلة من الحديد المتوهج من أحد المواقد في القاعة الكبيرة، وكان على المتباريين أن يقذفاها لبعضهما بالتناوب. ابتدأ جيرود القذف مستخدماً ملقطاً ضخماً، ولكن ثور التقط الكرة الملتهبة بقفازيه وأعادها بقوة هائلة إلى خصمه الذي اختبأ بوثبة واحدة خلف عمود من الحديد، إلا أن قوة اندفاع القذيفة جعلت المبنى كله يهتز، واخترقت الكتلة العمود الحديدة وجسد العملاق ثم جدار القلعة قبل أن تغوص في باطن الأرض، أن الرمزية الكامنة وراء هذه القصة تشير إلى أن العملاق والإله قد تبادلا قذف الصواعق، ولكن العملاق على الرغم من قوته لا يستطيع الصمود أمام إله الرعد.

هنالك عمالقة آخرون سكنوا في الجبال، وفي ألمانيا أبقت سيرة النبيلونجينليد Nibelungenlied على أخبار عشرة عمالقة كانوا يعيشون وسط جبال مقفرة ويتلقون أوامرهم من الملكين نيجيلونغ Nigelung وشيبونغ Schibung، ويقال أن أصوات الزمجرة التي تأتي أحياناً من أعماق الممرات الضقة، وانهيار القمم وحدوث الفيضانات، أمور يحدثها عمالقة غاضبون.

وهنالك عمالقة في البحر، مثلما هي النيكسات في الأنهر كما رأينا سابقاً. وقد خصت الأسطورة الإسكندنافية مكانة مميزة للعملاق إيجير Aegir سيد البحر، وعلى الرغم من أن مكانة هذا العملاق لم تضاه مكانة أي من الآلهة، إلا أن علاقته مع الأيسير كانت ودية، فقد تمتع بترحيب دائم في ولائمهم، كما كان بدوره يستضيفهم في قصره البحري، أما قاعدته الكبرى في ذلك القصر فلم تكن بحاجة إلى الإضاءة لأن الذهب الذي يزخرفها ينشر ضياءً ساطعاً. فلقد اعتقد التيوتون بأن الكنوز التي كان البحر يبتلعها من حطام السفن كان تتكون أكداساً في قصر إيجير.

وكان لإيجير زوجة تدعى ران Ran عندها شبكة صيد ضخمة تعمل بواسطتها على اصطياد كل رجل يغامر بركوب البحر، وهي التي تثير الأمواج للإيقاع بالسفن إن الرعب الذي أثارته هذه العملاقة كان عظيماً وساهم في رفع مكانتها في المخيلة الشعبية إلى مرتبة إلهة حقيقية. كانت ران تستقبل البحارة الغرقى بإجلال في قاعتها الكبرى وتقدم لهم لحم الأسماك، وقد أنجبت من ران تسع بنات أطلق عليهم الشعراء الإسكندنافيون أسماءً تدل على أنهن كنَّ تجسيداً للأمواج. وكن يسعين إلى إغواء البحارة الشباب فيبسطن أذرعتهن الرخصة إليهم من داخل البحر، وإذا لقين تجاوباً قمن بجرهم إلى الأعماق.

أما ميمير الحكيم الذي يتكرر ظهوره في الأساطير الإسكندنافية، والذي لم يكن أودين نفسه ليتردد في أخذ مشورته، فقد كان من عمالقة المياه أيضاً، ولكن أماكن سكنه لم تتعدد الينابيع والبحيرات الداخلية، وكان على صلة حميمة مع الآلهة إلى درجة أنه عد واحداً منهم أحياناً.

إن الاعتقاد بوجود الأقزام والعمالقة والعفاريت بشتى أنواعهم ظل سائداً في الأراضي الجرمانية لعدة قرون تلت دخول المسيحية، على ما ترويه لنا بعض الملاحم والأقاصيص الشعبية من القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وقد دام بعضها قائماً إلى يومنا هذا، وهنالك حقبة تقع بين القرن التاسع والقرن الثالث عشر، تمازجت خلالها الأساطير الوثنية والأساطير المسيحية في بعض الأحيان، ذلك أن أكثر من قبيلة جرمانية قد تقبلت الدين الجديد دون أن تتخلى عن

معتقداتها الموروثة، وكل ما فعلوه أن وضعوا ديانة فوق أخرى، ودون أن يربطهم ربما بأي منهما إيمان قوي.

وفي الواقع فإن الوثنية قد استغرقت قروناً عديدة قبل أن تتلاشى، ومع ذلك فإننا لا نستطيع الجزم بأنها تلاشت تماماً، فعلى الرغم من أن الآلهة قد باتت دون أتباع منذ زمن طويل، إلا أن بقية الأرواح التي اعتقد الناس بأنهم محاطون بها بقيت حية بشكل أو بآخر، وما زال الفلاحون يبتهلون إليهم ناشدين معونتهم أو إتقاء غضبهم أو يستخدمون أسماءهم في الطقوس السحرية الشعبية. وهكذا، فإنه ما زالوا يتبعون نوعاً من العبادات القديمة دون أن يلاحظوا ذلك.

E. Tonnelat[1]

(1) E. Tonnelat, Teutonic Mythology, in: Encyclopedia of Mythology.

مراجع للاستزادة

1- الديانة الإغريقية:

- Martin P. Nilson, Greek Folk Religion, 1972.
- W. K. C. Guthrie, The Greeks and their Gods, 1950 and 1985.
- Jane Ellen Harrison, Themis: A Study of the Social Origins of Greek Religion, 1927 and 1974.
- A. W. H. Adkins, Merit and Responsibility: A Study in Greek Values, 1960 and 1975.
- Jean Pierre Vernant, Myth and Thought Among the Greeks, 1983 (originaly published in French, 1965).
- Jean Pierre Vernant and Pierre Vidal-Naquet, Myth and Tragedy in Ancient Greece, 1988 (originaly published in French, 1972-1986).
- Robert Flacelière, Greek Oracles, 1976 (originaly published in French, 1961).
- Ivan M. Linforth, The Arts of Orpheus, 1941, 1973.
- George E. Mylonas, Eleuses and The Eleusinian Mystery, 1961-1974.
- Lewis Richard Farnal, The Cults of the Greek States, 5. Vol 1909-1969.
- A. B. Cook, Zeus, A Study in Anciant Religion, 3 Vol., 1964.
- Helmut Berve and Gottfried Gruben, Greek Temples, Theaters, and Shrines, 1963.

- F. Guirand, Greek Mythology, Hymlen, London, 1963.
- Michael Grant, The Mythes of the Greeks and Romans, London, 1962.
- H. J. Rose, A Handbook of Greek Mythology, London, 1973.
- John Pinsent, Greek Muthology, London, 1969.

2- الديانة الرومانية:

- R. M. Oglivie, The Romans and Their Gods in the Age of Augustus, 1969.
- H. J. Rose, Ancient Roman Religion, 1948.
- W. Warde Fowler, The Religion Experience of the Roman People, 1911-1971.
- Robert E. A. Palmer, Roman Religion and Roman Empire, 1974.
- Ramsay MacMullen, Paganism in the Roman Empire, 1981.
- Michael Grand, Roman Mythes, 1971-1984.
- Raymond Bloch, The Origins of Rome, 1960.
- W. Wagenvoort, Roman Dynamism, Studies in Ancient Roman Thought, Language, and Customs, 1947-1976.
- Agnes Kirsoop Michels, The Calender of the Roman Republic, 1967-1978.
- W. Warde Flowler, The Roman Festivals of the Period of the Republic, 1969.
- I. Scott Ryberg, Rites of the State Religion in Roman Art, 1955.
- Franz Cumont, The Oriental Religions in Roman Paganism, 1956.
- John Ferguson, The Religions of the Roman Empire, 1970-1985.
- Michael Grant amd Rachel Kitzinger, Civilization of the Ancient Mediteranian: Greece and Rome, 1988.
- F. Guirand and A. V. Pierre, Roman Mythology, in: Larousse Encyclopedia of Mythology, Haymlen, London, 1977.

3- الديانة التيوتونية:

- G. Dumèzil, Mythes et dieux des Germains, Paris, 1939.
- H. R. Ellis Davidson, The Sword in Anlgo-Saxon England, Oxford, 1962.
- H. R. Ellis Davidson, Gods and Mythes of Ancient Europe, Middesex, England, 1964.
- J. Grimm, Teutonic Mythology, translated Stallybras, 1988.
- H. R. Ellis Dasidson, The Road to Hell, Cambridge, 1943.
- J. Brosted, The Vikings, Penguin Book, 1964.
- Turville Petre, Myth and Religion of the North, 1964.
- Snorri Sturluson, Prose Edda, Translated by Brodeur, Oxford, 1916.
- N, Kershaw, Anglo-Saxon and Norse Poems, Cambridge University Press, 1922.
- C. E. Wright, The Cultivation of Saga in Anglo-Saxon Englang, 1950.
- N. K. Chadwick, Early Cultures of North-Western Europe, 1950.
- R. K. Gordon, Anglo-Saxon Poetry, Everyman Library, 1927.
- E. O. G. Turvill-Peter, Myth and Religion of the North, Weidnfeld and Nicolson, 1964.
- J. A. MacCulloch, Mythology of All Races, Vol. 2, Eddic Mythology, 1930.
- H. R. Ellis Davidson, Gods and Mythes of Northern Europe, Penguin, 1964.

الفهرس

صدر للمؤلف

1- **مغامرة العقل الأولى**: دراسة في الأسطورة ـ سورية وبلاد الرافدين ـ الطبعة الثانية والعشرين 2016.

2- **ملحمة جلجامش**: الطبعة الرابعة 1988.

3- **لغز عشتار**: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ـ الطبعة الخامسة عشر 2016.

4- **الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم**: هل جاءت التوراة من جزيرة العرب؟ الطبعة السادسة 2016.

5- **دين الإنسان**: بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني ـ الطبعة الثامنة 2016.

6- **جلجامش**: ملحمة الرافدين الخالدة ـ الطبعة السابعة 2016.

7- **الأسطورة والمعنى**: دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية ـ الطبعة السابعة 2016.

8- **آرام دمشق وإسرائيل**: في التاريخ والتاريخ التوراتي ـ الطبعة الخامسة 2016.

9- **كتاب التاو تي تشينغ**: إنجيل الحكمة التاوية في الصين ـ الطبعة الخامسة 2016.

10- **الرحمن والشيطان**: الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية ـ الطبعة السادسة 2016.

11- **تاريخ أورشليم**: والبحث عن مملكة اليهود ـ الطبعة الرابعة 2016.

12- **مدخل إلى نصوص الشرق القديم**: الطبعة الثالثة 2016.

13- **الوجه الآخر للمسيح**: موقف يسوع من اليهودية ـ مقدمة في الغنوصية المسيحية ـ الطبعة الثالثة 2016.

موسوعة تاريخ الأديان (تحرير ومساهمة) في خمسة مجلدات:

14- المجلد الأول: الشعوب البدائية والعصر الحجري.

15- المجلد الثاني: الشرق القديم.

16- المجلد الثالث: اليونان وأوروبا قبل المسيحية.

17- المجلد الرابع: الشرق الأقصى.

18- المجلد الخامس: الزرادشتية، المانوية، اليهودية، المسيحية، الطبعة الثالثة 2016.

19- **طريق إخوان الصفاء**: المدخل إلى الغنوصية الإسلامية ـ الطبعة الثالثة 2016.

20- **الإنجيل برواية القرآن**: الطبعة الثالثة 2016.

21- **ألغاز الإنجيل**: الطبعة الثانية 2016.

22- **أساطير الأولين**: القصص القرآني ومتوازياته التوراتية ـ الطبعة الثانية 2016.

23- **الله والكون والإنسان**: نظرات في تاريخ الأفكار الدينية ـ الطبعة الأولى 2016.

صدر له بالإنكليزية:

1-دراسة بعنوان:

Jerusalem in the Age of Judah Kingdom

نُشرت في كتاب من تحرير الباحث الأميركي توماس.ل. تومبسون شارك فيه عدد من المؤرخين والآثاريين وصدر عن دار T&T Clarkعام 2003 تحت عنوان:

Jerusalem in History and Tradition

2- دراسة بعنوان:

The Faithful Remnant and the Invention of Religious Identity

نُشرت في كتاب من تحرير الباحث البريطاني كيث.و. وايتلام شارك فيه عدد من الباحثين في تاريخ وآثار فلسطين وصدر عن جامعة Sheffield في بريطانيا عام 2013 تحت عنوان:

The politics of Israel's Past

منشورات دولية:

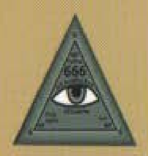
صدر له بالتعاون مع الباحث الصيني الدكتور شيوه تشينغ قوه كتاب بعنوان: لاو تسي، عن دارالنشر باللغات الأجنبية/بكين، وهو تطوير لكتابه السابق: كتاب التاو تي تشينغ.

يُصدر قريباً في بكين:

- كتاب المحاورات لكونفوشيوس، ترجمة عن الانكليزية ومراجعة على النص الصيني من قبل شيوه تشينغ قوه.

- كتاب منشيوس، ترجمة عن الانكليزية ومراجعة على النص الصيني من قبل شيوه تشينغ قوه.





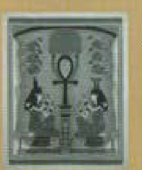












تقع موسوعتنا هذه في نقطة الوسط بين ما يشبه القواميس من المؤلفات التي صدرت في مجلد واحد، تُرجم بعضها إلى العربية، وبين الموسوعة المحيطة التي تقدم كل شيء تقريباً، ولدينا عنها حتى الآن نموذج واحد فقط، هو «موسوعة الأديان» التي صدرت عن دار ماكميلان عام 1987 في ستة عشر مجلداً ضخماً أشرف على تحريرها ميرسيا إلياد، وساهم في كتابة موادها لا عشرات الباحثين بل المئات منهم من كل أنحاء العالم. من هنا يمكن وصف موسوعتنا بالمختصرة لأنها لن تتوقف إلا عند المحطات المهمة في تاريخ الأديان. فالاختصار هنا لا يعني الاقتضاب وإنما الاقتصار. ولقد عمدت إلى جمع مواد الموسوعة من عدد متنوع من المراجع الموسوعية والمتخصصة، متبعاً في اختيار كل مادة معيار المستوى العلمي وبساطة التناول وحسن التوصيل، مع التضحية أحياناً بهذا الجانب على حساب الآخر، لأن الموسوعة موجهة إلى أوسع شريحة ممكنة من القرّاء، قد تتفاوت عناصرها من طلاب وأساتذة الدراسات العليا إلى القارئ العادي غير المتخصص والراغب في الاطلاع. ولا شك في أن إرضاء كل الفئات أمر يصعب بلوغه ولكن يمكن مقاربته. قد يجد القارئ غير المتخصص في بعض الموضوعات صعوبة، وقد يجد المتخصص في بعضها الآخر تبسيطاً.

مع تعدد المساهمين في مواد الموسوعة، حرصت أيضاً على تعدد المترجمين الذين عهدت إليهم بالمادة كل حسب ميله وخلفيته ومزاجه، وقدمت إليهم ما أستطيع من مشورة وتعاون خلاق لجعل موسوعتنا ثمرة تعاضد جمهرة من الباحثين الكبار، والمترجمين الأكفاء الذين عملوا معي بداعي المسؤولية العلمية والرغبة في رؤية هذا العمل مطبوعاً ومنتشراً على أوسع نطاق.


ISBN 978-9933-579-26-5
9 789933 579265